أنور الجندي

اليقظة الإسلامية

في مواجهة التغريب

دار الاعتصام





مقدمة

يعنى هذا البحث بدراسة حركة اليقظة العربية الإسلامية فترة ما بين الحربين (١٩٢٠ ـ ١٩٤٠) . ولما كانت هذه المرحلة إنما تمثل حلقة من حلقات الفكر الإسلامى كله منذ فجر الإسلام . وكانت حركة اليقظة فى العصر الحديث قد بدأت فى منتصف القرن الثالث عشر الهجرى (عام ١٢٥٦ م تقريباً) فإن الأمر يقتضى تقديم عرض سريع شامل للمعطيات التى قدمتها المرحلة السابقة حتى أوائل الحرب الأولى[1] ، حتى يمكن استعراض هذه المرحلة الدقيقة التى حفلت بالتحديات والأخطار والتى واجهتها حركة اليقظة فى دقة وحسم واستطاعت أن تكشف زيفها وأن ترد عاديتها وخطرها ، وأن تكسب إلى صفها بعض خصومها .

(أولا) لاشك أن حركة اليقظة العربية الإسلامية الطابع التى بدأت فى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى (الثانى عشر الهجرى) إيذانا بموجة جديدة من موجات الانبعاث والتجدد ، بعد مرحلة طويلة من الضعف والتخلف ، إنما هى امتداد طبيعى للفكر الإسلامى والثقافة العربية فى تاريخها الطويل منذ فجر الإسلام غير منفصلة عنه ، ونتيجة لهذا ، فقد استطاعت هذه الحركة أن تؤكد وجودها وأن تعمق جذورها على نحو سريع وخصب فى نفس الوقت ، كما استطاعت أن تعمل فى ميادين مختلفة مارة

(١) راجع كتابنا (يقظة الفكر العربى فى مواجهة الاستعمار) .

بمراحل متعددة من خلال : الدعوة الإسلامية والحركة السياسية والعمل الوطنى جميعاً .

وقد استطاعت فى مراحلها الممتدة بين الإمام محمد عبد الوهاب ورفاعة الطهطاوى وخير الدين التونسى والسنوسى والمهدى والكواكبى ومحمد عبده ومدرستى العروة والمنار وحركات السلفية فى الشام والمغرب أن تحقق نتائج ضخمة كانت بعيدة الأثر .

(ثانياً) أن هذه المرحلة بالذات قد وصفت بأنها مرحلة أجنبية خالصة سيطر فيها الفكر الغربى بحملة نابليون وما تلاها من دعوات سان سيمون وأصحاب المقتطف والمقطم وشبلى شميل وكرومر ودنلوب وصروف ونمر وجرجى زيدان وفرح أنطون وسليم سركيس ولطفى السيد وسعد زغلول .

والواقع أن هذه المدارس جميعاً هى مدرسة واحدة ، وهى ليست أصيلة بل دخيلة ، وأنها جاءت باسم النفوذ الأجنبى لتعمل من خلال حركة اليقظة التى كانت قد استحصدت وبنت مقوماتها وأسسها فى الإحياء والبحث والتجديد وفتح أبواب الاجتهاد والعمل فى مختلف ميادين العقيدة والأدب والتاريخ والتراث .

هذه المدرسة التى أطلق عليها إسم : (الدائرة الصماء) ، هى التى التمست طريقها إلى تمزيق جبهة حركة اليقظة عن طريقين (١) عن طريق السوريين الوافدين من مدارس الإرساليات فى بيروت للتصدر وقيادة حركة الصحافة (٢) عن طريق المصريين الذين كانوا أولياء لمخططات كرومر التى أذاعها فى تقاريره السنوية وقد اعتمد هؤلاء من أمثال سعد زغلول ولطفى السيد على « نقطة » خطيرة هى أنهم كانوا تلاميذ جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده .

وليكن هذا صحيحاً إلى حد ما ، ولكن الواقع أنهم من أتباع فلسفة المنفعة الأوربية التى دعا كرومر إليها المثقفين ليكونوا نماذج صالحة لتولى السلطة

فى بلادهم وفق مفاهيم : الاستعمار ، والتغريب ، والليبرالية العلمانية .

(ثالثاً) يمكن القول بأن مدرسة اليقظة قد تشكلت فى خلال هذه الفترة (١٨٣٠ ـ ١٩١٨ تقريبا) : رفاعة رافع الطهطاوى ، خير الدين التونسى ، محمد على السنوسى ، الألوسى الكبير ، جمال الدين الأفغانى ، محمد عبده ، عبد الرحمن الكواكبى ، على يوسف ، عبد الرحمن البرقوقى ، رشيد رضا جمال الدين القاسمى ، عبد الرازق البيطار ، طاهر الجزائرى ، حسين الجسر ، الطاهر بن عاشور ، رشيد رضا ، فريد وجدى ، عبد العزيز جاويش ، توفيق البكرى ، مصطفى الغلاييني ، حفنى ناصف ، أحمد الإسكندرى ، المنفلوطى ، أحمد كمال باشا ، عبد الحميد الزاهراوى وقد تصدى هؤلاء الرواد ، إلى أعمال أصحاب الدائرة المغلقة : الغربية التغريبية وناقشوا شبهاتهم ، ودحضوا اتهاماتهم ، ومزقوا دعاواهم شر ممزق ، وعملوا فى مختلف ميادين اليقظة[1] :

(رابعاً) عمدت مدرسة التغريب إلى إثارة مختلف الشبهات :

١ ـ الفلسفة المادية : قادها شبلى شميل .

٢ ـ الدعوة إلى العامية قادها ولكوكس ولطفى السيد .

٣ ـ الصحافة الغربية وتولاها أصحاب الأهرام والمقطم والهلال والمقتطف .

٤ ـ الإقليمية الضيقة : دعا إليها لطفى السيد .

٥ ـ ثنائية التعليم : دعا إليها سعد زغلول ولطفى السيد .

٦ ـ تحريف تاريخ الإسلام وإثارة الشبهات : جرجى زيدان .

٧ ـ إثارة الشبهات حول حرية الفكر فى الإسلام : فرح أنطون .

---

(١) راجع تراجم هؤلاء الأعلام فى كتابنا : أعلام وأصحاب أعلام و « تراجم الأعلام المعاصرين فى العالم الإسلامى .

٨ - مهاجمة الإسلام من خلال الدولة العثمانية : كرومر وفارس نمر وسليم سركيس وصروف ولطفى السيد .

٩ - تفريغ التعليم من قيم العروبة والإسلام : دنلوب ولطفى السيد وسعد زغلول .

١٠ - تمزيق الرابطة بين العروبة والإسلام .

وقد واجه هذه الدعوات : محمد عبده ، وفريد وجدى ، ومصطفى الغلايينى ، وعلى يوسف ، وعبد الرحمن الكواكبى ، ورشيد رضا ، وجمال الدين القاسمى ، وعبد العزيز جاويش ، وأحمد السكندرى .

ومما يذكر على وجه الإجمال أن جميع العاملين فى مدرسة التغريب لم يكونوا صادقى الولاء الوطنى لأمتهم وقد عرف عن شميل وصروف ونمر وغيرهم أنهم كانوا تابعين للسفارة البريطانية ولهم آثار تشهد بتأييدهم للاستعمار وبقاء الاحتلال وأن بعضهم الآخر كان يعمل من خلال دعوات أخرى أهمها :

(١) حركة التبشير (٢) حركة الاستشراق (٣) الحركة الماسونية .
(٤) الحركة الفرعونية (٥) الإرساليات .

وكانت هذه الحركات تعمل خلال هذه الفترة فى تستر وخفاء ، ثم كشفت عن وجهها فى المرحلة التالية بعد أن ثبتت قواعدها فى هذه المرحلة .

وقد انتفعت حركات التبشير بما تحقق عام ١٩٠٨ من قيام الاتحاديين على الحكم فى الدولة العثمانية وسقوط السلطان عبد الحميد ، فقد وسع لهم آفاق العمل ، وتشهد تقاريرهم بأنهم عملوا فى جميع الأقطار العربية التى كانت تابعة للدولة العثمانية[1] .

وكانت الحركة الماسونية قد سيطرت على العالم العربى من خلال مدينة سالونيك على حدود تركيا ، ومنها امتدت فسيطرت على الجماعات والهيئات

---

(١) راجع كتابنا (مخططات التبشير فى غزو الفكر الإسلامى والثقافة العربية) .

السياسية وفى مقدمتها حزب الاتحاد والترقى ، وظهر أثرها واضحا فى إسقاطها للسلطان عبد الحميد الذى رفض معاونة اليهود فى اقتطاع بعض أجزاء من فلسطين .

وكانت الحركة الصهيونية قد بدأت عملها عام ١٨٩٧ (وهو نفس العام الذى توفى فيه جمال الدين الأفغانى) حيث عقدت أول مؤتمراتها فى بال وقررت إقامة الدولة اليهودية ، ثم اختارت فلسطين من بعد وسعت سعيها لدى الدولة العثمانية ووقف السلطان عبد الحميد أشرف موقف فى معارضتها بالرغم من عوامل الإغراء البالغة التى حاولت الصهيونية العالمية أن تقدمها له[1] .

وكان نفوذ الإرساليات الأجنبية فى مصر وبيروت قد اتسع (عن طريق الجامعات الأمريكية والفرنسية فى بيروت والكليات التى أنشئت فى أسيوط والقاهرة) وعن طريقها رسم مخطط الحرب التربوية والتعليمية للفكر الإسلامى واللغة العربية ، بالتخطيط والتنسيق مع حركة التبشير التى كانت هى بمثابة أداة التوزيع وحركة الاستشراق التى كانت بمثابة مصنع الشبهات . وكان لسيطرة الاستعمار البريطانى والفرنسى على العالم أثره الواضح فى تركيز أساسيات فى مقدمتها (١) سيطرة القوانين الأوربية وإحلالها محل الشريعة الإسلامية (٢) الدعوة إلى العامية والإقليمية الضيقة (٣) الدعوة إلى فصل الإسلام عن المجتمع والثقافة (٤) تجميد الأزهر (٥) فرض ثنائية التعليم .

(خامسا) دارت فى هذه الفترة بعض المعارك التى كانت بمثابة التمهيد للخطوات المقبلة ، ففى العراق هاجم الزهاوى اللغة العربية الفصحى ، وفى مصر هاجم فرح أنطون حرية الفكر فى الإسلام ، كما قامت الحملة على إحياء التراث العربى ، ولم تكن دعوة قاسم أمين إلى تحرير المرأة خالصة حرة ، وإنما جاءت من خلال مخططات نسقها كرومر مع صالون نازلى هانم فاضل وسعد زغلول وغيرهم .

وفى باريس كانت أول أطروحة للدكتوراه ، تلك التى قدمها منصور فهمى

---

(١) راجع كتابنا (العالم الإسلامى والاستعمار السياسى والاجتماعى والثقافى) .

أول ثمرة للتغريب فقد هاجم فيها تحت تأثير أستاذه اليهودى (ليفى بريل) نظام الزواج فى الإسلام ، كما هاجم طه حسين فى رسالته عن (ابن خلدون) الفكر الإسلامى وهذا العلامة الذى وصفه الغربيون أنفسهم بأنه مؤسس علمى الاجتماع والتاريخ وكان ذلك مجاراة لآراء أستاذه (دور كايم) .

ثم جاءت بعد ذلك الرسائل التى تحمل السموم تترى .

ذلك أن كل النظريات والقضايا التى أثيرت فى هذه المرحلة قد بدت بصورة أوضح فى مرحلة ما بين الحربين ، وأن كل الشبهات التى رددها المستشرقون والمبشرون ، بصوت خافت ، عادت وتجددت وترددت بأصوات عالية مرتفعة وبأقلام عربية فى كتابات طه حسين وسلامة موسى ومحمود عزمى وأحمد أمين وعلى عبد الرازق ، وهى نفسها الشبهات التى رددها فى هذه المرحلة لطفى السيد وشبلى شميل وفرح أنطون ولويس شيخو وجرجى زيدان .

(سادساً) ركزت مخططات الاستعمار فى هذه الفترة على السيطرة الكاملة على العالم العربى بعد الحرب الأولى (وكانت مصر والجزائر وتونس والسودان) هى التى سقطت تحت نفوذ الإحتلال فى هذه الفترة .

ثم سقطت باقى أجزاء العالم العربى بعد الحرب الأولى وهزيمة الدولة العثمانية .

ويبدو هذا الاتجاه واضحاً فى المخطط الذى رسمه مؤتمر ١٩٠٧ المعروف بنظرية كامبل بترمان الذى قرر ، أن المنطقة الحيوية بالنسبة للاستعمار هى حوض البحر الأبيض المتوسط كشريان حيوى لمواصلات الإمبراطوريات الاستعمارية ، وإن شعوب القارة الهندية لا تشكل خطراً على الإمبراطوريات والاستعمار حتى بعد حصولها على الاستقلال ، لأن الخلافات الطائفية والدينية بينها لا تجعلها قوة ذات خطر ، كما أن شعوب أفريقيا حتى بعد حصولها على الاستقلال لن تشكل مثل هذا الخطر نتيجة الخلافات القبلية فيما بينها ، لأنها ستظل مرتبطة اقتصاديا وثقافياً بالدول الاستعمارية ، وإن الخطر الحقيقى الذى يهدد الامبراطوريات الاستعمارية يكمن فى الشعب الذى

يقطن الشواطىء الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط لأن لدى هذا الشعب صفات تميزه عن باقى الشعوب من حيث تجمعه عوامل قومية واحدة ، كما أن له حضارة قديمة استطاعت أن تلعب دوراً كبيراً فى تطور الحضارات الإنسانية وإن وحدة هذا الشعب فى حركة قومية واحدة يعتبر تهديداً خطيراً لمصالح الإمبراطوريات الاستعمارية خصوصاً وإن هذا الشعب يسيطر على منطقة حساسة من مناطق العالم وهى منطقة الشرق الأوسط التى تعتبر الطريق المؤدى إلى المستعمرات فى آسيا والشرق الأقصى وأنه من الضرورى الإبقاء على هذا الشعب فى حالة تفتت إتقاء خطره » . أ . هـ .

فإذا أضفنا إلى هذا النص وما يوحى به ما ردده « رئيس وزراء بريطانيا » حين حمل المصحف ووقف فوق منبر مجلس العموم البريطانى وقال : « أنه مادام هذا الكتاب باقياً فى الأرض فلن نستطيع أن نحكم المصريين ، وقال المسلمين » نعرف إلى أى حد كان عمق مخطط الاستعمار عن طريق الغزو الثقافى أو من هنا كان تركيز النفوذ الاستعمارى على الأمة العربية أقوى منه على مختلف أنحاء العالم الإسلامى ، وتركيزه على مصر أكبر من تركيزه على الأمة العربية ، حيث استخدمت القاهرة من بعد مصدراً للغزو الثقافى عن طريق صحفها وكتابات دعاة التغريب فيها .

وكان التغريب هو أول ما عمل له الاستعمار عن طريق التبشير والتعليم والصحافة . ومن هنا كان تمزيق الوحدة بين العرب والترك من أهم الأعمال السياسية التى عمل لها الاستعمار والصهيونية والتبشير جميعاً ، وقد نجح هذا المخطط بإسقاط السلطان عبد الحميد وتولى « الاتحاديين » الحكم فى الدولة العثمانية ، ويحمل التاريخ الاتحاديين مسئولية خطيرة فى تمزيق الوحدة العربية الإسلامية الجامعة فهم فى خلال الفترة من ١٩٠٨ إلى ١٩١٨ ، كانوا قد حققوا أهداف الاستعمار كاملة وأقاموا بين العرب والترك بحراً من الدم أعلى شأن الخلاف ، وأعلى دعوات القوميات التى أخذت طابع الإقليمية والتعصب .

وفى نفس الوقت كانت دعوة لطفى السيد منذ عام ١٩٠٧ عن طريق (الجريدة) وحزب الأمة ، وسعد زغلول عن طريق (نظارة المعارف) من أكبر العوامل فى عزل مصر عن الأمة العربية والوحدة الإسلامية والفكر الإسلامى جميعاً وفى نفس الوقت عمدت إنجلترا إلى القضاء على الحركة الوطنية التى قادها مصطفى كامل ومحمد فريد فقد كان لها طابع عربى إسلامى أصيل مرتبط بالقيم الأساسية ، فما جاء عام ١٩١٤ حتى كان الوطنيون جميعاً

قد هاجروا خارج مصر وفى مقدمتهم محمد فريد وعبد العزيز جاويش ، وكان هذا تمهيداً لحزب الأمة ورجاله وإعداداً لتولية سعد زغلول ولطفى السيد قيادة الحركتين الوطنية والفكرية بعد الحرب .

(سابعاً) : كان لظهور الاتحاديين فى تركيا أثر واضح فى مصر وفى مجال الفكر والثقافة ، ويرجع السيد رشيد رضا الانحراف الذى عرف به جرجى زيدان فى كتاباته عن تاريخ الإسلام إلى هذه الفترة (فقد زار الاستانة ولقى فيها بعض زعماء جمعية الاتحاد والترقى ثم عاد مشبعا بالنهضة التركية ، مستنكرا مجاراة العرب لإخوانهم الأتراك مستصوبا خطة الاتحاديين الأولى من تتريك العناصر ، وإدغام العرب فى الترك وقد كتب فى الهلال ما يشعر بهذه النزعة فهاج ما كتبه جماعات فتيان العرب فى سوريا والاستانة ، أما النزعة التى سبقت هذه النزعة فهى مطاعنه فى العرب التى أودعها كتابه التمدن الإسلامى ، وقد فطن لها أخيراً من لم يكن يحفل بها وزادهم التفاتا أن ترجمت جريدة (أقدام) التركية لتاريخ التمدن الإسلامى ونشره فيها بالتتابع وقد انبرى للرد عليهم الشيخ شبلى النعمانى[1] .

ووفق هذا المخطط جرى العمل فى دائرة (التغريب الصماء) : كان الدكتور شبلى شميل يدعو إلى العلمانية ويهاجم قيم الأديان والأخلاق ثم يولى « إنجلترا » الولاء كله ، ويعلن فى صراحة تبعيته لها ، فينسف بذلك كل ما دعا إليه من حرية . وكان أصحاب المقطم والهلال على نفس الولاء للاستعمار والماسونية وقد كتب جرجى زيدان كتاباً عن الماسونية كما ألف عنها ثالث أصحاب المقطم (مكاريوس) وأصدر مجلة (اللطائف) لساناً لها ، كما صدرت صحف أخرى وبرز أمثال (إدريس راغب) و (فارس نمر) من أكبر دعاة محفل الشرق .

(ثامناً) ودارت فى هذه الفترة معارك كثيرة . أعلن سعد زغلول وزير المعارف أنه يؤيد التعليم باللغة الإنجليزية فى المدارس ، وهاجمه عبد العزيز جاويش وعلى يوسف ، وفى مجال السياسة حمل سعد زغلول لواء الدعوة إلى مد امتياز قناة السويس ، وهاجمه محمد فريد وعلى يوسف وعشرات من الكتاب .

---

(١) م ١٧ — المنار : راجع كتابنا الإسلام والثقافة العربية .

ودعا لطفى السيد إلى العامية ، وهاجمه مصطفى صادق الرافعى والبرقوقى صاحب البيان ، ودعا شبلى شميل إلى المادية ، وهاجمه فريد وجدى ورشيد رضا ، وكتب لورد كرومر كتابه (مصر الحديثة) وهاجم القيم الإسلامية والعربية ، وتصدى له فريد وجدى ومصطفى الغلايينى وعلى يوسف وعبد العزيز جاويش ، وهاجم جمال الدين الأفغانى (الدهرية) وشجب خطرها وشبهاتها ، ورد محمد عبده على الشبهات التى أثارها فرح أنطون حول حرية الفكر فى الإسلام فى مقالات جمعت باسم (الإسلام والنصرانية بين الدين والمدنية) وهاجم دوق داركور مصر والمصريين ، ورد عليه قاسم أمين ، وهاجم هانوتو الإسلام والمسلمين ورد عليه محمد عبده ، وحين دعا قاسم أمين إلى تحرير المرأة ظهرت تحفظات فريد وجدى وطلعت حرب .

وانكشف المخادعون أمثال أديب إسحق ، وسليم عنحورى وكانوا أولياء لجمال الدين فلما جاء الاحتلال البريطانى والوه وعملوا معه .

(تاسعا) وكذبت الوقائع والوثائق الصحيحة ادعاءات كثيرة منها : أن الثورة الفرنسية هى التى أيقظت الفكر العربى ، وأن الحملة الفرنسية هى التى أيقظت الشرق العربى وأن جامعات الإرساليات التبشيرية هى التى نشرت العلوم والثقافات ، وأن المارون الشوام هم الذين صنعوا الثقافة والصحافة ، وتبين من بعد أن يقظة الفكر العربى بدأت من أعماقه قبل الثورة الفرنسية والحملة الفرنسية بأكثر من أربعين عاما ، وأن هذه الإرساليات لم تنفث إلا سموم التغريب والشعوبية ، وأن آثار خريجيها ما تزال قائمة ومعروضة للحكم عليها وأنها لم تكن تعمل لخير العرب ، وإنما كانت تهدف إلى تعميق النفوذ الأجنبى الوافد عن طريق التشكيك فى القيم الأساسية للأمة العربية ، وأنها كانت تعمل على إلقاء العملة الزائفة فى السوق ، وإعطاء البريق الخاطف والصدى المدوى .

وقد تبين أن الفكر الإسلامى على عهده وقدرته - حتى فى أشد أوقات الضعف - قادر على أن يأخذ حاجته من الفكر البشرى ثم يرد الباقى من ذلك السيل المنهمر الذى يقدم إليه ، وهو لا يأخذ إلا ما ينفعه وما يزيده قوة .

(عاشراً) استطاعت حركة اليقظة أن تحقق نتائج هامة وأن تصحح

حقائق كثيرة ، فالمفاهيم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية التى طالعها رفاعة رافع الطهطاوى وخير الدين التونسى فى أوروبا إنما كانت مستمدة من الفكر الإسلامى ، فمن ابن خلدون استمد الأوروبيون قواعد علم الاجتماع ، ومن الفقه المالكى فى المغرب استمد الغربيون القانون الفرنسى ، أما نظريات التربية فقد استمدوها من ابن سينا والغزالى والعبدرى .

(حادى عشر) : منذ عام ١٨٦٠ بدأت حركة التغريب تعمل فى لبنان عن طريق الإرساليات ومنها امتدت إلى مصر فى ظل الخديو إسماعيل ، كان هدف الحركة الأول تمزيق الروابط السياسية والثقافية والاجتماعية بين العرب والترك ، ثم بين المصريين والسوريين والعراقيين والسودانيين والمغاربة ، وذلك بتأجيج روح الخلاف بينها بإثارة الدعوات القديمة المستمدة من الفرعونية والأشورية والبابلية والفينيقية والبربرية ، وكذلك إثارة الدعوة الطورانية والقومية التركية وكانت الإرساليات الفرنسية والأمريكية فى بيروت تمهد للسيطرة الفكرية الكاملة على الثقافة العربية والسيطرة السياسية عن طريق خريجيها ، وكان الهدف هو تثبيت القيم الغربية والمفاهيم الغربية والقضاء على المفاهيم العربية والإسلامية بدعوى تأخرها وتخلفها وارتباطها بالدين - أى الإسلام .

وقد حمل التغريب على الوحدة العضوية بين جامعة اللغة وجامعة الفكر ، واعتبر الإسلام ديناً ، وتنكر له باعتباره منهج حياة جامعاً ، وهنا تبدو محاولة إلقاء ظل المفاهيم الغربية على الفكر الإسلامى وتحكمها فى مقدراته .

وقد ركزت حركة التغريب على الشام لتمزيق الوحدة العربية العثمانية ، وكان للموارنة دورهم البارز باعتبارهم أداة الاستعمار ، وقد تم ذلك على مرحلتين : مرحلة زحزحة عبد الحميد والقضاء على دعوة الجامعة الإسلامية التى كان يحمل لواءها والتى كانت تشكل خطراً لاشك فيه للنفوذ الاستعمارى الزاحف .

وقد شارك الاستعمار والصهيونية معاً فى القضاء على نفوذ السلطان .

وفى المرحلة التالية كان حكام الدولة العثمانية هم « الدونمة الاتحاديون » وهم الذين كون التغريب فكرهم على نحو الولاء للغرب والمعاداة للإسلام

والعرب وفق ما تنفذه الإرساليات التبشيرية . وفى هذه المرحلة كان الضغط أشد ، فقد حطم الاتحاديون آخر الروابط مع العرب بالقتل والشنق ، فأذكوا أوار الخلاف وحالوا بين العودة إلى لقاء .

وكان دور الاتحاديين واضحاً فى خصومة العرب وفى موالاة الاستعمار وفى العمل لإنهاء وجود الدولة العثمانية خلال فترة حكمهم من عام ١٩٠٨ إلى ١٩١٨ .

وهكذا تحقق للاستعمار أمران : تمزيق الرابطة الإسلامية الجامعة (العربية التركية) والقضاء على الدولة العثمانية التى هزمت فى الحرب العالمية الأولى وسيطر الاستعمار على الأجزاء العربية التابعة لها .

(ثانى عشر) : إن دور الأزهر فى هذه المرحلة دور هام وخطير ، فهو البؤرة الأولى للثقافة واليقظة والثورة الوطنية ، وإن جميع الرواد والقادة والمفكرين بدأوا منه وانطلقوا فى رحابه وفى مقدمتهم : على يوسف والمنفلوطى والقاياتى والبرقوقى ومحمد عبده وسعد زغلول ومحمد المهدى وحفنى ناصف وحمزة فتح الله ومحمد الخضرى وعبد الله نديم والمويلحى وعبد الوهاب النجار ، وقد سهر الأزهر على حماية اللغة العربية وعلوم الإسلام فى هذه الفترة ومن قبلها ، وبث جمع من العلماء والمثقفين فى سائر الأمم العربية الإسلامية ، وله أكبر الفضل فى مقاومة تيارات التغريب والإلحاد والتجزئة .

* * *

هذه على الإجمال هى الحقائق التى كشفت عنها دراسة حركة اليقظة فى هذه المرحلة[1] التى امتدت سبعين ومائة من الأعوام ، وذلك منذ بدأ فجرها حتى نهاية الحرب العالمية الأولى (١٧٥٠ - ١٩٢٠) ولاريب كان لهذه النتائج التى حققتها حركة اليقظة خلال هذه المرحلة : أثرها البعيد والعميق على المرحلة التالية ، مرحلة ما بين الحربين ، وهى المرحلة الحاسمة والدقيقة فى حركة اليقظة فى صدامها الضخم مع مؤسسات التغريب والغزو الثقافى على النحو الذى تفصله هذه الدراسة .

---

(١) راجع كتابنا (اليقظة فى مواجهة الاستعمار) .



الفصل الأول

مدخل تاريخي سياسي

- ١ -

تعد هذه المرحلة : (مرحلة ما بين الحربين) من أخطر المراحل في تاريخ الأمة العربية والعالم الإسلامى ، حيث تمت فيها السيطرة على مختلف أجزاء الأمة العربية ، بعد أن أزيلت الإمبراطورية العثمانية وقضي على تلك الرابطة التى قامت بين الأتراك والعرب واستمرت أربعة قرون كاملة (١٥١٧ ـــ ١٩١٧) وتحقق للنفوذ الغربى أن يضع يده على هذه المنطقة جميعا بعد أن طوقها منذ القرن الخامس الميلادى ، وكانت الدولة العثمانية خلال معركة التطويق هى القوة الصامدة الوحيدة فى مواجهة مخططات السيطرة ، ومن ثم فقد سقطت الأمة العربية جميعا عام ١٩١٨ تحت النفوذ الغربى ، استعماراً عسكريا (بالاحتلال) وسياسيا (بالمعاهدات) وثقافيا (بالتغريب) وهكذا يعد عام ١٩١٨ نهاية مرحلة وبدء مرحلة .

نهاية مرحلة الاستعمار وبدء مرحلة التغريب والغزو الثقافى فى طريق تحويل الأمة العربية والثقافة العربية والفكر الإسلامى عن قيمه ومفاهيمه وإخضاعه للفكر الغربى والعمل على احتوائه وتذويبه فى الأممية والعالمية وإخراجه عن مقوماته الأساسية وطابقه الذاتى .

وهى خطة بدأ النفوذ الغربى تنفيذها فى مرحلة الاستعمار[1] حتى ليصبح القول بأن الحملة الفرنسية هى علامة بدء النفوذ والغزو العسكرى ومقدمة الاحتلال الغربى ، بعد أن اكتملت مرحلة التطويق التى بدأها

---

(١) الحرب العالمية الأولى توقفت ١٩١٨ والحرب العالمية الثانية بدأت ١٩٣٩ .

الغرب للعالم الإسلامى فى أوائل القرن السادس عشر .

ويصح القول أيضا : بأن استكمال السيطرة البريطانية والفرنسية على الأمة العربية وإسقاط الدولة العثمانية هو استهلال مرحلة الغزو الفكرى أو مقدمات تغريب الثقافة العربية والفكر الإسلامى .

* * *

ولقد قاومت حركة اليقظة خلال مرحلة الاستعمار هذا التحدى مقاومة فعالة ، وواجهت خطوات الغزو الأولى ، واستطاعت أن تضيق دائرة النفوذ الغربى المتمثلة فى حركة الشاميين الموارنة ومدرسة لطفى السيد وسعد زغلول .

ويمكن القول أن ثورة ١٩١٩ والنهضة التى تلتها على الصعيد السياسى والاجتماعى والفكرى ، إنما كانت إحدى ثمار اليقظة ، متمثلة فى قيادة الحزب الوطنى ومدرسة محمد عبده وما اتصل بهما من جهود المفكرين والأعلام والباحثين الذين كانوا يربطون الحركة الوطنية السياسية بأصول الفكر الإسلامى العربى ، لا تنحرف عنه ولا تنفصل ، وحيث كان دعاة التغريب والانفصال من مثل رجال حزب الأمة وفى مقدمتهم لطفى السيد وسعد زغلول وعبد العزيز فهمى لا يجدون من يؤيد فكرتهم أو يرتضيها إلا من تابعهم من الحريصين على تسنم القيادة السياسية(١) .

وأن مقارنة يسيرة بين عمل هؤلاء الذين تسنموا هذه القيادة بعد الحرب العالمية وبين تضحيات محمد فريد وأصحابه تكفى لكشف وجه الحق ، وتبين الفارق البعيد بين العمل للمثل الأعلى والكفاح للوطنية الصادقة وبين دعوة المبطلين أولياء النفوذ الاستعمارى ، وقد أقر سعد زغلول بذلك راغما حين قال عام ١٩٢٣ :

« لست خالق هذه النهضة — لا أقول هذا ولا أدعيه — بل لا أتصوره ، وإنما نهضتكم قديمة وللحركة العرابية فضل فيها وكذلك للسيد

---

(١) راجع (يقظة الفكر العربى) : اليقظة فى مواجهة الاستعمار .

جمال الأفغانى وتلاميذه أثر كبير ، وللمرحوم مصطفى كامل فضل غزير أيضا ، وكذلك المرحوم محمد فريد » .

وما كان له أن يقول غير هذا ، ولو قال غيره لكذبه التاريخ .

غير أن الواقع يشهد أن النفوذ الاستعمارى قد صفى القوى الوطنية السياسية قبل الحرب العالمية الأولى بالنفى والسجن وغيرهما ، وبذلك مهد الطريق لمدرسة حزب الأمة لتولي القيادة السياسية والفكرية بعد الحرب ، وحق لنا أن نقول : أن القوى التى تعد نفسها لتسلم السلطة السياسية قبل الحرب العالمية الأولى وثورة ١٩١٩ هى التى تولت هذه السلطة من بعد .

فلقد أعطى الاحتلال البريطانى لأتباع مدرسة كرومر بعد الحرب العالمية الأولى قيادة الأمور فمضوا على الطريق الذى رسم لهم : بناء نظام سياسى غربى مطابق للأنظمة (الليبرالية) دون تقدير لصلاحية هذه الأنظمة للأمة أو فسادها .

ولم يكد يمضى بهم خطوات حتى ظهر أن الأمر لم يكن أكثر من غلاف ظاهرى ، فدستور (٢٣) ثوب فضفاض كما قال عنه أحد واضعيه : عبد العزيز فهمى .

ولم يستطع الدستور أن يحمى النظام البرلمانى القائم على الاستفتاء ، بل كان من حق الاحتلال إسقاط الوزارات وتولية وزارات أخرى من غير استفتاء شرعى .

ولقد كان الدستور غريبا ، فكراً وعملا ، وكان أعضاء لجنة الدستور بعيدين عن الروح الوطنية والروح العربية الإسلامية أيضا ، وكانوا فى الأغلب من تلاميذ حزب الأمة ، وقد قامت الانتخابات على الزيف ، وتشكلت البرلمانات على النحو الذى يحقق رغبات الاحتلال مرتبطا مع القصر ، بعيداً عن تطلعات الأمة إلى تحقيق العدل الاجتماعى أو تحرير البلاد من نفوذ الاستعمار السياسى والاجتماعى والفكرى .

* * *

كانت فترة الاحتلال من خلال المنهج الذى رسمه كرومر قد نمت هذه الطبقة وأعدتها للتحرك من خلال مفهوم الاستعمار : سياسيا وثقافيا .

وكان كرومر قد رسم المخطط الذى يعد على أساسه : « المصرى المتفرنج » الذى سيتسلم حكم بلده ، وقد وضع هذا المخطط موضع التنفيذ بمجرد وقوع ثورة ١٩١٩ ، وأعلى من قدر هذه الفئة التى تجمعت فى أواخر الحرب العالمية وشكلت الوفد وذلك باعتقالها ونفيها من البلاد وذلك خلقا لطابع البطولة لها والارتباط بها ، ثم بدا كيف أن هذه الجماعة قد انقسمت على نفسها ، حيث أخذ سعد زغلول وبعض مؤيديه جانبا وتسمى هو باسم الوفد صاحب الأغلبية ، وشكل المنقسمون عليه حزبا آخر : هو حزب الأحرار الدستوريين ، وقد كان واضحاً أن حزب الوفد هو حزب الأغلبية الشعبية الوطنية الذى تجمعت فيه الأمة ، بديلا للحزب الوطنى ، ولكن على غير طريقته ، فقد كان سعد زغلول من خارج نطاق حركة اليقظة ، وأن اتصل بالشيخ محمد عبده ، ذلك أنه كان من داخل الدائرة الضيقة الجديدة التى صنعها الاستعمار فى حزب الأمة منذ عام ١٩٠٧ حتى هيأها للزعامة بعد الحرب ، وكان سعد قد أعد إعداداً خاصا ؛ هو وزميله لطفى السيد ، فألقى إلى أولهما مقاليد (نظارة المعارف) وألقى إلي ثانيهما مقاليد الثقافة العامة تحت لواء (الجريدة) .

ثم تحول الموقف من بعد ، فولى لطفى السيد شئون الجامعة المصرية منذ تسلمتها الحكومة عام ١٩١٦ حتى عام ١٩٤١ تقريبا ، بينما تصدر سعد زغلول الحركة الوطنية والزعامة الشعبية . ومن ثم أصبحت الزعامة الشعبية كلها دائرة فى فلك مفاهيم كرومر التى تبناها حزب الأمة ، وإن اختلف سعد والأحرار فقد كان الخلاف خارجا عن دائرة هذه المفاهيم الأساسية المعترف بها بين الجميع وهى التحرك من داخل فكر كرومر .

وقد أطلق على المدرسة جميعا بعد الحرب وثورة ١٩١٩ « مدرسة سعد زغلول » بحسبان أنه الزعيم الأول المتصدر . وحتى عام ١٩٥٢ كانت مدرسة سعد زغلول هى التى تحكم مصر باليقين ،

كان الزعماء والوزراء يختلفون فى الفرعيات ، ولكنهم كانو جميعا أولياء الثقافة الغربية ، وتوابع النفوذ البريطانى ، وقد تخرجوا — على حد تعبير فتحى رضوان — من المدرسة الزغلولية التى نادت بأن الانجليز خصوم شرفاء معقولون ، ورضعت لبان الوطنية التى تقوم على مهادنة الغاصب . والتى كانت الحزبية وصراعها مقدماً عندها عن حقوق الوطن جميعا ، وهى مفاهيم تختلف اختلافا جوهريا مع مفاهيم الحركة الوطنية الأصيلة التى سحقها النفوذ الأجنبى وذلك إعلاء لرجاله وأوليائه . وقد جاء المثقفون الذين درسوا فى أوربا فعملوا أولياء لهؤلاء الزعماء وكتابا لهم وأتباعا ، وقد آثروا الانتماء إلى حزب الأحرار الدستويين ، صاحب الولاء الظاهر للانجليز ، والخصومة لسعد زغلول وحزبه .

ولقد كان الخلاف واضحا ، وكان طه حسين من أشد الكتاب هجوما على سعد زغلول ، ولكن هذا الصراع لم يكن يتجاوز حدود المطامع والنفوذ ، أما بالنسبة للمفاهيم الثقافية والاجتماعية والسياسية فقد كان الجميع على أتفاق تام بشأنها على النحو الذى رسمته « الجريدة » استمداداً من تقارير كرومر ، وكان سعد زغلول يعتبر لطفى السيد (بعد الحرب) هو القوام على هذه المفاهيم ، فهو الذى رسم المخططات الخاصة بضغط مدارس تحفيظ القرآن ، وإدخال اللغة الانجليزية على التعليم ، واعلاء مفاهيم الليبرالية والفلسفات السياسية الغربية المرتبطة بالدستور والبرلمان .

وكان سعد زغلول خريج الأزهر قد تحول تدريجيا إلى سياسى متفرنج يوالي مفاهيم لطفى السيد ويتبناها .

* * *

أما « مدرسة التغريب » فقد وجدت الجو أمامها مهيأ بصورة أشد قوة وأكثر اتساعا للعمل ، بالتنظيم مع سادتهم المستشرقين ، وأصدقائهم المبشرين ، وكانت جريدة « السياسة » لسان الأحرار الدستوريين أكبر هذه التجمعات ، بل كانت وكر التغريب الذى تجمع فيه : طه حسين وهيكل

ومحمود عزمى وعلى عبد الرازق .

وكان العقاد فى معسكر الوفد ، ولكنه كان على نفس الطريق فحيث كانت جماعة السياسة توالى الثقافة الفرنسية ، كانوا فى نفس الوقت يوالون السياسة الإنجليزية ولم يكن على الإنجليز من بأس أن تنشر « السياسة » كل ما يقدمه الأدب الفرنسى من قصص مكشوفة أو فكر متحلل ، فإن الهدف واحد ، والطريق يوصل إلى الغاية ، المهم أنه الفكر الغربى يرسخ ويثبت ، والمذاهب المنحرفة تذاع وتنشر ، والفكر العربى الإسلامى يضطرب ويهتز تحت هذه الضربات ، وآية ذلك أن العقاد وهو فى معسكر الوفد ، وطه حسين فى معسكر الأحرار الدستوريين خصم الوفد ، يقف العقاد ليؤيد طه حسين فى أمر كتاب الشعر الجاهلى ١٩٢٦ ولا يرى الوفد بأسا فى ذلك الانحراف ، ولم يلبث العقاد أن أيد طه حسين مرة أخرى عام ١٩٣٩ على ما كان بينهما من خلاف وكراهية .

ذلك أن الأحزاب جميعا كانت تختلف فى كل أمر إلا فى أمر التبعية للفكر الغربى والولاء للنفوذ البريطانى .

ومن ذلك كان التحول من حزب إلى حزب ومن صف إلى صف أمراً هنياً ويسيراً ، فقد تحول العقاد من الوفد إلى خصومه ، وتحول طه حسين من الأحرار إلى الوفد ، وبعد أن هاجم العقاد محمد محمود سنوات بأقذع الألفاظ يعود فيمدحه بشعر رائع ، ويهاجم طه حسين سعد زغلول بأقسى العبارات ثم يعود فيصفه بأنه أعظم الزعماء .

وبالجملة فقد حمل حزب الأحرار الدستوريين لواء الدعوة إلى التغريب واضحة صريحة ، فقد كانوا منذ الانقسام قد عرفوا بولائهم الصريح لبريطانيا ، ومتابعتهم منهج حزب الأمة ولطفى السيد الذى أصبح بعد الحرب من رجال الأحرار الدستوريين ، أما الوفد فقد كان يخفى مواقفه فى هذه الميادين خشية أن تتأثر شعبيته ، فقد حاول أن يحافظ على الأغلبية الضخمة بالصمت فى القضايا التى أثارها التغريب على مسرح جريدة « السياسة » .

بل إن الجامعة المصرية كانت فى دائرة نفوذ حزب الأحرار دوما (لطفى السيد مديرها وطه حسين عميد كلية الآداب) ثم امتد هذا النفوذ إلى وزارة المعارف أيضا ، وأخشى أن أقول إلى الأزهر الشريف فقد كان المراغى من حزب الأحرار أيضا .

وقد كشف المثقفون الذين عادوا من أوربا عن هويتهم ، وهدفهم حين انضموا إلى حزب الأقلية (الأحرار) وجعلوا منه منفذاً لهدفهم حتى إذا تحول الأحرار الدستوريون نحو الاتجاه إلى إرضاء الجماهير والتخفيف من حملات الإلحاد والإباحية التى حمل لواءها على عبد الرازق وطه حسين ومحمود عزمى ، بدأ ذلك بالدفاع عن الإسلام إزاء حملة التبشير عامى ١٩٣٢ و١٩٣٣ .

فى هذه الفترة ، وفى خلال الصراع الحزبى ، ارتضى طه حسين أن ينقل خططه إلى مجال أكبر ، ونفوذ أوسع ، هو حزب الوفد ، ولم يكن طه حسين الذى أمضى سنوات طويلة ينقد الوفد ويهاجم زعماءه (منذ ١٩٢٢ تقريبا إلى ١٩٣٤) راغبا فى الوفد نفسه ولكنه أراد أن يركز نفوذه فى الصحافة والجامعة فى بيئة أكثر قوة وأكبر حماية له ، ومن الحق أنه استطاع بذلك أن يشرف على وزارة المعارف والجامعة جميعا وأن يسيطر على المناهج العلمية وأن يدس فيها الكثير ، وأن يرد اعتباره طريداً من الجامعة ومتهما فوق منبر البرلمان بالإلحاد من الغالبية وإذا هو الكاتب الأول لحزب الأغلبية ، ومنافس العقاد فى هذه النفوذ .

* * *

كانت خطة الكتاب المتصدرين للثقافة والفكر فى كلا المعسكرين . الوفد والأحرار ، وأولياء كلا الثقافتين : السكسونية واللاتينية (أو الإنجليزية والفرنسية على وجه أصح) أن يجردوا الأدب العربى من قيمه الأساسية وخاصة القيم الأخلاقية المرتبطة به والدعوة إلى التحرر الكامل من القديم ، والنظر إلى التراث نظرة الاحتقار ، والتعرض لإذاعة ونشر

أسوأ صفحاته ، أمثال بشار بن برد وأبو نواس ، الضحاك وغيرهم ، وإعلاء القيم الفنية على القيم الأخلاقية والاجتماعية وهذه خطة اتفق عليها خلفاء كرومر وحزب الأمة جميعا .

وآية ذلك أن حركة التبشير التى اندلعت عام ١٩٣٢ لم تثر هذه المدرسة ولم تزعجها ، ما عدا الدكتور هيكل الذى بدأها كمعركة لحزبه المعارض مع حكومة صدق ، ولكنه فى الأغلب يكون قد تأثر بها تأثراً تحول به عن مفاهيم التغريبيين ، فكانت منطلقا لانكسار هذه الموجة العاتية ، فقد تبعتها مواقف من منصور فهمى ، وزكى مبارك ، فى مجال الإسلام ومحمود عزمى والمازنى فى مجال الوحده العربية .

وربما كان ذلك تشكلا جديداً لحركة التغريب التى لم تشأ أن تقف موقف الهجوم والخصومة ، وحاولت إعادة النظر فى مخططاتها على أساس إخفاء الشبهات وإظهار طابع التقرب للجماهير بترديد ما يرضيه ، ومن ذلك تحول طه حسين إلى كتابة هامش السيرة الذى مهما قيل فى أخطائه وأخطاره فقد كان فى ظاهره مرضيا للطبقات الشعبية حيث أن طه حسين صاحب الشعر الجاهلى قد عاد إلى التحدث عن الإسلام والرسول .

ومهما يكن من شىء فقد كسبت (اليقظة) انطلاقات جديدة من معسكرات خصوم الإسلام والعروبة ، فقد أنكر محمود عزمى الدعوة الفرعونية ودعا إلى الوحدة العربية ، وتحدث هيكل عن محمد والإمبراطورية الإسلامية ، وأنشأ توفيق الحكيم قصة عن النبى ، ومهما قيل فى تحليل هذه الكتابات ودوافعها وانحرافاتها الدقيقة الخفية ، وأنها كانت محاولة لطرح مفاهيم مضطربة إزاء ارتفاع موجة اليقظة الإسلامية بإنشاء جمعية الشبان المسلمين وظهور عديد من المجلات الإسلامية ، مهما قيل فى هذا فإن حرب الإسلام والعروبة ، تلك الحرب الظاهرة العاتية قد انكسرت موجتها .

ولكن هذه الحركة التى نبتت فى معسكر التغريب فجأة بالاتجاه إلى الإسلام والعروبة ، إنما كانت تخفى أخطاراً شديدة ، فهى تريد أن تسحب البساط من تحت المفكرين أو الدعاة الجدد الأصلاء الذين يستمدون مفاهيمهم من خط متصل بحركة اليقظة وبجوهر الإسلام الأول ، تحت تأثير الأسماء

اللامعة التى تحمل لواء الكتابة الإسلامية والعربية : طه حسين ، هيكل ، توفيق الحكيم ، منصور فهمى ، المازنى .

ولكنها كانت فى نفس الوقت تصر على أن تقول أن الإسلام دين لاهوتى ، ولا تقر له بالرأى فى مسائل السياسة والاجتماع والتربية ، وهى تنظر إلى التاريخ الإسلامى من خلال المناهج الغربية ، كما تنظر إلى الأدب العربى من خلال المذاهب الأوربية ، ولا تحاكم الأدب العربى أو التاريخ العربى إلى مناهجه الأصيلة ، وهى فى هذا كله تريد أن تفرض على الإسلام إطاراً من الفكر الغربى فتذيبه داخله ، وتنحرف به عن هدفه ، وتتحكم فيه وفق أسلوب (العلمانية) المنكر للجوانب الروحية المرتبطة بالنواحى المادية فى الإسلام أساساً ، هذا فضلا عن الإطار الغربى للثقافة العالمية التى تريد أن تصهر الإسلام والفكر العربى فى داخله .

ومن هنا فإن تبعة حركة اليقظة كانت أكبر وأشد ، وكان عليها أن توجه النظر إلى هذا الخطر ، تحت تأثير الأسماء اللامعة التى أخذت تكتب عن الإسلام : وتعنى به وهى عناية لا تستهدف إلا إثارة الأساطير ومزجها بالسيرة والسنة النبوية المحققة الموثقة ؛ أو تصوير الإسلام على صورة الأديان الأخرى ، دينا لاهوتياً قائماً على العلاقة بين الله والفرد ، داعيا إلى الرحمة والسلام ؛ مع تجاهل وإنكار كامل لجوانبه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وهذا واضح جداً فى كتابات هيكل وطه حسين .

* * *

ولقد كانت جريدة « السياسة » وتابعتها « السياسة الأسبوعية » هى « مركز » الدعوة التغريبية ، بالإضافة إلى « لمجلة الجديدة » لسلامة موسى ، « والعصور » لإسماعيل مظهر ، وقد سقطت هذه المجلات الثلاث فى أوائل الثلاثينات وحلت بدلا منها صحف الفتح والرسالة والأزهر والشبان المسلمين وقد كشف طه حسين فى أكثر من حديث أن الصفحات الأدبية فى الصحف السياسية لم تكن مقصودة لذاتها وإنما كانت وسيلة لكسب القراء الذين يصبحوا أولياء لهذا الحزب أو ذاك .

وقد استغل طه حسين هذا المفهوم فكان ينشر صفحتين أدبيتين : إحداهما (يوم الأربعاء) يتحدث فيها عن سوءات الشعراء الأباحيين أمثال بشار بن برد وأبى نواس وغيرهم تحت عنوان (حديث الأربعاء) والثانية يوم الإثنين حيث يترجم فيها أخبث القصص الفرنسية الداعرة المكشوفة .

ومن دائرة جريدة « السياسة » ظهر كتابان هاجما القيم الإسلامية العربية هجوما عنيفا هما :

« الإسلام وأصول الحكم » لعلى عبد الرازق .

و « الأدب الجاهلى » لطه حسين .

وفى كلا الموقفين اللذين أحدثا ضجة كبرى ، فقد وجدا من حزب الأحرار ومن الحكومة سنداً وحماية بحيث لم يتعرض صاحبا الكتاب لخطر ما . أما على عبد الرازق فقد أعيد إليه اعتباره بعد سنوات قليلة من فصله من الأزهر وعين وزيراً ، أما طه حسين فقد توقفت محاكمته و لم يلبث أن عاد إلى الجامعة مرة أخرى . ثم أصبح وزيراً أيضا .

ولكن حركة اليقظة لم تتوقف عن أن مطاردة طه حسين ، فى كل عهد ، على مدى سنوات طويلة ١٩٢٦ ، ١٩٢٧ ، ١٩٣٢ ، ١٩٣٩ وارتفع الصوت تحت قبة البرلمان بمعارضة آرائه فى مختلف كتبه : الشعر الجاهلى ، حديث الأربعاء ، مستقبل الثقافة .

وكشفت أغراضه ودوافعه بوضوح كامل حتى لم يعد أحد يشكك فى هويته . ولكنه كان إذا أقصته حركة اليقظة وطوحت به ، لا يلبث أعوانه وحماته أن يعيدوه مرة أخرى ، وكان لهم فى ذلك أساليب متعددة .

ومن أبرع هذه الأساليب تحول طه حسين فجأة من صفوف حزب الأحرار الدستوريين إلى صفوف الوفد ، وهى نقلة بارعة استطاع بها أن يجد سنده من خلال التجمعات الشعبية الضخمة التى تحمى ظهره وتدفعه إلى الأمام فى الطريق الذى رسم له .

ولقد تابع هو هذه الخطوة بخطوة أخرى ، هى كتابه على هامش السيرة الذى خدع كثيراً من البسطاء والأغرار ، فأعاد له الثقة فى بعض النفوس

جريا مع الدعايات التى كانت تقول أن طه حسين عاد مسلما وأنه يكتب فى السيرة بأسلوبه البارع ، والواقع أن طه حسين كان يحاول أن يجدد الثقة به بخدعة جديدة ليستطيع مواصلة عمله فى مجال التغريب ، ولكن أمراً واحداً قد فضح ذلك الموقف وكشفه ، ذلك هو الانفصال الذى وقع بينه وبين الدكتور هيكل رفيقه فى الرحلة الطويلة مع جريدة « السياسة » وحزب الأحرار الدستوريين ، فقد حدث فى نفس الوقت تحول غريب فى اتجاه هيكل عندما ثارت ثائرة حركة التبشير الغربى فى مصر وحمل لواء مقاومتها واتجه فى ظلها إلى كتابة (حياة محمد) وهنا وقع الخلاف بينه وبين طه حسين وافترق الطريق وحمل هيكل على المستشرقين والمبشرين وعارض ما كان موضع الاتفاق بين الرجلين ، وهنا لم يسلم هيكل من غمزات طه حسين ، ولكن هيكل كشف موقف طه حسين فى كتابه على هامش السيرة فأشار إلى أن هذا العمل هو من أبعد الأعمال خطراً فى مجال التغريب لأنه يعرض السيرة النبوية إلى أخطار الشبهات التى تتصل بالأساطير ، أما موقف العقاد فقد كان غريبا فإنه — فى حدثين من أكبر أحداث محاكمة طه حسين عام ١٩٢٦ وعام ١٩٣٩ — دافع عنه وكأنما كان يدافع عن كل (فكره وأهدافه) .

وفى مجال وزارة المعارف مضى طه حسين فأشرف على البرامج وأحدث فيها آثارا خطيرة ، وفى متابعة خطة دنلوب وتأكيدها فى الجامعة فرض طه حسين تعلم اللغتين اللاتينية واليونانية على طلاب كلية الآداب دعما للأدب اليونانى الإباحى الوثنى ، وإذاعة به .

وكان طه حسين وسلامة موسى ومحمود عزمى وعلى عبد الرازق واسماعيل مظهر يعملون فى حقل واحد هو حقل « التغريب » ولكنهم كانوا يعملون متفرقين ، وكان الصراع بينهم شديداً ، فقد كان كل منهم له ولاء خاص ولكنهم تركوا فى نفوس الشباب كثيراً من الشبهات .

* * *

من خلال الأحزاب التى تشكلت فى هذه الفترة (الوفد — الأحرار — الاتحاد — الشعب — السعديين) .

ومن خلال القيادات التى حكمت : (سعد زغلول — عدلى يكن — ثروت — محمد محمود — لطفى السيد — عبد العزيز فهمى) كان هناك « منهج » واضح صريح ، قوامه « صورة » ترضى عواطف الشعب وتكسب إعجابه وترضى نوازعه الدينية متمثلة فى الاهتمام بالمناسبات الإسلامية ، وصلاة الجمعة ، وهى مسائل سياسية محضة ، أما فى داخل أنظمة الأحزاب ودوائر الحكم فإن الأسلوب الغربى كان هو المسيطر ، اللغة الفرنسية هى اللغة الغالبة وهى اللغة الدبلوماسيه ، وجريدة « السياسة » وكتابها فرنسيو الثقافة يوالون النفوذ البريطانى ويناصرونه ، ويؤيدونه ، وطه حسين يرعى الثقافة الانجليزية ويعلن أنه لا يفرق بين ثقافة وثقافة وأنه يفتح الأبواب لكل الثقافات ويشيد بكتاب حافظ عفيفى عن الإنجليز .

* * *

فإذا انتقلنا إلى الصراع الحزبى السياسى وجدناه هو أبرز ما شغل الصحافة خلال هذه الفترة ، وهو صراع حاد عنيف ، تشحذ له الأساليب والعبارات ، ويجرى وفق منهج ردىء من الهجاء والسباب ، ولقد كان العقاد معروفا عند حزب الأحرار ، ولقد استمر الصراع عنيفا ، وتركز حول سعد زغلول ، كما تركز حول عدلي ، وثروت ، من الناحية الأخرى ، وشارك فيه توفيق دياب وعباس حافظ عوض وعبد القادر حمزة ، وكان الخلاف ذاتيا ، والصراع حول المغانم والمطامع ، ولم يكن حول فكرة أو هدف ، فلم تكن الأحزاب تختلف حول حق مصر وقضيتها بقدر ما كانت تختلف حول مغانمها .

ولقد هاجم العقاد محمد محمود ولطفى السيد ثم عاد فمدحهم .

يقول العقاد عن لطفى السيد : بقى الأستاذ الفيلسوف الذى لا يستقيم فى رأسه فكر والذى لم يتول عملا قط إلا كان فيه آلة مرؤسيه أو تبعا لمسخريه والذى لم يفلح قط فى عمل تولاه ، ولم يكن تاريخه كله إلا خيبة بعد خيبة وأضحوكة وراء أضحوكة ، وادعاء يتلوه ادعاء ، والذى لا تعرف لماذا هو أستاذ ولماذا هو فيلسوف (الخ) ثم يعود العقاد فيقول عن لطفى السيد مع القائلين أنه « أستاذ الجيل » .

ويهاجم طه حسين « سعد زغلول » فى عشرات من المقالات أقذع هجاء تحت عناوين مختلفة : ضعاف ، بغاة ، مساكين أصحاب سعد .

ويقول : « أمثال سعد يظهرون فى أول عهد الأمم بالنهوض ، ليس سعد رجل ثورة وليس هو رجل حديث ، وإنما هو ثرثار سريع الحركة مشعوذ يقوى إن ضعف خصمه ، ولو أن سعداً آثر الصدق والإخلاص على الشعوذة والتضليل لوصل إلى ما كان يطمع فيه من مجد دون أن يتعرض لهذا السقوط » .

فلما تحول طه حسين إلى الوفد قال :

رحم الله سعداً ، لقد أيقظ مصر ثم عاهدها على أنه سيحول بينها وبين النوم عن الحق ، ولقد وفى لها بعهده حيا وهو يوفى لها بعهده ميتا وليس الوفد اسما ولا لفظا وإنما الوفد قوة حقيقية قائمة يستطيع كل إنسان أن ينظر إليها وأن يمتحنها[1] .

* * *

ومثل ذلك عند كل الأدباء الذين تقلبوا بين العهود والأحزاب ، ولم تكن هذه المعارك إلا لونا من الهجاء الذى يصل أحيانا إلى أقصى درجات الإقذاع والذى كان يطول أياما ويستمر ، ويدور حول شخصيات الزعماء

---

(١) راجع كتابنا (الصحافة السياسية فى مصر) .

ومواردهم ويكشف عن ضعفهم وفسادهم .

وقد امتد هذا الجدل السياسى إلى الأدب فلم يكن الأدب فى هذه الفترة إلا امتداداً للسياسة وقد حمل فى معاركه أسلوبها فى الهجاء والإقذاع .

* * *

ولم تكن السياسة ، حتى خلال الأحزاب والحكومة إلا وعاء لتلك الحركة التى كانت تجرى فى وزارة المعارف والجامعة وعن طريق الصحافة لتأريث (التغريب) وتركيز قواعده .

وينكشف هذا بوضوح فى تلك الصيحات التى كانت ترفعها حركة اليقظة من خلال البرلمان ، وكيف كانت تخمد فى سرعة ، وتتهم بالرجعية ، وكيف كان دعاة التغريب يزدادون قوة وانطلاقا بين ما يذيعونه فى الصحف وما فى الجامعة وما يعدونه من مناهج فى التعليم ، فإذا جاء الصيف دعتهم المنظمات المختلفة إلى مؤتمرات تحتويهم لتجدد خططهم ومفاهيمهم ، وليعودوا لينفثوا سمومهم مرة أخرى .

وحين علت الدعوة إلى الوحدة العربية ، تصدرها دعاة التغريب لينحرفوا بها عن مفهومها الأصيل ، والدكتور محمود عزمى داعية الفرعونية يسارع إلى اعتناق العروبة ولكن لا يلبث أن يقول إن الأمة العربية من ثلاث مناطق : الصحراء (الأردن والحجاز) والمغرب (بأقطاره) وسوريا والعراق ومصر وبين المناطق الثلاث درجات فى التفاوت والاختلافات فى المذاهب وفى الآراء .

* * *

ووقف طه حسين من الوحدة العربية (كما وقف من الاسلام من قبل) موقفا معاديا ، فقال أن مصر فرعونية وستظل فرعونية (وكان إذ ذاك يحتمى فى حزب الأغلبية) ويتكلم فى عنف وحماس وكان رد الفعل أن

حرق الشباب فى دمشق مؤلفاته فى ميدان عام وجاء فى جريدة « المقطم » ٦ سبتمبر ١٩٣٣ من دمشق أن أعضاء اللجان الأدبية والجمعيات الثقافية فيها اجتمعوا ودرسوا مقال طه حسين (دائرة) الذى جاء فيه :

(خضع المصريون لضروب من البغى والعدوان جاءتهم من الفرس والرومان والعرب أيضا) وأنهم قرروا إحراق كتب طه حسين لأنه واحد من الذين يهونون أمر العرب ويصغرون من شأنهم ويرفعون الصوت بالدعوة التى يكرهونها من الكراهية ألا وهى الفرعونية .

وتابع الدكتور طه ماادعاه (بول كازانوفا) من تحريق العرب لمكتبة الاسكندرية ونشر تقريره فى السياسة الأسبوعية على صفحتين كاملتين بعد أن ترجمه وعلق عليه بأسلوب ساخر شاك ملىء بالكراهية للإسلام والحقد للعرب .

ومما قال : ما الذى يمنع أن تكون هناك خزائن كتب حرقت أثناء فتح الاسكندرية دون أن يكون عمر قد أمر بحرقها ودون أن يكون عمر قد أحدث هذا التحريق !

ومع أن بعض المؤرخين الغربيين المنصفين قد دافعوا عن العرب ونفوا عنهم التهمة بقوة فإن طه حسين وقف فى صف خصومهم وجارى فرية المستشرقين .

* * *

وكانت الدعوة إلى الإقليمية الضيقة من أخطر الأسلحة التى حمل لواءها قادة التغريب ودعمتها السياسة الحزبية والحكومية بكل ما يتصل بها من نكران للغة العربية والقيم الإسلامية .

وكان أقسى ما واجهته حركة التغريب تلك الدعوة إلى الشريعة الإسلامية وتصحيح الرأى فيها بعد أن هاجمها القائلون بأن القانون الغربى أو فى بحاجات المجتمع ، والأنظمة السياسية الليبرالية أو الديمقراطية الغربية

أوفت بحاجات الأمة . وذلك فى ولاء واضح للفكر الغربى وموالاة تامة للغرب فى أنظمته وثقافته وتنكر شديد للفكر الإسلامى والثقافة العربية وما يتصل بها من لغة وتاريخ وتراث .

* * *

وقد كان للامتيازات الأجنبية دورها الضخم فى فرض القانون الغربى على أنظمة الحكم والسياسة والاجتماع ، وذلك لحماية المؤسسات التبشيرية ومعاهد الإرساليات التى كانت من أهم ما أثيرت حوله ضجة الدول الفرنسية والإيطالية عندما وقعت معاهدة ١٩٣٦ وأخذت مصر فى نظام بديل لهذه الامتيازات ، وتكشفت الدراسات التى تمت فى ذلك الوقت أن أبرز ما أولى الاهتمام فى اتفاق مونترو هو حماية الثقافة الفرنسية والغربية على العموم ، يقول التقرير[١] : إن فرنسا تحتل مركزاً متفوقاً فى مصر من الوجهة الثقافية وقد عادت الامتيازات على بلادها بمهمة ترمى إلى نشر السلم والعدالة ، تلك هى مهمة فرنسا فى عهد الملكية أو الإمبراطورية أو الجمهورية ، فلم تهملها فى وقت من الأوقات وقد اكتسبت لغتنا من وراء ذلك منزلة عظيمة ثم بين المسيو ديشنر أهمية التعليم الفرنسى (فى مصر) الذى يضم ٤٢ ألف تلميذ وقال إن اللغة الفرنسية تدرس فى المدارس المصرية .

وأشار إلى ما كتبته السيدة نظله الحكيم فى جريدة « الأهرام » من أنه إذا ألغى التعليم الفرنسى فى مدارس البنات فإن العائلات لن تتردد فى إرسال أولادها إلى المدارس الفرنسية ، وأشار إلى أن الحكومة المصرية مستعدة لأن تعترف بأن المعاهد القائمة والمشار إليها تستطيع أن تواصل نشاطها بحرية إلى حين عقد اتفاق فيما بعد »[٢] .

* * *

(١ ، ٢) راجع الأهرام ١٠/ ٦/ ١٩٣٨ .

وركز التغريب كثيراً على (كلية الآداب) لدورها الخطير فى إحلال مفاهيم الغرب فى مجال الأدب واللغة والتاريخ : ويكشف (توفيق الحكيم) عن هذا الوجه من خلال دعوته للجامعة المصرية أن يقام فى مصر هيكل للفكر الحر يعنى فيه بشئون التعليم وتستمر مطلقة من كل قيد فإذا كانت فيه الأزهر تظل يحثها القلب العامر بالإيمان فإن فيه الجامعة يجب أن تظل يحثها العقل الحر مجرداً من كل اعتبار » .

ولم يمر هذا السم الناقع دون أن يجد رده ودحضه من أمثال السيد محب الدين الخطيب الذى يقول فى رده على توفيق الحكيم :

« الجامعة المصرية وكل جامعة فى الدنيا مطالبة فى البيئة التى نشأت فيها بأمرين اثنين :

أولهما أن يتنزه القائمون بها عن كل موجدة نحو دين البلاد ومقدساتها وحقوقها فلا يتخذوا من البحث العلمى وحرية الرأى وسائل لتوهين رابطة النشء المثقف بدينه وقوميته ومقدساته ، ولا سيما إذا كان دينهم صديقاً للعلم وداعياً إلى الحق وآخذاً بيد المعرفة ينشطها ويرفع مقامها .

وفى مصر أناس نعرفهم بأعيانهم ونعرف اتباعهم بسيماهم لا يفتأون يعملون على توهين رابطة النشء بالدين وتهوين أمره عليهم وتشكيكهم فيه وتنفيرهم منه وما فتئوا يحاولون إقناعهم بأن الحقائق تخالفه وأنه واقف حجر عثرة فى طريقها .

والواقع أنهم لم يتجردوا من مؤثرات بيئتهم إلا ليتدثروا بمؤثرات بيئة أجنبية عنهم ولم تتحرر أفكارهم من قيود التقاليد الإسلامية إلا ليصفدوها بأغلال تقاليد أخرى غريبة عنهم » .

* * *

وخلاصة ما نريد أن نصل إليه فى هذا المدخل هو :

أولاً ــ إن الأحزاب السياسية المصرية جميعا والمنبثقة أساسا من مدرسة

حزب الأمة بقيادة لطفى السيد قبل الحرب وبزعامة سعد زغلول بعد الحرب كانت تصدر عن مفاهيم الفكر الغربى والولاء البريطانى ، وبالرغم من اختلافها فى أشياء كثيرة فهى لم تكن تختلف فى هذا المنطلق الأساسى .

(ثانيا) حمل حزب الأحرار الدستوريين — وانطوى تحت لوائه كل دعاة التغريب — لواء الدعوة إلى إخراج الإسلام من الفكر والتربية والمجتمع جميعا وكانوا بالرغم من ثقافتهم الفرنسية على ولاء صريح لبريطانيا ومتابعة لمنهج حزب الأمة ، أما الوفد فقد كان على نفس المفاهيم ولكنه كان يخفى ذلك وراء ستار المحافظة على شعور الأغلبية ، وآية ذلك تأييد العقاد لطه حسين فى صلب مواقفه التغريبية مرتين عام ١٩٢٦ وعام ١٩٣٩ .

(ثالثاً) عمل المثقفون العائدون من أوربا وراء ستار الإقليمية وجعلوا منها منفذاً لهدفهم الأصيل وهو التغريب ، وكانو يعدلون مواقفهم من الأحزاب بقدر ما يعينهم ذلك على الاستمرار فى خطتهم وآية ذلك تحول طه حسين إلى الوفد .

(رابعاً) إن المراجعة الدقيقة لتطور حركة التغريب تكشف عن أن المرحلة التى سبقت الحرب العالمية الأولى إنما كانت تمهيداً هيأ لها الأمور ، وزرع لها البذر الذى نما بعد الحرب وأينع ، وأزال من طريقها كل القوى والشخصيات التى كانت تحمل لواء حركة اليقظة وبذلك أعدت رجالها للسيطرة على النفوذ السياسى والحزبى والحكومى بعد الحرب .

وبقى رجال حركة اليقظة العربية الإسلامية العربية الإسلامية فى صفوف الشعب يدافعون عن آرائهم من مواقع الصحافة والبرلمان والجمعيات والهيئات الإسلامية والأدبية .

* * *

الفصل الثانى

حركـــة التغريـــب

- ١ -

لم تكن مرحلة ما بين الحربين منفصلة عما سبقها بل كانت مرتبطة به ارتباط الأسباب بالنتائج ، والتدبير المعد المرتب لاستكمال حلقة السيطرة عن طريق الفكر والسياسة ، فقد كانت بريطانيا التى احتلت مصر تأمل فى أن تصل إلى اعتراف بوجودها عن طريق جماعة تقبل هذا الوجود وترضى عنه كواقع ، لابد منه ، وكأمر هو أصلح ما يكون تقبلا ورضا ، وقد ابتدع هذه الفلسفة كرومر وحمل لواءها وأنعشها لطفى السيد خلال سبع سنوات طوال قبل الحرب العالمية الأولى دعوة وإعزازاً وتقبلا وكان فى ركابه كثيرون فى مقدمتهم سعد زغلول وعبد العزيز فهمى وغيرهم من جماعة حزب الأمة الذين كانوا مقتنعين فكرياً وواقعياً بالوجود البريطانى فى مصر ، أسلوباً للحياة ، فقد كان وجودهم الاجتماعى والاقتصادى والسياسى قد تشكل أصلا فى ظل هذا الوجود البريطانى وظل مرتبطاً به ، وذلك حين اختارهم الاحتلال قواعد له وخلائف فوزع عليهم أراضى الدائرة السنية وأقام منهم عمداً فى بلادهم وزعماء وأعضاء فى الجمعية التشريعية ومجلس شورى القوانين ، وأعلن كرومر بوضوح عن وجودهم حين قال أنهم إصحاب المصالح الحقيقية ، وأنهم هم القوة التى التقت بالاستعمار فى منتصف الطريق .

وكان هذا الإعداد بإعلاء شأن هذه الفلسفة التى كان يغلفها اسم « مصر للمصريين » خداعا وتضليلا وإلفات النظر إلى صراع وهمى

بين المصريين من ناحية ، وبين العرب والمسلمين والدولة االعثمانية ، بينما كان الصراع فى الحقيقة بين المصريين والاستعمار بصفة عامة والاحتلال البريطانى بصفة خاصة .

ومن هنا ركز الاحتلال على العمل من أجل القضاء على القاعدة الوطنية التى كانت قد تكونت وعمقت قواعدها واستمدت جذورها من مدرسة اليقظة الفكرية .

ولقد كانت آراء مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش وجميع أبناء هذه المدرسة سليمة واضحة رابطة بين الوطنية والأمة والعقيدة ، وبين المصرية والعروبة والإسلامية فى إطار واحد ، وكان مفهومها الفكرى قائما على الإيمان بالجذور والقيم الأساسية للفكر الإسلامى وفى كثير من النماذج يبدو هذا المعنى واضحاً صريحا .

لذلك فقد حرص النفوذ الاستعمارى على إضعاف أثر هذه المدرسة وإعلاء شأن مدرسة حزب الأمة ، حتى إذا جاءت الحرب العالمية الأولى كانت المدرسة الوطنية قد انقرضت ، أو ماتت فقد انفرط عقدها وهاجر أعضاؤها إلى الخارج هرباً من الاضطهاد حتى باتت الساحة الفكرية فى فراغ فاستطاع حزب الأمة ورجاله أن يحتلوها وأن يتألقوا فيها وأن يكونوا بعد الحرب العالمية الأولى هم زعماء الفكر والسياسة جميعا (شأنهم فى ذلك شأن الاتحاديين والكماليين فى تركيا) .

وقد تولى سعد زغلول منذ عام ١٩٠٧ أعمال التربية والتعليم بوزارة المعارف ، كما ولى لطفى السيد منذ ١٩٠٧ أعمال الصحافة والفكر بجريدة « الجريدة » ، وحزب الأمة ، ومن ثم فقد تهيأت الفرصة فى مجالين من أخطر مجالات الحياة السياسية والاجتماعية فى مصر تأهباً لمرحلة « التغريب » التى بدأت بعد الحرب العالمية الأولى ؛ ذلك أنه ما كادت الحرب العالمية تأذن بالانتهاء حتى كان الشعور الوطنى المصرى الذى كونه الحزب الوطنى قبل الحرب خلال عشرين عاما (١٨٩٣ — ١٩١٤) قد تفجر فى ثورة ١٩١٩ تحديا للوجود البريطانى واندفاعا إلى الحرية وفق مفهوم الترابط العضوى للوطنية المصرية بين طابعها العربى وفكرها الإسلامى ، وقد اختار

النفوذ الاستعمارى زعامة أزهرية ، لرجل عرف بالبراعة فى مجال الخطابة والمحاماة ، وكان من دائرة النفوذ الفكرى الغربى ، جربه الاحتلال طوال فترة ما قبل الحرب ، وكان له دوره فى تأكيد اللغة الإنجليزية فى دوائر التعليم ودفاعه عن امتياز قناة السويس ، واستقباله لأول معتمد بريطانى بعد الحرب ، ومشاركته مشاركة فعلية فى الوجود الغربى البريطانى ، ذلك هو سعد زغلول ، امتداداً لمفاهيم حزب الأمة ومدرسة « الجريدة » التى قادها لطفى السيد .

وقد ظل سعد زغلول ولطفى السيد بعد الحرب العالمية الأولى وخلال فترة ما بين الحربين من أظهر الشخصيات ذات الأثر البعيد المدى .

أما سعد زغلول فقد رأس أضخم تشكيل وطنى جمع الأحزاب والسياسيين المصريين جميعاً باسم « الوفد المصرى » وقد انطبع هذا التشكيل بطابع الوطنية من داخل إطار الوجود الفكرى الغربى أساسا ، فلما تمزق الوفد إلى أحزاب ظلت هذه الأحزاب تتصارع دون أن تخرج عن الإطار الذى رسمها كرومر ونسقها حزب الأمة ، فقد كان الجميع سواء فى حزب الوفد أم حزب الأحرار أم أحزاب كثيرة تشكلت ، يسيرون وفق مفهوم لطفى السيد وسعد زغلول وفلسفتهما المستمدة من الأصول والخطوط العامة التى رسمها كرومر وحمل لواءها حزب الأمة ، وكان حزب الأحرار الدستوريين أكثر هذه الأحزاب ارتباطا بحزب الأمة .

وعن حزب الأمة ظهرت فلسفة التغريب التى نماها رجال حزب الأحرار : هيكل وطه حسين ومصطفى عبد الرازق ومحمود عزمى وغيرهم .

كان المفهوم أن مصر : مصرية إقليمية متحيزة ، مغلقة أمام العروبة أمة والإسلام فكراً ، وجود مصرى فرعونى الأصل متفتح على الفكر الغربى الليبرالى ، مؤمن بالوجود الغربى الفكرى ، وإن كان فى مظهره معارضا للاحتلال البريطانى العسكرى السياسى .

لقد أصبح أصحاب هذا المفهوم هم أصحاب السلطان السياسى والحكومى والوزارى ، بينما ظل أصحاب المفهوم الأصيل المستمد من حركة اليقظة فى السفح ، يمثلون عشرات من المؤسسات الشعبية ، فى الأزهر ،

ودار العلوم ، والجماعات الأدبية والهيئات الإسلامية ، والصحف والكتب ومختلف دوائر الأحزاب نفسها التى كانت بطابعها السياسى تتبنى المفهوم الغربى ، أو تصدر عن المفاهيم العربية والإسلامية ارضاء للشعب ورغبة فى الاحتفاظ بالأغلبية الجماهيرية ، وإن لم يمتد ذلك سوى عشر سنين حتى بدأت حركات جديدة تأخذ مكانها وتصارع ذلك الوجود السياسى الحزبى ذا الولاء الغربى فكريا ، الداعى فى الظاهر إلى الاستقلال ومعارضة الاحتلال البريطانى .

- ٢ -

غلبت نزعة التمصير على كل شىء ، وحاولت أن تجرف فى طريقها كل القيم الأساسية للفكر الإسلامى ، والثقافة العربية ، والوجود المصرى العربى الإسلامى ، وهو اتجاه بدأ من قبل ثم تعمق ، رفعه لطفى السيد منذ عام ١٩٠٧ ، ورفعه سعد زغلول منذ ولى شأن هذه الحركة عام ١٩٢٣ واتسمت به المدرسة السياسية سواء كانت باسم حزب الوفد أم باسم حزب الأحرار الدستوريين الذين انفصلوا عن الوفد وقادوا حركة التغريب فى جريدة « السياسة » فى مجال الفكر والاجتماع .

وبذلك كان سعد زغلول علما على المفهوم السياسى للمدرسة الحزبية التى سيطرت فى مصر حتى الخمسينات مهما اختلفت أوضاعها وأسماؤها ، وكان لطفى السيد هو المهيمن فى مجال الجامعة التى تولى إدارتها منذ عام ١٩٢٥ حتى عام ١٩٤١ على فترات متصلة ومتوالية ،وكان رفيقه فى هذه الرحلة الدكتور طه حسين فى المجال الجامعى وجريدة « السياسة » فى مجال الصحافة والفكر حتى تحول الدكتور هيكل ١٩٢٣ (تحولا جزئيا لا جذريا) فإن هيكل لم يصل إلى الإيمان إيماناً كاملاً بمفاهيم مدرسة اليقظة الإسلامية وانكسر تيار هذه الموجة وإن لم ينته بالطبع .

وكان سعد يؤمن بنفس مفاهيم لطفى السيد ، ويتبناها ، وكان امتداداً لها فى المجال السياسى والحكومى (وهو تطبيق كامل للخطة التى وضعها لورد كرومر) وهو الانفصال الكامل عن مفهوم الفكر الإسلامى

فى السياسة والمجتمع ، وتقبل المخطط الذى رسم كرومر للمصرى المتفرنج الذى يحمل لواء القيادة السياسية ، بعيداً عن مفهوم العروبة ومفهوم الإسلام محبوساً فى المفهوم الإقليمى المصرى الضيق ، وبعيداً عن أرضية الفكر العربى الإسلامى سواء فى التعليم أو المجتمع ، وقد سار الوفد فى نفس الاتجاه بحسبانه منبثقاً عن حزب الأمة ، وبذلك كان يحمل لواء الجمع والمزاوجة بين الوطنية والإسلامية معاً ، هذا الحزب الذى استؤصل وصفى قبل نهاية الحرب العالمية الأولى ، تمهيداً لإعداد فراغ واسع لطرح هذا المفهوم على الحياة السياسية والفكرية .

غير أن الضمير الفكرى العربى الإسلامى الذى كان يتحرك فى مختلف نفوس وعقول المثقفين المصريين قد تبلور بعد الحرب العالمية الأولى واندماج فى الحياة الفكرية والاجتماعية وتشكلت مفاهيمه فى حركة يقظة الفكر العربى ، ويمكن القول أن القوة الحية التى كانت وراء الجمعيات الإسلامية والأدبية والاجتماعية والصحف والمجلات والكتب كانت فى الحق من تراث الحزب الوطنى وحزب المنار ومن مفهوم حركة اليقظة التى تمثلت قبل الحرب فيهما .

فصحيفة « الأخبار » لأمين الرافعى ، وجمعية الشبان المسلمين ومجلتها ورجالها الدكتور عبد الحميد سعيد والدكتور الدرديرى وعبد العزيز جاويش ومؤسسها الحقيقى محب الدين الخطيب (صاحب الفتح والمكتبة السلفية . نواة اليقظة وإمام مدرسة الفكر العربى الإسلامى فى مصر) كان هؤلاء من الحزب الوطنى أساساً ومن تلاميذ محمد عبده والمنار ، وهم الذين حملوا لواء مقاومة التيار التغريبى فى الصحافة وفوق منابر الجمعيات وتحت قبة البرلمان ، فقد ظل عديد من أمثال عبد الحميد البنان وعبد الخالق عطيه يطالبون بإقصاء دعاة التغريب عن مراكزهم فى الجامعة وكلية الآداب ووزارة المعارف طوال الفترة من ١٩٢٦ — إلى ١٩٣٩ دون توقف وفى مقدمة هؤلاء طه حسين ولطفى السيد .

لقد امتلك حزب الأمة — ممثلا فى حزبى الوفد والأحرار بعد الحرب — نفوذ الحكم والسيطرة السياسية ؛ ونفذ خلالها مفاهيمه القديمة

فى النزعة الإقليمية المصرية الضيقة ، متصلة بالتحرر من الدين والقيم الفكرية الإسلامية العربية ، غير أن هناك التكوين الاجتماعى المتمثل فى الهيئات والجماعات والصحف والرأى الذى كان لا يزال يقوده خلفاء الحزب الوطنى — ومدرسة المنار والفتح — المؤمنون بالربط بين الدين والسياسة ، والدين والتربية ، والدين والمجتمع ، وإذا كانت الجامعة المصرية حتى عام ١٩٣٥ قد كانت لاتزال تحت تأثير لطفى السيد وطه حسين فقد كانت دار العلوم والأزهر والشبان المسلمين والإخوان المسلمون ومصر الفتاة والجماعات الإسلامية الأخرى تحمل لواء المعارضة وترفض التسليم بعزل مصر عن العروبة والإسلام وعن قيم الفكر العربى الإسلامى .

وإذا كانت صحف « السياسة » الأسبوعية و « المجلة الجديدة » و « العصور » قد استطاعت أن تسيطر لسنوات قليلة (السياسة الأسبوعية من ٢٦ إلى ٣٠ والمجلة الجديدة من ٢٩ إلى ٣٢ والعصور من ٢٧ إلى ٣٠ ، ثم ماتت هذه المجلات ، بينما بقيت مجلة « الفتح » التى صدرت مع « السياسة الأسبوعية » فى عام واحد ، وكانت أقل إمكانيات وامتدت حتى عام ١٩٤٢ ، ثم صدرت « الرسالة » سنة ١٩٣٣ خلفاً للسياسة الأسبوعية (الفرعونية الغربية) ومعدلة من خطتها إلي (عربية إسلامية) وعاشت عشرين عاما ، وعاشت مجلة « الشبان المسلمين » التى صدرت عام ١٩٢٩ إلي اليوم ، وعاشت عديدة غيرها من المجلات والصحف التى كان قراؤها أكبر عدداً وأوسع نفوذاً وانتشارا .

ولم يكن هذا الاتجاه غريبا فقد كانت مدرسة حزب الأمة المستمدة من الدائرة الصماء (دائرة النفوذ الغربى) هى مدرسة التسليم للغرب ، وإن داهنت بالهجوم على الاحتلال البريطانى ، فهى تهاجم الاحتلال العسكرى ولكنها تتحرك فى إطار الاحتلال الفكرى الغربى .

وكانت حركة اليقظة العربية الإسلامية على طوال تاريخها هى حاملة لواء مخاصمة النفوذ الغربى سياسياً وفكرياً معاً ، وقد خرجت القوى المناضلة كلها من مدرسة اليقظة : أحمد عرابى ، ثوار الأزهر ١٩١٩ ، السلفيون فى المغرب الذين قادوا الحركة الوطنية المصرية حين حمل لواءها (سعد زغلول ، على شعراوى ، عبد العزيز فهمى ، محمد محمود ، لطفى

السيد ، وغيرهم) كان مفهوما لديهم يختلف عن مفاهيم مصطفى كامل ومحمد فريد : فقد كانت تجمعهم رابطة العضوية فى حزب الأمة والجمعية التشريعية وعبارتها واضحة الدلالة فى تشكيل الوفد « السعى بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجد للسعى سبيل فى استقلال مصر استقلالاً تاما » وهو تعبير هزيل مضغوط ، يبدو منه الولاء للاحتلال والتحرك فى دائرته : فقد اختفت كلمة الجلاء والحرية والمقاومة .

ويمكن القول أن أبرز أسباب غلبة النفوذ الفكرى الغربى هو سيطرة الاستعمار بمدرسة جماعة من أبنائه هى مدرسة حزب الأمة وانبثاق الأحزاب السياسية عنها بعد الحرب العالمية الأولى .

- ٣ -

يمكن القول أن النفوذ الاستعمارى قد تحول على طريق مدرسة حزب الأمة وخلفائها إلى مذهب فلسفى سياسى ، قوامه مصر للمصريين ، الفكر الليبرالى الغربى ، التنكر للجذور والدين والأخلاق ، التحرر من قيود العربية والإسلامية والاتجاه نحو الغرب .

والحق أنه لم يكن فى استطاعة الاستعمار أن يفرض وجوده الفكرى والاجتماعى إلا عن طريق مذهب فكرى يعتنقه أتباعه وينفذونه نيابة عنه ، لذلك فإن الاستعمار استطاع فى فترة التمهيد خلال حكم كرومر (٢٥ عاما) أن ينشىء المدرسة القادرة على أن تحمل لواء هذا المذهب وقد وعدها أنه سيسلمها مقاليد الأمور ، وكان على رأس المدرسة سعد زغلول فى نظارة المعارف ، ولطفى السيد فى قيادة الثقافة والصحافة ، وفى هذه الفترة تم إنشاء الجامعة وحزب الأمة ، واستطاع لطفى السيد أن يدفع آراءه من عام ١٩٠٧ إلى ١٩١٤ وكذلك حمل سعد زغلول لواء المخطط فى وزارة المعارف بالاشتراك مع دنلوب ، ثم مصّره وجعله متقبلا لجميع من يلى هذا المنصب من بعد ، وقد تم وضع جميع الخطط والمناهج التى تحقق الهدف :

وفى مجال البعثات التعليمية أمكن إعداد دفعات كان من أبرز

رجالهـــــا :

محمود عزمى ، وهيكل ، وطه حسين ، ومنصور فهمى .

وأمكن التأثير فى مجال الأزهر ، فاستطاعت حركة التغريب كسب على عبد الرازق ، وفى خارج هذا النطاق ظهر سلامه موسى واسماعيل مظهر وكثيرون ، وبذلك تحقق استيعاب جوانب الأنشطة المختلفة فى كلية الآداب ووزارة المعارف والصحافة .

ورسم سعد زغلول منهج الحكم ورأس مدرسة ظلت تحكم حتى عام ١٩٥٢ ، سواء أكانت عن طريق حزب الوفد نفسه أم عن طريق الأحزاب التى انشقت عنه وأهمها حزب الأحرار الدستوريين ، فإن المخطط الفكرى كان متفقاً عليه ، ولم يكن هناك خلاف بين الوفد والأحرار الدستوريين فكرياً (إذ الجميع ثمرة حزب الأمة وتعاليم لطفى السيد وسعد زغلول التى تشكلت قبل الحرب العالمية الأولى ، وكان الجميع فى دائرة كرومر الصماء) أما الخلاف فكان فى التفاصيل ولم يكن فى الأسس ، كان الخلاف من داخل الإيمان بالنفوذ الأجنبى والمحافظة عليه ، وليس خروجا عليه .

أما قوى الأمة الفكرية ، وامتداد اليقظة العربية الإسلامية التى كانت تتمثل قبل الحرب العالمية الأولى فى الحزب الوطنى وحركة الشيخ محمد عبده وتلاميذ جمال الدين وغيرهم ، فقد أعادوا تشكيل أنفسهم فى صورة جديدة ، كانوا جميعا فى صفوف الهيئات الشعبية الأهلية ، ولم يكونوا فى صف الحكم والقيادات السياسية التى استأثرت بها مدرسة سعد زغلول والوفد الموكل عن الأمة .

وقد برزت هذه الحركة فى صورة الجمعيات الإسلامية المختلفة ، وفى بعض خطباء البرلمان ، وعدد كبير من الصحف والمجلات والمؤلفات .

أما العمل السياسى ، فقد تقاسمته مدرسة حزب الأمة وثمرتها الوفد والأحرار على النحو الذى رسمه كرومر ، والذى ارتضاه النفوذ الاستعمارى البريطانى تقبلا له وإذعانا واستسلاما ودعوة خافتة إلى الاستقلال .

وقد تم ذلك بعد أن صفى الاحتلال البريطانى كل القوى الوطنية

الجريئة المناضلة التى كانت تعمل قبل الحرب ، ولم يبق إلا أصحاب النفوذ من داخل الدائرة الصماء .

وكانت فلسفة النفوذ الاستعمارى تتمثل فى كلمات لها طابع براق ، هى التجديد والحضارة ووحدة الفكر العالمى وعظمة أوربا وأنظمتها وأبطالها وكان هذا هو مادة الصحف الكبرى : « الأهرام » و « السياسة » و « المقطم » وغيرها .

- ٤ -

١ ــ كان سعد زغلول عند ما تزعم الحركة الوطنية ١٩١٩ صاحب ماض طويل داخل حلقة النفوذ الغربى والنفوذ الاستعمارى فهو الذى استقال من مشروع إنشاء الجامعة عندما عينه كرومر ناظراً للمعارف ، وهو الذى اعترض على التعليم باللغة العربية ، ودافع عن مد امتياز قناة السويس ، وهو بطل مقابله ١٣ نوفمبر التى كانت تطالب بإلغاء الحماية وتنظيم الاحتلال .

وقد صوره تشارلس آدمس فى كتابه الإسلام والتجديد فى مصر ، هذه الصورة الفريدة ؛ « كان فى الجانب الأكبر من حياته العامة صديقاً للاحتلال صادق النية مخلص الرأى ، عاون البريطانيين فى خطتهم التى أرادوا بها إصلاح الإدارة ، واختياره لوزارة المعارف فى الوقت الذى كانت فيه المدارس منبع التهييج الوطنى ومستقره تدل على الثقة التى كانت الحكومة تضعها فيه » .

« أما دفاعه فى مجلس شورى القوانين ١٩٠٩ عن اقتراحات مد امتياز قناة السويس فقد كان شاهداً على ولائه وأن أهاج معارضيه ، وقد قرر اللورد كرومر أن سعداً من أقطاب شيعة الشيخ محمد عبده الممتازين ، وأنه مما لاشك فيه من أقدر الرجال الذين عاونوا الإنجليز » .

وقد اختير لتقلد نظارة المعارف ١٩٠٦ ليقضى على روح الثورة التى نشرها مصطفى كامل بتهييجه المتواصل بين تلاميذ المدارس ، وكان قد عظم تأثيرها فى نفوس الطلاب ، وانتشرت فيهم انتشاراً سريعاً

وأصبح الإخلاد إلى الهدوء من الأمور المستعصية ، وبذل سعد زغلول جهداً عظيمـاً فى هذا السبيل . » ا.هـ .

٢ ــ وقد اشترك سعد زغلول فى وزارات الاستعمار : مصطفى فهمى ، وبطرس غالى ، ومحمد سعيد ، ووضع قانون تقييد الصحافة والنفى الإدارى ، وسعد هو أول زعيم قبل مبدأ المفاوضة مع الإنجليز ، وقدم المشروع الأول الذى هو من أسوأ الصفحات فى حياته وتاريخه ، وهو الذى قبل الحكم على أساس تصريح ٢٨ فبراير ، ثم استقال بعد حادث السردار ضعفا منه عن مواجهة الموقف : يقول الأستاذ أحمد وفيق : « منذ عام ١٨٩٠ ــ ١٩١٣ والإنجليز يحتضنون سعداً ، ومنذ عام ١٩١٣ ــ ١٩١٨ وهم يمنونه ويواسونه ومنذ عام ١٩١٩ إلى ١٩٢٧ وهم يداعبونه ويدللونه » .

وسعد زغلول هو الذى طالب بحكومة زغلولية لحماً ودما ، وهو الذى وضع قواعد السياسة التى سارت عليها مدرسته طوال ربع قرن كامل وهو صاحب التصريحات الملتوية المضطربة : هل عندكم تجريدة ، دلونى على السبيل ، الاستنكار شىء والتنفيذ شىء آخر ، الإنجليز خصوم شرفاء معقولون ، لانجلترا فى مصر مصالح لا تتعارض مع الاستقلال .

ولقد تمزقت وحدة الأمة فى عهده ، وبفضل تعاليه واستطالته ، وليس بعد موته كما تقول بعض كتب التاريخ ، بل ومن قبل عودة زملائه من باريس بعد أن اكتشفوا فيه صفات الأثرة والاستعلاء .

ويكشف خطابه إلى ثروت هذا الطابع الواضح : « ما أنت بزعيم فى الأمة ولا رئيس حزب بها حتى يكون هناك أهمية لخلافك أو وفاقك ، ولكنك فرد اختبرته السلطة الإنجليزية فوجدت فيه آلة صالحة لترويج سياستها ضد بلاده فسلطته عليها ؛ أمامك المنابر العامة فاعلها إن وجدت سميعا ، والجرائد السيارة فاكتب فيها إن وجدت قارئا ، والنوادى الخاصة فتحدث إليها إن وجدت نصيراً » .

هذا ثروت التى تعاون معه سعد وقبل أن يعمل رئيساً لمجلس النواب وهو فى منصب رئيس الحكومة .

وهو سعد زغلول الذى تحادث مع ونجت (١٣ نوفمبر ١٩١٨) وفاوض ملنر سنة ١٩٢٠ وقبل تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وحكم على أساس الدستور الذى أعلن من قبل أنه وضع من قبل (لجنة الأشقياء) وهو الذى عارض عدلى وثروت ثم قبل أن يعمل معهما وهما رئيسان للحكومة .

٣ ــ ولم يكن سعد زغلول مفكراً صاحب نظرية ولا داعية سياسيا يمكن أن تلتقط أفكاره من خلال كتاباته بل كان متقلبا فهو معورف بصلاته بالشيخ محمد عبده وتردده على صالون نازلى فاضل ، وعرف بعلاقاته برجال الجريدة وحزب الأمة .

قالت جريدة « التيمس » أنه ممن سماهم اللورد كرومر فريق الجيروند فى النهضة المصرية الوطنية .

وقد أشار الخديو فى مذكراته التى نشرتها جريدة « المصرى » سنة ١٩٥١ أن لسعد وأخيه (فتحى زغلول) علاقة فى تكوين حزب الأمة .

وقد كان سعد حائراً بين التيارات المختلفة حتى أصهر إلى مصطفى فهمى فانعقدت الروابط بينه وبين الإنجليز واختير وزيراً للمعارف فى سبتمبر ١٩٠٦ .

٤ ــ يقول (جون أدوين مارشال) فى كتابه اللغز المصرى عن سعد زغلول :

« أتيح لسعد أن يدخل الأزهر ضمن المجاورين الذى ينالون الجراية فى ذلك العهد .

ولما كثرت أرباحه ابتاع عزبتين فكانت شهرته وثروته سبباً فى اتصاله بأصدقاء من طبقة أعلى كثيراً من طبقته . وكان قاسم أمين يعلمه الفرنسية ، ورشدى يقويه فى علم الحقوق وأدخله قاسم إلى منزل الأميرة نازلى ، التى سعت لعقد قرانه على إحدى كريمات مصطفى فهمى باشا وكان من المستحيل فى ذلك العهد إدخال رجال المحاماه فى مجتمع الطبقة العالية ، ولتذليل هذه العقبة عينَّ سعد بنفوذ حميه العتيد قاضياً فى محكمة الاستئناف ورأى سعد فى فكرة الجامعة المصرية وسيلة لزيادة التقدم والظهور فتشبث

بها وطفق يحبذها ، ويسعى إلى إنجازها ، واضطر اللورد كرومر إلى الانحناء أمام العاصفة متى أثارها سعد زغلول ، فعين وزيراً للمعارف على أن معرفة زغلول لأساليب التعليم كانت مقصورة على ما تلقنه فى الأزهر ، أما معارفه فى العلوم الأخرى فكانت ضئيلة أو بالأحرى معدومة ، وعندما اقترح عليه تمثيل مصر فى الاحتفال بذكرى انقضاء مائة عام على وفاة دارون ، تساءل : من هو « دارون » هل هو خطيب ، وقد استخدم سعد فكرة إنشاء الجامعة ليعمل دوراً فى الحركة الوطنية ، فلما انقضى تمثيل ذلك الدور ، ونال غايته فيه تقاعد عن مواصلة الاهتمام به والمضى فيه إلى الأمام .

وقال : سعد زغلول هو الخطيب المطبوع الذى خصه الله بمواهب سامية للتأثير على الجماهير والمقدرة على التلاعب بعواطف العامة ، كان ذا شخصية عظيمة ولكنه كان يجهل كل الجهل الأشياء التى من شأنها تكوين السياسى المحنك ، وكان الغرور من صفاته البارزة والمشهور عنه أنه كان يستخدم أصدقاءه لمآربه الشخصية ، كما أنه كان يسحق خصومه تحت قدميه عندما تسنح الفرصة ، وعندما تولى الحكم لم يكن ينشر الحرية والمساواة بل القوة والاستبداد ، لإذلال كل من لم يخر له ساجداً ، وكان عهد حكمه عهد محسوبية واستبداد ، وكان من جملة خصاله مقدرته على الظهور بمظهر الطيبة والبشاشة ، وكان حاكما مطلقا على رأس حكومة استبدادية بائسة ، وكان البرلمان صفراً على شمال الرقم ، وفى وسع سعد أن يقول بلا مغالاة : « أنا مصر » .

يقول فون فنجان(1) : « عبر لى زغلول باشا السياسى المصرى الشيخ فى حديث جرى له معه فى القاهرة عن رضاه الجم لتحول الحركة بسرعة من الروح الدينية إلى الروح القومية فى بلاد إفريقيا المختلفة ، وفى مصر والشرق الأدنى ، وعن ترحيبه بتلك الروح واعتبارها فاتحة سعيدة للمستقبل ، وأفضى إلى باعتقاده أنه متى وقف الرأى العام الحر فى أوربا وأمريكا على هذه الحقيقة الجوهرية وهى أن شعوب المشرق تريد أن تحكم نفسها حسب طريقتها مع الاستعانة بالنصائح الفنية وخبرة الغربيين فى المسائل الاقتصادية والمالية والتهذيبية والتعليمية وغيرها ، فإن شعوب الغرب لن تؤمن بالزعم

---

(1) السياسة اليومية ١٩٢٥/١٢/٢٢ .

القائل بأن هذه الحركة هى حركة الشرق ضد الغرب » .

وهذا النص يكشف مفهوم سعد زغلول للرابطة بين المصريين والعرب وبين أوربا : تبعية مطلقة حتى لا يظن الغربيون أن هذه البلاد لها استقلال أو رغبة فى معارضة أوربا ، ومن نماذج هذا الاتجاه ذلك النداء الذى أرسله إلى البرلمان الفرنسى وقال فيه :

« إن اللغة الفرنسية قد أصبحت بين عائلاتنا أشبه بلغة قومية ثانية وباللغة الفرنسية تعبر النخبة الممتازة عن نفسها » .

وقال سعد زغلول لعبد الرحمن عزام عن العرب : إذا جمعت صفراً إلى صفر فصفر .

٦ ــ وصفه جورج لويد فى كتابه : مصر منذ عهد كرومر : إنه كان مؤمناً بالصداقة البريطانية ، وإن كرومر أراد أن يقدم فى شخصه عَرْبُوناً للود لصديقه مصطفى فهمى أن يختار سعد زغلول لوزارة المعارف المنشأة حديثاً .

وقد أشار رشيد رضا إلى تحول سعد زغلول فقال : « إن سعد دخل فى أطوار الفرنج فى هيئته وأفكاره الاجتماعية والقانونية وغلبت النزعة الوطنية المصرية عنده على فكرة الجامعة الإسلامية ، أما العبادات فلا نعلم أنه كان يذهب إلى المساجد إلا فى الاحتفالات الرسمية ، وأنكر عليه أهل الدين أموراً منها عمله على تجرئة النساء على السفور المتجاوز للحد الشرعى ، .. على أنه كان شديد الإعجاب بنفسه وعدم المبالاة بخصمه ، بل غلبت عليه فى المدة الأخيرة المحاباة السياسية فصار يؤثر المتملقين على المتنزهين عن التملق ، والدهان حتى من محبيه الناصحين »[1] .

٧ ــ دمغ اللورد ملنر (سعد زغلول ومدرسته) فى عبارة دقيقة حين قال : « إن الهيئة المستحقة للاعتبار المعروفة بالوفد التى يرأسها سعد زغلول باشا والتى تتسلط على عقول المصريين تمام التسلط ولو فى هذا الحين على الأقل ، مؤلفة من أعضاء أكثرهم ليسوا من الغلاة المتطرفين بل أصلهم من حزب الأمة القديم الذى كان غرضه التقدم الدستورى تدريجياً بخلاف

(١) م ٢٨ المنار .

الحزب الوطنى الذى هو حزب الثورة ومعارضة البريطانيين .

وفى ضوء هذه النظرات يمكن إلقاء الاضواء على السياسة والحزبية فى هذه الفترة على أساس تشكيل حزب الوفد ١٩١٨ وتمزقه إلى أحزاب متعددة ، على النحو الذى صوره لورد ملنر والذى استمد وجوده من عبارة كرومر المعروفة :

« الاحتفاظ بأيد مصرية بينما تعمل العقول البريطانية من وراء ستار » وبالجملة فإن « المعتدلين » هم الذين أمسكوا بزمام الأمور : وأبرز المعتدلين : سعد زغلول ، وعدلى ولطفى السيد وعبد العزيز فهمى وإسماعيل صدقى .

ويمكن القول أن سعد زغلول هو أول زعامة مصرية سياسية انفصلت عن مفهوم التكامل بين الوطنية والسياسة ، وبين الإسلام والوطنية ، على النحو الذى كان يعرفه مصطفى كامل والذى يعبر عن مفهومه بأوضح عبارة حين يقول : « قال أعداؤنا أننا نخلط الإسلام بالوطنية ونتكلم دائما عن المسلمين ونطلب إدخال التربية فى التعليم وفسروا ذلك بأنه تعصب ذميم ، فكيف لا تكون إنجلترا وألمانيا متعصبتين وهما الدولتان المتمسكتان بالتعليم الدينى فى مدارسهما ونتهم نحن بالتعصب الدينى .

لماذا يكون الإنجليزى وطنياً وبروتستنتيا فى آن واحد ولا يكون المصرى المسلم وطنياً ومسلماً ولا تكون الوطنية صحيحة إلا إذا قضت على الدين ومحته ، إلا أن الحقيقة الساطعة التى لا ريب فيها أن الوطنية والدين يتفقان معاً بل وقد يكونان متلازمين ، لذلك كان من المستحيل إحياء الأمة وإنهاضها بغير الحقيقة الدينية فالتعليم الدينى ليس فرضاً من الوجهة الدينية فحسب ، بل هو كذلك من الوجهة الوطنية » .

أما سعد والذين جاءوا بعده فقد تجاهلوا هذه الحقيقة ، وجهر سعد بمبدئه الجديد فى خطابه بفندق الماجستيك فى يوم الأربعاء (٦ أبريل ١٩٢١) بالإسكندرية وأعلن أن الديانات لا صلة لها بالوطنية أو السياسة وأنها مقصورة على عبادة الخالق . ونسى أن الإسلام ليس كذلك وأنه دين ومنهج حياة .

هذا هو روح الاتجاه السياسى الذى غلب على فترة ما بين الحربين وفى ضوءه يمكن تفسير كل الأحداث .

- ٥ -

١ — أما لطفى السيد فقد كان من أبرز رجال ثورة ١٩١٩ وأكبر المؤسسين لحزب الأحرار الدستوريين الذين انشقوا على سعد زغلول « سياسيا » وإن ظل الاتجاه العام للحزبين فى مسار واحد هو مسار الإيمان بالولاء الفكرى والسياسى والاجتماعى للغرب وأوروبا والاستعمار ، وإن حمل لواء الدعوة إلى الاستقلال والمطالبة بالحرية السياسية فى نطاق التفاهم والسعى ما وجد إلى السعى سبيلاً مع بريطانيا وحدها (على حد عبارة سعد زغلول فى محادثة الباشوات الثلاثة مع المعتمد البريطانى) .

وكان لطفى السيد هو قائد الفكر بينما كان سعد هو قائد السياسة ، وكانت لهما لقاءات تكشف عن تفاهم كامل فى الخطوط العامة وإن اختلف الأمر بين الحزبين أو بين سياستين أو بين رجلين أحدهما خطيب وجماهيرى ورجل آخر مقنن ومنظم (هو لطفى السيد) الذى أطلق عليه من بعد أستاذ الجيل ، فقد عاش بعد سعد زغلول المتوفى ١٩٢٧ أكثر من ثلاثين عاما ، وكان دوره فى الجامعة التى ولى العمل بها منذ أن أصبحت أميرية ١٩٢٦ إلى حوالى عام ١٩٤١ وكان من وراء جريدة « السياسة » وأستاذاً لقادة الفكر فيها ، حتى يمكن أن يقال عنه بحق أنه أبو الفكر التغريبى الحديث ورافع لوائه ومقننه ، وقد أتاح له العمر الطويل أن يرسى قواعده فى الجامعة وفى الصحافة جميعاً وحتى حق لجريدة « السياسة » الأسبوعية : أن تقول عنه أنه (كان أباً للمدرسة الحديثة فى الفكر المصرى بحق والأب الأول لكتاب مصر الحديثة فى أسلوبهم عن طريق « الجريدة » (المدرسة التى تخرج فيها أكبر كتاب مصر)[1] وقد وصفته السياسة الأسبوعية بأنه كان صاحب شخصيتين : « قال أنا سفورى بعقلى حجابى بقلبى ، وهو أول من دعا إلى الديمقراطية ، ولكنه على الرغم من

(١) السياسة الأسبوعية (فبراير ١٩٣٧) .

هذه الدعوة أرستقراطى التفكير أرستقراطى المنزع[٢] » وتقول مجلة « السياسة » الأسبوعية عنه أن موضع الغرابة فيه أنه كان مديراً للجامعة المصرية دون أن يكون أستاذاً أو تربوياً ، وقد دهش لذلك العلماء حتى قال أحدهم : « كيف تريدنى أن أصدق أن الأستاذ لطفى السيد أصبح عميداً للجامعة المصرية فى حين لم أسمع بأنه أفاض على الطلاب درساً أو ألقى محاضرة فى العلم واحدة » أما عن الاعتراض الثانى على شخصيته فهو اتهامه بالتكلف يقول : « رجل أخذ نفسه من كل أقطارها بألوان التكلف ، يتكلف فى مرح الشباب ثقل الشيخوخة ، ويتكلف فى مجالس اللهو حياة الجد ، لقد أخذ نفسه بهذا التكلف كله حتى أصبح له طبعاً وسجية ، وأكبر ظنى أنه لو شاء يوماً أن يرسل نفسه على سجيتها لتكلف فى هذا كثيراً ، ولطفى أول من رفع راية الديمقراطية فى مصر ، وأنك لتراه مع هذا أرستقراطى الفكر ، شديد الأثرة للرأى ، ولقد تخالفه إلى غير وجهه فيأبى إلا أن يغلبك ولقد يغلبك بمحض الجدل يتحرف به تحرفا » .

٢ — وكما جمع أدباء مصر فى جريدة « الجريدة » ، ثم فى جريدة « السياسة » . ثم فى الجامعة جمعهم مرة رابعة فى المجمع اللغوى وقد كان للطفى السيد رأيه فى اللغة ورأيه فى التعليم ورأيه فى الوطنية ورأيه فى العروبة وهى آراء تخالف ما آمنت به حركة اليقظة من قبله وفى خلال ذلك العصر ، وهى تعد الآن بالنسبة لتطورنا آراء رجعية متخلفة ضاربة إلى أبعد الحدود فى متاهات الجحود والتخلف ولكنها كانت فى يومها ذات بريق ، وكانت فى مضمونها تمثل ما يريد النفوذ الأجنبى ، وما يؤدى إلى دعم هذا النفوذ ، وإلى احتواء الثقافة العربية وكانت له قدرة بارعة وعبارة أنيقة فى عرض هذه الآراء على نحو ملىء بالتمويه ، خادع للأذهان البسيطة والعقول المخدوعة .

وقد امتدت آراؤه بعد الحرب ونمت وسيطرت وتعمقت فى كلية الآداب وجريدة « السياسة » ، وقد أدخلت هذه المدرسة الأنظمة الديمقراطية الغربية أو مايطلق عليه مذهب الحريين L, beralrism وهو مذهب فشل فى مصر كل الفشل وأثبت ولاءه الأجنبى الاستعمارى .

---

(٢) نفس المصدر .

كما أدخل الثقافة الغربية فى التربية والتعليم والأخلاق ، وكذلك الثقافة اليونانية حيث اهتم لطفى السيد بترجمة أرسطو فترجم من آثاره كتب (الطبيعة ، والكون والفساد ، والأخلاق السياسية) ومهما يكن فالمؤكد تاريخياً أنه لم يترجم من هذه الكتب حرفا واحداً وأنها ترجمت باسمه ، فإن هذا كان معناه واضحاً : هو فرض نفوذ أرسطو على الثقافة العربية ، بينما كانت أوروبا قد أشبعت أرسطو ومنطقه هدماً ، وأصبحت تنكره ، بعد أن ارتبط فى نظرها بالفردية وفلسفة غرب أوروبا السياسية ، وقد كان لطفى السيد تابعاً ومواليًا وداعياً بالمثل الأعلى الغربى فى السياسة والاجتماع والتربية والتعليم والأخلاق ، ومن هنا فقد كانت حركة التعقيل التى دعا إليها محاولة للقضاء على الوطنية الداعية إلى التحرر من الاستعمار ، كما كانت حركة المصرية التى دعا إليها محاولة لخلق سياسة إقليمية منعزلة عن العالم العربى ، وكانت دعوته الفكرية فى مجموعها محاولة لشجب الجذور والتراث والقيم الأساسية المنبعثة عن الفكر الإسلامى .

٣ ــ كان لطفى السيد إقطاعياً وأرستقراطياً فلم يكن إلا واحداً من هؤلاء الذين كون النفوذ البريطانى وجودهم ، وأبوه سيد أبو على استطاع أن ينمى ثروته فى ظل الاحتلال ، وكان زميلاً لأبيه فى عضوية حزب الأمة ، وكان أبوه يؤثره على أخيه بأربعمائة وخمسين فداناً وتلك ، صفات فرضت طابعها على فكره وحياته ، ولقد كان مفهومه للحكومة أنها « حكومة نصف أرستقراطية نصف حكومة الأعيان » ومن هنا فإن التعليم يكون مقصوراً على الطبقات العليا وحدها ، وقد ظل صاحب هذه الآراء مشرفا على الحياة الفكرية والأدبية والثقافية فى مصر من خلال دار الكتب والجامعة والمجمع اللغوى حتى آخر حياته ، وقد أحصى الباحثون للطفى السيد مواقف لا تضعه فى صف التقدميين أو بناة النهضة منها : أولاً : نشأته فى بيئة إقطاعية معروفة وارتباطه الدائم بالإقطاعيين فى مراحل العمل السياسى ، وقد اشترك فى عدد من الوزارات التى عطلت الدستور ووقفت ضد الديمقراطية مما يدل على أنه كان حريصاً على أن يتحرك فى إطار مصالحه السياسية كواحد من أبناء أسرة إقطاعية كبيرة ، اشترك فى وزارة محمد محمود ، ووزارة اليد الحديدية ١٩٣٨ ووزارة صدقى ١٩٤٦ التى حاربها الشعب ..

« ومن أخطاء لطفى السيد أو من جوانب النقص فى شخصيته أن إنتاجه الفكرى الخالص لا ينم عن أنه صاحب فكر ، فهو خالى الوفاض ، مشوش الفكر ، ويدل على أن الذى ساعده على أن يجعل مكانه فى حياتنا الفكرية والثقافية ، هو أنه كان من أسرة كبيرة ومن طبقة اجتماعية عالية ، وشعاره مصر للمصريين جعله عازلاً عن أى إحساس عربى فى الميدان السياسى أو الميدان الثقافى ، وقد وصل به ذلك إلى درجة مفرطة من تجاهل الروابط العربية بين مصر والأجزاء الأخرى »[1] .

٤ — ومما أخذ على لطفى السيد وعُدَّ من العوامل البعيدة المدى فى تقديره التاريخى ، وسجله كثير من المؤرخين الباحثين (وفى مقدمتهم الدكتور عبد الرحمن باغى فى كتابه عن الأدب الفلسطينى المعاصر) هو أن لطفى السيد شارك عام ١٩٢٥ فى حفل افتتاح الجامعة العبرية بالقدس ممثلاً للجامعة المصرية بوصفه مديراً لها ، وكان من بين قلة من العرب الذين كانوا يعرفون مدى خطورة هذا الاتجاه إذ ذاك ، وكان من زملاء لطفى السيد اللورد بلفور صاحب وعد بلفور المشهور .

ولو كان لطفى السيد على قدر كاف من الوعى والثقافة لحرص أن يتخطى هذا الموقف الشائن الذى حاول من بعد ذلك أن يعتذر عنه بقوله إنه شارك فى عمل علمى لا دخل له بالسياسة ، وكان هذا الفصل فى تفكيره بين العلم والسياسة واضحاً فى الفصل بين الإسلام والوطنية وبين العروبة والمصرية ذلك آفة فكره الكبرى . وكان معنى ذلك هو أنه التمس مفهوم التغريب والاستعمار لهذه المفاهيم ولو تعمقها فى جوهرها لوجد أن الإسلام ليس ديناً لاهوتيا ولوجده دين حضارة ونظام مجتمع ، ولو أراد أن يفهم هذا المعنى — هو وسعد زغلول — وهو مما ردده أستاذاهما جمال الدين ومحمد عبده ، وكان مقطع القول فى دعوتهما — ولو أرادا ذلك لفهما ، ولكنهما كانا يريدان شأناً آخر ، كانا يريدان أن يصبحا من ذوى النفوذ فى مصر على الطريق الذى رسمه كرومر ودعا إليه الشباب فى عصره

---

(١) مجلة الكاتب ، ١٩٦٧ بتصرف من بحث لأحد الكتاب .

وتحقق لهما ما أرادا فظلا مسيطرين على الحياة المصرية طوال فترة ما بين الحربين ، ويمكن القول أنهما بذلك التطبيق كانا معارضين لجمال الدين ومحمد عبده رغم ادعائهما الانتساب إليه .

٥ — عارضت جريدة « الشورى » اشتراك لطفى السيد فى حفل الصهيونية بافتتاح الجامعة العبرية فقالت فى ٢ أبريل ١٩٢٥ : أن قبوله الذهاب إلى حفلة سياسية خبيثة ملبسة بلباس علمى مما يمس مكانته ويوغر الصدور عليه ، وما قولك بذهابه إلى بلاد أبرق إليه أهلها « لا تحضر باسم أمتك حفلة مضرة بنا » .

ولكن لطفى بك أصر على السفر ، وقد سافر لطفى بك رغم هذه التلغرافات التى جاءته ومن بينها برقية من نابلس تقول : الطبقات المفكرة فى نابلس تناشد الأستاذ لطفى السيد ألا يلوث اسمه بحضور الحفلة الصهيونية ومشاركته للشامتين بعواطف فلسطين والعرب وحقوقهم ، أما جريدة « السياسة » فقد هللت لهذا الحدث وأولته تقديرها فقالت : « إن الاحتفال بتأسيس الجامعة العبرية فى القدس ذو معنى خطير بعيد المدى لا يقتصر على فتح مدرسة أو إنشاء معهد كبير للتعليم ، فمثل هذا العمل يجرى كل حين فى جميع أنحاء العالم ، ولكنه احتفال بعث اللغة العبرية من القبر وإعادتها إلى مصاف اللغات الحية ، وإيجاد أمة عبرية ذات خصائص ذاتية ، وهى تعنى أن الجيل الجديد الذى يلده اليهود القادمون من جميع فجاج الأرض إلى فلسطين سيكون شعباً واحداً بل أمة واحدة تجمعها وحدة اللغة ووحدة الدين ووحدة الوطن » .

أنظر إلى أى حد بلغ الأمر بتلاميذ مدرسة لطفى السيد فى جريدة « السياسة » وبلغ فهمهم للأمور .

٦ — ومن الظلم يقال أن هذه المفاهيم التى أذاعها لطفى السيد وسعد زغلول وجريدة « السياسة » هى قوام الحياة الفكرية المصرية العربية والإسلامية ، بل هى على العكس من ذلك ، كانت تشق طريقاً مظلما ضد التيار الأصيل وضد الذاتية العربية والمزاج النفسى والعقلى ولا تجد قبولا إلا من فئة قليلة من ذوى النفوذ ، ولطالما وجدت المعارضة والدحض

والسخف هو سبيلها وتضليلها ، ولم تمر فكرة واحدة من هذا[1] النوع ولا رأى دون أن تجد الرد عليها صادعاً صارما ، ولم تكن جريدة « السياسة » ولا « الجريدة » من قبلها توزع إلا عدداً تافهاً بجوار الصحف الوطنية ذات الأساس الفكرى العربى الإسلامى .

ولكن هذه الصحف كانت تسندها قوة النفوذ الأجنبى وتفسح لها الطريق لتصبح هى القوة الكبرى ، ولتصبح هذه الآراء هى فلسفة الحياة السياسية والاجتماعية . ومن الحق أن يقال أن لطفى السيد أرسى مفاهيم السياسة الأوربية ونظمها فى الحكم والقانون ، ذلك النظام الديمقراطى الغربى الذى أثبت فشله فشلا ذريعاً خلال الفترة التى طبق فيها ، كما خلق جيلاً أسلم إليه بعد الحرب قيادة الحركة الفكرية ويصدق فى هذا قول جورج انطونيوس « فى نفس الوقت الذى كانت النخبة العربية المكافحة تعمل للتحرر من نير الغرب السياسى والعسكرى كانت تسعى إلى إدخال القيم الغربية فى الحياة العربية مكان القيم الإسلامية » .

- ٦ -

من خلال هذه المدرسة السياسية (لطفى السيد مؤسسها الفكرى) وسعد زغلول قائدها السياسى تبدو معالم الحياة خلال فترة ما بين الحربين .

* موقفها من الأمة العربية .
* موقفها من الفكر الإسلامى .
* موقفها من العالم الإسلامى .
* موقفها من الغرب والاستعمار والصهيونية .

وكان إعجاب هذه المدرسة واضحاً بالصهيونية كما كان أبلغ إعجابها بالحركة الكمالية التى قام بها فى تركيا أتاتورك اللعين وأزال الدولة

---

(١) كانت جريدة « السياسة » لا توزع إلا فى بلدان معينة ، وكانت تقرأ سراً فى البلاد الأخرى ولم تكن لها شعبية أو قراء بالمعنى الصحيح سوى العمد ورجال الحكومة .

العثمانية وألغى الخلافة وحقق كل آمال الاستعمار والنفوذ الأجنبى ووضع أمام الأمة العربية والمصريين صورة جديدة للتغريب لها بريق خاطف وقد قام الدعاة يوقدون لها النار وينثرون البخور ، غير أن الموقف لم يمتد إلى أمد أكثر من العام الثلاثين من هذا القرن حتى كانت قوى جديدة من أعمق أعماق هذا الوجود الوطنى الشعبى قد أخذت تبرز فى قوة ، بعد أن بلغ الصراع بين الحزبين غايته فى سبيل النفوذ الشخصى والمطامع الذاتية وصولجان الحكم ، وبعد أن تحولت الوطنية إلى سياسة ، والمعركة إلى خلاف بين الأحزاب لا بين الأحزاب وقوى الاحتلال .

هنالك تحول الموقف وبدأت الهزائم تواجه النفوذ الفكرى التغريبى ، وبدأت طلائع اليقظة العربية الإسلامية تحتل مكانها مرة أخرى فى مجالات الأزهر والصحافة والجماعات والهيئات ، ويعلو اسمها من جديد بصوت رصين فيه قوة مستمدة من إيمان بتجديد أساليب الفكر والحياة لمواجهة الغزو الفكرى والرد على الشبهات ودحض المفتريات . وكان طه حسين وعلى عبد الرازق قد أصدرا كتابيهما : الشعر الجاهلى والإسلام وأصول الحكم ، وكانت الحركة الكمالية قد أسقطت الخلافة الإسلامية ، وكان وعد بلفور قد أخذ طريقه إلى إقامة الوطن الصهيونى فى قلب فلسطين ، وكانت حركة التبشير قد استشرت فى مختلف العالم العربى .

هنالك ظهرت بوادر « مد » عربى إسلامى لليقظة الفكرية تمثل فى عدة مظاهر رصينة :

(الأول) قيام الحركة الوهابية الجديدة فى قلب الجزيرة العربية .

(الثانى) تنبه الأذهان إلى الحركة الصهيونية ومحاولة انتزاع فلسطين .

(الثالث) إنشاء الجماعات الإسلامية كرد فعل لحركة التبشير .

(الرابع) تعديل مسار الدعوة المصرية الوطنية إلى دعوة ذات طابع إسلامى وعربى بدلا من الطابع الفرعونى .

(الخامس) انعقاد المؤتمر الإسلامى فى القدس .

(السادس) بدأت نهضة الأزهر ويقظته بقيادة المراغى .

(السابع) نشوء المجمع اللغوى فى الشام ١٩٢٢ وفى مصر ١٩٣٢ .

(الثامن) تنقية الحركة الصوفية والاتجاه بها إلى التحرر من الجبرية .

ومن خلال مؤسسات الأزهر والجمعيات والمجمع والصحف والكتب ودار العلوم ، ومن خلال مجلة المنار ومجلة الفتح وجمعية الشبان المسلمين وعشرات الجمعيات وصحفها قامت حركة ضخمة استطاعت أن تواجه شبهات التغريب التى حملت لواءها كلية الآداب ، وجريدة « السياسة » ، و « المجلة الجديدة » و « العصور » ، واستطاعت أن تدحض الاتهامات التى حمل لواءها سلامة موسى عن اللغة العربية ، وطه حسين عن الثقافة ، ومحمود عزمى عن الإلحاد ، وعلى عبد الرازق عن الخلافة ، وإسماعيل مظهر عن المادية وزكى مبارك وعبد الله عنان وغيره فى مختلف مجالات دعوات اليونانية والفصل بين العلم والدين والأدب المكشوف والإستشراق والتبشير والنظرية المادية والعامية وحركات البهائية والماسونية . واستطاعت اليقظة العربية الإسلامية أن تدافع عن قيم الفكر الإسلامى ومقدراته ، وتواجه حملات الاستعمار والصهيونية والماسونية والغزو الثقافى .

لقد نمت حركة اليقظة الإسلامية وتداخلت فى ثلاث مراحل من خلال المؤسسات وتمكنت قبيل الحرب العالمية الثانية من استقطاب أغلب المفكرين الذين كانوا مستغربين سواء على مستوى العربية أو الإسلامية أو المصرية ذات الأرضية الفرعونية وقد اقتحمت هذه الحركة كلية الآداب وجريدة « السياسة » نفسها وتحول كثير من المفكرين الذين تعلموا فى الغرب وكانوا أكبر أمانة لفكره : من أمثال منصور فهمى والدكتور هيكل وزكى مبارك ، بالإضافة إلى المفكرين الإسلاميين الذين تعلموا فى الغرب أمثال : الدكتور عبد الحميد سعيد ، الدكتور الدرديرى ، الدكتور على مظهر .

ويمكن القول أنه عندما سقطت الخلافة وتمزقت الوحدة الإسلامية فإن الوحدة العربية بدأت تأخذ مكان الوحدة الإسلامية جامعة بين الدول العربية إزاء الخطر الذى كان قد بدأ يتحرك فى قلب فلسطين ، وإن كان الفكر الإسلامى لم ينس رابطة الأخوة الإسلامية وتطلعها الدائم إلى عودة

هذه الرابطة إلى الحياة من جديد ، وقد استطاعت حركة اليقظة أن تحل كثيراً من التعقيدات التى حاول التغريب فرضها وأهمها أن الوحدة العربية لا تعارض الرابطة الإسلامية بل ربما كانت طريقاً إليها .

* * *

الفصل الثالث

نمو حركة اليقظة واتساع آفاقها

مضت حركة اليقظة فى هذه المرحلة خطوات جديدة أكثر عمقاً واتساعاً على هدى المراحل التى قطعتها من قبل ، متجددة فى أساليبها ومضمونها ، ومسايرة روح العصر ، ومتكافئة مع التطور الفكرى والثقافى ، موسعة آفاقها مقتحمة مجالات جديدة ومعطية وجهة نظر الفكر الإسلامى فى مختلف القضايا المثارة وعاملة على إنماء البناء ودعمه وتعميق جداره ، وذلك كعمل طبيعى يجرى فى المسار الطبيعى لليقظة ثم عملت فى نفس الوقت فى مجال مقاومة الغزو والرد على التحدى .

ويمكن القول بصفة عامة أن حركة اليقظة فى هذه المرحلة قد عملت فى عدة ميادين : فى مقدمتها الكشف عن قدرة الفكر الإسلامى على تقديم حلول جذرية للمعضلات والقضايا والمشكلات العصرية ، وكشف السحب عن وجه الإسلام الحضارى ومواءمة الفكر الإسلامى للديمقراطية والإشتراكية والقومية ، وتركزت حركة اليقظة فى عدة ميادين أهمها :

ميدان العقائد والتشريع والأخلاق .

ميدان تجديد الفكر السياسى والاجتماعى .

ميدان تأصيل مفاهيم التربية والتعليم .

ميدان كشف الرابطة الوثيقة بين الفكر الإسلامى وبين العلم والحضارة .

تحرير اللغة العربية من قيد التقليد والزخرف .

تحرير العقيدة من التقليد .

تحرير التصوف من الجبرية .

تحرير الفقه من الجمود وفتح الباب للاجتهاد .

إصلاح الأزهر ومحاولة التقريب بين المذاهب .

تأكيد مفهوم التصوف السنى .

تأكيد إسلامية الوحدة العربية وترابط الإسلام والعروبة .

استشراف جديد للتاريخ الإسلامى .

دعم الطوابع الإقليمية (كالمصرية والفينيقية وغيرها بالجذور العربية الإسلامية) .

وقد استهدفت اليقظة فى الجملة تأكيد معانٍ عدة :

إن الإسلام ليس ديناً فحسب ولكنه دين ومنهج حياة .

إن هناك التقاء بين الإسلام والحضارة بحسبان أن المنهج العلمى التجريبى هو من إبداع الحضارة الإسلامية .

إن الثقافة العربية : هى إسلامية المصادر والغايات .

أن القيم الأساسية للفكر الإسلامى والثقافة العربية يجمع بين العقل والروح (وقد كان هذا المفهوم دافعاً إلى التقارب بين التصوف والسنة) .

* * *

امتدت حركة اليقظة فى مرحلة ما بين الحربين من منطلق طبيعى لها ، وقامت على أساس المفهوم الأساسى للفكر الإسلامى المستمد من القرآن الكريم والمتجدد باسم دعوة التوحيد ، ووفقاً للإضافات والتطورات التى حققتها الحركة إلى ما قبل الحرب الأولى متمثلة فى جهود المجددين والمصلحين : محمد بن عبدالوهاب ، الشوكانى مجدد اليمن ، رفاعة رافع الطهطهاوى ، الألوسى الكبير ، جمال الدين القاسمى ، عبد الرازق البيطار ،

عبد الرحمن الكواكبى ، على يوسف ، أحمد كمال باشا ، محمد على السنوسى ، حفنى ناصف ، عبد الحميد الزهراوى ، خير الدين التونسى ، جمال الدين الأفغانى ، محمد عبده ، وطائفة أخرى عملت فى المرحلةالسابقة ثم امتد عملها خلال هذه الفترة رشيد رضا ، فريد وجدى ، أحمد زكى باشا ، أحمد تيمور ، رفيق العظم ، شكيب أرسلان ، مصطفى الغلايينى ، أحمد الشريف السنوسى ، محمد بن على العربى العلوى ، أبو شعيب الدكالى ، توفيق البكرى ، عبد العزيز جاويش ، عبد الرحمن البرقوق ، عبد القادر المغربى .

ثم استطاعت هذه الحركة أن تقدم خلال الفترة التى ندرسها مجموعة أخرى منهم : محب الدين الخطيب ، عبد الحميد بن باديس ، حسن البنا ، طنطاوى جوهرى ، أحمد السكندرى ، المراغى ، الظواهرى ، محمد بخيت ، الطاهر بن عاشور ، محمود أبو العيون ، عبد العزيز الثعالبى ، هيكل ، مالك بن نبى ، محمد البهى ، عباس العقاد ، مصطفى السباعى ، كرد على ، علال الفاسى ، عبد الحميد سعيد ، شاكر ، محمد أحمد الغمراوى ، الدكتور الدرديرى ، معروف الأرناءوط ، بهجة البيطار ، بهجة الأثرى ، أمين الرافعى ، محمد الخضر حسين .

وقد امتدت حركة اليقظة إلى أطراف الأمة العربية كلها مترابطة فى أصولها بمفهوم التوحيد ، وتجاوب الفكر الإسلامى مع العصر والحضارة ، والقدرة على إعطاء الحياة والمجتمع فى كل عصر وبيئة ، وكانت أبرز مراكزها القاهرة ومكة والشام والمغرب .

فقد كانت هناك المدرسة الإسلامية فى الأزهر بمصر ، وفى النجف بالعراق ، وبالقرويين فى المغرب ، وبالزيتونة فى تونس ، وكانت هناك المدرسة الإسلامية الشامية والمدرسة والإسلامية فى السودان والسنوسية المجاهدة فى ليبيا ومدرسة الجزائر وجماعات الشبان المسلمين والهداية الإسلامية والأخوان المسلمين ومدرسة دار العلوم ومدرسة المنار ومدرسة الفتح ومدرسة الرسالة ، ومن خلال ذلك عملت هذه الكتيبة من الأعلام الذين كانوا قد جمعوا بين ثقافات الشرق والغرب وبينهم من تعلم فى الأزهر وفى دار العلوم

وفى جامعات استانبول وفرنسا وألمانيا ، ولم تكن اليقظة فى هذه المرحلة مقصورة على طبقة معينة أو قطر معين ، فقد امتدت دعوة التوحيد حتى شملت كل الأطراف ، وكانت بدايات القرن واضحة الدلالة فى إعادة طبع كتب ابن تيمية وابن حجر ، وكان الاتجاه النسائى واضح وضوحاً قوياً فى مدارس الشام ومصر والمغرب ، وكان لعودة الوهابية فى الجزيرة العربية أكبر الأثر فى تعميق هذا المجرى الذى كان هو علامة القوة والحيوية وتحرر الفكر الإسلامى والثقافة العربية من جبرية الصوفية التقليدية التى سيطرت فترة طويلة ، وكان لها أثرها الكبير فى التخلف والجمود .

ومن الحق أن يقال أن مفهوم التوحيد والتحرر من التقليد كان بعيد الأثر فى الحياة الفكرية جميعاً ، وكان هو أكبر علامات القوة ، وإذا كان بدا وامتد على أيدى أهل المرحلة السابقة فإنه قد أضاف إليه جديداً لا شك فى جدته فى هذه المرحلة ، هو تأكيد مفهوم الرابطة بين الدين والمجتمع ، وأن الإسلام ليس ديناً فحسب ، ولكنه دين ونظام مجتمع ومنهج حياة وأنه عقد اجتماعى وحضارة وثقافة وفكر للشرق كله : الفكر الفارسى والهندى واليونانى بعد أن صهره وشكله من جديد فى إطار التوحيد .

* * *

لقد عملت حركة اليقظة فى المجال الشعبى الاجتماعى وعاشت مع مشاعر الناس وعقولهم عن طريق الكلمة المكتوبة والكلمة المقولة ، عن أى طريق الصحف . ومنابر الجمعيات ، فظهر بعد الحرب العالمية الأولى عدد ضخم من الصحف والمجلات فى مقدمتها صحيفتان يوميتان لهما طابع إسلامى عربى هما « الدستور » (محمد فريد وجدى) و « الأخبار » (أمين الرافعى) وكانت « اللواء » و « المؤيد » قد توقفتا خلال الحرب وكانت « المنار » (رشيد رضا) ماتزال تصدر شهرياً ممثلة خطا ممتداً من أوائل القرن ومتصلة « بالعروة الوثقى » التى أصدرها جمال الدين ومحمد عبده فى باريس وقد عايشتها (الحياة ـــ لفريد وجدى) و « الهداية » لعبد العزيز جاويش و « العالم

الإسلامى » لمصطفى كامل و « العالم الإسلامى » لجاويش ، ثم تابعتها مجلة الأزهر (١٩٠٠) لحسين رفقى و ١٩٠٧ محمود تركى ثم ١٩١٨ الوجديات ١٩٢٠ لواء الإسلام ١٩٢٤ الشورى ١٩٢٤ المؤتمر الإسلامى ١٩٢٤ حضارة الإسلام ١٩٢٥ الزهراء ١٩٢٥ ، مكارم الأخلاق ١٩٢٥ الفتح ١٩٢٦ بشاير الإسلام ١٩٢٦ رابطة الشرق ١٩٢٨ الهداية الإسلامية ١٩٢٨ الشبان المسلمين ١٩٢٩ الجهاد الإسلامى ١٩٢٩ نور الإسلام ١٩٣٠ مجلة دار العلوم ١٩٣٠ النهضة الفكرية ١٩٣١ الجامعة الإسلامية ١٩٣٢ الأخوان المسلمين ١٩٣٣ الرسالة ١٩٣٣ المعرفة ١٩٣٣ ، المسلمون ١٩٣٣ ، الصرخة ١٩٣٣ ، دار العلوم ١٩٣٤ ، هدى الإسلام ١٩٣٤ صوت الإسلام ١٩٣٥ الأزهر ١٩٣٥ الرابطة العربية ١٩٣٦ نور الإسلام ١٩٣٦ المجلة الشرعية ١٩٣٦ الهدى النبوى ١٩٣٧ التشريع الإسلامى ١٩٣٨ النذير ١٩٣٨ مصر الفتاة ١٩٣٨ ، منبر الشرق ١٩٣٨ ، الأنصار ١٩٤٠ واشترك فى تحرير هذه الصحف عدد ضخم من الكتاب ، وقامت فى مجموعها بدور ضخم فى المجالين :

(١) مجال الكشف عن جوهر الإسلام والفكر الإسلامى و (٢) مجال الدفاع والرد على الشبهات التى كانت تروجها الصحف التغريبية . وقد هاجمت هذه الصحف الربا والخمر والمخدرات والإلحاد والإباحة وانحراف الشباب ، وعرضت رأى الإسلام فى التعليم والتشريع والتربية وكشفت عن الحقيقة فى مجال العلاقة بين الفرعونية والعربية وبين العرب والإسلام وبين الدين والمجتمع ، وقد أولت هذه المجلات اهتمامها بقضايا الأقطار العربية والإسلامية وموالاة الدفاع عنها فى مواجهة أعمال الاستعمار والاحتلال والتبشير ، وكشفت عن الجوانب التى غطاها النفوذ الاستعمارى وعنيت بأخبار اليقظة والتقدم فى البلاد العربية والعالم الإسلامى حتى أنها دفعت بعض الصحف اليومية السياسية إلى تخصيص صفحات كاملة لهذه البلاد وخاصة « البلاغ » و « كوكب الشرق » ثم « السياسة » ، وبذلك كسرت هذا القيد من الإقليمية والقومية الضيقة التى فرضها النفوذ الاستعمارى على الصحافة والثقافة ، وحملت هذه الصحف إنذارت كثيرة عن أخطار الصهيونية وواجهت قصة فلسطين ودعت إلى الوحدة العربية ، وأحرزت هذه المجلات

والصحف تقديراً كبيراً من القراء فراجت وزاد توزيعها وفاقت فى ذلك مجلات التغريب : « السياسة » الأسبوعية و « العصو »ر و « المجلة الجديدة » التى كانت معروفة بدعوتها التغريبية وموالاتها للغاصب .

* * *

وحفلت مدرجات ومنابر جمعيات الشبان المسلمين والهداية الإسلامية وجمعية مكارم الأخلاق ومدرج دار العلوم بروادها فى أمسيات محاضراتها التى قام عليها عدد كبير من المفكرين والباحثين أمثال :

عبد الوهاب النجار ، إبراهيم سلامة ، محمد أحمد الغمراوى ، محمد عبد المطلب ، أحمد إبراهيم ، محمود أبو العيون ، طنطاوى جوهرى ، على سرور الزنكلونى ، حسن منصور ، عبد العزيز جاويش .

وفى سوريا قامت جماعة شباب محمد ، وجمعية التمدن الإسلامى ، والجمعية الشرعية ، ونادى المراسلات الإسلامى والأخوة الإسلامية وإحياء مجد الإسلام ، وعشيرة الصوفية الأحرار ، ودار تبليغ الإسلام ، والرابطة الإسلامية ، وجمعية الأنصار ، وجمعية منع المنكرات ، والجمعية الخيرية ، وجمعية المبشرين يرودها عدد ضخم فى أمسيات محاضراتها التى قام عليها عدد كبير من المفكرين والباحثين .

وعرضت هذه الجماعات لكل التحديات ، و لم تترك قضية من القضايا إلا وكشفت وجهة نظر الفكر الإسلامى فيها ، وعملت فى مجال البناء الاجتماعى والأخلاق وحماية الأسرة فى مواجهة الأخطار التى تعرضت لها ، ودعت إلى تنمية روح الدين .

وقد عنيت جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية بإنشاء المدارس للبنين والبنات ، وعملت جمعية الوعظ والدعوة الإسلامية على فتح مكاتب تحفيظ القرآن ، واجتهدت الجمعية الشرعية فى محاربة البدع والمنكرات ونشر التعاليم الإسلامية الصحيحة وفتح مكاتب تحفيظ القرآن والمدارس وإنشاء مساجد تخلو من البدع ، أما الجمعية الخيرية فقد أنشأت جمعيات للفقراء ، وبلغ

عدد من علمتهم فى الفترة من ١٨٩٢ ــ ١٩٤٢ (٤٦ ألف تلميذ) ولها مستشفاها الكبير ومدرستها الصناعية فى حلوان لتعليم البنات الفقيرات ، وعنى نادى المراسلات بالسعى لتحقيق الوحدة الإسلامية عن طريق التعاون الاقتصادى والثقافى بين الشعوب الإسلامية وأولت جماعة الأخوة الإسلامية (عبد الوهاب عزام) تحت قبة الغورى بجوار الأزهر اهتمامها بالشباب الإسلامى فكانت ملتقى الشعوب الإسلامية من الأتراك والبلقانيين الاقتصادى والثقافى بين الشعوب والتركستان ، وكانت أولى شرائط الأخوة فيها تدريس لغات العالم الإسلامى كالتركية والفارسية والهندية بهدف تحقيق تعارف المسلمين وتعظيم شأن الأخوة ، وأولت دار تبليغ الإسلام . ومازال اهتمامها بدعوة الغربيين إلى الإسلام وقد تحقق على يدى قائدها المهندس محمد توفيق أحمد إسلام مئات من الأوروبيين ، وعنى الدكتور غلوش بالدعوة إلى محاربة المنكرات وأنفق فى ذلك عمره رحمه الله فقد بدأ عمله منذ عام ١٩٠٥ واستمر مثابراً .

وكان للشيخ عبد العزيز جاويش اشتراك واسع فى مختلف هذه الجماعات ، وكان للسيدين محمود خطاب وأمين خطاب دورهما ودور أتباعهما فى الجمعية الشرعية ، وعمل أحمد مظهر العظمة فى جمعية التمدن الإسلامى فى دمشق ، وعمل بهاء الأمرى فى دار الأرقم بحلب ، وعمل الشيخ الخضر حسين فى مكارم الأخلاق ، كما ضمت هذه الجماعات عدداً كثيراً من الأعلام .

* * *

وكانت جماعة الشبان المسلمين هى كبرى هذه الجماعات ، وكان من أبرز رجالها مؤسسها السيد محب الدين الخطيب ورئيسها عبد الحميد سعيد وأعضائها عبد العزيز جاويش وأحمد تيمور والخضر حسين والدكتور محمد أحمد الغمراوى والدكتور يحي الدرديرى والدكتور على مظهر ومحمود على فضلى ومحمد الهيهاوى وعلى شوقى ومن أبرز شبابها : محمود محمد الحضيرى ، ومحمود محمد شاكر ، وعبد الفتاح كبير شاه وكمال اللبان

ومحمد محمود ، ومصطفى محمود القاضى ، وزكى القاضى ، وعبد السلام محمد هارون وعبد المنعم خلاف ومحمد أبو الفضل إبراهيم وتوفيق أحمد وعبد الهادى أبو ريدة .

وقد حددت جمعية الشبان المسلمين أهدافها :

(١) إحياء مجد الإسلام فى عقائده وآدابه وأوامره ونواهيه ولغته ومقاومة الإلحاد والإباحية .

(٢) العمل فى سبيل إحياء مجد الإسلام بإعادة تشريعه وإمامته الكبرى .

(٣) بذل الجهد فى توثيق رابطة الإخاء بين جميع المسلمين وإزالة الجفاء والاختلاف بين طوائفهم وفرقهم .

(٤) السعى لتقوية الأمم الإسلامية بالمعارف التى ترفع مستواها العلمى والاقتصادى والاجتماعى والتى تزيد المسلم تمسكا بتعاليم الإسلام وفضائله .

كما أعدت الجمعية برامج متعددة شاركت فيها مختلف الجمعيات والهيئات التى انبثقت منها وفى مقدمتها درس مشروع تأسيس بنك إسلامى وجمعيات تعاونية إسلامية وتأسيس صحيفة إسلامية يومية وتأسيس بنك إسلامى وتعميم اللغة العربية فى البلاد الشرقية وتكوين عصبة أمم إسلامية لحل المنازعات الإسلامية . وتشجيع المسلمين على إعادة الخلافة وإنشاء مدرسة تعلم القرآن فى كل جمعية ، واتحاد الكشافة الإسلامية ونشر أحاديث النبى الصحيحة لتكون موضع التثقيف الدينى والدعوة إلى سن تشريع بمنع البغاء والخمر والميسر ، ومنع التبرج وعشيان الأماكن المدنسة للأخلاق . واتخاذ الروايات التمثيلية الإسلامية وإنشاء مدارس إسلامية ونشر تفسير للقرآن تكتبه لجنة من رجال ذوى كفاية وقيام المسلمين بكتابة موسوعة إسلامية وتأسيس لجنة علمية تقاوم الإلحاد وتغزو عقول الناس ، وإرسال ممثلين لإفحام ودحض شبه المبشرين فى اجتماعاتهم ، والتمييز فى القانون بين الطعن فى الدين وحرية التفكير .

وقد تحدثت مجلة « الفتح » عن هذه الجمعية وقت إنشائها (١٩٢٧/١١/١٧) فقالت أنّ قصد هذه الجمعية السعى إلى أن يكون « الشبان المسلمين » فى مصر وغير مصر ، المثل الأعلى للفضيلة والاستنارة ووزن آراء الرجال بالقسطاس المستقيم حتى لا يطمع ذو قلم أو ذو لسان أن يأخذها إلى غير هدى ، ويكفيها مزية أنها ستجعل لآداب الاسلام وتاريخ عظمائه حظاً وافراً فى محاضراتها وفى إيقاف النشء النجباء على محاسن الإسلام ، وما كان لرجاله من مظاهر العظمة :

وكشفت المجلة عن اتجاه جمعية الشبان المسلمين إلى بث الآداب الإسلامية والأخلاق الفاضلة والسعى لإثارة الأقطار بالمعارف على طريقة تناسب روح العصر والعمل على إزالة الخلاف أو الجفاء بين الطوائف والوق والإسلامية والأخذ من حضارتى الشرق والغرب بمحاسنهما جميعا وترك ما فيها من مساوىء .

وقد أشار الدكتور عبد الحميد سعيد إلى أن جمعية الشبان تكونت فى ظل تحد خطير هو خطر التبشير والجمعيات الإلحادية والتغريبية وقال : رأينا الخطر المحدق بتلاميذنا وشبابنا وخفنا أن يستهدف شبابنا لما فيه من شرور ورأت جماعتنا أن الملحدين وأنصارهم كثروا وأن النزعات اللادينية والعاملين على نشر بذورها وتعميم أذاها قد كثروا ، وإن وسائل تقويض أركان الفضيلة وبث جراثيم الرذيلة ، قد اتسع نطاقها وأن الجمعية جاءت لترد الأمور إلى أصولها .

وقد عملت جمعية الشبان فى ميادين مختلفة أهمها :

(١) درس الحركة الفكرية للأمة العربية والعالم الإسلامى لمعرفة مصادر هذه الحركة الفكرية واتجاهاتها ومقابلة ذلك بحاجة الأمة العربية .

(٢) درس أغراض المستشرقين فى كتبهم ومجلاتهم وجمعياتهم ومؤتمراتهم ولا سيما فيما يتعلق بالعالم الإسلامى والإسلام والرد على شبهاتهم .

(٣) درس مساعى المبشرين والشعوبيين والإطلاع على كتبهم

ونشراتهم الدورية ومعرفة أغراض جمعياتهم ومؤتمراتهم من وجهة نظر وحدة الأمة العربية والإسلام .

(٤) تعريف العالم الإسلامى والأمة العربية بآثار بعضها الأدبية والفكرية وأعلامها .

* * *

وقد نمت الجمعية نمواً سريعاً وأنشأت فروعاً فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى وزاد أعضاؤها على المليون ، وأصبحت قبلة عشرات العلماء والكتاب والزعماء من مختلف أنحاء الأقطار الإسلامية يردون مصر ويحيطون بها ويتحدثون إلى شبابها ، وشاركت فى مختلف قضايا العالم الإسلامى وأهمها قضية فلسطين ، ففى يوليو ١٩٣٠ عقدت مؤتمرها الذى قررت فيه الدفاع عن حق العرب بحائط البراق ، حيث فتح الشبان أعين المصريين على خطورة الوضع فى فلسطين وبعثوا فيها الحماس من أجل العمل ، كما قرر الشبان المسلمون فى أكتوبر ١٩٣٠ الدفاع عن مراكش ، وكذلك اتخذ الشبان المسلمون أنفسهم حراساً للبلاد العربية فى وجه الاستعمار و لم يمنعهم إيمانهم بوجوب تقوية الروابط بين المسلمين من العمل على تقوية الروابط بين العرب ، وكانت أول مطالبة صريحة لهم بالوحدة العربية عام ١٩٣٣ فى ذكرى معركة حطين ، وقام الشبان بحملة من أجل توجيه الثقافة المصرية توجيهاً شرقياً إسلامياً وعربياً سنة ١٩٣٦ ، وكانت حركتهم رد فعل لدعوة طه حسين وأصحابه لتوجيه الثقافة فى مصر توجيهاً غربياً ، واستطاعت أن تصمد لتيار الإلحاد الجارف بعد أن استولى على أدوات الثقافة والنشر فى العالم الإسلامى ، وفى مصر على وجه الخصوص .

* * *

وقد عرض دكتور جورج كفماير لأهمية الشبان المسلمين فى مجال اليقظة العربية ، فقال إن الغرض الأول لهذه الجمعية التى وضعت منذ إنشائها فى يدى مجلس إدارة انتخب من بين العناصر المثقفة والسياسية الأشد تمثيلاً

للروح التى تسودها وتحفزها هو تحقيق الإصلاح الضرورى للهيئة الاجتماعية قاطبة والتى أفسدها المثل السيىء الذى جاء من الخارج والناشىء من إدخال عادات وآداب سيئة (كالمخدرات والخمور والقمار إلخ) ، وإهمال الفروض والأعمال التى يفرضها القرآن على كل المسلمين على السواء ، والعلاج الوحيد على ما قيل هو العودة للقرآن والتأدب بآدابه » وقال إن الجمعية قد ركزت الشطر الأكبر من جهودها ونشاطها فى مقاتلة البعثات التبشيرية ، وإنك لتتبين فى غير عناء أنها وقد أنشئت طبقاً للمادة الثالثة من القانون الأساسى ولتجديد الإسلام ، قد أحست بالحاجة لمقاومة كل نفوذ يمكن أن يسلب التعليم الإسلامى من العناصر التى بدرجة تعليمها العالية وبطبقتها الاجتماعية السامية ، مهيأة لتكون الطبقة الممتازة فى البلاد ، والتى ألزم ما يكون لنجاح الإصلاح ، وسواء كانت المؤتمرات فى يافا وحيفا أو بيت المقدس أو العقبة أو فى القاهرة اتخذت قرارات دقيقة قدمت للحكومات ذات الشأن فى شكل مطالب بقصد المبادرة إلى اتخاذ إجراءات ترمى إلى شل أعمال التعليم الأجنبى المعتبرة خطرة وفى غير أوانها .

وفى تقرير المستشرق كيفماير : أن رجال الجمعية ذو ثقافة عالية جامعة لميراث الشرق وتعاليم أوربا ، شبان فى عنفوان شبابهم ذوو إدارة يغذونها بالنشاط الذى ينبع من الخلق المتين الذى يتلخص فى حب الله وحب الوطن ، والغاية التى يسعون إليها هى وضع الدعائم التى يقوم عليها وحدها كل إصلاح وتجديد ليصلوا إلى العقيدة الخالصة والأخلاق الصحيحة والتعليم التام بما يلائم حاجات بلادهم » أ . هـ

وقد اجتهدت[1] الجمعية على أن تكون حياتها أمام الناس صورة طبيعية مهذبة من الحياة الاجتماعية العامة غير متكلفة ولا معزولة عن الماضى الصالح والحياة العصرية النافعة ، لتقضى فى ذهن الشباب المسلم على الفهم المخطىء لحياة التدين ، من أنها حياة الجمود على القديم ولو كان فاسداً والتغلب على الحديث ولو كان صالحاً ، والحرمان من طيبات الدنيا وزينتها البريئة المتجددة الخالصة ، والانفصال عن التفكير فى الدنيا والدين والانعزال

(١) من تقرير الجمعية بمناسبة مرور ثلاثين عاماً على إنشائها (١٩٥٧) .

عن تيارات الحياة ومصارعتها ، وسوء الظن فيها والرهبة منها ، ومن انه حياة اتخاذ أزياء وسمات خاصة ، ويمتاز شباب الجمعية بأنهم أفراد عاديون معتدلون غير متعنتين ولا جامدين ، متنطعين ، وليس لهم سمة خاصة بهم أو طباع تعزلهم عن السلوك العام للمجتمع ، إلا فيما يتصل بحياة الإثم والانحطاط .

وتلك هى روح الإسلام وطابع المسلمين الأولين فى مدرسة النبى ﷺ فقد كانوا جمعياً أبناء عصرهم الممارسين لضروب العمل الصالح للدنيا فى التجارة والزراعة والجندية والأدب والسياسة والتعليم كما يمارسون التعبد بالعبادات فى غير جمود ولا تمايز وانفصال بين رجال الدين ورجال الدنيا كما تمشياً مع أصل الأصول فى الإسلام وهو صلاح الفرد للحياتين . وقد آمنت الجمعية من أول يوم بأنه لا نهوض للمسلمين إلا بالحرص على الباقيات الصالحات من حضارة الشرق ومواريثه ، والحرص على اقتباس كل ما هو نافع مفيد من حضارات الغرب التى فيها من العلوم والفنون والآداب والأعمال » .

* * *

(٢) المدرسة القرآنية : جماعة الإخوان

وكانت الثمرة الثانية لحركة اليقظة هى جماعة الإخوان التى أنشأها فى الإسماعيلية الأستاذ حسن البنا ، نشأت على التو بعد جماعة الشبان المسلمين بقليل . يقول السيد محب الدين الخطيب صاحب مجله « الفتح » أنه بعد أن تكونت جماعة الشبان المسلمين وصار لها ثلاثمائة عضو يلتقون فيها ، وبعد أشهر من ذلك وفى نفس الغرفة التى ولدت فيها الجمعية سعدت بلقاء بضعة رجال كان المتكلم فيهم يحمل قلباً ولا كالقلوب ، ونفساً لعلها هى التى تهيبت لأجلها التحدث إلى الناس بهذه الذكريات مع مرور أكثر من عشرين سنة عليها ، إن الأستاذ حسن البنا أمة وحدة وقوة كنت أنشدها فى نفس مؤمن قلما أجدها إلا يوم عرفته فى تلك الغرفة المتواضعة من دار المطبعة السلفية ١٣٤٦ وكنت ابن صنعه يوم اكتشفت بينى وبين نفسى حاجة الاسلام إلى هذا الداعية القوى الصابر المثابر الذى يعطى الدعوة من ذات نفسه ماهى فى حاجة إليه من قوة ومرونة ولين وجلد وصبر وثبات إلى النهاية ، وقد كان أول مانشرته ولعله أول شيء نشره هو مقاله (الدعوة إلى الله) فى خاتمة السنة الثانية من الفتح (٢٥ ذى الحجة ١٣٤٦) ثم رجوته أن يحاضر الشبان المسلمين فى دارهم فملأ قلوبهم من قلبه ما شاء الله له من توفيق ومن خلال ذلك كانت نواة (الإخوان المسلمين) قد غرست فى الأرض الصالحة ، وبينما كانت الجمعيات الاسلاميةالأولى تتحول بالتدريج إلى أندية رياضية كانت جماعة الإخوان تبشرت بأنها الأمل الذى يرجوه شيوخ الملة : أحمد تيمور وأبو بكر يحى وعبد الرحمن قراعة واخوانهم يوماجتمعوافى دار المطبعة السلفية بشارع خيرت يعلنون وجه الرأى فى السلاح الذى يقاتلون به موجة الإلحاد التى تحولت بأحداث الغرب وتسلطه من « موجة ماء تهدد بالغرق

إلى موجة بنزين تهدد بالنار تلتهم الأخضر واليابس » .

بدأت الجماعة فى الإسماعيلية (١٩٢٨) وانتشرت فى آفاق الوجه البحرى حتى قدم الأستاذ البنا إلى القاهرة (١٩٣٣) فبدأت عملها بطابعها الخاص الذى عرفت به والذى تميزت به عن الجماعات الأخرى وهى :

التربية — إيقاظ روح الجهاد — الإيمان بالإسلام دينا ودولة ، قال الأستاذ البنا : هل نحن قوم غامضون ، إننا نعمل من أجل غايتين الغاية الأولى هى المساهمة فى الخير العام أيا كان لونه ونوعه ، والخدمات الاهلية كلما سمحت بها الظروف ، أما غايتنا الأساسية وهدف الإخوان الأسمى هو الإصلاح الشامل الكامل الذى تتعاون عليه قوى الأمة جميعا وتتجه نحوه الأمة جميعا ويتناول كل الأوضاع القائمة بالتغيير والتبديل . ويتلخص فى إرشاد الناس إلى نظام اجتماعى شامل اسمه الإسلام ، إن الإسلام جاء نظاماً وإماما ودين ودولة تشريعاً وتنفيذا ، فبقى النظام وزال الإمام واستمر الدين وضاعت الدولة وازدهر التشريع وزوى التنفيذ . أما الوسائل فتتمثل فى الإقناع وليعلموا أن اليوم الذى يكون فيه الإخوان المسلمون مطية لغيرهم أو اداة لمنهاج لا يتصل بمناهجهم لم يخلق بعد ، وأنهم لا يقادون برغبة ولا برهبه ولا يخشون أحداً إلا الله ولا يغريهم جاه ولا منصب ولا يطمعون فى منفعة ولا مال ولا تتعلق نفوسهم بغرض من أغراض الحياة الفانية ومن حاول أن يخدعهم خدع ، ومن أراد أن يستغلهم خسر ، ومن طمع فى تسخيرهم لهواه أخفق .»

وهكذا نجد أن جماعة الإخوان تحمل فكراً جديداً ، فهى فى نفس الوقت الذى تعتبر فيه حلقة من حلقات اليقظة الإسلامية فإنها تركز على عناصر عميقة الدلالة ، تتمثل فيها العودة إلى المنابع ، والتماس أسلوب النبى محمد ﷺ فى الدعوة الأولى ، وتكوين جيل جديد يفهم الإسلام فهماً صحيحاً ويعمل بتعاليمه ويوجه النهضة إليه حتى تكون مظاهر حياة الأمة مستمدة من روحه وفكره على قواعده وأصوله وقد جعل من خصائص الدعوة :

(١) بناء الفرد المسلم على الإيمان والتضحية والبذل .

(٢) التدرج فى الخطوات وانتظار الزمن وعدم التسرع فى النتائج .

(٣) البعد عن مواطن الخلاف الدينى ومزالق الجدل الفقهى .

(٤) التوجه إلى صميم الدين ولبه .

وهكذا كان هذا الجيل الذى كونته الدعوة (من الشباب والطلبة) مختلفاً أشد الأختلاف مع غيره ، فقد ربى على نحو خاص وأعد إعداداً روحياً وتربوياً دقيقاً ، فكان كل منهم يحفظ أجزاء من القرآن وعشرات من الأحاديث ، وله إلمام بتاريخ الاسلام ومواقفه ، وله إلى ذلك هدف صريح ورسالة واضحة وكانوا على الرغم من أنهم لم يبلغوا الخامسة عشرة يبهرون الناس بذلك القدر من الفهم العميق والأداء البليغ ، وكانوا يتصدرون المساجد فى كل مكان ويتكلمون ويؤمون فى الصلوات ، ويتحدثون إلى أجيال أكبر منهم عن الاسلام ودعوته ، هذا الجيل هو العمل الضخم الحقيقى الذى قام به حسن البنا قبل أن يتصدى لتبليغ دعوته إلى القاده والمسئولين والحكام وقد اقتحم هذا الجيل الجامعة وحطم أحلام طه حسين الذى حاول أن يغربها ، فقد سيطرت روح الاسلام الحقة على الجامعة وطرد منها طه حسين .

وكذلك صحح المفاهيم والمصطلحات المطروحة فى الساحة كلها من وجهة نظر الاسلام (الديمقراطية ، القومية ، الاقتصاد ، السياسة) فقال أن الاسلام يجعل الحكومة ركنا من أركانه وهو حكم ومنطق وشريعة وتعليم وقضاء وقانون ، لا ينفك أحدهم عن الآخر ، وأن العمل للوطن ثم للوحدة العربية باعتبارها الحلقة الثانية ، وأن تكون الوحدة العربية منطلقا إلى الوحدة الاسلامية ، وأن تكون الخلافة والعمل لاعادتها على رأس مناهجهم لأنهم يرونها رمز الوحدة الاسلامية ومظهر الارتباط بين أمم الاسلام وأنه لا القومية ولا العالمية بل الأخوة الاسلامية ، ومن ثم فالدعوة جماع كل عمل فهى طريقة صوفيه تعد لاصلاح النفوس ويطهير الأرواح ، وجمعية خيرية نافعة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتواسى المكروب ومؤسسة اجتماعية تحارب الجهل والفقر ، وحزب سياسى نظيف يجمع الكلمة ويبرأ من الغرض ، وبهذا فالإخوان هم دعوة القرآن الحقة الشاملة .

(٢)

وقد جاءت صيحة الدعوة الاسلامية بعد أن غلب اليأس على الاجيال الجديدة من عجز الاحزاب السياسية وفشل النظام الليبرالى الغربى ، وكشفت التجربة خلال سنوات ما بعد ثورة ١٩١٩ عن خيبة الأمل فتعلقت النفوس بالصيحة الجديدة لأنها أقرب إلى الأصالة وقد اعتمدت على العودة بالمجتمع الاسلامى إلى المنابع ، فى التماس طريق الله والانطلاق من النقطة التى بدأ منها رسول الله ﷺ وهى تربية الشباب على الإيمان بالله والتضحية فى سبيله واعتناق الاسلام منهج حياة ونظام مجتمع ، وسرعان ما انفضت العناصر من حول معسكر الحزبية المتصارع الذى كان يتعامل أفراده مع المطامع الداخلية ولم يكن يعمل لمواجهة النفوذ الأجنبى بل أنه كان وهو يدعو إلى الحرية السياسية يخضع خضوعا تاما لأسلوب العيش الغربى ويعلى من شأنه ، ويقف مع المنهج الغربى فى السياسة والاجتماع والاقتصاد موقف الأعجاب والتأييد .

وقد استفاضت أشواق الأمة عن طريق الدعوة الاسلامية فى استشراف المنطلق الصحيح لامتلاك الارادة وقيام المجتمع الربانى وتطبيق منهج الله .

وقد حفلت المرحلة التالية بأحاديث الدور الذى قامت به الدعوة فى معركتى فلسطين والقنال واسلوب الجهاد والتضحية الذى أعاد صورة الرعيل الأول فى تضحيته بالنفس والمال فى سبيل الله ، وكان أعظم ما حققته الدعوة الإسلامية أن فتحت الطريق إلى تحرير الفكر الإسلامى من أخطار التغريب وشبهات الاستشراق والكشف عن المخططات التى كانت ترمى إلى احتواء المفهوم الإسلامى الأصيل وتدميره وتزييفه بفرض مفاهيم وافدة عليه تحول بينه وبين الأصالة الحقيقية ، وكان من أكبر ماأعطت الدعوة الإسلامية أن حررت القيم وصححت المفاهيم وغرزت المنهج الاسلامى الخالص القائم على التوحيد والترابط بين الدين والدولة والعقل والقلب والروح والمادة والدنيا والآخرة وأزاحت تلك المحاولة الخطيرة التى كانت ترمى إلى فرض التصور الغربى للإسلام وفصل

العلاقة بين الله والانسان وحجب مفهومه الجامع الذى لا يستكمل إلا بتقديم منهج العلاقة بين الانسان والمجتمع ممثلا فى نظرة الاسلام للسياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية وبذلك سقطت عن الفكر الاسلامى سيطرة الايديولوجيات الغربية سواء الرأسمالية أو الماركسية أم الصهيونية التلمودية .

وفتحت الدعوة العيون والقلوب إلى مجموعة من الحقائق صاغت أسلوب الأمة على المدى الطويل ؛ فى مقدمتها أن عمل الغرب فى فرض أسلوب العيش الغربى على المسلمين محاولة باطلة وزائفة ، وقد كشفت الأحداث من بعد عن فشل تجارب الليبرالية والماركسية والقومية والعلمانية التى حاول النفوذ الغربى تسييدها وقد حذرت الدعوة من هذا الخطر ووجهت المسلمين والعرب إلى الحذر والحرص فى مواجهة كل ما يقدم الغرب من مناهج وثقافات . ثم أنها جمعت الناس بعد فرقة عاتية سببها اختلاف أساليب التعليم والثقافة بين المناهج الفرنسية والانجليزية وغيرها ، جمعتها على وحدة فكر وعلى إيمان أكيد بحتمية الحل الإسلامى والمنهج الاسلامى ، كذلك فقد حررت الشعور العربى الاسلامى من القومية بمفهوم العصبية والعنصرية والدم وأدرجتها فى حلقات متصلة بالاسلام غير منفصلة عنه .

ولقد كشفت الأبحاث التى نشرت بمناسبة مرور عشرين عاما على مولد الدعوة (١٩٢٨ ــ ١٩٤٨) أنها قد انتشرت فى مختلف البلاد الإسلامية فأصبحت (حركة إسلامية عالمية) وادى النيل ، فلسطين ، الأردن ، سوريا ، لبنان ، العراق ، الكويت ، اليمن ، إمارات الخليج ، الحجاز ، المغرب العربى ، أندونيسيا ، سيلان ، الباكستان ، ايران ، الافغان ، تركيا ، أوروبا ، أمريكا ، وأن الأنصار العاملين فى وادى النيل نصف مليون ، والمنتسبون أضعاف هذا العدد وأنها حققت (إحياء النظام الاسلامى الاجتماعى الكامل) الذى لا يقبل التجزئة فى وحدة متكاملة بكل مظاهره من حيث المثل العليا الاجتماعية أولا ثم من حيث أوضاعه العملية التى تحل كل مشاكل الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، وأنها ليست حزبا سياسيا ، بل حركة إسلامية شاملة مهمتها توجيه الشعب المسلم توجها سليما وتهيئته تهيئة صالحة ، وقد جاء الامتحان لصيحة « الجهاد سبيلنا »

فى قضية فلسطين فاثبت صدق رجال الدعوة وسجل إيمانهم وألحقهم بالسلف الصالح من الأنصار والمهاجرين ، وقد كانت هذه الدعوة فى تقدير المخلصين هى مظهر إرادة الله تبارك وتعالى النافذة وقدرته الغالية وأنها فى هذه المرحلة بمثابة القوة الوحيدة الصامدة أمام الخطرين الداهمين اللذين يهددان العالم الاسلامى والعربى أولا ويهددان البشرية كلها بعد ذلك وهما خطر الإلحاد وخطر الاستعمار (فإن هذه المادية الطاغية الجارفة التى استولت على تفكير وتصرفات الدول الكبرى جعلتها لا تزن الأمور إلا بميزان المنافع والمصالح الشخصية والاستعمارية ، ولا نقيم وزنا لما عدا ذلك من المثل العليا وقواعد الخير والانصاف والسمو ودفعت بها بعد ذلك إلى التحايل على أن تبقى قيود العبودية وأغلالها فى أعناق وأيدى وأرجل الشعوب الناشئة التى ترضى ابدا بغير الحرية والتقدم ، هذه المادية التى تقودها اليهودية العالمية وتمولها الدول الاستعمارية لا علاج لها إلا فى الدعوة الاسلامية ولا قوة تصمد أمامها مع الأسف إلا هذه الجماعة) .

ولقد كانت كل النذر توحى بتعرض هذه الدعوة لأقسى الأمتحان وأشد الاختبار وكان على أصحاب الدعوة الصمود فى وجه المحنة حتى تنجلى فقد أنذرهم بذلك أمامهم ومرشدهم وكشف عن وعد الله الحق لهم إذا ثبتوا أن يتسلموا راية الحضارة الإنسانية ليسعدوا البشرية ويحرروها بعد أن فشل الغرب ، ذلك إن الدنيا قد وصلت فعلا إلى مرحله الحيرة واللهو والضلال وليس غير الدعوة الإسلامية فهى وحدها القادرة على أن تحقق لها أملها والله غالب على أمره .

* * *

- ٣ -

وقد نمت الجمعيات والهيئات الإسلامية والعربية وتنوعت أغراضها خلال هذه الفترة وكان من أبرز الجمعيات ذات الطبيعة المصرية العربية الإسلامية جماعة مصر الفتاة التى عملت فى مختلف أوجه النشاط الوطنى

والقومى والإسلامى .

وكان مفهوم مصر الفتاة : إن الفرعونية ليست إلا مجداً مصريا أثيلا يتغنى به ويوضع موضع التقدير التاريخى الكامل ، أما بالنسبة لأن نخير كمصريين أن نأخذ بالمدنية الفرعونية أم بالمدنية العربية فإن الأمر يختلف كل الاختلاف ذلك أن أساس الحضارة : « الدين واللغة » فهل سيأخذ المصريون بعبادة إيزيس وايزوريس أم هل سيكتبون باللغة الهيلوغريفية بدلاً من اللغة العربية ، إنه من المحتم فى الإجابة على هذا التساؤل أن يأخذ المصريون بالمدنية العربية التى يحيون فى امتدادها : ديناً ولغة وثقافة ، وهكذا أمكن تعديل مفهوم « المصرية » الذى كانت دعوة التغريب تعمل على تحويله إلى مفهوم فرعونى خالص بعيداً عن الأرضية العربية الإسلامية بدلا من مفهوم مصرى أصيل قائم فى نطاق العروبة والإسلام ، أما الأمر الثانى الذى عملت جمعية مصر الفتاة على التركيز عليه فهو محاولة إعطاء الحياة السياسية المصرية طابع الدين والأخلاق ، فقد كان قيام مصر الفتاة بعد الحركة السياسية المصرية بعشر سنوات حجة على فساد هذه الحركة ، هذا الفساد الذى كان مصدره ابتعاد السياسة المصرية عن مفهوم الأخلاق والدين كقيمة أساسية فى العمل السياسى والاجتماعى .

وقد تجلت هذه المعانى فى كتابات أحمد حسين وفتحى رضوان .

مع التركيز على الوطنية والمصرية أساساً : على حد تعبير قادة هذه الحركة :

« مصر التى علمت الإنسانية وأضاءت على العالمين » .

« مصر التى رفعت لواء الأديان جميعاً وأعلت كلمة الله والإسلام » .

« مصر فوق الجميع » .

وكانت هذه الدعوة صادقة فى مواجهة الحملات الاستعمارية واتهامات الاحتلال لمصر بأنها ليست أمة وليس لها تاريخ ، ولذلك فقد جاءت عبارات مصر الفتاة إسلامية المضمون عربية الأساس على هذا النحو :

مصر هى مركز العالم ومعلمة الإنسانية وأم للحضارات ومنبع الحكمة

وموئل الأديان جميعاً ، منها خرجت الديانة الموسوية وبها احتمت المسيحية وهى التى رفعت لواء الإسلام عاليا ، وأنشأت جامعة الأزهر وهى التى حاربت الصليبية فهزمتها وأسرت ملوكها ، وهى التى أنقذت المدنية والعالم من شر التتار المخربين ، وهى التى أفنت كل أعدائها وبقيت حية خالدة ، وهى التى رمت الجيوش الإنجليزية إلى البحر ، وهى التى قرعت جيوشها أبواب أوروبا وأخاف أسطولها الأساطيل أيام محمد على وهى التى تقود الإسلام اليوم ، مصر فوق الجميع ، رغم أنف الجميع .

وقد وجهت مصر الفتاة دعوة وضحت فيها الأخطار التى كانت تحيط بمصـــر :

(١) الأراضى المصرية مرهونة للأجانب .

(٢) رءوس الأموال جلها ملك للأجانب .

(٣) الديون المصرية كلها فى يد الأجانب .

(٤) البرلمان قاصر عن التشريع للأجانب .

(٥) القضاء المصرى قاصر عن الحكم على الأجانب .

(٦) البوليس المصرى قاصر عن إيقاف المجرمين الأجانب .

(٧) الحكومة المصرية قاصرة عن فرض ضريبة على الأجانب .

(٨) تجارة السموم فى مصر يروجها الأجانب .

(٩) الشعب المصرى لا يحترمه الأجانب .

وقد عمدت جمعية مصر الفتاة إلى الدعوة إلى أن الطريق لتحرير مصر من الاستعمار البريطانى يتركز فى القوة وهاجمت الأحزاب السياسية قائلة : أنهم يفهمون الكفاح على أنه مسايرة للانجليز والتفاهم معهم وأن القضية المصرية يمكن أن تحل عن طريق المفاوضات ، طريق سياسة اللين والمصانعة ، وأما نحن فنرى فى الإنجليز أعداء طبيعيين ، لا يضمرون لنا إلا الفناء ، إنه قانون طبيعى ، أن لا تفاهم بين القوى والضعيف . قضيتنا مع الانجليز لا تحل إلا بالحديد والنار ، إلا بالقوة المادية ، إننا نعتقد أن مفتاح القوة

بين أيدينا ، أن الكفاح يجب أن يكون مع أنفسنا ولنغير ما بأنفسنا فيغير الله حالنا ، لقد أصبح الدين الحنيف أثراً بعد عين ، لقد انصرفنا إلى اللهو وانتهاب اللذات ، الشعب المصرى أغرق فى شهواته فهو يسرف فى العبث ويكذب ويغش ويخدع ويقامر ، فلنصلح كل هذا ، ولنطهر أنفسنا ولنرجع إلى ديننا ، وسط هذا الكفاح يجب أن نقوى مواردنا الاقتصادية ونملأ الوطن بالمال والثروة . إن إعادة الروح إلى مصر ليس أمراً هيناً أو سهل المنال ، لابد من تضحيات ، ففى مصر غاصب يحول بيننا وبين محاولة التخلص منه ، غير أن الإيمان الثابت العميق ليدك الحصون وقد اتجهت مصر الفتاة إلى خلق الروح العسكرية .

وقد وجهت الاتهامات إلى مصر الفتاة بأنها اتجاه يستمد مطالبه من حركة الفاشست الإيطالية التى كانت تهز أوربا فى هذه الفترة ، وقد وجه هذا السؤال إلى الأستاذ أحمد حسين فقال : أما أننا نقلد موسلينى وهلتر فلا ، إذ بيننا وبين ألمانيا وإيطاليا فوارق كثيرة فى الأنظمة السياسية .

ثم إن الفاشية الألمانية والإيطالية فاشية مادية لا روحانية فيها ، أما نحن فالجانب الروحى غالب وباد ، ونحن مشغولون بالدين ومهتمون بالدعوة الدينية ، وكل ما بيننا وبين الفاشست من شبه هو هذا القميص على أن القمصان عرفت فى التاريخ قبل أن يعرفها رئيس وزراء إيطاليا ، والتحية التى نرفع بها أيدينا هى تحية مصرية قديمة قبل أن تكون تحية رومانية ، أما الأصول والأسس فلسنا نقلد فيها أحداً ولا نقتبسها من هيئة ولا أمة .

وقال الأستاذ فتحى رضوان : إن نشر الروح العسكرية بين الشباب يحقق روح الإقدام والشجاعة مع الدعوة إلى القضاء على الخمر والموبقات التى تضعف حيوية الأمة وتنخر فى عظامها وقد بدأت مصر الفتاة تسحب الشباب من المقاهى ودور اللهو ، ومقاطعة دور السينما الأجنبية ومحاربة الموبقات وتعلق أهمية كبرى على تنقية المجتمع المصرى من أدران الملاهى والمسكرات والدعارة فإن هذه هى الوسيلة الكبرى لإعادة الأخلاق وكلء الشباب بالروح القوية الوثابة . »

* * *

وقد كان الأزهر على رأس المؤسسات الفكرية الإسلامية العربية التى حملت لواء اليقظة بعد أن جدد نفسه وشارك فى الحياة وأدخل العلوم الحديثة ، وحطم القيد الذى قيده به النفوذ الاستعمارى طوال فترة تزيد على خمسين عاماً منذ بدأ الاحتلال البريطانى ، وعمل على عزل الأزهر عن الحياة لإضعافه ، حتى لا يكون مؤثراً عاملا فى الحياة الفكرية والاجتماعية فى مصر والأمة العربية والعالم الإسلامى ، وقد جرت المحاولات المتعددة لإصلاحه ، بدأها جمال الدين الأفغانى خلال إقامته فى مصر ثم مضى الشيخ محمد عبده فى تحقيق الإصلاح ، غير أن الاحتلال البريطانى كان حريصا على أن يوقف هذا العمل ويجمده ، حتى أمكن لحركة اليقظة الإسلامية أن تدفع الأزهر عن طريق عدد من رجاله الذين خرجهم والآخرين الذين آمنوا بدوره وأهميته ، وكان مشروع المراغى عام ١٩٢٨ حجراً هاماً فى هذه الحركة ثم كانت ثورة الأزهر ١٩٣٥ وما تبعها من إصلاحات دافعاً للأزهر على الخروج من عزلته .

ودور الأزهر فى حماية الفكر الإسلامى (القرآن واللغة العربية) خلال مرحلة الضعف والتخلف له أهميته البالغة ، ودوره فى إثارة حركات المقاومة للنفوذ الاستعمارى واضح الدلالة على مدى أهمية القيم الإسلامية فى النضال من أجل الحرية ، فقد قاوم الأزهر الحملة الفرنسية والاحتلال البريطانى وكانت له مشاركة فعالة فى مختلف ثورات القاهرة ، وفى ثورة ١٩١٩ قاد المعركة حتى وضعه الاستعمار فى صف المخاطر التى يخشاها ورسم خططه على أساس تجميده حتى يستطيع أن ينطلق بأساليب التعليم والثقافة والمجتمع بعيداً عن نفوذ الفكر الإسلامى ، وقد أشار اللورد لويه فى كتابه (مصر منذ كرومر) إلى هذا المعنى حين قال : إن أهمية الأزهر بوصفه مركزاً للدعاية المعادية لبريطانيا كبيرة متعددة الإمكانيات ، وقد أدرك الوطنيون ذلك فحاولوا استغلاله لتأييد مآربهم وترتب على ذلك نمو روح المعارضة الشديدة لسيطرة الإنجليز على التعليم » أ . هـ .

فقد كان التعليم عند بداية الاحتلال البريطانى لمصر فى قبضة الجامع الأزهر ، لذلك فقد عمل الاحتلال على عزل الأزهر ، عن وزارة المعارف وجمد الأول ومضى بالأخرى دون قيود وفق الخطة التى رسمها كرومر ونفذها مع أتباعه وخلفائه وفى مقدمتهم دنلوب .

وكان القانون ٤٩ لسنة ١٩٣٠ هو أظهر تعديل طرأ على الأزهر فى مواجهة التطور وإدخال العلوم الحديثة وتحويل الجامع الأزهر إلى الجامعة الأزهرية ، ففى هذا القانون قسم التعليم العالى إلى ثلاث كليات : (أصول الدين — الشريعة — اللغة العربية) .

وقد قدم الأزهر إلى الحياة الفكرية المصرية عديداً من الأعلام والقادة فى مختلف مجالات السياسة والصحافة والعلوم والآداب ، ويمكن القول أنه خلال الفترة السابقة لظهور الجمعيات والهيئات الإسلامية ، كان الأزهر وحده هو حامل لواء الثقافة العربية والمدافع عن أخطار التغريب وقد حمل لواء المواجهة إزاء حدثين من أخطر هذه الأحداث وهو محاولة طه حسين فى كتابة الشعر الجاهلى التشكيك فى القرآن والكتب المنزلة ، ومحاولة على عبد الرازق فى كتابه الإسلام وأصول الحكم إنكار شمولية الإسلام ديناً ونظام مجتمع ، فلما بدأت النهضة عام ١٩٢٧ تقريباً بقيام عديد من الهيئات وصدور عديد من الصحف كان الأزهر هو القاسم المشترك الأعظم على أنشطة هذه الهيئات والصحف وكان رجاله المستنيرون فى مقدمة العاملين . وكان لدار العلوم دورها الواضح — وهو دور مستمد من دور الأزهر بالتبعية فقد كان شباب دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى من طلبة الأزهر أصلاً وكانت دراستهم للغة والفقه مرتبطة بمناهج الأزهر ولقد كان من أهم ما دعا الأزهر إلى إصلاحه فى هذه النهضة هو تحطيم قيود التقليد وفتح باب الإجتهاد ، وإبراز طائفة من العلماء يجمعون بين الثقافة العربية الإسلامية العميقة وبين الأوروبية العالمية .

وكان النقد فى الأغلب موجهاً إلى الكتب التى يدرسها الأزهر إذ ذاك وهى كتب العصور المتأخرة ، وهى كتب وضعت فى ظل تحديات أخطار الزحف الصليبى والتترى ، بينما تخلف الأزهر عن دراسة كتب الأصول

والأمهات إلى كتب فى العصر الأول ، وهى أكثر إشراقاً واتصالا بمصادر الإسلام الأساسية (القرآن والسنة) وكانت الدعوة إلى تحرير علوم الإسلام وآدابه بأسلوب حديث عصرى ، وإعادة صياغة الفكر الإسلامى على نحو يساير روح العصر ، ويحقق قدرة اللغة العربية على الأداء العصرى ذلك هو ما كان يدعو إليه المصلحون من رجاله ، غير أن خصوم الإسلام والعرب والأزهر قد اتخذوا من هذه الدعوة إلى الاصلاح مقدمة لحملة ضاربة ضد الأزهر ورجاله ، محاولة لقلعه والتخلص منه بحسبانه حجر عثرة فى وجه دعاة التغريب ومحاولات النفوذ الاستعمارى لتثبيت قواعده وأفكاره . ومن هنا فقد كانت الحملة على الأزهر داخلة فى نطاق حركات الغزو الفكرى والتغريب .

ولم ينس النفوذ الاستعمارى ودعاة التغريب والشعوبية عداءهم للأزهر الذى قاومهم منذ اليوم الأول ، حين قاوم الحملة الفرنسية والاحتلال البريطانى ، ولا يمكن للباحث المنصف أن ينسى فى هذا المجال أن « جمود » الأزهر الذى يحسب عليه إنما كان نتيجة لتظاهر قوى النفوذ الإستعمارى والخديويين الحاكمين عليه فهم جميعاً قد رأوا فيه خطراً بالغاً على نفوذهم فوضعوا خطة محكمة تستهدف إضعافه وتهوين مركزه وضياع نفوذه فى مصر والعالم الإسلامى ، ووقفوا فى طريق علمائه وحالوا بين رجاله وبين مراكز القيادة ومناصب الحكم ووظائف الإدارة وأشاعوا بين الناس أنهم يهدفون إلى تكريم الدين ، على أن يكون الإسلام على حد تعبيرهم بعيداً عن السياسة وبمعزل عن الحكم ، فأعفى علماء الدين من التجنيد وأسقط الجهاد عمن حفظ كتاب الجهاد ، وأبعدوا السلاح عن أيدى أولئك الذين يتعاملون بالقرآن ومن ثم أبعد القرآن وتعاليم الدين عن المدارس والمحاكم وسائر دواوين الحكومة ، وأقصى الإسلام وآدابه عن البيوت والشوارع باسم المدنية والحضارة ، وأعادوا قولهم أن مصر بلد فرعونى ، وبذلك شل الأزهر عن الحركة وفرض عليه الجمود فإذا قيل أن الأزهر قد تأخر عن أداء دوره ، فليس ذلك ذنب الأزهر ، ولكنه من عمل الذين حرصوا على إبعاده عن أداء دوره ومهمته وأغلقوا فى وجهه أبواب المجتمع ، وكان من أكثر الظالمين له رجاله والذين تخرجوا فيه من أمثال طه حسين وعلى عبد الرازق .

ولذلك فإنه لم يلبث إذ دفعته حركة اليقظة وحطمت القيود القائمة أمامه ، حتى انطلق فى إصلاح كيانه وإلى أداء دوره ، وأمكن لرجال الأزهر أن يعلنوا الحقائق التى ظلت خفية ، فعندما قال رجال الاحتلال البريطانى أن مصر تعهدت أن تكون قوانينها مقتبسة من أحدث التشريعات العصرية قال المراغى : إن أحدث نظريات القانون الحديث موجودة فى القرآن ، ومن السهل أن تسن قوانين تتفق من نظريات الكتاب الكريم ، إن ميدان التشريع واسع جدا .

وقال : إن نظرية الإخلال بالقانون ، والتى اعترف بها المشرعون المعاصرون أخيرا تدرس فى الأزهر منذ ألف عام ، كما كشف مؤتمر القانون المقارن فى لاهاى (نوفمبر ١٩٣٧) والذى شارك فيه الأزهر بدور فعال عن أن الشريعة الإسلامية شريعة مستقلة قائمة بذاتها لم تتأثر بالقانون الرومانى ، وأعلن أن القانون الرومانى لم يكن له أى تأثير على الشريعة الإسلامية ، وأعلن أن الشريعةالإسلامية تحمل العناصر الكافية التى تجعلها صالحة للتطور مع حاجات الزمن والمدنية . وكشف المراغى عما فى الفقه الإسلامى من نظريات تعد الآن من أحدث النظريات عند رجال القانون ، وقال أن فى الفقه الإسلامى آراء يمكن أن يسير عليها الناس الآن من غير حرج وهى تحقق العدالة فى أكمل صورها ، وأن المذاهب الإسلاميةجملة تغنى عن الاجتهاد فى المسائل التى عرضت من قبل متى تخير العلماء منها ، وأن تخير الأحكام نوع من الاجتهاد .

كما أخذ الأزهر تحقيق غاية من كبريات غايات اليقظة ، وهى العمل على إزالة الفروق المذهبية وتضييق شقة الخلاف بين المسلمين ، وقال المراغى إن بعض المذاهب والآراء قد أحدثتها السياسة فى القرون الماضية لمناصرتها ونشطت أهلها وخلقت فيهم تعصباً يساير التعصب السياسى ، ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية وبقيت تلك الآراء الدينية لا ترتكز إلا على ما يصوغه الخيال وما أقره أهلها ، وهذه المذاهب فرقت الأمة التى وحدها القرآن الكريم وجعلتها شيعاً فى الأصول والفروع .

ودعا الأزهر إلى دراسة الفقه الإسلامى دراسة حرة خالية من التعصب

لمذهب ، على أن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة ، وأن تكون الغاية من هذه الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عليها فى الكتاب والسنة ، والأحكام المجمع عليها ، والنظر فى الأحكام الاجتهادية بما يجعلها ملائمة للعصور والأمكنة والعرف وأمزجة الأمم المختلفة كما كان يفعل السلف من الفقهاء .

وحدد الأزهر موقفه من الدعوة التى انطلقت باسم حرية الفكر فقال : إن لحرية التفكير والرأى مناطق لا يجوز أن يتعداها ، محافظة على كيان الأمة وعلى أخلاقها ، فإن الجمهور الجاهل والنشء المتعلم يجب أن يحاط بسياج الدين وتقديسه وإلا انفلت من كل فضيلة وذهب وراء الشهوات وارتكب أنواع الجرائم والموبقات ، وقال إن هناك نوعا من أنواع الإلحاد هو الاستخفاف بالدين سببه شيوع الشهوات لأن التقيد بالدين وإظهار الإعتقاد به قد يكون مانعا من الاسترسال فى الشهوات ، وأصحاب هذا النوع لا يفقهون أدلة ولا يفقهون عقيدة . وفتح الأزهر باب الإجتهاد بعد أن ظل موصوما بأنه مغلق حين أعلن المراغى أن علماء الحنفية قد وضعوا قاعدة تشريعه هى أن العرف العام يعمل به والعرف الخاص أيضاً ، والعرف العام عندهم بخصوص النصوص والقياس ، ويترك به ظاهر الرواية ، وكذلك يترك ظاهر الرواية بالعرف الخاص ، وقال بعض فقهائهم أن من شروط المفتى والقاضى أن يكون ملما بأهل زمانه وأحوالهم وإلا كان ضرره أكثر من نفعه .

وقال إن المسائل الفقهية ما دامت غير قطعية فهى قابلة بحكم الشرع نفسه للتجديد والتغير ، وقد لاحظ ذلك علماء بغداد ومشرعوهم حتى قرروا إصلاح المجلة القضائية ، وعنده إن من ينظر فى أقوال الأئمة من مذهب أبى حنيفة وما وقع بينه وبين أصحابه محمد وزفر وأبى يوسف وبينهم نجد أن التجديد فى الأحكام الشرعية ميسور لنا وفى أهون مستطاعنا ويجد أن بطلان الدوام لأحكام معينة وبقاءها حيث يبقى الدهر من الأمور البديهية .

* * *

كما أخذ الأزهر يعمق عمله العالمى ، ويوسع آفاقه فى تعليم الأمم الإسلامية المتأخرة فى المعارف وهدايتها إلى أصول الدين وإلى فهم الكتاب والسنة ومعرفة الفقه الإسلامى ، والكشف عن كنوز العلم التى خلفها علماء الإسلام فى مختلف الجوانب الدينية والعربية والعقلية وهى مجموعة مرتبطة بعضها ببعض وتاريخها متصل الحلقات ، وكذلك عرض الإسلام على غير الأمم الإسلامية عرضاً صحيحاً فى ثوب خال من الغواشى المشوهة لجماله وخال مما أدخل وزيد فيه من الفروض المتكلفة التى يأباها الذوق وتخالف طبيعة اللغة العربية ، وكذلك إزالة الفروق المذهبية وتضييق شقتها .

وهكذا انطلق الأزهر فى ظل حركة اليقظة العربية الإسلامية فى الكشف عن مفهوم الإسلام الصحيح ، وفتح باب الاجتهاد وتهذيب الروح الإسلامى واستخراج أسرار القرآن ، وقد تحددت أساليبه ومناهجه فى مجالات حفظ الشريعة الإسلامية وتجديد الفقه وتعليم اللغة العربية ونشرها ، وأدخلت إليه مناهج الدراسات الفلسفية كعلوم الأديان المقارنة واللغات الأجنبية ، وأرسلت البعثات إلى أوروبا وشاركت فى المؤتمرات العالمية كمؤتمر الأديان ومؤتمر القوانين ، ودفع الأزهر رجاله إلى الاهتمام بالجانب الأخلاقى فى عالم الدين والاحتفاظ بالكرامة ، كما دفع الشبهة التى تقول بالفرقة بين الدين والسياسة ، وبين السلطة الدينية والزمنية ، فالإسلام دين ونظام مجتمع ، ولا رهبانية فى الإسلام وإن عمل عالم الدين فى السياسة ليس عملاً حزبيا ، بل عمل عام بالمعنى الذى تؤديه كلمة السياسة عند رجل الاجتماع وهو تدبير شئون الأمة وشئون الدين[1] .

فإذا تركنا الأزهر واتجهنا إلى الزيتونة فى تونس ، والقرويين فى المغرب الأقصى ، وجدنا عوامل اليقظة واضحة ، ومحاولات تجديد المناهج وبناء المعلم الإسلامى والمفكر الإسلامى وفق مناهج الاجتهاد والتجديد والتماس جوهر مفاهيم الإسلام ومعرفة تيارات الفكر الغربى .

وأمامنا المدرسة الفكرية الإسلامية فى الجزائر بقيادة الإمام عبد الحميد

---

(١) من تصريحات للإمام المراغى عام ١٩٣٨ .

ومدرسة المغرب السلفية بقيادة محمد العربى العلوى .

والمدرسة الشامية التى حمل لواءها جمال الدين القاسمى وعبد الرازق البيطار .

وفى العراق مدرستا النجف والألوسى .

وفى مكة ونجد مدرسة التوحيد المرتبطة الصلة بالدعوة التى قادها الإمام محمد بن عبد الوهاب .

وكل هذه المدارس (وقد عرضنا لها بالتفصيل فى مؤلفات أخرى)(١) تسير فى نفس الاتجاه ، وتجد فى حركة اليقظة فى مصر قدوة ومتابعة .

* * *

- ٥ -

وكان للمجامع اللغوية فى القاهرة ودمشق دورها الهام فى المحافظة على سلامة اللغة العربية ، وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون ، وملائمة لحاجات الحياة فى العصر الحاضر ، وذلك بأن تؤدى معانى العلوم والفنون مما يتجدد بتجدد الزمان ومقتضيات الأحوال فى سهولة ويسر ويتحقق ذلك بوضع مصطلحات لكل علم وفن وبالبحث فى الوسائل التى تجعل اللغة سهلة ميسورة على القارئين والكاتبين ، وقد بدأت هذه المجامع فى دمشق ١٩٢٠ ومصر ١٩٣٢ وشارك فيها عدد كبير من الأعلام واستطاعت أن تدفع تلك الحملات الضارية التى وجهت إلى اللغة الفصحى وحققت نتائج بعيدة المدى .

وكان نادى دار العلوم فى مقدمة الأندية العاملة للحفاظ على اللغة العربية ، ومن خلال نشاطه برزت أسماء جاهدت طويلاً فى مقدمتها : محمد الخضرى ومحمود أبو النصر وحفنى ناصف وحسن توفيق العدل وطنطاوى جوهرى وعبد الوهاب النجار ومحمد عبد المطلب وعبد العزيز جاويش .

* * *

---

(١) راجع دراستنا فى هذا الموضوع كتابى (١) الفكر والثقافة فى شمال أفريقيا (٢) العالم الإسلامى والاستعمار السياسى والاجتماعى والثقافى (٣) الفكر العربى المعاصر فى معركة التغريب والتبعية الثقافية .

الفصل الرابع

بناء الفكر العربى الإسلامى ومضامينه

خلاصة المنهج الذى قدمته المدرسة الإسلامية الفكرية الكبرى (الإخوان المسلمين) .

استطاعت اليقظة أن تشكل بناء كاملاً متماسكاً يكاد يكون فى مجموعه صياغة جديدة للفكر الإسلامى العربى ، قائمة أساساً مع جذور الإسلام الأصيل ومتشكلة مع روح العصر ، جارية مع منطلقات التطور والنهضة ، وقد استطاعت هذه الصياغة أن تستوعب خير ما فى الوطنية والقومية على أساس إسلامى ، وإيماناً بأن الطابع الإسلامى هو الطريق الطبيعى والأساسى للفكر العربى المتصل بحركات الإصلاح واليقظة امتداداً لدعوة التوحيد ، وما يتصل بها من دعوات جمال الدين ومحمد عبده ، وعصارة لكل جهاد العاملين فى ميدان حركة اليقظة فى العصر الحديث كله ، استصفاء ، وبلورة وامتداداً فقد عرضت اليقظة الإسلامية « الإسلام » كحل جديد لمختلف تحديات العالم الإسلامى والأمة العربية مع الاستعمار والصهيونية ودعوات الغزو الثقافى وغيرها ، بعد أن فشلت مختلف الحلول التى حملت لواء السياسية والديمقراطية الغربية من خلال دعوات أثارها الاستعمار وحاول بها إقامة حوائط سميكة بين أجزاء الأمة العربية منعاً لها من الالتقاء والتجمع ، والإنطلاق من مصادر فكرها وثقافتها العربية الإسلامية الأصيلة .

وكانت حركة اليقظة فى مختلف جماعاتها وهيئاتها تحاول أن تصوغ هذا الفكر الإسلامى فى نظرية كاملة وأيديولوجية شاملة ، إيماناً منها بأن الإسلام يقدم كل حاجات الأمم ، وأنه يجمع ولا يفرق ، ويقيم

منهاج الأخوة والمحبة ، ويقيناً منها بأن القرآن هو المصدر الأول والأساسى لكل القوانين والدساتير والقيم الفكرية والسياسية والاقتصادية وأنه الاتجاه الطبيعى للأمة العربية الإسلامية الفكر ، وفيه أصالة الماضى والتاريخ وفطرة الأمة العربية ومقومات العقل العربى الإسلامى ، وفى نطاق هذا المفهوم تشكلت القيم الأساسية للثقافة العربية على أصول جديدة :

أولا : الوحدة العربية خطوة أولى وأساسية لليقظة والحرية ولا تعارض بينها وبين الأخوة الإسلامية ، والعروبة ، والعمل الأساسى هو العمل لتحرير مصر والأمة العربية والعالم الإسلامى بأسره من الاستعمار والنفوذ الأجنبى والعمل للإصلاح الدينى والاجتماعى والخلقى .

وقوام النضال : الأخذ من كل شيء أحسنه ، بعيداً عن التذبذبات للشرقية والغربية ، وعلى أساس قاعدة أخلاقية تنبعث أطرافها فى مختلف ميادين الحياة والمجتمع والفكر ، مع الاعتراف بأن الأنظمة السياسية الحزبية المقتبسة من الغرب لم تحقق ما كان مأمولاً فيه ، وأنها أفسدت كل الموازين وأبعدت العرب والمسلمين عن مناهجهم وقيمهم الأصيلة ، ومن هنا كان الاهتمام بالمناعة الخلقية وتغطية حاجة الأمة فى مختلف النواحى وأهمها التربية الاجتماعية والخلقية .

ثانيا : بناء العقيدة إيمانا بأنه لن يؤثر فى النفس الإنسانية شيء كالعقيدة ، ولن يصلح أخلاق الأمم كالدين ، وخاصة الأمم الشرقية التى شابت مفارقها فى مدارسة العقائد والأديان ، واعتقاداً بأنه محال أن تقوم القوانين الوضعية والفلسفة البشرية ، والعلوم الإنسانية ، مقام العقيدة السماوية التى تهبط على النفس المجدبة فتثمر بها ، ويقوم مفهوم العقيدة على طريقة القرآن والرسول فى توصيل العقائد الدينية إلى النفوس والاستيلاء على المشاعر والقلوب ، دون إيراد للآراء والمذاهب ، أو خوض فى مصطلحات الفلاسفة والمناطقة والكلاميين والجدليين ، مع العناية ببيان آثار العقائد فى النفوس .

وأساس العقائد الإسلامية ككل الأحكام الشرعية ، كتاب الله وسنة رسوله ، والعقائد يؤيدها العقل ويثبتها النظر الصحيح ، لهذا شرف الله

العقل بالخطاب وجعله مناط التكليف وندبه إلى البحث والنظر والتفكير ومن هنا نعلم أن الأسلام لم يحجر على الأفكار ولم يحبس العقول وإن أرشدها إلى التزام حدها وعرفها قلة علمها وندبها إلى الاستزادة من معارفها .

إن المثل الأعلى الإسلامى هو : **﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فساداً ﴾** و **﴿ كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾** .

ثالثا : مبدأ « العالمية » وإن كان مبدأ الإنسانية والسلام والخير العام ، إلا أن أمم الغرب وحكومات الإستعمار جعلته شبكة يصطاد بها ضعاف العقول وتكسر به حدة المقاومة عند الشعوب المظلومة حتى تكون لقمة سائغة لها ، وأنه مادامت الأمم الغربية تعتقد فى أمم الشرق الحطة والجهالة والذلة وتترفع عن الاختلاط بها وتظن أنها من طينة غير طينتها ، فإن مبدأ « العالمية » لا يصلح بين العرب والمسلمين بل ويعد من أخطر المبادىء على حياة أممهم ، ومن هنا رفعت اليقظة شعار الأخوة الإسلامية الذى يحوى كل ما فى العالمية من جمال ويضمن للعرب والمسلمين التمسك بعزتهم ، والدفاع عن حوزتهم ، والذود عن أوطانهم ، ومقدساتهم ، وذلك أن سماحة الإسلام تجعل برا وصلة تتسع لأبناء قومنا وإن كانوا على غير ديننا .

رابعاً : قيام التجديد فى الأدب على أصول صحيحة أهمها :

(١) الابتكار فى الأغراض والمعانى والأخيلة والأساليب بحيث يرتبط الأدب بالحياة فى كل مظاهرها ارتباطا وثيقاً ويتمثلها أصدق تمثيل .

(٢) تمجيد السلف والاعتراف بفضلهم وجهودهم وتكريمهم كأسس صالحة ، ورجال بذلوا جهداً مشكوراً فى بناء درجة من سلم الحضارة والمدنية .

(٣) نزاهة البحث والابتعاد عن الغايات والأغراض والأهواء والشبهات .

(٤) كمال الاستقراء وحسن الاستقصاء مع صدق النية فى الوصول إلى الحقيقة .

(٥) خدمة الأخلاق والفضيلة بالأدب بقدر خدمته للفن والعاطفة أو لا خير فى أدب ينتج فوضى الأخلاق ، واضطراب ميزان الاستقامة فى الأمة ، وحينئذ يتحرر العقل حرية حقيقية صحيحة ، من ربقة النزعات الفاشلة وحينئذ يكون التجديد فى الأدب فى مصلحة الأمة ، وحينئذ تتضافرهمم أنصار القديم والحديث على وضع منهج للتجديد بحيث يلاحق روح النهضة التى تسير إليها الأمة ، وحينئذ تكون الأدلة واصلة بين العقول والعواطف ، ورابطة بين الشعوب الشرقية التى تنطق باللغة العربية .

خامساً : الحضارة ومقدار ما يؤخذ وما يترك منها :

ولتكن قاعدة الاختيار هى المنفعة وصالح المجموع : لا الهوى والشهوة ويجب أن تجعل لتاريخنا وحضارتنا وماضينا نصيباً من التقدير والإجلال فلا نفنى فى غيرنا من الأمم ولا ننكر فضلاً سجله التاريخ لأسلافنا ، ولهج الزمان بذكره ، وعرفته لهم الأمم جمعاء ، وكان دعامة من دعائم المدنية الحالية .

وذلك مع التفريق بين العادات والعقائد والأديان والآداب فهذه لا سبيل إلى نقلها ، من أمة إلى أخرى ، إلا بفعل الزمن وحده ، أما المراسيم والقوانين والقهر فكل ذلك لا يفيد ، ولا يغنى عن الإصلاح الحقيقى شيئا .

وذلك ضرورة التدرج فى إدخال ما يجب أن ندخله من النظم والاصطلاحات وملاحظة أن المدنيات لا تؤخذ من نهاياتها وإنما تنقل من أصولها ومبادئها .

وهناك غاية أساسية يجب أن توجه إليها النهضة ، وأن تكون تلك الغاية ملائمة للمزاج الشرق ، متفقة مع روحه العامة الذاتية ، وأن تستند النهضة إلى الإسلام فى نظمه وروحه ومبادئه ، وأن تعنى بالمهم ، بالعلم والاقتصاد ، وأن توحد جهود أبناء الأمة الواحدة ثم أبناء الأمم الشرقية جميعاً وأن نحترس فى نقل ما نأخذه إلا ما ينفعنا نفعاً حقيقيا .

إن الحضارة تأكل نفسها لأنها نشأت مادية لا روح فيها ، الطائرات تدك العمارات الضخمة ، والعلم يحصد الأرواح ويبيد الآلاف والملايين ، ينقص الحضارة دين يهديها وروحانية تصقلها ، دين يرفعها من حضيض

المادة إلى سماء الروح ، ومن جاهلية التعصب إلى حرية الفكر .

سادساً : مقاومة الأخطار الاستعمارية والخلافات السياسية الشخصية والمذهبية والربا والشركات الأجنبية والتقليد الغربى والقوانين الوضعية والإلحاد والشهوات والإباحية وفساد الأخلاق .

إن عدة الشرق خلق وإيمان ، فإذا فقدهما فقد كل شىء ، وإذا عاد إليهما عاد إليه كل شىء .

إن المطلوب هو روح العصر مع التقيد بروح الإسلام ، وذلك بمقاومة العادات الضارة اقتصاديا وخلقيا وتحويل تيار الجماهير إلى العادات النافعة وتهذيب المجتمع تهذيباً يتفق مع المصلحة كعادات الأفراح والمآتم والزار والمواسم والأعياد ، والقضاء على الروح الأجنبية فى البيوت من حيث اللغة والعادات والأزياء وعلاج قضية المرأة بما يجمع بين الرقى بها والمحافظة عليها وإعادة النظر فى مناهج تعليم البنات ووجوب التفريق بينها وبين مناهج الصبيان فى كثير من مراحل التعليم وتعويد الشعب احترام الآداب العامة ووضع إرشادات معززة بحامية القانون وتشديد العقوبات على الجرائم الأدبية ، وتوجيه التمثيل وأفلام السينما ، وتهذيب الأغانى ، والموازنة بين القانون الوضعى والتشريع الإسلامى .

وأهم ما يلزم العرب والمسلمين القوة المادية من المال والعتاد وآلات الحرث والكفاح وأهم منه وألزم : القوة الروحية من الخلق الفاضل والنفس النبيلة والإيمان بالحقوق ومعرفتها والإرادة الماضية والتضحية فى سبيل الواجب والوفاء الذى تبنى عليه الثقة والوحدة وعنهما تكون القوة .

سابعاً : الدين أفضل الوسائل فى إصلاح الأمم . ولابد من إحكام الصلة بين إصلاح النفوس وإصلاح المجتمعات ، على أن يكون إصلاح النفس أساساً لإصلاح المجتمع وأساس التربية الدينية والخلقية ، حيث لا نهوض لأمة بغير خلق ، فإذا استطاعت الأمة أن تتشبع بروح الجهاد والتضحية وكبح جماح النفوس ، أمكنها أن تنجح ، بمعنى أن الأمة إذا استطاعت أن تتحرر من قيود المطالب النفسية والكمالات الحيوية أمكنها أن تتحرر من كل شىء ، ومن هنا كان حجر الزاوية « إصلاح أخلاق الأمة » وآية الإصلاح : تصحيح العقائد وتقويم الأفكار ، وتغيير العرف وتزكية النفوس وتطهير الأرواح وإذاعة مبادىء الحق والجهاد

والفضيلة بين الناس .

وبالتربية الإسلامية يمكن صياغة نفوس الأمة على نسق يضمن لها مناعة خلقية قوية ، ومبادىء فاضلة ثابتة ، وعقائد راسخة ، فإنشاء النفوس وبناء صرح الأخلاق ، وتثبيت العقائد الصادقة هو الذى يدفع إلى جلائل الأعمال .

وإن على الأمم أن تعلم أبناءها حقوقها . فلا تفرط فيها ، وتدأب دوما على المطالبة بها ، والأمة التى تشربت نفسها بالعزة والشعور بالكرامة لا يقربها إنسان لأنه يعلم أن خسارته بمصادمة هذا الشعور الأدبى أعظم من ربحه ، وإنما تهون الأمة على الناس إذا هانت على نفسها قبلهم ، ومن لا يكرم نفسه لا يكرم وإن السر فى تأخر المسلمين هو ابتعادهم عن دينهم وإن أساس الإصلاح هو العودة إلى تعاليم الإسلام ، وأحكامه والمسلمون جميعاً أمة واحدة تربطها العقيدة الإسلامية ، وإن واجب المسلم إحياء مجد الإسلام بانهاض شعوبه وإعادة تشريعه ، وإن من مهمة كل مسلم تربية العالم على قواعد الإسلام والقرآن كتاب الله ، والإسلام قانون شامل لنظام الدنيا والآخرة .

ثامناً : إن المجتمع الإنسانى لن يصلحه إلا اعتقاد روحى يبعث فى النفوس مراقبة الله ، ومن هنا كان على الناس أن يعودوا إلى الإيمان بالله وبالنبوات وبالروح وبالحياة الآخرة ، وبالجزاء فيها على الأعمال ، كل هذا فى نفس الوقت الذى يطلقون فيه لعقولهم العنان ليتعلموا ويعرفوا ويخترعوا ويكتشفوا ويسخروا هذه المادة الصماء وينتفعوا بما فى الموجودات من خيرات وميزات .

وإذا كان الغرب قد عاش أخريات أيامه مادى النزعة لا يشعر بغير المادة ولا يعترف بغير المادة ، وماتت فى نفوس أبنائه عواطف الرحمة الإنسانية ، واكتوت الدنيا بهذه الثروات فقد آن أن يهب الناس من جديد يمزجوا المادة بالروح ، وأن يؤمنوا بالغيب والشهادة وأن يتعرفوا إلى الله من جديد .

لقد لبى الإسلام مطالب الإنسان الروحية والمادية فى تنظيم لا إفراط فيه

ولا تفريط ، بل ما يكفل للإنسان أن يحقق إنسانيته سويا فى هذه الدنيا ، فثمة تنظيم لشهوة البطن (نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع) وتنظيم لشهوة الفرج (وانكحوا ما طاب لكم) والإنسان ليس فرداً بل هو عضو فى جماعة ، وللجماعة عقل جمعى ، يختلف عن عقل الفرد فى مظاهره ومطالبه .

والإسلام تنظيم اقتصادى يهيىء للناس جميعاً الرخاء وتنظيم سياسى يكفل لهم العدل والحرية ، وتنظيم اجتماعى يكفل لهم المساواة ، وهو كل لا يتجزأ متكامل لا ينقصه شيء ، هذه الأصالة ، الوحدة ، التكامل ، هو المنهج الوحيد الذى تأخذ به البشرية .

تاسعاً : التربية المنزلية أساس التربية الخارجية ، إن مدارسنا لا تقدم لتلاميذنا القدر الواجب معرفته من الدين ، على كل فرد أن يغرس مبادىء الدين وأخلاقه وتعاليمه فى نفوس أبنائه ولا يعتمد على هذه المدرسة فى هذه المهمة وعلى أن يكون قدوة لأهله فى التمسك بالدين واحترام أوامره وتنفيذ تعاليمه ، لا تأخذه فى ذلك هوادة ، فإن أثر القدوة فى النفس أشد وأذكى من أثر المواعظ والدروس ، ولا يغفل أمر القدوة الصالحة فهو الحجر الأول فى بناء التربية الدينية والعلم لا يكفى للإصلاح الخلقى : ولابد من تربية العقل وتربية النفس معاً وأفضل الوسائل فى تربية العاطفة والنفس وإيقاظ الروح التهذيبية هو الدين .

عاشراً : معرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده وتنزيهه ، أسمى عقائد الإسلام وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة وما يلحق بذلك من المتشابه نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل ، ومنها علم حقائقها لله تعالى ولا نعترض لما جاء منها من خلاف بين العلماء ويسعنا ما وسع رسول الله وأصحابه « والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » .

وأن الخلاف فى فروع الدين أمر لابد منه ، وضرورة لا يمكن أن نتحد فى هذه الفروع ، والآراء والمذاهب لأسباب عدة منها اختلاف العقول فى قوة الاستنباط وضعفه ، وإدراك الدلائل والجهل بها والغوص فى أعماق المعانى وارتباط الحقائق بعضها ببعض ، والدين آيات وأحاديث ونصوص

يفسرها العقل والرأى فى حدود اللغة وقوانينها ، والناس فى ذلك جد متفاوتين فلابد من خلاف ، ومنها سعة العلم وضيقه ، وأن هذا بلغه ما لم يبلغ ذاك ومنها اختلاف البيئات حتى إن التطبيق يختلف باختلاف كل بيئة ، كل هذا يجعلنا نعتقد أن الاجماع على أمر واحد فى فروع الدين مطلب مستحيل بل هو يتنافى مع طبيعة الدين نفسه ، وإنما يريد الله لهذا الدين أن يبقى ويخلد ويساير العصور ويماشى الأزمان .

حادى عشر : خطأ الاتجاه الذى يجعل من مدنية الغرب أساساً يشكلون الإسلام على غرارها ويصبون قواعده ونظرياته وأحكامه فى قوالبها ، ثم يكون نتيجة جهادهم أن يحللوا كل ما جاء به الغرب بنوع من أنواع الفتاوى والتحليلات .

وهذا الاتجاه يجد من ضعاف النفوس ، ومن ذوى الحظ القليل من البصر بدين الله من يصدق دعواهم ، ومن مثل ذلك التماس التأويل لمجاراة أوربا فى أمر الربا والاستتار بالأضعاف المضاعفة تارة وبالفضل والنسيئة تارة أخرى ، وبالضرورة والحاجة مرة ثالثة .

ثانى عشر : يظن كثير من الغربيين أن فى مقدورهم القضاء على الإسلام وتخليص الأمة فى مصر من الفكرة الإسلامية ، وقد فاتهم أن الحال فى مصر غيره فى البلاد الأخرى ، فقد امتزج الإسلام بدم كل مصرى وتغلغل فى روحه ودمه وعروقه ، وآمن به إيماناً هو أبقى على الزمن الباق من الزمن ، فكل محاولة فى سبيل النيل من الإسلام فى نفوس المسلمين محاولة فاشلة وقد يظن الناس أن الإسلام قد وهن فى نفوس الشعب حتى عجز عن حماية نفسه ، ويهرم الدهر بعد ذلك والإسلام إسلام .

ثالث عشر : إن القرآن الكريم كتاب جامع جمع الله فيه أصول العقائد وأسس المصالح الاجتماعية وكليات الشرائع الدنيوية ، فيه أوامر وفيه نواه ، فهل عمل المسلمون بما فى القرآن فاعتقدوا بما ذكر الله من المعتقدات وفهموا ما أوضح من الغايات ، وهل طبقوا شرائعه الاجتماعية والحيوية على تصرفاتهم فى شئون حسابهم .

إن القرآن حدد غايات الحياة ومقاصد الناس فيها .

ننظر فى القرآن ونفهم أوامره ونواهيه ومواعظه وعبره كما كان يفهمه المؤمنون أيام الوحى ، والحذر من النظر إلى وجوه التفاسير ، إلا لفهم لفظ غاب مراد العرب فيه أو ارتباط مفرد بآخر ، خفى متصله ، ثم لنذهب إلى ما يدعونا القرآن إليه .

رابع عشر : وظيفة المرأة فى الحياة :

ليست الحياة نوعاً واحداً من الأعمال ولكنها أقسام مختلفة تندرج تحت قسمين رئيسيين :

أولا : كسب العيش ووسائله من إدارة المصانع والمتاجر والمزارع وغيرها ، ومنها إدارة المنزل وتهيئة لوازم الأسرة والحمل والوضع والرضاع وتربية الأولاد .

والرجل وحده لا يستطيع أن يقوم بالمهمتين ولا أن يؤدى الوظيفتين ، وكذلك المرأة لا تستطيع ، إذن فلابد من القسمة ولابد من التخصيص لهذا خلق الرجل قوى العضلات ، قوى الفكر ، واسع الحيلة ، وخلقت المرأة لينة الجسم لينة الشعور عاطفية كلها .

خامس عشر : التصوف الحق يراد به تطهير النفس من أدران البشرية حتى تصفو وتشرق وتكون مرآة للحقائق الربانية ، والتصوف الإسلامى بمعناه الصحيح تستمد أصوله وقواعده من كتاب الله وسنة رسوله ككل علم إسلامى .

قال الجنيد : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة فمن لم يسمع الحديث ويجالس الفقهاء ويأخذ أدبه عن المتأدبين أفسد من اتبعه .

وقال أبو الحسن الشاذلى : إذا استند كشف الولى إلى غير الكتاب والسنة فهو كشف شيطانى لا يؤخذ عنه ولا يسلم له .

وقد صار الناس يطلقون كلمة صوفى وابن طريق وولي ودرويش (وهى كلمة فارسية معناها مريد أو ما يقرب من ذلك) على كل من ظهرت عليه علامات التقشف ورثاثة الثياب وعدم العناية بنظافة الجسم ، أو كل من ظهرت عليه دلائل البله بشئون الحياة ، أو كل من تكاسل

عن أداء الفرائض الدينية وارتكب المخالفات وادعى لذلك أعذاراً مجهولة كأن يصلى فى الكعبة أو أنه ينظر فى اللوح المحفوظ ، والتصوف برىء من هذه المزاعم ، ولكنه مقيد بكتاب الله وسنة رسوله .

سادس عشر : محبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهم قربة إلى الله والأولياء المذكورين فى الآية الكريمة .

(الذين آمنوا وكانوا يتقون) والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية مع اعتقاد أنهم رضوان الله عليهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً فى حياتهم وبعد مماتهم فضلاً عن أن يهبوا شيئاً من ذلك لغيرهم .

وزيارة القبور أيا كانت سنة مشروعة بالكيفية المأثورة ، ولكن الاستعانة بمن فيها أيا كانوا ونداءهم لذلك وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعد أو النذر لهم وتشييد القبور وسترها وإضاءتها والتمسح بها والحلف بغير الله ، وما إلى ذلك كبائر ، تجب محاربتها ، ولا نتأول لهذه الأعمال سداً للذريعة ، والدعاء إذا قرن التوسل إلى الله بأحد من خلقه خلاف فقهى فى كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة ، وللإيمان الصادق والمجاهدة نور وحلاوة يقذفها الله فى قلب من شاء من عباده ، ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤيا ليست من أدلة الأحكام الشرعية إلا إذا وافقها نص صريح ، والتمائم والرقى والودع والرمل والكهانة وادعاء معرفة الغيب ، وكل ما كان من هذا منكر تجب محاربته « إلا ما كان آية من قرآن أو رقية مأثورة » .

سابع عشر : الإسلام يحرر العقل ويحث على النظر فى الكون ويرفع قدر العلم والعلماء ويرحب بالصالح النافع من كل شىء ، « والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها » والنظر الشرعى والعقلى من يختلف عن القطعى ، فلن تصطدم حقيقة علمية صحيحة بقاعدة شرعية ثابتة ويؤول الظنى منها فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعى أولى بالاتباع .

والقرآن الكريم والسنة المطهرة مرجع كل مسلم فى تعرف أحكام الإسلام ، ويفهم القرآن طبقاً لقواعد اللغة العربية من غير تكلف ولا تعسف .

وكل يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ وكل ما جاء به السلف رضوان الله عليهم موافقاً للكتاب والسنة قبلناه ، وإلا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالاتباع ، ولا نعرض للأشخاص فيما اختلف فيه بطعن أو تجريح ونكلهم إلى نياتهم ، وكل مسألة لا ينبنى عليها عمل فالخوض فيها من التكلف الذى نهينا عنه شرعا ، من ذلك كثرة التفريعات للأحكام ، والخوض فى معانى الآيات القرآنية الكريمة التى لم يصل إليها العلم بعد ، والكلام فى المفاضلة بين الصحابة رضوان الله عليهم وما شجر بينهم من خلاف ولكل منهم صحبته وجزاء نيته وفى التأويل مندوحة .

ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر فى أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إماماً من أئمة الدين ، ويحسن به مع هذا يجتهد ما استطاع فى تعرف أدلة إمامه ، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صدق من أرشده ، وكفايته وأن يستكمل نقصه العلمى إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر .

ثامن عشر : إعطاء الثقافة المصرية طابعها الإسلامى المميز لها .

أن تاريخ كل أمة يكسبها آخر الأمر مزاجاً خاصاً لا فكاك لها منه ، وقد ظلت مصر مدة أربعة عشر قرناً إسلامية التاريخ والسياسة والمجتمع والثقافة ، إلى أن جاءت نظم التربية الحديثة فأرادت أن تنزع عنها هذا اللون المميز لمزاجها إلى الشيوع فى جميع الثقافات الأخرى .

ولما كانت التربية الإسلامية على ضوء المنطق وضوء العلم الحديث تشتمل فى جميع أحكامها ومنابعها الثقافية والاجتماعية على جميع عناصر التربية الكاملة أصبح لزاماً أن نخلص من هذا الخلط فى سياستنا التعليمية وأن نشرع فى اتخاذ سياسة جديدة أساسها هذا المزاج الإسلامى ودعامتها هذه الروح الإسلامية .

إن مصر بتاريخها الإسلامى تدحض كل زعم بتأثرها بغير هذه العقلية ، ولعل تاريخها الحديث ونهضتها الحاضرة بين الأمم التى قامت على دعامة من فكرها الإسلامى وثقافتها الإسلامية هى خير دليل لمن يريدون الميل بها عن الينبوع الذى استمدت منه مئات السنين مادة قوتها

وتماسكها وإشراقها الخاص بين دول الشرق والغرب .

تاسع عشر : إن منهج الإسلام هو أصلح منهج للمجتمع وهو أجدر بالاتباع والتطبيق ، فقد نظر إلى الفرد فأعطى كل قوة من قواه حقها ، ومنع عدوانها على غيرها ، حرر الفكر من قيود الوهم ومنح العقل حق النظر فى كل ما يحيط به من مظاهر الكون وحجزه عن أن يتطاول إلى مالا تدركه قوته ولا تتحمله طاقته نظر إلى الشهوة والعاطفة وصرفهما إلى الحب الصالح المقيد ، حب الفضيلة وتقديسها وحب الإنسانية العامة والعمل للمجموع ، وعقلها عن التطلع إلى سفاسف الأمور ومحضرات اللذائذ ، وأباح لها التمتع بما فى الطبيعة من جمال وروعة ، وجعل لها من ذلك مرتعاً هانئاً ومرعى خصباً .

ونظر إلى الجسوم فأعطاها ما تحتاج إليه من قوة ونمو ، وحرم إرهاقها بضروب العبادات والقربات .

ونظر إلى كرامة الفرد الإنسانية فأعطاه المجموع ينطق بحكمتهم ، ويجير عليهم ، فالمسلمون عدل بعضهم على بعض يسعى بكلمتهم أدناهم ، ونظر إلى الأسرة فأحكم نظامها وثبت أسسها على أمتن الدعائم ، فى نشأتها وحياتها ونهايتها . ونظر إلى الأمة فسوى بين أفرادها وعدل فى طبقاتها وجعل الشرف والسعادة منوطا بالجد والتقوى وعلو الآثار .

وحفظ صلة الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم فجعل منها هداة خير قادة ، يضربون فى الأرض ويرشدون الناس بأمر دينهم ويبلغونهم دعوة نبيهم .

خاصم الإسلام الوثنية فى أى صورة ، الدهرية التى لا تؤمن بالله واليوم الآخر ولا تقر بالبعث واليهودية المادية التى تقول عزير ابن الله ، والإلحادية التى لا تقر بعظمة الخالق ، وكل ما غير التوحيد .

العشرون : لنا أن نأخذ من مدارس الغرب عنايتها بالعلوم الطبيعية والمواد العلمية والمعارف الحيوية التى ترمى إلى إدراك سر الوجود ومعالجة مشاكل العصر وهو العنصر الجوهرى فى رق الغرب ولنا أن نأخذ عن

مدارس الغرب ومناهجه عنايتها بتدبير الجسوم وغرس الفضائل الوطنية فى نفوس تلاميذها ، ولكن هل نجعل مدارسنا خلوا من الدين متبرئة من العناية به ، والاهتمام بشأنه لأن مدارس الغرب كذلك ، كلا وألف مرة كلا ، فإن أسباب ذلك وموجباته إن توافرت فى الغرب فهى معدومة عندنا ، وإن أخطأ الغربيون فى شيء فلسنا ملزمين بتقليدهم فى خطئهم .

واحد وعشرون : الشريعة الإسلامية ظفرت بالتقدير الكامل فى مؤتمر لاهاى سنة ١٩٣٨ إذ قرر المؤتمر أنها شريعة مستقلة قابلة للتطور والنماء متفقة مع أحدث قواعد التشريع ، وذلك أن الإسلام فى ذاته نظام اجتماعى عالمى يكفل للناس الخير والسعادة ويحل لهم ما فى مجتمعهم من مشكلات لو نفذوا إلى روحه وأنفذوه على وجهه .

إن هذا التشريع من أعظم الشرائع مرونة وأشدها قبولا للتطور والتجدد وإنه سبق جميع القوانين المدنية بثروة ضخمة من المبادىء القانونية الوقائع ، وقرر من ذلك ما يدهش له العارفون والفنيون من أهل التشريع والقضاء . وأن فيه كثيراً من الأحكام والصور التى تصون مصالح الأجانب وأموالهم وأعرافهم ودماءهم بأوفى — ألف مرة — مما تصونها لهم التشريعات الوضعية وإن قضية الحدود فى هذا التشريع أبسط من كل هذه الضجة التى يثيرها ذوو الأغراض حولها ، فإن الشارع الذى قررها فى إقامتها هو الذى قال للقاضى من جهة أخرى (ادرءوا الحدود بالشبهات) فرجع الأمر إلى تقدير القاضى لا إلى قوة النص فضلاً عن الحكمة العليا والأسرار البارعة فى التشريع الكريم .

ثانى وعشرون : لم يحتقر الإسلام المال ولم يزهد فى الثروة ولم يحرم الطيبات ، بل اعتبر المال من نعم الله الواجبة الشكر ، (نعم المال الصالح) للرجل الصالح وحث على العمل والكسب ، (إن الله يحب المؤمن المحترف) ، و (من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفوراً له) وحرم السؤال والاستجداء لما فى ذلك من مذلة وهوان ، كما دعا إلى التقريب بين الطبقات وتأمين الجميع على أنفسهم وذراريهم وأولادهم وضمن لهم العدالة الاجتماعية وتوفير الفرص المتكافئة للجميع على السواء .

كما دعا إلى المحافظة على المال والاعتدال فى إنفاقه وابتغاء أفضل السبل (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما) (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) وقد لفت القرآن النظر إلى منابع الثروة وأصول طرائق الكسب من التجارة والزراعة والصناعة والثروات الحيوانية والمعدنية والمائية والهوائية والقوى الكونية وحث المسلمين على استغلالها وتثميرها والانتفاع بها وعدم الغفلة عنها « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات والأرض » .

كما حرم الكسب الحرام الذى يؤدى إلى البغضاء والشحناء وفساد المجتمعات ووفر للفرد وسائل الحياة والرفاهية ووفر للجميع فى نفس الوقت حياة التكافل والطمأنينة . ووضع القاعدة المعروفة من تقديم المنفعة العامة على المنفعة الخاصة دائماً ، فإذا تعارضت حقوق الفرد مع حقوق الجماعة أهدرت الحقوق الفردية وعوض عنها أصحابها وأقيمت حقوق الجماعة بما يوصل إلى الخير العام ورسم النظام الاقتصادى الإسلامى الخطط الأساسية للتقريب بين الطبقات فانتقص من مال الغنى بما يزكيه ويطهره وينقيه ويكسبه صفاء القلوب والمحامد ، وزهده فى الترف والخيلاء ورغبه فى الصدقة والإحسان وأجزل له المثوبة والعطاء .

وقرر للفقير حقاً معلوماً وجعله فى كفالة الدولة أولاً ، وفى كفالة الأقارب ثانياً ، وفى كفالة المجتمع بعد ذلك ، وقرر صور التعامل النافع للفرد الحافظ للجماعة . تقريراً عجيباً فى دقته وشموله ونتائجه وآثاره وأقام الضمير الإنسانى مهيمناً عليها من وراء هذه الصورة الظاهرة .

* * *

العمل الأكبر للدعوة الاسلامية
الحكم بكتاب الله

كان المنطلق الحقيقى للدعوة الاسلامية بعد أن تنامت جماعة الإخوان هو العودة إلى المنابع وتطبيق الشريعة الإسلامية انطلاقا من النص الوارد فى الدستور المصرى وهو (الإسلام دين الدولة) وكان الاستاذ حسن البنا يرى أن هذه المادة هى منطلق صحيح للحكم بكتاب الله ولا يرى تعارضا رئيسيا أو جذريا ما بين قواعد النظام النيابى الذى يقوم على مسئولية الحاكم ووحدة الأمة واحترام إرادتها ، والقواعد التى وضعها الإسلام لنظام الحكم « وهو بهذا الاعتبار ليس بعيدا عن النظام الإسلامى ولا غريبا عنه ، وبهذا الأعتبار يمكن أن يقول فى اطمئنان أن القواعد الأساسية التى قام عليها الدستور المصرى لا تتنافى مع قواعد الإسلام وليست بعيدة عن النظام الإسلامى ولا غريبة عنه بل أن واضعى الدستور المصرى رغم إنهم وضعوه على أحدث المبادىء والآراء الدستورية وإرقاها فقد توخوا فيه الا يصطدم بأى نص من نصوصه بالقواعد الإسلامية » .

وهذا النص يكشف بوضوح عن روح السماحة والمرونة التى عرفت بها الدعوة الإسلامية .

ويقول الأستاذ البنا فى مقاله الشهير : معركة المصحف « إن هذه المعركة تدور بالحكمة والموعظة الحسنة والبيان الصريح الكافى ، والدعوة الواضحة المشرقة على أساس النصوص القرآنية المحكمة القاطعة التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها « تنزيل من حكيم حميد » ولن ندع الخصوم يفلتون من ثنايا وجوه التأويل والتفسير أو يفرون من أبواب النقاش والجدل العقيم ، بل سنوقفهم أمام النص المحكم

وجها لوجه فلا يستطيعون منه فراراً ولا إفلاتا » .

ولقد مضى قائد الدعوة إلى العمل لم يتوقف

أولا : أعلن أن الإخوان لا يطلبون الحكم وإنما يساندون من يعمل لتطبيق الشريعة الإسلامية من الحاكمين فليس لهم مطمع خاص أو هدف دنيوى .

ثانيا : دعا الخبراء من رجال الدعوة فى ميادين القانون والاقتصاد والتجارة والمال والسياسة إلى استخلاص نظام الإسلام فى هذه المجالات جميعاً .

وكتب هو « مشكلاتنا فى ضوء نظام الإسلامى » وقدم منهجا واضحا حول نظام الحكم ومسئولية الحاكم والنظام الاقتصادى والمنهج الاجتماعى والتربوى والتعليمى .

* * *

الفصل الخامس

التحديات فى وجه حركة اليقظة

- ١ -

واجهت حركة اليقظة خلال فترة مابين الحربين تحديات ضخمة فى مجال التغريب والغزو الثقافى وذلك بعد أن سيطر النفوذ الاستعمارى الفرنسى والبريطانى على أجزاء الأمة العربية كلها بعد أن سقطت الشام بأجزائها الأربعة (سوريا ولبنان وفلسطين والأردن) والعراق تحت النفوذ البريطانى والفرنسى بعد أن كانت تابعة للامبراطورية العثمانية وتركزت قوى النفوذ الاستعمارى الثقافى فى لبنان والقاهرة .

وتحولت الدولة العثمانية إلى الدولة التركية الحديثة التى وجهتها القوى الغربية إلى الانقطاع عن مفاهيم الشرق والعرب والاسسلام والارتباط بالفكر الغربى ونظمه ومفاهيمه وكان أكبر ضرباتها التى وجهتها إلى العرب والمسلمين هى إسقاط الخلافة ورفض اللغة العربية والخط العربى حيث بدأ النفوذ التغريبى يضع تجربة تركيا أمام الأمة العربية ووقف دعاة التغريب والشعوبية يغرون بها المصريون والعرب ويزينون لهم هذا العمل على أنه مفهوم التجديد والتقدم الذى يجب أن نقلده ونساير خطوه .

وكان « تيار التغريب والغزو الثقافى » قد ركز قواعده قبل الحرب على مدى فترة طويلة ربطها بعض الباحثين بأوائل الاحتلال الفرنسى للجزائر

ردها بعضهم لما قبل ذلك ، إلى أوائل الحملة الفرنسية وركزها آخرون فى عصر إسماعيل .

وقد تكونت مدرسة التغريب فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر وامتدت إلى الحرب العالمية الأولى ممثلة فى عدد من الشاميين المارونيين الذين خرجتهم معاهد الإرساليات التبشيرية وأعدتهم لقيادة الحركة الفكرية فى مصر قلب العالم العربى وللتصدير فى مجال الصحافة بالذات .

وفى مقدمة هؤلاء فرح أنطون صاحب مجلة الجامعة الذى هاجم حرية الفكر فى الإسلام وواجه أعنف رد عليه بقلم الإمام محمد عبده ، والدكتور صروف محرر المقتطف وداعية نظريات دارون وسبنسر وإعلاء الثقافة الإنجليزية وجرجى زيدان الذى كتب تاريخ التمدن الإسلامى فشوهه وكتب قصص تاريخ الإسلام فملأها بالشبهات والاتهامات التى رددها المبشرون والمستشرقون وشبلى شميلى حامل لواء الفلسفة المادية وداعية العالمية فى مواجهة الوطنية والمدافع عن الاستعمار البريطانى ضد الحرية والاستقلال ولطفى السيد محرر « الجريدة » داعية تعليم أبناء الأثرياء وحدهم وداعية العامية وخصم العروبة والفكر الإسلامى ونصير الفلسفة الليبيرالية المستندة إلى النفوذ البريطانى .

ولم يلبث وجود هذه المدرسة وهذا التيار أن تدعم بعد الحرب العالمية الأولى وتركز بأعداد جديدة من الكتاب من أمثال محمود عزمى وطه حسين وسلامة موسى وعلى عبد الرازق وإسماعيل مظهر وعبد الله عنان .

وكانت كلية الآداب وجريدة السياسة ومجلة العصور والمجلة الجديدة والمنتديات المختلفة هى منابر هؤلاء الدعاة الذين بدأوا عملهم من خلال المخطط الذى رسمته مدرسة الجريدة وحزب الأمة ولطفى السيد قبل الحرب

وحملوا شعاراً جديداً ليس هو (مصر للمصريين) الذى كان شعار ما قبل الحرب بل كان اسم الشعار الجديد (التجديد) لهم و (الرجعية) لخصومهم حتى لقد جرؤ سلامة موسى فوصف شكيب أرسلان ومحب الدين الخطيب ورشيد رضا بأنهم أوكار الرجعية فى مصر لأنهم كانوا من المناضلين ضد السموم التى كان ينفثها أصحاب تيار التغريب . والذى تجلى خلال السنوات العشر الأولى للحرب العالمية فى عدة قنابل مثيرة فى مقدمتها ، كتاب على عبد الرازق عن الإسلام وأصول الحكم ، وكتاب طه حسين (الشعر الجاهلى ثم الأدب الجاهلى) والحملة على اللغة العربية (سلامة موسى) والحملة على العرب ، واتهام عصر الإسلام الأول بأنه عصر فسق ومجون ونشر القصص الفرنسى المكشوف ، وترجمة عشرات من القصص الفاضح والكتب التى تنقل الآراء المتعارضة التى أنكرها أصحابها فى بلادهم ، هنالك كانت مجلة المنار التى كانت تصدر منذ أوائل القرن ، ومجلة الفتح التى أصدرها محب الدين الخطيب فى نفس اليوم الذى صدرت فيه السياسة الأسبوعية ، كانت هاتان المجلتان ومن بعدهما مجلات كثيرة تقف موقف الديدبان اليقظ القائم وراء التزويق والخطر المختفى وراء التمويه .

فقد كانت الرابطة العربية والشرقية والدينية تهاجم فى عنف شديد ، وكان التراث الإسلامى يناقش فى سخرية وتحقير ، حيث اتهمت مؤلفات العرب بأنها منقولة من كتب يونانية وفارسية ، وأن حضارة العرب (حضارة سطحية ظاهرية انتحلتها عقلية آرية) ووصف الفكر الإسلامى الجامع للاجتماع والسياسة والاقتصاد بأنه فكر دينى ووصف القرآن بأنه كتاب حكم ومواعظ ثم نقلت هذه الآراء إلى برامج الدراسة بالجماعات والمدارس الثانوية صوراً من تكريم الغرب والأغريق والغض من شأن العرب والمسلمين واتهام للمصريين والعرب .

ووصف الجنس العربى بأنه ضيق العقل قصير النظر ضعيف الخيال ، وهوجمت اللغة العربية ووصفت بأنها غير وافية بحاجات العصر ونودى بأن الدين مانع من الرقى ، والإسلام عائق عن الثقافة ، وأن العقل العربى الإسلامى وقف عند الأسلوب الغيبى .

وجرت الدعوة إلى أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم ، وأن نقبل من الحضارة خيرها وشرها وحلوها ومرها ، وما يجب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب .

واتخذ النفوذ الغربى من دعاة الإقليمية الضيقة والوطنيات المنفصلة عن الإسلام والعروبة وسيلة إلى توجيه المجتمع والقانون وجهة تفصل بين الإسلام بحسبانه الأساس الفكرى للثقافة والمجتمع وبين المجتمع نفسه ، فالقانون مشتق من القوانين الفرنسية والتعليم مقتبس من الأنظمة الأوربية .

وفى مجال التربية عمد طه حسين فى مصر على تفريغ ثقافة الأمة من روح العروبة ومفهوم الإسلام ، وعمل ساطع الحصرى فى العراق على بث فكرة العروبة مجردة من روحها القوى الخالد وهو الإسلام .

ودعا طه حسين وسلامة موسى إلى وجوب الانصراف عن الشرق إلى الغرب وقطع الأواصر الدينية والجنسية بالشعوب العربية للأخذ بمدنية الغرب كاملة غير منقوصة على أنها كل لا يتجزأ .

وبذلك عملت كل القوى على تجريد الثقافة العربية من روح الإسلام ، مع فصل العروبة عن الإسلام وإعلاء إحداها على الأخرى أو ضرب إحداهما بالأخرى بينما العروبة والإسلام وجهان لعملة واحدة وماضيهما ماض مشترك متلازم ولا قوة للعروبة إذا تجردت من الإسلام .

* * *

وقد بدأت ظاهرة تركيز التغريب على العرب ، ودعم مركز التغريب فى مصر التى كانت فى نظر الأمة العربية كلها هى مصدر القيادة الفكرية .

ذلك أن العرب لم يقبلوا ماقبلته تركيا من تحرر كامل من أساس الفكر الإسلامى واللغة العربية ، وبذلك بقوا القوة الكبرى التى تحمل لواء الإسلام واللغة العربية ، بل لقد حل العرب فعلا فى مكان القيادة والصدارة بعد سقوط الخلافة ، وكانت مصر فى نظر المسلمين والعرب جميعاً هى قلب العالم الإسلامى فكرياً وسياسياً .

ولذلك كان التركيز على العرب وحدهم فى استعمار وتعذيب أقسى ما شهد مختلف أنحاء العالم الإسلامى ، وكان التركيز على الفكر أقوى من التركيز على السياسة ، فقد كان هدف النفوذ الأجنبى وسبيله إلى البقاء هو القضاء على مقومات الفكر الإسلامى إيماناً بأنها مصدر القوة الدافعة إلى المقاومة والنضال والكفاح ، وحاملة القيم الكبرى للبقاء والحياة .

ومن هنا دارت المعارك حول هدم قيم الفكر الإسلامى واللغة العربية والتاريخ العربى ، والتراث والإسلام والدين ، حيث أثيرت حول هذه القيم شبهات ومعارضات ، وعندنا أن الغزو الفكرى كان أقوى صور الغزو وأشدها شراسة ، وكانت الصحيفة والمدرسة هما الأداة القادرة على دعم هذا التغريب وصناعة أجيال تستسلم أمام الفكر الأوربى والحضارة الغربية وتقبل بهما وتتنكر فى نفس الوقت للفكر الإسلامى والحضارة والتاريخ العربى الإسلامى وتسخر منه .

وكانت المدارس الأجنبية المنبثة فى مصر وسائر الوطن العربى تحمل جراثيم الثقافة المدمرة للوطنية والعقيدة أو القيم (ومما يذكر فى هذا الصدد أنه فى عام ١٩٣١ كان عدد الطلاب الذين يدرسون فى المدارس الأجنبية على الوجه الآتى : ٧٩ ألف طالب فى مصر ٤٤ ألفا فى لبنان ، ٢٦ ألفاً فى فلسطين ، ٩ آلاف فى سوريا ، ٨ آلاف فى الأردن) .

* * *

وجرت الدعوة إلى القول « بأن الطبقة المثقفة الممتازة يجب أن تعرض عن الأمور المتصلة بالدين والإسلام ولا تقيم لها وزنا ، وأن البحث فى الفكر الإسلامى هو من شأن الشيوخ والمتأخرين وأن الرق العصرى الذى نراه لم يتم إلا بإهمال الدين جانباً وأن المسلمين لن يبلغوا الرق العصرى ما داموا يلهجون بالإسلام ويتكلمون عن الدين » وهذا هو ما وصف بأنه « دعوة اللابيك » أى اللادينية .

ومن عجب أن يقول كتاب التغريب هذا فى مصر بينما تعمد أكبر

صحيفة فى فرنسا وهى الطان إلي تخصيص « عمود » فى كل عدد على أربعة أعداد لتلخيص محاضرة الأب بينار دوبدلاى فى إثبات ألوهية المسيح ومساواته لله تعالى[1] .

* * *

وقد استهدف تيار التغريب العمل من وراء الكلمات والشبهات إلى تمزيق الروابط والصلات القائمة بين المصريين والعرب من ناحية وبين العرب وبعضهم ، ثم بين العرب والمسلمين من ناحية أخرى ، وقد بدأ ذلك بتمزيق العلاقة التاريخية بين العرب والترك من داخل مدارس الإرساليات ومعاهدها ، وبعد أن مهدت الماسونية ــ التى جاءت فى ركاب نابليون ــ لذلك ، وأدت دورها إلى أن ظهرت « الصهيونية » بعد ذلك بقرن كامل ، ثم مضى عمل الماسونية والصهيونية فى وقت واحد ، كل لها ميدانها ، الصهيونية ميدانها السيطرة الغربية على العالم العربى وإقامة إمبراطورية إسرائيل وهدم المسجد الأقصى وبناء هيكل سليمان ، والماسونية ميدانها التهام العالم كله تحت نفوذ التلمود على المدى الأوسع .

وقد كان للماسونية دورها الخطير فى إسقاط الدولة العثمانية ، وفى السيطرة على عدد كبير من قادة العالم العربى وحكامه ، الذين كانوا يمهدون للنفوذ الصهيونى ليتسع ويتركز من خلف واجهات سميكة لا تكشف هذا الخطر المحدق بالأمة العربية (اقرأ كتابنا العروبة والإسلام) .

وكانت حركة التغريب حفية على أن تعمل على تمزيق وحدة العرب أنفسهم ، ودعم وتعميق التجزئة السياسية التى أقامها الاستعمار ، تقسيم الأمة العربية إلى دول ، والإقليمية العرقية والتاريخية ، وذلك بإثارة الخلافات المذهبية القديمة (سنة وشيعة ، أكراد وعرب ، مسلمون ومسيحيون ، عرب وبربر) (ثم فرعونيون وفينيقون وأشويون وبابليون) .

---

(١) عن الأستاذ مالك بن نبى .

وقد استطاع دعاة التغريب أن يعلنوا بأنهم فى فترة مابين الحربين أمكنهم القضاء على وحدة العرب والترك ، والقضاء على الخلافة الإسلامية الجامعة للمسلمين ، وتمزيق الوحدة العربية ، وإذاعة الدعوة إلى تقبل الفكر الغربى مع الحضارة الغربية وكانت الدعوة التى تقول « المدنية الأوربية كل لا يتجزأ » التى حمل لواءها طه حسين من أخطر الدعوات .

* * *

وقد مضى تيار التغريب يعمل ، ليس فى مصر وحدها بل فى الوطن العربى كله عن طريق الضغط والتدمير وإثارة الشبهات وكان أكبر مجالات قوته .

(١) عن طريق الإقليمية والقوميات الضيقة .

(٢) عن طريق التربية .

(٣) عن طريق القوانين الغربية المنافية للمزاج العربى الإسلامى .

(٤) عن طريق الأنظمة والفلسفات .

وقد استهدف التغريب ما وصفه المبشرون ودهاقنة التغريب بأنه سيادة الحضارات الغربية على حضارة الأمم ، ولا سيما الحضارة الإسلامية التى سادت أفريقيا وآسيا ، وحمل العالم الإسلامى حملا على اعتناق حضارة الغرب .

وقد كان لبعثات الشباب العربى إلى أوروبا أهمية لا تقل عن أهمية مؤسسات التبشير ومعاهده فى قلب الوطن العربى وقد وصف ذلك لويس ماستيون حين قال « إن الطلاب الشرقيين الذين يأتون إلى فرنسا يجب أن يلونوا بالمدنية المسيحية » .

وكانت الصحافة إلى التعليم ذات أهمية كبرى ، ووصف « جب » معظم الصحف اليومية فى هذه الفترة بأنها واقعة تحت تأثير الآراء والأساليب الغربية وقال إن الصحف العربية لا دينية فى اتجاهها Seedlor .

وإلى جوار الصحف كانت المجلات والكتب تنضح كلها بهذا الاتجاه التغريبى الذى كان علامة على خلاف بين تأييد النفوذ الفرنسى أو البريطانى ، وبين الحملة على اللغة العربية أو الحملة على العرب والإسلام ، ولكنها كانت كلها تجمع على أمر واحد : إزاغة قلوب المسلمين والعرب عن هدف محدد ، وإثارة الشبهات وإدامة إحداث الإضطراب الفكرى الذى لا يتوقف .

وكان لهذا التيار الذى تؤيده القوى الرسمية وتحميه ، وأمامه منابر كلية الآداب والصحف والمدارس والأندية ، أثر أى أثر ، وقد اشتد التيار وبلغ غايته حين هاجم القرآن ودعا إلى النظر إليه ككتاب أدبى قابل للنقد ، هنالك بدأ رد فعل قوى من خلال الهيئات الإسلامية والجمعيات والصحف والمجلات المختلفة التى كانت تضم عدداً كبيراً من العلماء المثقفين ، ومنهم عدد كبير ممن تعلموا فى أوروبا وأحرزوا أرقى درجاتها .

لقد ركزت الحملة على الدين والإسلام والقرآن ، فالدين — عندها خرج من الأرض ولم ينزل من السماء ، وهناك خلاف عميق بين العلم والدين ، وهناك حملة نقد وسخرية متصلة بالأزهر وعلماء الدين .

وهناك موجة عارمة من القصص الإباحية المؤلفة والترجمة ، والأغانى الإباحية ، ودعوة مستمرة إلى الفصل بين الدين والمجتمع وبين القانون والشريعة .

* * *

ولقد كانت الشبهات والنظريات والقضايا التى أثيرت بين الحربين هى امتداد لما عرض له دعاة التغريب قبل الحرب ، فكل الشبهات التى رددت من قبل بصوت خافت تجددت بأصوات عالية مرتفعة فما تناوله جرجى زيدان من اتهام للعقلية العربية وتزييف التاريخ وإثارة اتهامات معينة قد اتسع نطاقه من بعد فى كتابات طه حسين وأحمد أمين وعلى عبد الرازق ، وبالجملة فقد فتح لويس شيخو وشبلى شميل ولطفى السيد وجرجى زيدان الأبواب

لدعاة التغريب الذين اتسع أمامهم مجال الدعوة وعمق تيار حركتهم ، وكان الهدف هو إخراج الأمة من مقوماتها الذاتية : العقلية والقومية والشخصية ولم ينقص هذا من جهد الذين عملوا فى ميدان الثقافة ولكن الحق يقتضى أن نضعهم فى مكانهم الحق فنقول إنهم كانوا قناطر على الثقافة الغربية : (سلامة موسى ، طه حسين ، محمود عزمى ، على عبد الرازق) .

* * *

- ٢ -

حمل دعاة التغريب التجديد والمجددون » فى وجه قادة حركة اليقظة حيث أطلقوا عليهم شعار « الرجعية والرجعيين » بحسبان أنهم يدافعون عن التراث بينما كان المجددون يحملون لواء الحملة عليه وتهديمه وإثارة الشبهات حوله .

وكان معروفاً أن كل هجوم على التراث واتهامه بأنه قديم ، ومتخلف وبال ، إنما يطوى فى أعماقه الهجوم على الدين والإسلام والفكر الإسلامى ومختلف القيم الأساسية التى تقوم عليها حركة اليقظة الأصلية ، غير أن دعاة التغريب كانوا من الجبن والمكر بحيث عجزوا عن إعلان هذه السريرة أو كشفها .

ومن الحق أن يقال أن قادة حركة اليقظة لم يكونوا دعاة للقديم والتراث وحده ، ولم يكونوا يتشبثون به لإعادته إلى الواقع أو ليعيش الناس فيه من جديد ، ولكنهم كانوا يدعون إلى قانون طبيعى لا يتخلف بأن : « كل حاضر لا ماضى له لا مستقبل له » .

وفى منطق الأشياء ووفقاً للفطرة فإن الدعوة التى يحمل لواءها التغريب لإعادة الناس إلى الماضى السحيق المظلم قبل الإسلام لإحياء تراث بال ليس له ثقافة أو لغة أو حياة كالفرعونية والفينيقة والأشورية والبابلية ، لم تجد قبولاً أو ترحيباً ، فهى موغلة فى البعد عن المنطق والعلم والعقل ،

بينما الدعوة إلى أن يرتبط حاضر المسلمين والعرب بماضيهم القريب والحى والمتمثل فى فكرهم ودينهم وثقافتهم ، فإن هذه الدعوة تحارب وترمى بأنها دعوة إلى القديم البالى ، وبأنهم رجعيون متخلفون ، فالحملة باسم التجديد إنما تستهدف أساساً عدة أمور :

(تجديد اللغة) : بإخراجها عن الأسلوب البلاغى الراق إلى الأسلوب العالى أو المتوسط ، وكان هدف هذا العمل فصل المثقفين عن أسلوب القرآن ومنهاجه .

(تجديد الفكر) : وذلك بترجمة ونقل كل ما يوجد عند الغربيين من آراء ومذاهب دون تقدير واقعنا أو ذوقنا أو مزاجنا أو ما ينفعنا .

(تجديد الفن) : وذلك بإتاحة الفرصة لمذاهب الشهوة والغريزة والانطلاق عن مختلف القيم الاصيلة التى عرفتها الأمة العربية وكسر القيود بإذاعة الأدب المكشوف باسم حرية الفكر واستقلال الرأى .

(تجديد المجتمع) : وذلك بالدعوة إلى تقبل تقاليد المجتمعات الغربية وأخلاقها وأساليبها فى الحياة ودفع المرأة إلى المجتمع دون حمايتها بثقافة خاصة تمنحها القوة على مواجهة التيارات الضارة .

(تجديد الدين) : وذلك بالخروج عن قواعده العامة ، وتخريج قواعده وتأويل أصوله . والقول بأن الدين خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها ، والادعاء بأن الدين يعارض العلم ، والحملة على رجاله ودعاته .

فإذا جاء قادة حركة اليقظة فعدلوا هذه المفاهيم ، غضب أتباع تيار التغريب من ذلك ، لأنهم يهدفون من وراء كلمة التجديد إلى غايات واضحة رسمها التبشير والاستعمار وغلفها بهذه الأسماء البراقة ، ومن الحق أن يقال أن أصالة التجديد وعمق التطور إنما كان يجرى على أيدى قادة حركة اليقظة اقتناعاً وعمق إيمان وغيرة وإخلاصاً مستمداً من الضمير .

أما أتباع تيار التغريب فكانوا مدفوعين فى عملهم بسخرية وتشكيك واحتقار لكل مقومات الثقافة العربية والفكر الإسلامى .

لقد كان دعاة اليقظة يؤمنون إيمانا صادق بالتجديد والتطور ، وإنما

الثقافة ، ولكن على أساس معين من الارتباط بالتراث وإقامته على قاعدة من الفكر الإسلامى ، والخطو به وفق المزاج النفسى والعقلى للأمة العربية ، ولكن دعاة التغريب كانوا يطمعون فى أن يحققوا فى مصر والعالم العربى ما حققه التغريبيون فى تركيا ، من قطع أمة برمتها عن القيم والموروثات الأصيلة فى اقتباس أصول المدنية الغربية على ما هى عليه بدون قيد ولا شرط .

يقول العلامة محمد فريد وجدى فى وصف هذه الدعوة إلى التجديد التى حمل لواءها دعاة التغريب « ثم جاء دور المرتزقة من الكتاب والمترجمين والمصورين والممثلين والمغنيين ممن لا يهمهم أمر الجماعة فانبرى كل منهم فى مجاله يستبيح المحظورات ، جاعلا همه لفت أنظار الجماهير إلى بضاعته بإثارة شهواته ، واسترسلوا جميعاً فى هذا المضمار حتى استحالت الدعوة إلى التجديد دعوة الإباحية واندفع العامة ومن فى حكمهم ممن لا خلاق لهم فى إشباع شهواتهم والاستكثار من لذاتهم وجرف التيار الطيبين وراء الخبيثين .

وأصابنا من جراء هذه الحركة ثلاثة أدواء من أعضل ما تصاب به الجماعات البشرية .

أولها : التهالك فى الجرى وراء الأهواء ، والاستهانة بالنفس والنفيس فى سبيلها ، ووقف جميع قوى الجسم والعقل عليها .

ثانيهما : المبالغة فى الاستخفاف بكل قديم حتى الدين نفسه ، وهذا مالا نرى عليه الأمم الحية ، فإن لديها القديم المتغلغل فى القدم ماثلا أمام الجديد ، ولكل منهما فى قلب الشعوب مكان من الاحترام والإجلال ، أما عندنا فكل قديم مزدرى مرذول متهالك فى قطع صلتنا به .

ثالثا : تغلب مذهب العامة على مذهب الخاصة ، فالأزياء الجديدة وآداب المعاشرة والعادات المستحدثة فى كل صغيرة وكبيرة لا تتنزل على الناس هنا من الطبقة العليا كما هى الحال فى العالم كله ، ولكنها أصبحت لدينا تتولد فى الطبقة السفلى ثم يمتد سلطانها بحكم الغلبة على الخاصة .

وأشد الطبقات تأثرا بالدعوة الإباحية لدينا هم العامة ومن فى حكمهم وتحت سلطان الإباحية أصبح كل طرز من التهتك وكل بدعة مخالفة لما عليه الناس من الأمور ينظر إليها بشىء من الإعجاب .

فحركتنا فى التجديد التى استحالت إلى سلسلة لا تنتهى حلقاتها من المنكرات والمخازى صادرة إلينا من ناحية العامة ومن فى مستواهم .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد كشفت أقلام الكتاب كيف أن الكتاب الذين كانوا يحملون لواء التجديد إنما كانوا عالة على غيرهم ولم يكونوا مبدعين ، وكانوا مقلدين تقليداً فاجعاً بل ناقلين ، وعلقت مجلة « المكشوف » اللبنانية على حركة التجديد فى مصر فقالت : « إن أكبر مفكرى مصر وأدبائها قد عجزوا فى مؤلفاتهم عن الاتيان بنظرية واحدة طريفة لم يستمدوا روحها من أجنبى ، فالشك فى الشعر الجاهلى مسبوق إليه ، وحياة محمد مقتبسة من كتاب أميل درمنجم ، وضحى الإسلام ليس لمؤلفه منه إلا العنوان بدليل الأسماء العربية التى وردت مشوهة فى طبعته الأولى أمثال (زافار) وأصلها ظفار و (ارتياس) وأصلها الحارث ، وقالت إن الكتب التى تصدر عن مصر أكثرها قديم لغير أدباء مصريين والجديد فيها يستمد مادته من دروس أجنبية ، لا أحد يجهل أن مؤلفات طه وهيكل وأحمد أمين ولطفى السيد يتوكأ فى أصلها وأحكامها على تفكير غريب عن التفكير المصرى أو العربى ، بل إن التفكير السائد فى هذه المؤلفات بعيد كل البعد عن حقيقة الشعور الذى يحسه المفكر العربى .

وقد وصفهم الرافعى بأنهم قوم مستعمرون فى عقولهم ، وقال : « إن هامش السيرة لطه حسين هو تهكم صريح عن كتاب إفرنجى بنفس اسمه » .

* * *

وقد حملت الدعوة إلى المصرية راية الفرعونية وهاجمت العروبة ، ودعا آخرون إلى مصر المصرية التى ليست عربية ولا إسلامية ، وقالوا إن العرب فاتحون كالرومان والفرس (مرقص سميكة المتحف القبطى) .

ودعا سلامة موسى إلى تقديس الفرعون والمغالاة ، واعتبار مصر أمة شرقية والتهجم على العقلية العربية والثقافة العربية والدعوة إلى استبدال الحروف اللاتينية بالعربية ، والاندفاع المطلق إلى الحضارة الغربية ونبذ كل ماهو عربي .

ولكن سرعان ما قامت حركة اليقظة بتصحيح المفاهيم (مجلات الفتح ، المعرفة ، النهضة الفكرية) قال عبد الرحمن شهبندر : لقد قدر لهذه الفكرة الموت العاجل وسترى أن زوالها سيكون دليلا على أن الثقافة العربية ثقافة مشتركة ليس فى مقدور أحد أن يفصم عراها (المعرفة أكتوبر ١٩٣١) وهاجم على العنانى الأدب القومى المصرى وإهمال الأدب العربى العام وقال :

أين هو الأدب القومى ، أهو أدب الفراعنة أم أدب العرب المصريين فى أى لغة على كل حال قد دون هذا الأدب ، أفى اللغة الهيروغيليفية أم فى لغة العرب .

ومضى فريد أبو حديد وعنان فى كشف صفحات باهرة من تاريخ الإسلام فى مصر ومجالس الأدب وجهاد شعب مصر فى سبيل حقوقه ، وإبراز المواقف التاريخية والبطولات التى يحفل بها تاريخ مصر العربية وحلقات الأدب فى الفسطاط .

وكشف الباحثون من حركة اليقظة كيف كان الشعور الدينى والشعور الوطنى توأماً متلازماً ، متداخلان وكيف عمل الإحتلال على فصم العلاقة بين تركيا والعرب ، توطئة لفصمها مع الإسلام نفسه وكيف أن الثورة المصرية ١٩١٩ التمست مصدرها من الفكر الإسلامى وقادتها كانوا رجال الأزهر[١] .

وبذلك انهار التيار الذى أنشأه لطفى السيد وغذاه بين الحربين طه حسين وسلامة موسى والسياسة الأسبوعية ومحمود عزمى .

فقد نادى أحمد حسين بالمصرية ذات الأرض العربية الإسلامية وتحول محمود عزمى إلى العروبة .

---

(١) دكتور محمود فياض : الصحافة العربية فى مصر بين الحربين .

وكان المظنون إن سقوط الخلافة سيكون بعيد المدى فى القضاء على حركة اليقظة وفى ذبول دعوة الأخوة الإسلامية والروابط العقائدية والثقافية ، ولكن الواقع إن المجتمع العربى الإسلامى استطاع أن يواجه التحدى فمنذ ألغيت الخلافة ظهرت ثلاثة عوامل هامة حلت محلها وأدت دوراً ضخما فى حركة اليقظة هى :

(١) تجدد الأزهر ونشاطه وظهور الدعوة إلى التمدن بين جنباته .

(٢) الوهابية الجديدة فى الجزيرة العربية .

(٣) تأليف جماعة الشبان المسلمين والجمعيات الإسلامية والعربية الأخرى .

ولم تكن الخلافة التركية بالذات هى ما يشغل الباحثين ولكن كان يشغلهم أمران .

(١) وحدة المسلمين .

(٢) إنحراف الأتراك .

أما بالنسبة لوحدة المسلمين فقد نصت الجمعيات الإسلامية فى اللوائح الأساسية لها على العمل على إعادة الخلافة ، وتعددت الدعوات لعقد مؤتمر إسلامى ، وقد عقد المؤتمر الإسلامى العالمى بالفعل عام ١٩٣١ فى القدس وتناول عديداً من القضايا .

أما بالنسبة لانحراف الأتراك فقد صور مصطفى صادق الرافعى موقف اليقظة من أتاتورك فى مقالين هما : تاريخ يتكلم ، وكفر الذبابة ، وكتب الزيات : إلى أين يساق الأتراك .

ووجه كتاب عبد الرازق بردود علمية كشفت عن انحراف فكرته الأساسية وأبانت عن الغرض السياسى الذى يهدف إليه حزب الأحرار الدستوريين من تصدره لمهاجمة الفكرة بأسلوب له طابع إسلامى .

وكانت فكرة الدكتور السنهورى بشأن إنشاء عصبة أمم إسلامية من أقوى النظرات العلمية فى هذا المجال ، وظلت الخلافة الإسلامية تشغل

المفكرين طوال هذه الفترة ، يقول الدكتور محمود فياض : لم يستتبع إلغاء الخلافة ما توقعه كثير من أعداء الإسلام فى أوروبا وغيرها ، وظل صوت الإسلام يطرد علواً وظل الداعون إليه يتزايدون مع صدور الصحف والمجلات المصرية ، ولبث العلم الإسلامى كله طوال هذه الفترة مشدود الأبصار إلى مصر معلقاً أمله فى نصرة الإسلام وإعادة مجده عليها .

يقول منصور فهمى . كل ما عندهم هو أن يتذمروا من اللغة الفصحى وبعدها عن اللغة العامية ، وهذا يدل على جهلهم بلغات الأمم الحديثة .

فمثلا اللغة الإنجليزية تكتب فيها الكلمة بشكل وتنطق بشكل آخر واللفظة الواحدة ينطقها الأستاذ فى مدرسة أو جامعة بلهجة خاصة ، وينطقها عامل الترام مثلا بلهجة أخرى ، والحال كذلك عند الفرنسيين والإنجليز .

ومع ذلك لم نجد أصحابنا المجددين فى مصر يظنون هذه مسألة المسائل .

* * *

ويقول : ويتكلمون عن القومية المصرية ويريدون بذلك أن تنفصل مصر عن أمم الشرق ، وهذا خطأ ، فقد كنت ولا أزال من أنصار الرابطة الشرقية لعلمى أن الأمم التى ترتبط برباط اللغة والدين ، وتكون وحدة لغوية وفكرية وعقلية وروحية هو أسمى ما يفكر فيه الرجل الحريص على ترابط الأواصر الإنسانية .

ويقول ومن العجيب أن سلامة موسى وحسين هيكل يتكلمان كثيراً عن الإنسانية وروابطها العلمية والأدبية ثم ينسون ذلك كله حين يجرى ذكر العرب والمسلمين ، فهل أصبح المسلمون شعبة أخرى لا يصح أن

يرتبط بها المصريون .

« إن أصحابنا المجددين لا يرضيهم إلا أن نكون عصابات تقتتل وتتناحر ففئة تهاجم العرب وتاريخهم وفئة تهاجم الأزهر وتعاليمه وفئة تجرح الدين وتقاليده وفئة تهدم اللغة الفصحى ، وهكذا دواليك حتى يصبح الفرد فى عراك دائم واضطراب شامل » .

* * *

(٣) تحـديات التغريـب وقضايـاه

ما هى القضايا التى حمل لواءها التغريب ؟

الحق أن هذه القضايا عديدة ووافرة ، حتى ليمكن القول بأنها شملت كل مجالات الفكر والبحث ولم تدع مسألة واحدة دون أن تثير حولها الشبهات وتحاول أن تحطم ما تحمله من قيم ، وأبرز هذه القضايا الدعوة إلى عالمية الثقافة وتجزئة الإسلام ، والنظرية المادية ، وإقليمية الأدب ونقد النص القرآنى ، وتزييف التاريخ ، وتدمير البطولة ، وإحياء الأساطير ، وإحياء الشعوبية ، ومحاولة إسقاط الدور الذى قامت به الحضارة الإسلامية وإذاعة الإغريقيات ، وفصل الأدب عن مقومات المجتمع ، وإذاعة الأدب المكشوف والإباحية والإقليمية الضيقة ، وتعظيم الغرب واتهام الأدب العربى وتغريب التعليم والجامعة والتربية .

ولما كان لكل قضية من هذه القضايا تحدياتها وأخطارها فقد آثرنا أن نعرض لكل منها بشىء من الإيجاز[1] .

* * *

---

(١) للتوسع فى دراسة تفاصيل هذه التحديات راجع الكتب التالية للمؤلف :

١ ــ المعارك الأدبية والمساجلات الأدبية .

٢ ــ الإسلام والثقافة العربية .

٣ ــ الإسلام فى وجه التغريب : الإستشراق والتبشير .

٤ ــ الفصحى لغة القرآن .

٥ ــ خصائص الأدب العربى .

٦ ــ محاكمة فكر طه حسين .

١ - عالميــة الثقافــة

من أكبر المعضلات التى جرت بها أقلام الكتاب الدعوة إلى عالمية الثقافة ، والتشكيك فى أن هناك ثقافة إسلامية وأخرى غربية .

والواضح أن الثقافة العربية فى هذه الفترة تمر بمرحلة دقيقة ، حيث تحاصرها الثقافات الغربية من كل مكان بالمذاهب والدعوات المختلفة التى تحاول أن تغزوها بآراء تتعارض مع قيمها الأساسية وتعلى شأن فصل الدين عن المجتمع والأخلاق عن السياسة ، وتحاول أن تفرض النظرة المادية الخالصة فى مجال الفكر والمجتمع ، بالإضافة إلى تجزئة مفهوم الإسلام وإحياء الأساطير وإعلاء شأن الإغريقيات والدعوة إلى الأدب المكشوف وتأييد الإقليمية الضيقة ، وتعظيم الغرب فى أبطاله وتاريخه وتزييف التاريخ العربى والإسلامى وتدمير البطولة العربية الإسلامية واتهام الأدب العربى وإعلاء الأسلوب الأجنبى ، والدعوة إلى العامية ، وإبعاد ثقافة القرآن وبلاغته عن مجال الكتابة والبحث .

ومن هنا كانت « عالمية الثقافة » دعوة مشبوهة ، هدفها إغراق الثقافة العربية فى محيط واسع هو محيط الثقافة الغربية المسيطرة ، وذوبانه فيها .

ويقول الدكتور أمير بقطر فى بحث له تحت عنوان امتزاج الثقافات : وهل هناك ثقافة شرقية وأخرى غربية[1] .

« إن ما يسمونه الثقافة الغربية اليوم قائم على الثقافة الإغريقية القديمة التى ترجم العرب واليهود كتبها فانتقلت بعد الحروب الصليبية ومنذ عهد النهضة العلمية إلى أنحاء أوروبا . والثقافة الإغريقية أساسها مدنية مصـــر

---

(١) الهلال م ١٩٣٣ .

وفينيقية وأشور وبابل ، ولما كان مهبط الأديان حتى ظهور الوثنية هو فى الشرق ، رسخ فى أذهان شعوبه : التصوف والزهد والإيمان بالروحانيات . وفى حالة الضعف أصبح معنى الثقافة الشرقية مرادفاً لمعنى التأخر والانحطاط .

ويقول : وإذا كان امتزاج الثقافات فى العصور السابقة محتملاً فإنه قد أصبح فى هذا العصر ضربة لازب لا مفر منها ، وأن التكلم عن الثقافة الشرقية والثقافة الغربية خرافة لا توجد إلا فى الأساطير .

ثم يقول : إن أصل التشبث بالقول أن هناك ثقافتين هو التعصب سواء أكان صاحبه شرقياً أم غربيا ، أكان تعصبا جنسياً أم دينيا أم سياسياً .

ويردد رأى كرومر الذى يقول : إن المدنية الأوربية فى مصر تهدم ديناً بغير أن تستعيض عنه بسواه وأن المصرى المتفرنج (لا أدرى) من جهة وليس أوروبيا بالمعنى الصحيح من جهة أخرى » .

ولا شك أن عرض الأمر على هذه الصورة فيه مغالطة كبيرة وتمويه بالغ فالثقافة العربية لم تتوقف عن الانفتاح على الثقافات المختلفة ولكنها لا تندمج فيها ولا تنصهر ، لأن لها من مقدراتها وقيمها ما يحول بينها وبين هذا الانصهار .

ومبدأ التقاء الثقافات والاقتباس والتبادل معترف به ولا اعتراض عليه ولكن الهدف الذى يقصد إليه دعاة التغريب ، وخاصة من كان منهم يعمل فى معاهد الإرساليات الأجنبية إنما يستهدف من وراء الكلمات الناعمة غاية عميقة وذلك حين يقول أمير بقطر :

« إن من أهم عوامل فرض الثقافات هو عامل التربية ونشر معاهد التعليم » . وقد لقى هذا الاتجاه معارضة شديدة قوامها أن الأمة العربية لا ترضى بأن تذوب فى الثقافات الغربية ، وأن هذه المحاولة لاحتواء الثقافة العربية فى فترة الضعف وفى مرحلة اليقظة التى لم تكتمل بعد هو خطر بالغ يجب التنبه له .

٢ - التبعية للإستشراق والتغريب

حاول بعض الكتاب خلق تبعية بين الثقافة العربية والفكر الإسلامى وبين الإستشراق ، واعتبر بعض الكتاب أنفسهم وسائط لنقل آراء هؤلاء المستشرقين وإذاعتها وتأييدها — لا نقدها وتفنيدها ، فالدكتور طه حسين يتطوع بنقل تقرير المستشرق جرفنى عن حرق العرب لمكتبة الإسكندرية وينشره فى صحيفة السياسة ويعلق عليه تعليقاً خطيراً حين يرى أنه لا بأس بأن يفعل العرب ذلك . فإذا ما عارضه أحمد باشا شيخ العرب وهاجمه بعنف .

وكانت الصحف تولى اهتمامها بمؤتمرات المستشرقين وآرائهم ، وتفرد لها صفحات ، وتعتبر مقرراتها ذات قداسة خاصة ، وتعتبر توجيهات المستشرقين كأنما هى تعليمات وأوامر .

وكان المستشرقون فى المرحلة السابقة يلتمسون آراء المفكرين العرب والمسلمين من أمثال : أحمد زكى باشا وشكيب أرسلان وعبد العزيز جاويش ، أما فى هذه المرحلة فقد أصبح كتاب مصر والعالم العربى أشبه بتلاميذ تابعين للمستشرقين ينقلون عنهم ويؤيدون آراءهم .

غير أن حركة اليقظة لم تتوقف عن معارضة الآراء الخطيرة التى قدمها هؤلاء المستشرقون وأتباعهم ودارت مناقشات متعددة حول سموم كثيرة بثها هؤلاء المستشرقون فى آرائهم ، فلقد استقدم الذين أنشأوا المجمع اللغوى عدداً من المستشرقين ومن بينهم « فنستك » رئيس تحرير دائرة المعارف الإسلامية وهو من أكبر المستشرقين الغربيين تعصبا ضد الإسلام ، فانبرى الدكتور حسين الهراوى للأمر ، وكتب عدداً من المقالات كاشفاً عن الشبهات التى يثيرها هذا المستشرق مما حمل المختصين على رده ورفض قبوله .

ووقف الشيخ عبد العزيز جاويش فى إحدى المحاضرات التى ألقاها محمد كرد على عن النهضة العربية ودور الإستشراق ، فأشار إلى مدى أخطار المستشرقين ودورهم ، مستشهداً بتجربته الخاصة إذ أمضى فى بريطانيا فترة طويلة من الوقت سمحت له بمعرفة عدد منهم وتبين أهدافهم مما اضطر كرد على إلى أن يقول : « إنى أعلم أنهم يعملون لسياسة بلادهم أولا ، وأن منهم دعاة متعصبين يتخذون الإستشراق سلماً لخدمة دينهم على نحو ما كان فى القرون الوسطى » .

ودارت فى هذه المرحلة مناقشات كثيرة عن المستشرقين : خطرهم ونفعهم شارك فيها الدكتور زكى مبارك والدكتور حسين الهراوى وعدد آخر من الباحثين وكان مجالها الهلال والمعرفة .

وكانت صحف « السياسة الأسبوعية » و « المجلة الجديدة » و « العصور » توالى اهتمامها بنشر آراء المستشرقين حتى إن مجلة « الرابطة الشرقية » التى كان يشرف على تحريرها (الشيخ) على عبد الرازق أفردت صفحات طويلة لبحث كتبه المستشرق (بارتولد) عن (مسيلمة الكذاب) مدعى النبوة[1] .

* * *

---

(١) راجع فى هذا الموضوع كتابنا (الإسلام والثقافة العربية) وكتابنا عن المعارك الأدبية .

٣ ـ الحملة على الإسلام ورجال الأزهر

كانت الحملة على الإسلام ورجاله وعلى الأزهر وعلمائه هدفاً أساسيا لدعاة التغريب ، فى محاولة التشكيك فى الإسلام خاصة والدين عامة ، ولما كان الهجوم على الدين مواجهة غير ميسور ، فقد انصب الهجوم على علماء المسلمين وسيلة إلى هذا الهدف ، وكانت المحاولة هى تصوير علماء المسلمين على النحو الذى صورت به أوروبا « رجال الدين » الذين وقفوا فى وجه النهضة والعلم ، وهو بالنسبة لعلماء المسلمين غير صحيح .

وحرصت مجلة « السياسة الأسبوعية » فى باب دائم عنوانه (فى المرآة) أن تعرض لعدد من هذه الأسماء وفى مقدمتهم : رشيد رضا ومحمد بخيت وعبد الحميد سعيد وغيرهم .

وقد اتسع نطاق هذه الحملات إثر الموقف اليقظ الذى وقفه علماء الأزهر فى وجه كتاب « الإسلام وأصول الحكم » لعلى عبد الرازق ، وكتاب « الشعر الجاهلى » لطه حسين وقد حفلت جريدة « السياسة » فى هذه الفترة بنماذج من السخريات المريرة التى ساقها كتابها فى وجه الأزهر والإسلام حتى كتب على عبد الرازق مقاله الحاقد : (على أطلال الأزهر) وكان له سخريته فى مناسبة مولد النبى ﷺ(١) .

ومن الحق أن يقال أن علماء الأزهر (وهم ليسوا رجال دين بالمعنى الغربى لأن الإسلام لا يقر هذا المعنى ، وحيث لا يوجد فى الإسلام كهنوت أو نفوذ مثل هذا الذى عرفته أوروبا) وقفوا مواقف صامدة شريفة فى وجه حملات التغريب والغزو الثقافى واستحقوا بذلك كراهية دعاة التغريب .

---

(١) راجع مجلة الفتح عام ١٩٢٧ .

ومن صور الحملة على الأزهر ما كتبه على عبد الرازق بعد محاكمته وسحب براءة العالمية منه حيث يقول . بالأمس طوفت حول الجامع الأزهر لقد وجدت أول ما دنوت من حرم الجامع الأزهر أن يد الخراب قد مسحت عليه فدمرت كل مكان فيه ، من دور للكتب وقبور للصالحين ونقضت ذلك كله طوبة طوبة ، فلم ترحم أثراً كريماً ولا تركت ظلاً قائما وتركته خلاء ، أما القوم فقد تفرقوا أيدى سبأ ، أما ديارهم فقد أصبحت خلاء فلا تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ، وأتسمع صوت الجامع الأزهر فإذا صوته الداوى قد سكت ، وأتحسس فى الأزهر ريح الأزهر فإذا الأزهر عليه السلام قد سكنت ريحه وذهبت روحه ، يا أسفا على الأزهر تغتاله يد الخراب بين سمعنا وبصرنا ونحن على الحسرة سكوت لا نملك دفعاً ولا نستنقذ ما فيه من رمق[1] .

هذه الصورة لا تمثل الواقع فقد كان الأزهر فى هذه الفترة يهب من رقاده ويخطو إلى اليقظة التى أحيته وجددته وأقامته على طريق النهضة فأشرقت فيه أعلام وأسماء فى مقدمتها الظواهرى والمراغى وشلتوت وغيرهم .

* * *

---

(١) السياسة اليومية ٢٧ مارس ١٩٣٣ .

٤ - تجزئـــة الإســـلام

كان من أكبر أهداف حركة التغريب : تمزيق مفهوم الإسلام الموحد المتكامل ، وذلك بالفصل بين الأدب والأخلاق ، والمجتمع والدين ، وجاء كتاب (على عبد الرازق) عاملاً هاماً فى هذه المحاولة الخطيرة ، فهو كتاب ، قصد به أصلاً القول بأن الخلافة ليست نظاماً إسلامياً وكان ذلك فى مواجهة هدف سياسى حزبى أراد حزب الأحرار الدستوريين أن يؤكده معارضة للملك ، فاتخذ له هذا الأسلوب الأقوى والوحيد حيث لم يكن فى مقدور الأحرار الحملة على هدف يدعو إليه حاكم البلاد ، لذلك فقد اتخذوا هذا الأسلوب تدعيماً لخطة سياسية ، ولكنهم أساءوا به إساءة بالغة إلى (تكامل الإسلام) الذى يجمع بين الدين والدولة ، والدين والسياسة وقد احتاج المؤلف إلى جهد كبير ليحرف مفاهيم النصوص فى سبيل الوصول إلى القول بأن الرسول محمد ﷺ لم يكن حاكما . وأن الإسلام ليس إلا ديناً روحانيا خالصاً .

وقد واجهت هذه الشبهة الخطيرة معارضة كاملة ، فند فيها دعاة اليقظة هذا الرأى فقال صاحب المنار : إن على عبد الرازق يدعو إلى التفرقة بين الدين والدولة ، وإلى الإنصراف عن التقيد بأحكام الشريعة فى الأمور المدنية وهو بقوله هذا يصادم الفكرة الإسلامية التى تعتقد أن محمداً أقام دولة كما أوجد ديناً ، وأن نظام الشريعة هو بالضرورة فرض من فرائض الشرع المقدسة يجب الأخذ به فى الحياة المدنية والحياة الدينية جميعا .. إن القول بفصل الحكومة والدولة عن الدين هو قول بوجوب محو السلطة الإسلامية من الكون ونسخ الشريعة الإسلامية من الوجود وخضوع المسلمين إلى من ليس على صراط دينهم ...

كما ظهر عدد من الكتب الرصينة التى دحضت شبهات على

عبد الرازق منها : « حقيقة الإسلام وأصول الحكم » للشيخ محمد نجيت المطيعى ونقض كتاب الإسلام وأصول الحكم للشيخ الخضر حسين وفى تونس كتب الطاهر بن عاشور كتابه (نقد كتاب الإسلام وأصول الحكم) وقال فيه : أنه لا انفكاك بين الدين والحكومة فى الإسلام ، وأن مظاهر الدولة كلها متوافرة فى نظام الشريعة الإسلامية وأعظمها الحرب والصلح والعهد والأسر وبيت المال والإمارة والقضاء وسن القوانين والعقوبات بحيث لم تغادر شيئاً مما يلزم لإقامة نظام أمة بحسب العصر والقوم ، واستشهد المؤلف بالآية الكريمة :

﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾ إلى قوله ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ وقال : كيف يستقيم أن يكون للإسلام شريعة ثم لا تكون له حكومة تنفذ الشريعة وتحمل الراعى والرعية على العمل بها وقال : إن الإسلام وحدة دينية وجامعة وشريعة وسلطان ولا معنى للحكومة إلا مجموعة هائلة من الأمور ، وقد جمع الرسول الأمة فى دعوته وسن لها قوانين معاملاتها الفردية والإجتماعية وتولى بنفسه الانتصاف من المظلوم بعدل وعزم وإقام الحدود من العقوبات وأن إقامة المملكة الإسلامية عمل متمم للرسالة وداخل فيها » .

وقد ربط السيد محب الدين الخطيب بين عبد الرازق وطه حسين حين قال :

أبى على عبد الرازق إلا أن يساوى طه حسين فى إلحاده وإنكاره وحدانية الله والشريعة كلها والأنبياء التى نزلت عليهم تلك الشرائع ، فإن طه حسين ينكر فقط أن يثبت ذلك إلى الآن وأن الباب مفتوح وربما اثبتهما بعد ذلك ، أما على عبد الرازق فقد سد الباب وقطع الأمل وسمى كل ذلك جهالات وسخافات وخرافات .

(وقد جاء ذلك فى الرد على مقالات متعددة نشرها على عبد الرازق فى مجلة الرابطة الشرقية وفى جريدة السياسة وتطاول فيها على الشخصية النبوية) .

وقد حاول كتاب الإسلام وأصول الحكم أن يجعل الشريعة الإسلامية شريعة روحية محضة لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ فى أمور الدنيا ، وأن الدين لا يمنع من أن جهاد النبى ﷺ كان فى سبيل الملك لا فى سبيل الدين ، وأن نظام الملك فى عهد النبى كان موضوع غموض أو إبهام أو اضطراب أو نقص ، وإن مهمة النبى ﷺ كانت بلاغاً للشريعة مجرداً للحكم والتنفيذ ، وأنكر إجماع الصحابة على وجوب نصب الإمام وأنكر أن القضاء وظيفة شرعية وقد استهدف على عبد الرازق تمزيق شمل جامعة الإسلام الدينية والدنيوية ، وخالف بذلك النصوص القطعية المجمع عليها والمعلومة من الدين بالضرورة ، وجل مادة الكتاب منقولة من بعض كتب الإفرنج التى كتبوها عن الخلافة وكتاب (خلافت وحاكميت مليه) الذى كتبه بعض علماء الترك تحت إشراف حكومة كمال أتاتورك ، لإقناع مسلميهم بما فعلته حكومة أنقرة الجمهورية من الغاء الخلافة والفصل بين الدين والحكومة وبين اعتماد المؤلف على بعض كتب التاريخ والأدب والكلام ، وقال ومن العجيب أن يكون من مادته مع ذكر بمثل كتاب الأغانى وكتاب العقد الفريد و لم يكن منها صحيح البخارى وصحيح مسلم ولا موطأ مالك ولا مسند أحمد ابن حنبل .

* * *

٥ ـ الهجـوم على القــرآن

استن هذه السنة الرديئة الدكتور طه حسين فى محاضراته بكلية الآداب عندما قدم للطلاب بعض النماذج وأخذ يعرضها على ميزان النقد الأدبى ، وأخذ يقول فيها بالضعف والقوة ، وأخذ يقارن بين القرآن المنزل فى مكة والقرآن المنزل فى المدينة ويفرق بينهما (وهذا كله ثابت فى محاضر جلسات مجلس النواب المصرى ١٩٢٩ ، ١٩٣٠) فقد استطاع الدكتور عبد الحميد سعيد أن يحصل على مذكرة لأحد طلاب كلية الآداب سجل بها ما كان يلقيه طه حسين من محاضرات ، بل إن أحد هؤلاء الطلاب وهو محمود المنجورى نشر بعض هذه الفصول فى مجلة (الحديث) التى كانت تصدر فى حلب عام ١٩٢٨ ، وكان طه حسين يستهدف من وراء ذلك بالإضافة إلى مفاهيمه التى سجلها فى كتابه الشعر الجاهلى وحديث الأربعاء العمل على خلق ظاهرة جديدة فى الأدب العربى الحديث تتحرر من القاعدة التى أقامها الفكرالعربى الإسلامى منذ نشأته والتى تقوم على الترابط بين الأدب والفقه والاجتماع والسياسة والأخلاق والتربية ، دون أن يكون لأى عنصر من عناصر هذا الفكر ، القدرة على الاستقلال والانفصال والتحرر من مقومات هذا الفكر ، وكان هدف طه حسين من فصل الأدب العربى عن الفكر الإسلامى هو إذاعة الجوانب الإباحية والمكشوفة فى شعر أبو نواس وبشار والضحاك وغيرهم ، واعتبار هذا الشعر صورة للعصر ، ووصم القرن الثانى الهجرى بأنه عصر فساد ومجون ، وحاول ذلك كثيرا رغم ما ووجه به من ردود ومناقضات كشفت عن كثير من أخطائه واضطرابه أمام البحث العلمى الحق .

وقد جرى هذا المجرى من بعده كثيرون فى مقدمتهم تلميذه الدكتور

زكى مبارك فى كتابه (النثر الفنى) حين تحدث عن فواتح السور وغيرها[1] .

وقد أخذ على الدكتور زكى مبارك أنه يتعرض للأصول التى يقوم الدين بقيامها ، وينهدم بانهدامها كأصل إعجاز القرآن ، وأن القرآن كتاب الله لا كتاب محمد بن عبد الله .

وقد خرج فى كتابه النثر الفنى على الإجماع فى أمر القرآن وما اتفق عليه علماء العربية الذين أجمعوا على أن القرآن معجز ، وأول شرائط الإعجاز التنزه عن كل ما يمكن أن يعد عيباً فى الكلام وإلا لأمكن لبليغ أن يستدرك على القرآن .

وقد ظلت هذه الظاهرة مستمرة فى كلية الآداب والأدب الحديث ، فقد ظهرت بعد ذلك فى رسالتين ، وكان ذلك امتداداً لهذا التيار الخطير .

* * *

---

(١) انظر ردود المرحوم الدكتور محمد أحمد الغمراوى على هذه الشبهات فى مجلة الرسالة ١٩٤٤ وراجع كتابنا (المساجلات والمعارك الأدبية) .

٦ - الشـريعة والقانـون

عمدت حركة التغريب إلى مهاجمة الإسلامية وتأكيد القانون الوضعى .

وكان محمود عزمى فى مقدمة المهاجمين للشريعة الإسلامية والدعوة إلى ما أطلق عليه « مدنية القوانين » حيث طالب عام ١٩٢٢ بما أسماه اعتبار القومية المصرية وحدها أساساً لتقرير حقوق المصريين وواجباتهم العامة ، وانضم إليه عزيز ميرهم (وهو من أعضاء الحزب الديمقراطى الذى اندمج فى حزب الأحرار الدستوريين) الذى دعا إلى المطالبة بتوحيد الشريعة والقضاء وجعلهما مدنيين فى الأحوال الشخصية كما فى المعاملات .

والمعروف أن القانون الوضعى قد فرض على مصر منذ عهد إسماعيل ، ومنذ إنشاء المحاكم المختلطة وقد أكد الاستعمار فى كل مكان حل فيه فرض قانون مستمد من القانون الأوروبى .

وقد أشار محمود عزمى إلى مفهوم الدعوة إلى توحيد التشريع فى مصر فقال : « ليس معناه تطبيق التشريع الواحد على المصريين والأجانب فحسب ، بل معناه قبل هذا وفوق هذا ، تطبيق التشريع على جميع المصريين مهما تكن أديانهم ومعتقداتهم ، بمعنى أن يكون للمصريين كلهم أحكام زواج وطلاق واحدة ، وبمعنى أنه إذا رغبت مسلمة ولتكن إحدى أخواتنا مثلا أن تتزوج من قبطى فلا يكون هناك مانع أو اعتراض » وقال إن باب الأسرة المسلمة محكم الإغلاق فى وجه الكتابيين جميعاً ونحن أول من يتقدم مطالباً بالمظاهر المدنية البحتة لحياتنا العامة جميعا فى أسرتنا وفى تعليمنا وفى تفكيرنا وفى قضائنا .

وقد واجهت آراء محمود عزمى اعتراضاً شديداً من دعاة اليقظة ورجال العلم من الأزهريين وغيرهم وتصدى كثيرون للرد عليه فى مقدمتهم جريدة « اللواء المصرى » ومجلة « المنار » و « الأهرام » وتبارى الكتاب فى بيان حكم الشرع الإسلامى فى إباحة التزوج بالكتابية دون تزوج الكتابى بمسلمة .

وقال السيد رشيد رضا : إن مدنية القوانين هى سعى المتفرنجين إلى نبذ الشريعة الإسلامية من مواد الدستور الأساسية ، إن دين الدولة المصرية الرسمى هو دين الإسلام : ساءت المواد بعض ملاحدة المتفرنجين وقام من يقدح « من الإصلاح لمصر فى عصر الاستقلال والدستور أن توحد قوانينها فنجعلها كلها مدنية بوضع قانون مدنى للأحوال الشخصية من زواج وطلاق » . وقال إن هدف الدعوة هو ترك الشريعة الإسلامية ونبذها وراء الظهور حتى فى الأحكام الشخصية التى تتعلق بما يدين المسلمون لربهم به ، وأن الكاتب واحد من المتفرنجين ربيب بعض ساسة الفرنج الذين سعوا لتحويل مصر وغيرها من أحكام الشريعة الإسلامية فى المعاملات المالية والعقوبات وغيرها ، واستبدال قوانينهم بها ، فكان لنجاحهم تأثير عظيم فى إضعاف مقوماتنا الحالية بإعراضنا عن أصول التشريع الذى قامت عليه مدنيتنا العربية الزاهرة . وقال إن هذا العمل خطوة إلى حل الرابطة الإسلامية فى شعوب المسلمين من طريقين : أحدهما تعليم المدارس الخاصة بهم كمدارس دعاة النصرانية المنتشرة فى بلاد الإسلام ومدارس الحكومة التى يسيطرون عليها .

والطريق الثانى هو إقناع المتفرنجين من الأدباء والكتاب بوجوب الفصل بين الدين والحكومة ، وبأن الشرع المبنى على أصول الدين لا يصلح لترقى البشر الدنيوى ، وبأن الشرع الإسلامى قد وضع لأمة بدوية أو قريب من البداوة فلا ينطبق على مصالح الناس فى هذا العصر ، وربط السيد رشيد رضا بين ما كان من السعى لهذا الأمر منذ عهد السير سكوت المستشار القضائى الإنجليزى المشهور الذى اقترح إلغاء المحاكم الشرعية فى مصر وبين اقتراح الدكتور محمود عزمى الذى أسماه (مدنية القوانين) وبينهما صيحة منكرة لأحد وكلاء النيابة من المصريين للتفرنج فيها بهدم جميع إصول الإسلام .

وأشار إلى ما قامت به وزارة الحقانية حين اقترح بطرس غالى تعيين قاضيين من مستشارى محكمة الإستئناف الأهلية يحضران الدعاوى المهمة فى المحكمة الشرعية العليا فقوبل المشروع بالسخط العام ، وعلى أثر هذه النازلة عزل الخديو الشيخ حسونة من مشيخة الأزهر ، وتولى الإمام (محمد عبده) منصب الإفتاء .

ثم ما كان فى عهد الحماية البريطانية حيث تقدمت الحكومة بمشروع جديد هو وضع قانون للأحوال الشخصية وما يتعلق بها كالطلاق والفسخ والعدة والنفقة ، وألفت لجنة حضرها الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية وبرياسة وزير الحقانية على أن تستمد مواد هذا القانون من كتاب قدرى باشا المشهور وقد اقترح بعض المتفرنجين أن يدمج فى هذا القانون إبطال تعدد الزوجات وتقييد أحكام الطلاق وحرية المتعاقدين (الرجل والمرأة) فى عقد النكاح ، وتساويهما فيما يلزم العقد وجعل العقدين رسميين ، بل صرح بعضهم بوجوب عدم تناقض أحكام النكاح مع الحرية الشخصية المقررة فى قانون العقوبات أى المتضمنة « إباحة الزنى » .

وأشار إلى أن هذه الدعوة المستمرة إلى مهاجمة الشريعة الإسلامية إنما هى حرب « متفرنجة المسلمين ضد الإسلام » وإنها جاءت نتيجة انتشار المدارس الأجنبية والبعثات الأجنبية حيث تنتشر تلك الدعوة وقد قلدت الأمم المختلفة أوروبا فى هذا نتيجة لضعفها فى مناهج التعليم وفى اقتباس القوانين والتشبه بالعادات « وعظمت سيطرة هؤلاء الأجانب على العقول والقلوب بتصرفهم فى تربية النشء وتعليمهم تصرفاً قصد به قطع جميع الروابط الملية والقومية وجعله عالة عليهم فى كل شىء ، يقول : وإذا كان الإفرنج قد عجزوا عن تنصير المسلمين بمدارس جميعاتهم الدينية فإنهم لم يعجزوا عن إبطال ثقة الكثيرين منهم بدينهم الذى هو مستمد فضائلهم وآدابهم النفسية والاجتماعية ، وإبطال ثقتهم بشرعهم الذى هو أساس حضارتهم ومجدهم ، وإبطال ثقتهم بلغتهم الحافظة لشرعهم وآدابهم وتاريخهم وحضارتهم وتوجيه هممهم إلى استبدال شرائع حضارتهم وآدابهم ليخرجوا عن كونهم أمة ذات مقومات مستقلة ، فيفقدوا أعظم أركان الاستقلال القومى .

وقال إن الهدف من ذلك هو إقامة القاعدة الأفرنجية المؤسسة لإزالة السلطة والسيادة الإسلامية ، وهى فصل السياسة عن الدين والتى تقضى بألا يشترك علماء الدين فى شىء من أعمال السياسة ولا شئون الحكومة ، وأشار إلى الحقيقة التى لا شك فيها وهى أن أحكام الإسلام الدنيوية موافقة لمصالح البشر فى كل زمان ومكان وأن سلطته ليست شخصية ولا مما يسمونه الأتوقراطية بل هى حكومة شورى شعبية .

* * *

وقد كشف محمود عزمى من بعد عن أهداف جديدة فى مهاجمة الشريعة الإسلامية حين تحدث عن دراسته فى باريس وعن مفهوم الربا فى الاقتصاد السياسى وفى الشريعة فقال :

أستاذه لامبير كان يحدثه عن أن الربا أصل كل نمو اقتصادى ، كان يذكر أن الله قد أحل البيع وحرم الربا وكان لا يستطيع أن يوفق بين الأمرين فذهب إلى لامبير وقال : الربا حلال فى الاقتصاد السياسى حرام فى الشريعة الإسلامية فقال له لامبير : « حين تدرس الاقتصاد السياسى لا تفكر فى الشريعة الإسلامية وحين تدرس الشريعة الإسلامية لا تفكر فى الاقتصاد السياسى » .

ولا شك أن هذا كان تمويهاً من لامبير الذى يعرف أن الشريعة الإسلامية لها تطبيق كامل للنظم الاقتصادية وأن العالم الذى يدين بالإسلام ، وهو العالم الإسلامى كان واقعاً تحت النفوذ الاستعمارى الذى فرض عليه نظامه الاقتصادى وأنه لم يقبل هذا النظام ولكنه اضطر إلى التعامل به .

والمعروف أن محمود عزمى هو أول مسلم انتقد ما جاء فى الدستور المصرى بأن مصر دينها الرسمى الإسلام وسمى هذا البند (النص المشئوم) وهاجمه فى عدة مقالات نشرتها الأهرام والاستقلال .

وقد امتدت فى هذه الفترة تلك النظرة إلى الشريعة الإسلامية ، فى نفس الوقت الذى كان كتاب حركة اليقظة والجماعات الإسلامية المختلفة

يتحدثون عن الإسلام ويفصلون القول فى عظمة شريعته ، ثم كان قرار مؤتمر القانون المقارن الذى عقد فى لاهاى سنة ١٩٣٧ تأكيداً لرأى الداعين إليها فى مواجهة دعاة التغريب ، حيث قرر المؤتمر أن الشريعة الإسلامية هى نظام قانون مستقل غير مأخوذ من التشريع الرومانى ، وقد اقتضى هذا تمثيل الشريعة الإسلامية فى محكمة العدل الدولية كنظام قانونى مستقل من النظم العالمية الكبرى التى يجب تمثيلها فى قضاة المحكمة ، وكان المرحوم الدكتور عبد الحميد بدوى هو ممثل الشريعة الإسلامية فى هذه المحكمة ، ثم خلفه السيد ظفر الله خان .

وفى عام ١٩٣٧ عقدت اتفاقية مونترو لإلغاء الامتيازات الأجنبية بعد انعقاد معاهدة ١٩٣٦ وتجدد الحديث عن الشريعة الإسلامية وحفلت الصحف والمجلات الإسلامية بأبحاث مطولة تدعو إلى اتخاذ أسس القانون المصرى من قواعد الشريعة ، وكانت العراق قد استقدمت الدكتور السنهورى واستعانت به فى بناء قانون عام مستمد من الشريعة الإسلامية ، غير أن النحاس باشا هاجم حركة المطالبة بالتشريع الإسلامى عام ١٩٣٨ وقال إنها تهدف إلى تعويق سير مؤتمر إلغاء الامتيازات ، وقال إن الحدود مقررة فى شريعتنا ولكنها لا ترضى الأجانب ، وقد رد عليه بعض المصلحين وأشاروا إلى أن الزعماء السياسيين قنعوا من الاستقلال بوثيقة لا قيمة لها (هى المعاهدة) وتركوا الشعب مكبلاً فى كل ناحية من نواحى حياته والمعروف أن القانون الجنائى وضع عام ١٨٨٣ أى بعد احتلال بريطانيا لمصر بعام واحد ثم أعيدت صياغته مرتين إحداهما ١٩٠٤ والأخرى ١٩٣٧ وفى كل مرة تعاد صياغته يخطو القانون خطوة صغيرة نحو الشريعة الإسلامية ، وأهم وجوه الخلاف بينه وبين التشريع الإسلامى إنما تتمثل فى جرائم الزنا (الحدود) فإن المشرع الوضعى اعتبر الزنا عملا مباحاً ، وهو ما يسمى فى الشريعة (الوطء من غير حل) فهو ليس عنده جريمة والقانون لا يعاقب عليه ، وكان للاستعمار البريطانى أثره الواضح فى إقراره هذه المادة وغيرها .

وقد واجه المفكرون المسلمون العلاقة بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعى منذ عهد بعيد وناقشوا وجوهها المختلفة ، وكان من أقدم هذه

المؤلفات كتاب على أبو الفتوح عام ١٩٠٥ وعرضت مجلات الأزهر والفتح والمنار والإخوان المسلمين لهذه القضية ، ونوقشت قضايا الربا والزنا ، وغيرهما وكشف قادة اليقظة الإسلامية رأى الإسلام فيها .

* * *

٧ ـ النظريـة الماديـة

جرت إثارة قضية النظرية المادية منذ وقت بعيد ، وكان الدكتور شبلى شميل أول ممثل للاتجاه المادى فى العالم العربى الحديث ، وكان الدكتور صروف فى مجلة « المقتطف » ينشر آرائه ويطبع كتبه ويعارض اندفاعه وعنفه فى إذاعة هذه النظرية ويرى أن طريق الدعوة إليها يجب أن يكون فى تمهل وأناة .

وليست الدعوة إلى النظرية المادية ، كنظرية علمية ، هو الخطر فإن أى نظرية يمكن أن تكشف عن حقيقة جوهرها مع الزمان ، غير أن الدكتور شبلى شميل كان يتخذ منها منطلقاً إلى إنكار المقدسات ومحاربة الأديان ، وحيث كان يقول أن دين الإنسانية الحق هو العلم وقد مضت النظرية المادية ، ولكن الذين أخذوا بها لم يوافقوه على النتائج المادية التى استخرجها ، وقد عارض إسماعيل مظهر اتخاذ الدكتور شميل مذهب النشوء ذريعة لإثبات المذهب المادى ، وفصل بين مذهب النشوء وبين إنكار الدين .

وقد أولت مجلة المقتطف اهتماما بالغاً بنظرية دارون وأصدر شبلى شميل الطبعة الأولى من كتابه شرح بخنر على دارون عام ١٨٨٤ وأعاد طبعة ١٩٠٩ ، وكان بخنر من الغلاة الذين يحاولون تطبيق نظرية دارون على المجتمع ، وآراؤه فى مجموعها تهاجم الأديان والشرائع .

وقد واجه العلامة فريد وجدى رأى شبلى شميل منذ اليوم الأول ، وكشف مدى الخطر فى تحويل نظرية دارون من نظرية علمية فلسفية إلى حقيقة علمية ، وإلى قاعدة للتحويل الفكرى للمجتمع والعالم .

أما نظرية التطور فقد عرفها العلماء المسلمون من قبل وقد أشار إلى

ذلك العلامة (درابر) حين قال : تأخذنا الدهشة أحياناً عندما ننظر فى كتب الغرب فنجد آراء كنا نعتقد أنها لم تعرف إلا فى زماننا ، كالرأى الجديد فى ترقى الكائنات العضوية وتدرجها فى كال أنواعها ، فإن هذا الرأى كان مما يعلم العرب فى مدارسهم ، وكانوا يذهبون إلى أبعد مما ذهبنا فكان عندهم علم يشمل الكائنات العضوية والمعادن والأصل الذى بنيت عليه الكيمياء عندهم هو ترقى المعادن فى أشكالها .

* * *

وقد تطورت نظرية دارون فى خلال هذه المرحلة فظهر فلاسفة كثيرون طوروا النظرية وفرضوها على المجتمع كله ومنهم هكسلى وبرجسون وبرناردشو ، غير أن هناك مفكرين نقضوا نظرية التطور وجرت مناقشات حول نظرية النشوء ونظرية الخلق المباشر (أى خلق كل أجناس الحياة الموجودة فى وقت واحد) .

وفى مجال الثقافة العربية ترددت أبحاث كثيرة حول العلم والدين وذلك حين عرض طه حسين نظريته التى قال فيها : إن الدين خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها ، وقد دحض كثير من الباحثين هذه النظرية وفى مقدمتهم :

مصطفى عبد الرازق والثعالبى ، وعبد الوهاب النجار وفريد وجدى ، والدكتور محمد خليل عبد الخالق والدكتور توفيق شوشه .

يقول الدكتور شوشه : اتسع التحقيق العلمى اليوم للمجهول ، وأخذ العلماء يعترفون بأن الحقيقة كامنة وراء المظاهر ، وأن الكون ليس حقيقة فى ذاته وليس هو المظهر الوحيد للتعبير عن الحقيقة . وليس هناك من شك فى أن قوة مدبرة مفكرة هى التى أبدعت الكون ، الى هذا توالى الاكتشافات العلمية الأخيرة وقد جعل العلم همه فى دراسة المحسوسات والمظاهر وتعليل القائم من الحقائق ولكن لا يتعرض بحال لطبيعة الأشياء ويفسر كنهها ، وقد أثبت الدكتور أرنست رازرفورد أن الذرة تتكون من

الكترونات (كهارب) حول بروتونات على نظام يحاكى النظام الشمسى وقال بإمكان تحويل المعادن إلى بعضها نظرياً لا علميا ، وأن هذا القول هدم نظرية المادة .

وقال الدكتور محمد خليل عبد الخالق : إن الأساس الذى قامت عليه المذاهب العلمية فى القرن ١٩ قد انهار ، وأصبح العلماء الآن يتكلمون عن الكون وعن الإنسان وعن الحياة بعبارات صوفية ، والآن يكشف العلم عن ميادين جديدة تبحث عن الأرواح وأصل الحياة وغاية الوجود وأن مذهب دارون فرض وليس حقيقة غير قابلة للنقض .

* * *

وقد كشف قادة اليقظة الإسلامية عن أن هذا الخلاف المثار بين الدين والعلم هو خلاف مفتعل فى مفهوم الفكر الإسلامى ، الذى كان نصيراً للعلم ومصدراً لنشوء المذهب التجريبى الإسلامى الذى قامت عليه النهضة العلمية الحديثة . وكشف علماء الطبيعة وأكد الباحثون أن ما تثبته التجربة ويؤيده الاختبار ، أن ليس بين الدين والعلم خصومة بحال ، « لأن العلم يشتغل فى ناحية لا تناقض الدين ولا تقع فى دائرته ، فليس من مباحث العلم إثبات وجود الله ولا إثبات نبوة الأنبياء لأنهما ليسا مما ينال بالتجربة أو يقع تحت الاختبار » وأنه « ليس بين الدين والعلم خلاف ولكن الخلاف بينه وبين بعض المذاهب الفلسفية ، وهناك فرق بين العلم الثابت بالتجربة وبين الفلسفة .

وقال الباحثون إن كل شىء فى العلم قابل للمراجعة والهدم ، وأن الحقائق العلمية إفتراضات نسبية ، وأن عمل العلم هو مخاطبة الطبيعة بدون إبداء أية حقيقة مطلقة عنها ، فليس له حق إنكار أو إثبات النبوات أو المعجزات ، وأن العلم وحده غير كفيل بحل المشكل الإنسانى برمته وأن طرائقه العلمية لا تصلح إلا مطبقة على الظواهر فقط ، وإنه لا يملك حق التدخل القاطع فى الشئون الروحية التى تفوق حدود فحصه ، ولا يمكن مهما علل أو اكتشف أن يرضى جميع خوالج النفس الإنسانية وما تخفق به من عواطف وما تردد من مطالب وآمال .

٨ ـ إقليميــة الأدب

دعا بعض الكتاب إلى إقليمية الأدب ، وذلك في مجرى الدعوة إلى الإقليمية السياسية والاجتماعية والفصل بين مصر والأمة العربية من ناحية وبين العالم الإسلامى من ناحية أخرى .

بدأت بوادر هذه النظرية فى مقالات أحمد ضيف (مقدمة فى بلاغة العرب) وقال أحمد ضيف : إنها ليست آداب أمة واحدة وليست لها صفة واحدة بل هى آداب أمم مختلفة المذاهب والأجناس والبيئات ، وتولى أمين الخولى تنمية هذه البذرة وتقوية هذه النظرية وبذل فى هذا السبيل جهوداً وسعى إلى دعم هذه النظرية ونشرها بين طلابه . واعترض على من يقول بدرس الأدب العربى على أساس التقسيم الزمانى وقال بضرورة العدول عن هذا التقسيم إلى التقسيم المكانى ودرس الأدب العربى إقليماً بعد إقليم لا عصراً بعد عصر ، ومن رأيه أن لكل إقليم طابعه الخاص .

وقد عارض كثير من الباحثين هذه النظرية ، وكشفوا عما تخفى من دعوة إقليمية وتعميق للتجزئة ، وقال ساطع الحصرى إن الأدب العربى حافظ على صفته الموحَّدة والموحِّدة حتى فى أسوأ عصور تفكك الدول العربية وتفتيت شعوبها ، وأنه يوجد أدباء مصريون ، وعراقيون وشاميون ، وكذلك لا يوجد شعر مصرى أو عراقى إلخ وإنما يوجد شعراء . وأنه لا بأس أن تكون هناك عناية بجوانب معينة في الأقاليم المختلفة ترتبط بالبيئة والتطور ولكن الأدب فى مجموعه عربياً متصلا وإن الفروق بين الأقطار العربية ليست فروقاً فى النوع ولكن فى الدرجة .

٩ - الهجوم على الفصحى

لقد نالت اللغة العربية قدراً ضخماً من المهاجمة والاتهام منذ وقت بعيد ، يرجع إلى قبيل الاحتلال البريطانى لمصر ، ثم امتد ذلك واتسع ، بدأ عن طريق بعض المستشرقين أمثال : فولرس وبلمور وولكوكس .

ثم حرض التغريب عليه أمثال قاسم أمين ولطفى السيد والزهاوى وتصدرت الحملة مجلة « المقتطف » فأغرت الكثيرين من الشاميين الموارنة أن يواصلوا الحملة على العامية والدعوة إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية . وكان خطاب ولكوكس ١٨٩٢ وإصداره جريدة الأزهر لنشر دعوته العامة هو منطلق هذا الاتجاه فقد دعا المصريين إلى استعمال اللغة العامية ونقل الكتب المعروفة إليها .

وصدر فى هذا الوقت عدد من الكتب والدراسات : اللغة العامية المصرية للدكتور فولرس ١٨٩٤ ، وقاموس اللغة بالعربية والإنجليزية وفى عام ١٨٩٧ ، أولت المقتطف اهتمامها ببحث الحروف الأفرنجية للخط العربى ، وصدر ١٨٩٧ كتاب (نحو العربية) بالإنجليزية وفى عام ١٩٠٢ أصدر القاضى ولمور كتاب اللغة العربية المحكمية وفى عام ١٩٠٣ جرى البحث حول اللغة الهيروغليفية والقبط وامتد البحث عن العامية والفصحى وفى سنة ١٩١١ دخل المعركة لطفى السيد فكتب مقالاته المعروفة فى هذا الصدد .

وكان مجمل دعوى هؤلاء جميعاً أن العربية ليست إلا كاللاتينية ، يجب أن تدخل المتحف ، وأن اللغة العامية يجب أن ترتقى حيث تصبح لغة كتابة ، وعندما يفعل المصريون ذلك سوف يتاح لهم قوة الاختراع التى لا توجد فيهم الآن ، لأنهم يستعملون فى كتبهم لغة غير اللغة التى

يستعملونها فى الكلام . وأن أمم أوربا لم تنشط إلا بعد أن استعملت لغاتها الخاصة ، وقد واجه كثير من رجال اليقظة هذا الموقف وعارضوه بشده وفى مقدمتهم مصطفى صادق الرافعى ، وعبد الرحمن البرقوقى ، وكثير ممن كتبوا فى مجلة ولكوكس نفسه وقدم أمين فكرى رسالة ، إلى مؤتمر اللغات الشرقية فى مسهبه : قال فيها إن اللغات العربية العامية لا يسهل تنقيحها والاعتماد عليها لتباينها فى مصر والشام وبلاد المغرب ونشطت دار العلوم فعقدت مؤتمرها الأشهر عام ١٩٠٨ وتصدره عبد العزيز جاويش وحفنى ناصف وغيرهما .

وجرى البحث فى أمور الاشتقاق والتعريب ، وكتب فى هذا أحمد الاسكندرى والمغربى وكتب جبر ضومط يؤيد اللغة الفصحى .

فلما انتهت الحرب العالمية الأولى جددت حركة التغريب دعوتها إلى مقاومة الفصحى والهجوم عليها وتصدر ذلك سلامة موسى كامتداد للمهندس ولكوكس ، كما ظهر غيره فى الشام والمغرب وأيد المستشرقون هذه الدعوى وأوغلوا فيها غير أن كتاب اليقظة واجهوا الموقف فأعلن أحمد كمال باشا الأثرى أن اللغة العربية والمصرية القديمة هما من أصل واحد .

وامتدت الشرارة إلى التعليم فى مدرسة الطب فدعا رجال اليقظة إلى أن تكون الدراسة فيها باللغة العربية ووقف حماة التغريب يعارضون الرأى . وقال : أحمد وفيق رئيس تحرير جريدة اللواء : « إن كل ما يقال فى تبرير التعليم باللغة الإنجليزية ليس إلا تبريراً فى الواقع لبقاء النفوذ الأجنبى فى البلاد » . وكشفت الصحيفة عن الاهتمام العظيم الذى علقه الموظفون البريطانيون فى مصر على استبدال اللغة العربية كأداة للتعليم باللغة العربية فى كل مدارسنا الابتدائية والثانوية ، ذلك الاستبدال الذى اعتبر بحق أعظم انتصارات الوطنية المصرية فى جهادها الطويل .

وأشار الكاتب إلى مشروع برونيات عن تغيير لغة ونظام القضاء ، ومشروع دنلوب الذى مهد له تقرير كاربنتر الخاص بإعادة التعليم باللغة الإنجليزية وقد حاول تقرير كاربنتر أن يهاجم التعليم باللغة العربية وأن يقلل من كفاءة الطلاب المصريين فى اللغات الأجنبية والعلوم نتيجة لوضع مقاليد

التعليم فى أيد مصرية . وقالت « اللواء » نحن نريد أن تكون لغتنا العربية أداة التعليم بكل أنواعه ، لأن اللغة أعظم مظاهر القومية ولأننا نبغى الاستقلال الفكرى كما نبغى الاستقلال السياسى ولا سبيل إلى الإستقلال الفكرى إلا بالاستقلال اللغوى الذى هو عنوانه ومظهره وأن تاريخ القوميات الناهضة فى أنحاء العالم قد اقترن باللغات الأهلية .

ودحض أحمد وفيق الاعتراضات التى وجهت إلى التعليم باللغة العربية فى مدرسة الطب ، فقال إن الاعتراض بعدم صلاحية اللغة منقوض من أساسه إذا اعتبرنا سعة اللغة واستعمالها فى المدرسة والكتب الفنية الكثيرة إلى عهد ليس ببعيد ، وهاجم الأطباء الذين عارضوا الدراسة باللغة العربية وقال : أحزنتنا تلك الصفعات التى سددت من غير قصد إلى أمتهم بحكم تساهلهم الفطرى فى واجباتهم نحو البلاد ، وأعاد إلى الذاكرة موقف سعد زغلول عام ١٨٨٩ فى تأييد عمل الإنجليز على محو لغة البلاد وقد اتخذ المستعمرون من تقريره بتأييد التعليم باللغة الإنجليزية ذريعة فى سبيل قتل لغة البلاد ، غير أن الأمة عارضت خطة سعد زغلول والإنجليز وقامت الجمعية العمومية ١٩٠٧ بمطالبة الحكومة بإعادة التعليم باللغة العربية ، واستطاعت السياسة أن تنتحل المعاذير بعدم وجود الإخصائيين وكيف أوجدت االسياسة البريطانية طريقة جهنمية تحقق بها غرضها وهى تدريس العلوم باللغة العربية بواسطة أساتذة إنجليز يضم إليهم مصريون يصلحون ، وكيف حفل تاريخ مصر بأعلام العلوم باللغة العربية أمثال عثمان غالب الذى كان يدرس علم النبات ومحمد على باشا علم (الإكلينيك) وسالم باشا (الباثولوجيا) وعوف باشا وحسن هاشم (الولادة) وعبد السميع افندى علم (قانون الصحة والطب الشرعى) وبدوى أفندى (علم المادة الطبية) وعبد الرحمن الحفناوى (علم الفسيولوجيا) وأحمد حمدى (الجراحة) وعلى رياض (علم تحضير المواد الطبية) وزينب أفندى وجليلة أفندى (الجراحة الصغرى وأمراض النساء) .

هذا بالنسبة لكلية الطب ، وأما كلية الحقوق فقد كانت تدرس

المرافعات وتحقيق الجنايات وقانون العقوبات باللغة العربية (عمر لطفى وقمحة بك وأبو هيف بك ونشأت بك وأحمد أمين بك وعبد الحميد بدوى بك والغزالى بك قاموا بتدريس تلك العلوم) .

وكان الدكتور حسين الهراوى من المتقدمين للدعوة إلى تعليم الطب باللغة العربية فقد أنشأ مجلة طبية عربية كرابطة بين التعليم والمناهج ، ولتقوم بترجمة الاصطلاحات باللغة العربية ، وأجرى الاتفاق فى ذلك مع مدير مدرسة الطب الدكتور كينبج وبين الشيخ حمزة فتح الله وبعض الثقات فى اللغة العربية وصدر العدد الأول من (المجلة الطبية) وتولى الإشراف عليها الدكتور أحمد عيسى وعلى ابراهيم وسليمان عزمى .

* * *

وعرض الدكتور منصور فهمى للرد على الاتهامات التى وجهت بالقول بأن هناك لغة فصحى ولغة عامية ، وقال إن هذا الاتهام يدل على جهل بلغات الأمم الحديثة فاللغة الإنجليزية تكتب فيها الكلمة بشكل وتنطق بشكل آخر ، واللفظة الواحدة ينطقها الأستاذ فى مدرسة أو فى جامعة بلهجة خاصة وينطقها عامل الترام مثلا بلهجة أخرى ، والحال كذلك عند الفرنسيين والألمان ، ومع ذلك لم نجد فى هذه الأمم من يقول بإحلال اللغة العامية محل اللغة الفصيحة ، ولكن أصحابنا المجددين فى مصر يظنون أن هذه مسألة المسائل فيتحمسون ويظنون أنفسهم من رجال النهضة ، بمثل هذا الهذر الممقوت ، أضف إلى ذلك أنهم لا يقدرون الخسارة الفادحة التى تصيب مصر إذا تم لهم ما يبغون ولو كان منهم منصف لعرف أن لغة أصحاب المعلقات أقرب إلى لغتنا الحاضرة وبيننا وبينهم أربعة عشر قرنا — من لغة القرن السابع عشر بالنسبة إلى التاسع عشر فى فرنسا[1] .

ويتحدث الدكتور زكى مبارك من باريس حول الدعوة التى يذيعها المستشرقون فى الدعوة إلى العامية والحروف اللاتينية فى مصر ويقول : « أن

---

(١) المساء — ٢٢ سبتمبر ١٩٣٠ .

المثقفين من المصريين يعلمون كيف نبتت هذه الفكرة وكيف عمل المبشرون على بثها فى مختلف الطبقات لتصبح مصر غريبة بين الأمم العربية وليصبح فى الشرق مئات من اللغات والقوميات ليسهل ابتلاعه وهضمه بلا عناء » وقال إن الأوربيين حريصون على إثبات أن المصريين منقسمون إلى مسلمين وأقباط ، والمغاربة إلى عرب وبربر ، والسوريين إلى مسلمين ودروز ، والعرب إلى سنيين وشيعة ، والهند مسلمين وهندوس ، وهم وحدهم الذين يجدون فى إحياء العصبيات القديمة واللغات الميتة والتقاليد المنسية ، لتشتيت الشرقيين ولينقسموا إلى شيع وأحزاب ولهم فى ذلك حيل عجيبة أظهرها أنهم يصبغون دسائسهم بالصبغة العلمية والفلسفية ليخفوا عن الناس ما يضعون ولك أن ترجع إلى جميع الدعايات الخطيرة فى الشرق فلن تجدها فى صميمها إلا دسائس علمية أو فلسفية دسها خدم الاستعماريين الشرقيين ليفهموهم أنهم منقسمون ومتفرقون ، وإن لم يخطر لهم ذلك ببال[1] .

* * *

وقد جرى البحث طويلاً وهو ما أطلق عليه دعاة التغريب (إصلاح اللغة العربية) .

يقول الدكتور على العنانى ان القول بإصلاح قواعد اللغة من نحو أو صرف معناه خلق لغة جديدة غير لغة القرآن والحديث وغير الشعر والنثر وغير لغة العقلية العربية الإسلامية على العموم ، ويستطرد فيقول : إن قواعد اللغة العربية وضعت طبقاً لنصوص القرآن والحديث والمسموع ومحال أن نهجر القرآن والحديث والمسموع ، ومحال أن نهجر لغة حية كانت لها السيادة العقلية قرونا طويلة ونخلق لنا رطانه جديدة .

إن اللغة لا تقبل إصلاح قواعدها بالإزالة والوضع فيها أو الوضع فقط لأن هذا التغيير أيا كان يخرجها عن لغة القرآن والحديث والأدب العربى والعقلية العربية الدينية ومحال أن نرضى بلغة القرآن لغة

---

(١) المساء ١٧ / ١٢ / ١٩٣٠ .

أخرى ، ومن المعروف أن الدين الإسلامى وهو عقيدة وتشريع قد استنبطت أحكامه فيما يختص بالعقيدة والتشريع فى العبادات والمعاملات من الكتاب والسنة وعمل الرسول والاجتهاد ، وكل هذه الأركان والينابيع لا يمكن أن يستنبط منها حكم إلا بواسطة مبادىء ، خاصة وقوانين معروفة بعلم الأصول ، إنما هو فهم لغة العرب : لغة القرآن والرسول بما وضع لها من القواعد وأساس هذه المبادىء والقوانين أو دعائم علم الأصول الصرفية والنحوية وضوابط علم البلاغة ، وإذا صلحت هذه الضوابط وتلك القواعد بالإزالة والوضع انهدم أساس علم الأصول وتداعت دعائمه وإذا انهدم الأساس وتداعت الدعائم انهدم أيضا ما يرتكز عليها وهو هذا العلم ، وإذا وصل هذا العلم الأساسى فى استنباط أحكام العقيدة ومسائل الشريعة إلى التداعى تداعت معه أيضاً طريقة الاستنباط وفهم ما استنبط وعدنا إلى الجاهلية الأولى »[1] .

* * *

ولم يقف الأمر عند هذا بل إن بعض العلماء الغربيين المنصفين حذروا المصريين والعرب من العامية واللاتينية معاً .

وقال سير ادور دينسون روى مدير مدرسة اللغات الشرقية فى لندن : حذار من استعمال الحروف اللاتينية فى كتابة اللغة العربية لأن الحروف العربية هى حروف لغة القرآن وإذا نسيتم الحروف العربية نسيتم القرآن بل هدمتم صرح وحدة الإسلام ، وإن الإسلام أساسه اللغة العربية ، فإذا ضاعت ضاع الإسلام ، وقال كثيرون : إن كل الحملة الموجهة إلى اللغة إنما هى موجهة أساساً إلى الإسلام نفسه ، ولكنها لم تكن تستطيع أن تكشف هدفها مباشرة .

* * *

---

(١) النهضة الفكرية ١٩٣٤ .

١٠ - التغريـــــب

جرت محاولات كثيرة إلى وصف مصر والعالم العربى بأنه جزء من الغرب ، وأنه لا يمت بصلة إلى العرب أو إلى العالم الإسلامى أو إلى الشرق أو إلى آسيا .

واستخدمت فى هذه الدعوة محاولات كثيرة منها محاولة الربط بين ثقافة أهل البحر المتوسط قبل الإسلام ، حيث كانت تجمعهم الحضارة الرومانية والفلسفة اليونانية ، أو محاولة التماس بعض ما ذكره أصحاب نظريات حجم الرؤوس والألوان وما يتصل بها من أحجام الجبهات واتساع العيون ولون الشعر فى محاولة الربط بين المصريين والسوريين وبين الغرب ، وقد أجرى هذه المحاولات طه حسين وسلامة موسى وجرى فيها شوطاً اسماعيل أدهم وإسماعيل مظهر وكثيرون من أتباع الثقافة الغربية وأوليائها .

غير أن هذه النظريات قد ثبت بطلانها من بعد وفسد أثرها ولم تستطع أن تحقق الهدف الذى قصد إليه أصحابها .

* * *

١١ - تزييف التاريخ وتدمير البطولة

كان من أبرز ما اتجه إليه زكى مبارك وجرجى زيدان وطه حسين وحسين مؤنس وغيرهم العمل على تدمير عدد من الشخصيات اللامعة فى تاريخ العرب والإسلام ، وفى مقدمتهم ابن خلدون والمتنبى والغزالى .

كما جرت المحاولات لإعلاء شأن شخصيات لا تمثل العروبة والإسلام من قريب أو من بعيد ، كالحلاج وأبو نواس وبشار بن برد وغيرهم .

وحاول الدكتور طه فى اعتماده على كتاب الأغانى أن يرسم صورة للتاريخ زائفة حين اعتمد على بعض شعراء الغزل المكشوف فى رسم صورة العصر ، بينما لم يكونوا يمثلون فى هذا العصر شيئاً ، وكانوا قلة لا يؤبه لها إزاء أعلام العصر فى مجالات الفقه والتاريخ والتصوف والفلسفة والأدب .

وفى كتاب التمدن الإسلامى لجرجى زيدان ، محاولات تغريبية خطيرة لتزييف التاريخ الإسلامى والانتقاص من قدر الخلفاء والأمراء المسلمين ، وقد جارى هذا المنهج الدكتور طه فى كتابه الفتنة الكبرى حين حاول أن يكسر القيد أمام الصحابة ، ويضعهم موضع السياسيين فى صراعهم ومطامعهم ، وخاصة فى إنكاره وجود أخطر شخصية فى تاريخ الفتنة وهى شخصية (عبد الله بن سبأ) اعتماداً على مراجع من التاريخ طبعت فى إسرائيل من أمثال : طبقات ابن سعد وأنساب الأشراف .

أما ابن خلدون فقد جرى طه حسين فى انتقاصه مجرى أستاذه المشرف على رسالته فى باريس اليهودى دور كايم الذى يحمل لابن خلدون وللفكر الإسلامى أسوأ صور العداء والحقد ، وكذلك فعل مع

المتنبى حين تبنى آراء المستشرق بلاشير فى محاولة انتقاص شخصية عربية لها دورها فى تصوير النفس العربية فى مجال العزة والإباء والحرب ومقاومة العدو الدخيل ، وكذلك جرى زكى مبارك فى كتابه عن الغزالى حين حاول تبنى آراء المستشرقين عنه ثم عاد فعدل عن ذلك فى كتابه (التصوف الإسلامى) وكتب مقالاته التى حرر فيها الرأى من هذا الزيف تحت عنوان : إليك أعتذر أيها الغزالى[1] .

ولقد عاش طه حسين حتى رأى أفكاره الوافدة وهى تتمزق وتمتهن عن طريق عشرات الباحثين من الأوربيين والعرب فى المؤتمرات المتعددة التى عقدت لتكريم ابن خلدون وتقليده قيادة الفكر الاجتماعى والمنهج التاريخى .

* * *

---

(١) راجع كتابنا (المساجلات والمعارك الأدبية) .

١٢ - إحياء الأساطـــير

كان كتاب (على هامش السيرة) الذى قدمه الدكتور طه حسين فى أول عدد من مجلة الرسالة عند ظهورها سنة ١٩٣٣ مثار ضجة كبرى وقد نظر إليه بعض البسطاء على أنه تقدير للإسلام ورسوله وتكريم من رجل سبق أن وضع موضع الاتهام بالنسبة للإسلام والقرآن .

وقد تخيل بعض الناس ذلك وانخدعوا له ، وكان هذا هدف حقيقى من أهداف التغريب لإعادة طه حسين إلى مكانة عالية فى نظر العرب والمسلمين بعد أن فقد مكانته تماماً ، ولكن كتاب (على هامش السيرة) لم يكن فى الحق عملا بناء ولا إيجابياً فى مجال الفكر الإسلامى أو التاريخ الإسلامى بل على العكس من ذلك كان انحرافاً خطيراً ، ذلك أن طه حسين قد جمع كل ما وجده فى الكتب من الأساطير وأعاد تجديدها واستباح لنفسه على حد قوله فى المقدمة الحرية الكاملة فى التوسع فى هذه الأساطير والإضافة إليها ، وبذلك أفسد السيرة النبوية التى ظل الكتاب والمؤرخون المسلمون يحررونها من كل قيود الأسطورة وشبهاتها وقد كشف عن هذا الخطر أقرب الأدباء صداقة ومودة ومعرفة للدكتور طه حسين وهو الدكتور محمد حسين هيكل الذى هاجم هذا العمل هجوماً عنيفاً فى السياسة الأسبوعية بعد صدور الجزء الأول مباشرة[1] فقال :

ومن الحق أن يقال أن طه حسين خدع بذلك الناس وحاول استعادة مكانته ف نظرهم ويملك فتح الطريق إلى العمل ف مجال التغريب إلى أوسع مدى ، وكانت أعظم الثمرات بعد ذلك هى كتابة (مستقبل الثقافة ف مصر) وهو من أخطر ماكتب ، تزيداً على العرب والمسلمين وتدميراً لمقومات فكرهم وقيمهم .

---

(١) راجع هذا مفصلا ف كتابنا (المعارك الأدبية) .

١٣ ـ الشعوبية واتهام العقلية العربية

حرص كثير من دعاة التغريب على اتهام العقلية العربية جريا وراء آراء ذكرها رينان وغيره ، فى مقدمتهم : توفيق الحكيم وحسين فوزى وسلامة موسى وحسين مؤنس واسماعيل مظهر .

فقد وصفت الأمة العربية بأنها أمة لا يعرف لها تاريخ وأدبها أدب صحراوى جاف مليء بالمبالغات هو أدب التكلف والزخرف ، ووصفت العقلية العربية بأنها عقلية سامية قاصرة عن الخلق عاجزة عن استنتاج المعانى المجردة ، وأن العرب استمدوا علومهم وفلسفتهم من فلسفة اليونان ولا فضل لهم فيها ، وكل شيء عند العرب زخرف ، وقال سلامة موسى إنه كلما ازداد خبرة وتجربة وثقافة كلما ازدادت معرفته بالشرق وزادت كراهيته له وشعوره بأنه غريب عنه ، وقال حسين مؤنس إن العرب أقل الناس تأثراً بماضيهم وارتباطاً به لأن كل جيل من أجيالهم الماضية اختفى فى التاريخ حاملاً معه كل تراثه تاركاً الميدان لجيل آخر يبدأ فيه كل شيء من جديد .

وقال سلامة موسى : ليس علينا للعرب أى ولاء إننا أرقى من العرب ، إن العربية ليست لغتنا ولا نستفيد منها ، وإن لنا من العرب ألفاظهم فقط لا لغتهم والأصلح لمصر إذا أرادت التخلص من آسيا والشرق والتاريخ العربى أن تعود إلى وطنية فرعونية مقصورة على مصر وتاريخ مصر ، وإن درس مدنية الفراعنة أفيد من درس العرب ، وإن الإسلام دين بدوى يتسم بكراهية الترف وبشدة الإيمان بالوحدانية وقال إن الأدب العربى هو قبل كل شيء أدب القرون الوسطى ، ونحن نقرأه للفائدة التاريخية فقط ، ولا يمكننا أن نستضيء به فى جل مشاكلنا الحاضرة ، إذ هو عقيم كل العقم من هذه االناحية ، وإن همومنا الأدبية والاجتماعية والاقتصادية

التى نعانيها فى مصر هى هموم اينون سنكلر ودبوى الأمريكى أو توماس مان واميل لودفيج الالمانيين ، وليست هى هموم أبى فراس والمتنبى وأبى حيان التوحيدى ، ويقول سلامة موسى : نحن جميعاً سكان العالم العربى من بغداد شرقاً إلى طنجة غرباً نشترك مع أوربا فى ميراث الدولة الرومانية التى تعتبر دولة العرب نفسها جزءاً منها فلنا ثقافتها وحضارتها . ويقول : نحن أوربيون فى الدم والمزاج والثقافة واللغة فليس من الصواب أن يقال إننا شرقيون ، ومن مصلحتنا أن نغرس فى أذهان جميع العرب فى مصر والعراق وسوريا وشمال إفريقيا أنهم أوربيون سلالة وثقافة وحضارة ، وأنهم يجب أن يسيروا مع أرق الشعوب الأوربية يتثقفون ويتعودون عاداتهم .

وقال إسماعيل مظهر : إن العقلية التركية الحديثة هى مثال العقلية السليمة التى يجب أن ينتحلها الشرق ليجارى سير الحضارة العالمية .

وقال حسين فوزى : درجت على حب الغرب والإعجاب بحضارته ، وتمكنت أواصر حبى وتقوت دعائم إعجابى به ، فلما ذهبت إلى الغرب عدت إلى بلادى وقد استحال الحب والاعجاب إيماناً بكل ما هو غربى » .

وتبدو هذه الآراء جائرة شديدة الجورحين تصدر من المستشرقين والمبشرين ودعاة التغريب الذين يمثلون سياسة الاحتلال ويمثلون النفوذ الاستعمارى الطامع فى السيطرة والبقاء عن طريق هدم مقومات الأمة العربية وتاريخها ولغتها وكيانها فى نفوس أبنائها ، فإذا هى صدرت من مصريين وعرب فإنها تكون أشد جوراً ، فليس من المعقول أن يحقر الإنسان نفسه إلا إذا كان وراءه هدف كبير وأمانة كبرى تدفعه أن يحقر أمته ووطنه وتاريخه . ومن الحق أن يقال إن كل كلمة من هذه الكلمات لم تمر دون رد عنيف ودحض شامل من قادة اليقظة الإسلامية الذين كانوا يتابعون كتابات هؤلاء يوماً بعد يوم ، وقد كشفوا ما وراء هذه الدعوة من أهداف وكيف أن كثيراً من هؤلاء الكتاب كانوا أتباعا للاستشراق ودعاة للتغريب ومبشرين لهم صلات أكيدة بالمؤسسات التبشيرية والماسونية وغيرها ، وكشف كتاب اليقظة كيف كان للعرب أدب ممتاز قبل أن يتأثروا بالحضارة اليونانية ، وأن هذا الأدب قد صور حياة العرب تصويراً صادقاً فأدى واجبه أحسن الأداء .

١٤ - إسقاط الحضارة الإسلامية

كان من أخطر المحاولات التى جرى عليها كتاب التغريب محاولة إسقاط دور الحضارة الإسلامية خلال ألف سنة من مجال الحضارة العالمية ، وذلك بالادعاء بأن الحضارة الرومانية سقطت فى أوربا فى القرن الرابع وأن الحضارة الغربية الحديثة قد بدأت فى القرن الخامس عشر ، وأن الفترة بينهما هى ما يسمى « العصور الوسطى المظلمة » وبذلك ينكر كتاب الغرب من المستشرقين والمبشرين والمتعصبين دور الحضارة الإسلامية ، وذلك بالنظرة المستعلية القائمة على مذهب العنصرية وإعلاء الجنس الأبيض صانع الحضارة ، وقد جرى فى هذا المجرى كثيرون منهم أمير بقطر وسلامة موسى وغيرهم ، غير أن الحقيقة لم تلبث أن ظهرت بأقلام كتاب الغرب أنفسهم الذين شهدوا بالدور الضخم الذى قام به العرب والمسلمون ، وفى مقدمتهم علماء الطبيعة والكيمياء أمثال درابر وبريفولت وغيرهما .

* * *

١٥ - الإغريقيات والنزعة اليونانية

أسرف دعاة التغريب فى الدعوة إلى الإغريقيات والنزعة اليونانية ، وبدأ لطفى السيد وطه حسين كأنما هما متخصصان فى هذه الدعوة ، وقد بدأ ذلك بمحاولة خطيرة فرضت اتهاماً باطلا ردده من قبل رينان ، أن الفلسفة الإسلامية هى فلسفة يونانية ولذلك فإن اليونانيات والإغريقيات والهلينيات لها صلة طبيعية بأدبنا وفكرنا .

وقد واجه دعاة اليقظة هذه الشبهة بالنقض ، وكشفوا عن خطئها وأبانوا كيف « أننا لم نكن عالة على اليونان ، وأن فكرنا الفلسفى كان فكراً مستقلاً وأننا لم نكن أبداً صورة من صور الإغريق حقيقية أو مشوهة ، بل كان لنا على العكس تماماً الكيان المستقل والينبوع الذى تفجر منه النور المشرق الذى سطع فى أوربا عبر أسبانيا وصقلية . هناك تلألأ نورها وأنار أوربا القاتمة الكالحة ، فأقام الحياة فيها وخبا النور هنا أو كاد ، وأتى رجال من الغرب يحاولون القضاء على النور نهائياً ، بقايا النور المنبعث من هذا الأصل الإلهى العظيم : الإسلام والقرآن ومحمد » .

ولقد تحدثت صحف الهلال والمقتطف والمجلة الجديدة والسياسة الأسبوعية والعصور عن هذه الفلسفات المختلفة ، الرواقية والأفلاطونية وكتب بعضهم بحوثاً عما أسموه المصادر الإغريقية للفلسفة الإسلامية ، ومضى أحمد ضيف ومن بعده طه حسين ، يقولان أن العرب ككل الأمم السامية ليس لها أساطير فى شعرها ولا فى عقائدها وأن هذا يدل على ضيق الخيال لديهم ، لأن الأساطير والخرافات إنما هى نتيجة سعة الخيال ونتيجة الخبرة والبحث وحب الاطلاع .

وهكذا ترددت آراء من وراء النزعة اليونانيــة تحاول اتهــام العــرب

بالقصور والفكر الإسلامى بالتبعية ، ولكن أبحاثاً كثيرة صدرت ووضعت الحق فى نصابه منها كتاب مصطفى عبد الرازق (مقدمة فى الفلسفة الإسلامية) وكشف كتاب مجلة الأنصار عن هذه الاتهامات كما عرض لها السيد محب الدين الخطيب ورشيد رضا ، وفرقوا بين عقليتين : عقلية قامت على الأساطير وعقلية قامت على الإيمان بالله الواحد ، وأقامت فكرها على الواقع وبذلك أنكرت الأساطير والخرافات وكل ما لا يقره العقل .

ونفى المفكرون المنصفون عن العرب قصور خيالهم وأكدوا أن العرب كونوا فكرهم فى مرحلة بلغوا فيها قدراً كبيراً من تفتح الإدراك العقلى حيث كان اليونان وأساطيرهم فى مرحلة الإدراك الحسى التى تخطاها الفكر العربى ، وقد كان لدى العرب أساطير فى الجاهلية ولكنها لم تستحوذ على ألبابهم كما استحوذت على ألباب الإغريق .

* * *



١٦ ـ فصل الأدب عن مقومات المجتمع والفكر

كانت كبرى محاولات تجزئة الفكر الإسلامى والثقافة العربية تستهدف تجزئة الأدب عن الفكر وعن المجتمع وإعلاءه وإعطاءه الحرية الكاملة فى التعبير ، دون ارتباط بالأخلاق أو الاجتماع أو الفكر على النحو الذى فرضته نظريات النقد الغربية حين فصلت الأدب الغربى عن مقومات المجتمع والأخلاق وأعطته الحرية الكاملة فى التعبير الكاشف وتصوير جوانب الإباحة والفراش وما وراء الغرف المقفلة تحت اسم الفن للفن .

ولقد كانت محاولة طه حسين الحقيقية فى كتابه الشعر الجاهلى كسر هذا القيد وتحرير الأدب من رابطته الجذرية وعلاقته العضوية بالاجتماع والأخلاق ، وقد جرت هذه المحاولة فى أكثر من موضع وبحث بشأن فرض مذهب النقد الأدبى الغربى المادى الأصل والاتجاه وقد امتدت هذه المحاولة طويلاً وانتهت بالرفض الكامل من الأدب العربى صاحب الذاتية الخاصة المختلفة بل المتعارضة مع الآداب الأوربية .

وقد كشفت حركة اليقظة بوضوح عن مدى الفوارق الجذرية والعميقة بين الأدبين العربى والغربى استمداداً من الفكر الإسلامى أو الفكر الأوربى واليونانى ، واتصالا بالنفس العربية ذات الخصائص الواضحة والقيم الأساسية والمزاج النفسى والاجتماعى القائم على التوحيد والتى تستلهم الطبيعة العربية الصافية التى تشرق فيها الشمس فتحيل الدنيا ضوءاً واضحاً ، هذه النفس التى لا تحتاج إلى الرموز والظلال ولا تجد ما تجده النفس الغربية التى تحيا من خلال الجبال العالية والسحب الكثيفة ، والأساطير المتصلة بالبحار والظلام واختلاف الآلهة وصراع الإنسان معها ، إلى غير ذلك مما لا تعرفه النفس العربية الإسلامية ولا تحتاج معه إلى فصل بين الأدب والمجتمع أو بين الأدب والأخلاق .



١٧ ـ المرأة والمجتمع

حاول دعاة التغريب اتخاذ الدعوة إلى تحرير المرأة وسيلة إلى هدف واضح ، هو إخراج المرأة العربية المسلمة من قيمها ومن مفاهيمها ، ودفعها إلى مجال التحرر والإباحة والانطلاق ، ولذلك كانت الدعوة إلى تحرير المرأة لا ترتبط بأى تحفظ أو منهج دراسى أو تربوى يمكن المرأة المسلمة العربية من مواجهة الحياة ورفض النفوذ الاستعمارى تعديل مناهج التعليم فى مدارس البنات وأجرى عليها مناهج تعليم الذكور دون تفرقة وبذلك حرم الفتاة من حصانة فكرية تمكنها من مواجهة الحياة فى مجال التعليم والسفور ، وتحملت المرأة نتيجة ذلك تضحيات كبيرة ، كان دعاة حركة اليقظة مؤمنين بتعليم المرأة وتمكينها من حقها فى المشاركة فى الحياة وكان الإسلام ينص على ذلك صراحة ولا يعارض فيه ، ولكنهم كانوا يدافعون عن كيان المرأة نفسه طالبين تحصينه بتربية خاصة للمرأة تمكنها من مواجهة الحياة دون التعرض لأخطارها وآثامها والوقوع فريسة الأشراك التى نصبها دعاة الإباحة والشر .

وقد بدأت الدعوة إلى تحرير المرأة وتعليمها منذ وقت مبكر ، حين بدأها رفاعة رافع الطهطاوى ، ثم تابعه بعد ذلك قاسم أمين ، وفيما بعد الحرب العالمية الأولى أخذ دعاة تحرير المرأة وإخراجها من قيمها إلى إثارة القضية ، وقد كانت وجهة دعاة حركة اليقظة متقبلة تماماً لتحرير المرأة وتعليمها ومشاركتها الرجل فى العمل ولكنها كانت تحرص على ما أسماه كتاب عام ١٩٢٠ « حدود الآداب الشرعية وسنن الدين » وكان أغلبهم يرجع إلى تصوير نهضة المرأة المسلمة فى صدر الإسلام .

وفى محاضرة توفيق دياب عن غاية النهضة النسوية فى مصر[1] قال : إن من الأمور الجوهرية للمرأة أن تبلغ منتهى ما تستطيع بلوغه من « متانة الخلق » فإذا بها سليمة العواطف قديرة على دفع الأهواء وكبح مالا يقره ضميرها من رغبات فإذا بها كالشمس أيما وقع شعاعها كان مطهراً لفساد منيراً للظلام وقال : إن جانب الأخلاق فى النهضة النسوية جانب خطير ، ذلك أن النهضة هنا تنسج فى بعض نواحيها على منوال نساء الغرب ، وللغرب عادات قد لا تلائمنا كلها على السواء ، وإن من أنواع الشجر والنبات الغربى مالا نستطيع استنباته فى بلاد الشرق وللغربيات خصال حسان تصلح لنا ، ولبعضهن خصال هى موضع للريب ، فيجب أن نفكر فيها طويلاً وأن نكون منها على حذر ، ولقد ينكر بعض كبار المفكرين الغربيين على بعض نساء الغرب كثيراً من العادات وينعون عليهم سرعة القفز إلى كل جديد وأن لم يبد منه وجه الخير ، وإن الأمم الغربية مكتظة بأسباب العظمة ، وقد لا يهمها أن تفرط بعض التفريط أحيانا ، أما نحن فشارعون فى بناء جديد ونريد أن نقيمه على أسس متينة فكل لبنة منذ البداية بمثابة حجر رخو متآكل نضعه فى الأساس وقد يتهدم بسببه البناء بأسره .

وقال : إنى أعلم أن تيار المدنية الغربية جارف ولكن واجبنا أن نقاوم عناصر الضعف والأنحلال التى قد نصادفها فى ذلك التيار ، ودعا إلى أن تتبارى النساء فى ميادين الجد لا ميادين الدعاية والهزل ، ورحب بصفات الرحمة والقوة والجهاد وهاجم غلو المرأة الغربية فى أنواع اللهو المعيب وقال إنها لا تتفق ومتانة الأخلاق ونزعات الجد التى ينبغى أن نأخذ بها أنفسنا فى هذا المعترك . وقال فلتتحرر المرأة المصرية من القيود التى تعطل مواهبها الغالية وتشل إرادتها لخير نفسها وخير أمتها وصفاء عواطفها من الشوائب والريب .

وصورت سهير القلماوى مفهوم نهضة المرأة فقالت : إذا كانت المرأة مساوية للرجل فهى غير مماثلة له تختلف عنه بنية وميولا ، وتبين عنه بصفات

---

(١) ديسمبر ١٩٢٧ السياسة الأسبوعية .

ومؤهلات خاصة يكمل بها الرجل إذا أضيفت إليه ويكفل بالاتفاق معها تعاونا مجديا من أوجه شتى . فتتحقق بذلك نواميس التوازن والتناسق التى تنادى بتعاون شطرى البشرية ، ففى الأسرة تكون وظيفة المرأة أقرب إلى الطبيعة وأشد وقعاً وأقوى أثراً ، ولست أغالى إذا قلت إن المرأة لما كانت مسئولة عن مستقبل ذويها وهنائهم يجب أن تكون تربيتها وتعليمها أوسع من تربية الرجل وتعليمه وأدق تنظيما ، وإذا كانت أعباء الحياة المادية ملقاة أكثرها على الرجل فإن المرأة تتحمل أعباء أخرى أكثر دقة وهى المسئولية الأدبية ، ذلك أن أثر المرأة فى حياة زوجها وأثر الأم أشد نفوذاً وأوضح وهو مدين لها فى تكوين بنيته بما اشتمله من عنايتها منذ نعومة أظفاره .

وتقوم وظيفة المرأة على إعداد الأطفال لتغذى قيم المعانى الروحية التى تضع لحياته غاية وتدخل عليها الإنشراح ، لهذا فجدير بالمرأة أن تطالب بإصلاح جميع مناهج التعليم فى مصر التى وضعت على أساس نظرى محض وبطريقة ميكانيكية وعليها أن تنادى بتوجيه العناية الأولى فى التعليم إلى تهذيب الأخلاق والإرادة وإنا نرى أن تعليم الدين ودراسة اللغة من أقوى ما يساعد على تحقيق هذا الغرض(١) .

* * *

---

(١) عام ١٩٣٦ — سهير القلماوى .

١٨ - الأدب المكشوف والإباحية

كان من أخطر الدعوات التى حمل لواءها التغريب والأدب المكشوف : دعوة ترجمة القصص الغربية والتحريض على كتابة هذا اللون فى الأدب العربى ، وقد عمد الدكتور طه حسين منذ وقت مبكر حوالى ١٩٢٤ إلى ترجمة عديد من القصص الفرنسية الماجنة التى تحرض على (عبادة الجسد وتقديس الشهوة) ، وتابعه الصاوى محمد وعديد من الكتاب .

وفى يناير ١٩٢٨ عقدت مناظرة عن الأدب المكشوف بين توفيق دياب وسلامة موسى ، دعا توفيق دياب إلى ضرورة تقييد الأدب بالأخلاق ودعا سلامة موسى إلى الحرية الخلقية وعدم التقيد بالأخلاق . وجرى فى هذا الطريق أمير بقطر وإبراهيم المصرى وكثيرون يحاولون تزيين الأدب المكشوف ويفرقون بينه وبين ما يحاولون أن يطلقوا عليه اسم الأدب الوضيع ، ويدافعون عنه بأنه لا يهدف إلى ترويج الدعارة بل دراسة الإنسان والكشف عن ميوله ونزعاته .

وذهب آخرون إلى الفصل بين الأدب والمجتمع والأدب والأخلاق وقالوا كما يقول الغربيون إن رجل الأدب لا علاقة له بأخلاقية المجتمع .

وقد واجه دعاة اليقظة هذا النظريات فعارضوها ودحضوها وكشفوا عن أن الثقافة العربية (والفكر الإسلامى) لا تفصل بين الأدب والأخلاق والأدب والمجتمع ، وأنها تنظر إلى كل القيم الثقافية والفكرية فى تكامل وشمول حيث تدور جميعها حول الشخصية الإنسانية وتهدف إلى بنائها ودعمها لا إلى هدمها وتدميرها ، وإن مفهوم العرب للأدب الجنسى نابع من تفرقته بين القيم الأخلاقية والاجتماعية والأدبية وهذا لم يقع فى الفكر

الإسلامى والثقافة العربية أبداً وقد استعان دعاة التغريب بنظريات فرويد فى الادعاء بأن تصرفات الإنسان جميعاً صادرة من رغبات جنسية ، وكشفوا عن زيف هذه النظريات وأن فرويد ليس إلا يهودياً مخربا وأن دعوته إنما يراد بها تدمير المجتمعات فى طريق الصهيونية التى تحاول أن تسيطر على العالم كله بعد هدم مجتمعاته ، وأن الاستعمار قد نقل هذه الآراء والنظريات إلى مصر والعالم العربى بهدف القضاء على مقومات هذه الأمة لتظل فريسة للاستعمار والنفوذ الأجنبى وأن هذه العملية تجرى باسم العلم والبحث العلمى .

وقد هاجم دعاة اليقظة كل ما يتصل بالقصة والأغنية والكلمة المريضة المكشوفة ، وكشفوا عن مدى الخطر الذى يواجه الأمة من سريان هذا التيار فيها بحيث يؤدى إلى اضطراب المجتمع وانهيار الأخلاق وغلبة المجون والاستخفاف ، وفساد الذوق والميل إلى الرخاوة والنعومة والدخول فى عالم فاتر مريض .

وأن الأمة فى حاجة إلى دعوة إلى القوة والكشف عن البطولات والقيم العليا حتى تستطيع أن تكون قادرة على التحرر من النفوذ الاستعمارى والاحتلال .

* * *

١٩ ـ الدعوات الهدامة

عشرات من الدعوات الهدامة حاولت أن تجد مكانها فى قلب الأمة منها ما حاول هدم الدين أو مقومات الأمة أو الأخلاق . وفى مقدمتها دعوات الإباحية والتحلل الخلقى ودعوات الإلحاد أو باسم أديان وضعية أو مذاهب .

وكان للمقتطف والهلال دورهما الواضح فى الفترة السابقة للحرب العالمية الأولى ثم استمر دورهما وزادت المجلات بظهور المجلة الجديدة والعصور .

وقد أولت هذه المجلات أهمية كبرى للماسونية والبهائية والحركة الصهيونية والشيوعية وحاولت الهلال ومحررها جرجى زيدان هو مؤلف كتاب (تاريخ الماسونية) أن يصور الماسونية بأنها حركة حرية وخير ، وقال جرجى زيدان أن الماسونية إنما قامت لنصرة المسيحية أيام الاضطهاد وإنها كانت على صلة بالمسلمين وأنه لا علاقة بين الماسونية والكنيسة ، وصدرت فى مصر مجلات الإخاء الماسونية والإخاء الماسونى واللطائف التى أصدرها مكاريوس ثالث الثلاثة (صروف ونمر) أصحاب المقتطف والمقطم .

وكان من اتجاهات جرجى زيدان العمل على نقل التلمود إلى اللغة العربية وحاول تنزيه اليهود عن الفظائع الدموية (ص ٣٠٤ م ١٣ الهلال) .

وكشف[1] المنار وهو على رأس صحف اليقظة : حقيقة الماسونية وقال إنها جمعية سرية تكونت فى أوربا خلافا لما يزعمون من

(١) المنار م ٦ سنة ١٩٠٢ ص ١٩٦ .

قدومها لمقاومة استبداد رؤساء الدنيا من الملوك والأمراء ورؤساء الدين من البابوات والقسيسين ، وقال إن جل رموزها وإشاراتها متفرعة من الكتاب المقدس وإنهم قد أسندوها إلى بناء الهيكل (هيكل سليمان) ثم إن الإفرنج عندما تغلغلوا فى الشرق ورأوا مزاج السيادة الإسلامية لا يقبل مشاركا له فى حكمه فهو يجيش انفعال جميع المسلمين لنبذ سلطة كل من يحاول السيادة عليهم استعانوا بالماسونية على إضعاف هذا المزاج ، وتوسلوا إلى بعض كبار المسلمين وأغنيائهم واستعانوا عليهم بنصارى بلادهم ويهودها فأدخلوا طائفة فيهم ، وبقى أكثر المسلمين إلى اليوم يعد الماسونية نزعة من نزعات الكفر ، ورأى جمال الدين أن الجمعية الماسونية تجر هذه البلاد إلى أوربا بخيوط دقيقة سياسية خفية ، وأراد أن يرى رجالاً يعرفون كيف يحفظون بلادهم وأنفسهم فوجه همته إلى استخدام الماسونية فى تعليم تلاميذه ما لا يمكن التصريح به إلا فى جمعية ماسونية فدخل فى الماسونية وأدخل فيها تلامذته النابغين فجعل بهم قوة للمصريين ، ولكنه كان غالباً فى مضادة الإنجليز كما كان من زحفهم على بلاده ولما كان يعتقد فى طمعهم فى مصر فقاوموه حتى اضطروه إلى ترك الماسونية » .

وكشف (كرد على) أهداف الماسونية حين قال إنها جمعية أنشأها اليهود للقضاء على ظلم الكاثوليك وإنها ألعوبة صهيونية صرفة لا يهودية فقط ، يسعى اليهود بواسطة نفوذها أن يعيدوا مجد صهيون ، ومعنى جمعية صهيونية نزع فلسطين العربية من أيدى العرب[1] .

ولقد حاولت الماسونية فى خلال فترة ما بين الحربين أن تمد نفوذها فأنشأت محفلين فى مصر ، ودخلها عدد كبير من الوزراء وكتب عنها عزيز ميرهم فى السياسة الأسبوعية ١٩٢٦/١٢/١١ مقالًا افتتاحياً أزجى فيه المدح والثناء لها وربط بين شعارها وشعار الثورة الفرنسية ، وقال إن معظم رجال الثورة الفرنسية كانوا من الماسون أمثال ميرابو وبربس وكاميل وعولان ورابنون وكوندرسيه ، وقال إن وشنجتون محرر الولايات المتحدة الأمريكية هو أيضاً ماسونى ، وقال : الماسونيون هم الذين حرروا العالم من سلطان

---

(١) مذكرات كرد على جـ ٢ ص ٤٠٩ .

البابوية ، وفرقوا بين السلطة المدنية والسلطة الدينية للبابا وقال إن الذين بنوا الحرية الفكرية وهدموا سلطان الكنيسة فى فرنسا وإيطاليا هم الماسون وقال إن تركيا قد نالت دستورها بفضل محافلها ، وقال إن الماسونية تحرر عقل الإنسان من الأوهام والخرافات .

ونشرت صحف سلامة موسى واسماعيل مظهر وغيرهم مقالات مختلفة تنحو هذا المنحى وقد واجهها كتاب اليقظة ودحضوا أكاذيبها وكشفوا عن أهداف الماسونية وصلتها بالحركة الصهيونية النامية فى فلسطين فى ذلك الوقت ، وكشفوا عن حقيقة (الدونمة) فى مدينة سلانيك ومحافلها الخمسة التى تضم ٥٠ ألف يهودى ومثله جمعية الاتحاد والترقى المنشأة ١٨٩١ بها .

* * *

وتحدثت الصحف والمجلات بصورة أوسع وأشمل عن البهائية ، وشارك فى هذا كثير من الكتاب الذين زينوا هذه النزعة وكثر الحديث بمناسبة مرور عباس أفندى البهاء بمصر ، وشارك فى هذا الحديث سلامة موسى والعقاد وإسماعيل مظهر وغيرهم وصدرت كتب متعددة عن البهائية وكشف السيد رشيد رضا فى المنار عنهم وقال إن دينهم هو خلاصة المذاهب الباطنية وهو أقرب إلى المسيحية من الإسلام ، وأول كتاب طبع لهم فى اللغة العربية هو (الدرر البهية) وقد أنكر كون القرآن معجزاً ببلاغته وفصاحته ، وقد أجروا تأويل آيات القرآن على ما ينطبق على بدعتهم ، وقالوا إن البابية التى انبعثت منها البهائية ليسوا أصحاب مذهب جديد فى الإسلام بل أصحاب دين جديد وشريعة جديدة وقد دحض شبهاتهم محب الدين الخطيب فى مجلة الأزهر ، وشاركت فى ذلك مختلف الصحف الإسلامية .

* * *

وتحدثت الصحف عن الصهيونية وتاريخها وأعمالها منذ وقت مبكر ، وكشف رشيد رضا أمرهم فى المنار منذ سنة ١٩١٥ وتعددت المقالات

والكتب عن الصهيونية والسامية وحفلت بها مجلات المقتطف والهلال والعصور والمجلة الجديدة وكلها مشبعة بالعطف على اليهود واهتمت الصحف بأعلام الصهيونية أمثال هرتزل وماكس مونر الذى ترجم مقالاته وآراءه المازنى والعقاد واسماعيل مظهر .

وهاجمت صحف اليقظة الإسلامية وتصدى كتابها هذه الآراء ، وتحدثوا عن مدى الخطر الذى يهدد فلسطين والعالم العربى نتيجة هذه الدعوات .

ونشرت الفتح عام ١٩٣٢ ما يشير إلى وجود حلف « يهودى لاتينى » لمحاربة المسلمين والعرب حيث قال كاتبه المسلم الدكتور خالد شلدريك : « يهود العالم الإسلامى اليوم حلف هو الأول من نوعه فى التاريخ ومما لا شك فيه أن هذا الحلف إذا استمر سيبعث المسلمين ويوقظهم من سباتهم ويشعرهم بواجبهم ، وأضاف : لا مراء أن سياسة الشعوب اللاتينية اليوم (فرنسا وإيطاليا وأسبانيا) متفقة إزاء الشعوب الإسلامية وإزاء الثقافة الإسلامية ، وأن مسألة فلسطين قد أصبحت عاملاً جديداً ، وأدخل تصريح بلفور الليهود كى يساهموا فى المؤامرة الكاثوليكية التى ترمى إلى إذلال شعوب الإسلام وإحلال الثقافة اللاتينية مكان الإسلام » .

* * *

وكشفت الصحف عن محاولات النشاط الشيوعى فى الشرق ، وكيف كان لبنان مركزاً هاماً من مراكز الدعاية ، وتحدثت الصحف عن أخطار الحركة الشيوعية فى مصر والشرق وكانت الحملة على الشيوعية تصدر من الرأسمالية فى العالم العربى ومن أنظمة الحكم الموالية للنفوذ الغربى — تقول جريدة الأهرام[1] : ترمى الشيوعية فى الدرجة الأولى إلى محاربة الأديان وهدمها غير مفرقة فى ذلك بين دين ودين ، وقد ظلت حملتهم ضد الدين تعمل فى الخفاء حتى ١٩٣٠ وابتداء من هذا التاريخ ظهرت فى صورة

(١) الأهرام ١٥ مايو ١٩٣٣ .

جمعيات لا دينية ، وقالت السياسة اليومية : إن البلاشفة لم يلقوا من الفشل فى إذاعة الدعوة الشيوعية قدر ما لقوا فى الأمم الإسلامية ، والبلاشفة يسيطرون على أمم إسلامية عدة فى القوقاز وأذربيجان والتركستان وقازان وغيرها ومازال البلاشفة يلقون صعابا فى ضبطها وحكمها .

وقال إن للبلاشفة غاية مزدوجة من العمل على إذاعة دعوتهم ، وجهها الأول هو تحطيم النظم الاجتماعية التى يقوم عليها المجتمع الإسلامى وهو شطر من الثورة العالمية التى يعمل لتحقيقها زعماء البلاشفة ووجهها الثانى هو مناوأة الاستعمار البريطانى التى تخضع لصولته هذه الأمم[١] .

وأشارت الصحف إلى أول حزب شيوعى تكون فى مصر ١٩٢٣ ، واشترك فيه سلامة موسى وعنان وحسنى العرابى[٢] .

* * *

---

(١) السياسة اليومية ٩ مارس ١٩٢٩ .

(٢) راجع تربية سلامة موسى .



٢٠ ـ الإقليمية الضيقة

حرص دعاة التغريب على الدعوة إلى الإقليمية الضيقة : التى تمثل كيانا محدوداً قوامه « المصرية » وقد بدأ لطفى السيد هذا الاتجاه قبل مرحلة ما بين الحربين ثم جرى دعمه وتعميقه خلال ما بين الحربين ، بدعوات متعددة عن تمصير الأدب ، تمصير القانون ، تمصير اللغة ، تمصير التاريخ ، وذلك في محاولة لقطع أواصر الثقافة فى مصر عن الأمة العربية كيانا وواقعا وعن الإسلام كفكر وقيم ، ولم يكن ذلك الأمر فى الحق ميسراً فإن اللغة فى مصر لا تستطيع أن تنفصل عن اللغة العربية وأن الدعوة إلى العامية تجد نفوراً شديداً . والأدب فى مصر لا ينفصل عن الأدب العربى .

عاشت الدعوة إلى الإقليمية الضيقة فى مصر كلمة تقال ، أما فى سوريا فقد تحولت إلى حزب له مقومات إقليمية ، يقوم على أساس الحدود المصطنعة .

وقد ردد سلامة موسى ومحمد عبد الله عنان والدكتور هيكل هذه الدعوة إلى المصرية وحاولوا إقامة فلسفة لها ..

وقد واجه دعاة اليقظة هذه الدعوى بالنقض والكشف عن زيفها ، قال السيد محب الدين الخطيب : « قالوا للمصريين أنتم أبناء الفراعين فارجعوا إلى حضارة المصريين القدماء ، وقالوا لأهل الشام أنتم أبناء الفينيقيين تمسكوا بتاريخ الأقدمين ، وقالوا للفرس يابنى الأكاسرة لقد فتح العرب بلادكم وأزالوا ملككم وفرضوا دينهم عليكم ، فارجعوا إلى زردشت وإن لم تعرفوه واقرأوا كتابه وإن لم تفهموه . وقيل للترك : أنتم سلالة جنكيز خان عبدة الذئب الأغبر فقد كانت فى سيبيريا حضارة وفى قرة قروم

دولة فارتدوا إلى ماضيكم » .

وجرى السجال بين دعاة المدنية العربية ودعاة الفرعونية ، وانهزمت الفرعونية وعلت عروبة مصر ، وقال رشيد رضا إن العرب كونوا مدنية خالدة أما الفراعنة فلم يتركوا إلا الأحجار . ويكفى ما اشترعه العرب من الشرائع والأنظمة لرفاهية البشر وإسعاد الإنسانية ، وقال إن الشريعة الإسلامية التى هى ثمرة الفكر العربى لا تزال أصلاً من أصول الشريعة فى عصرنا الحاضر حتى عند أرق الأقوام الأوربية .

ثم خطت حركة اليقظة خطوة علمية قوية عندما كشفت عن أن جذور الحضارات المصرية والكلدانية والفينيقية هى جذور عربية أصلا .

وقال أحمد حسين إن مصر هى التى رفعت لواء الأديان جميعاً وأعلت كلمة الله والإسلام .

وبالجملة فقد انهزمت كل الشبهات التى روجها التغريب والقائلة بأن المصريين ليسوا عربا وأنهم غربيون ، بحكم صلتهم باليونان وأوربا وثقافة البحر المتوسط .

* * *

٢١ ـ تعظيم الغرب

كان من أبرز أهداف التغريب ودعوته الملحة على لسان مختلف دعائه وتوابعه : طه حسين ومحمود عزمى وهيكل وغيرهم ممن جاءوا بعدهم ، إعلاء شأن الغرب والحديث عن باريس ولندن ونيويورك ، وازدهاء الأحداث الغربية كالثورة الفرنسية وترديد القول عن أرسطو وأفلاطون ونابليون وبرناردشو وفكتور هيجو والاسكندر وغيرهم من أعلام اليونان والرومان والغرب فى مجال السياسة والفكر والأدب ، على أنها نماذج عالمية لا سبيل للأمم أن تجد غيرها مثلا عليا لها .

وكان هذا التعظيم يعطى صورة الإذلال والاستصغار للعرب والمسلمين وأعلامهم وبطولاتهم الحاسمة ومواقفهم الخالدة ، وكان ذلك محاولة لإذابة المثقفين فى دوامة الغرب حتى لا يروا غيره ولاءً فكريا ، وإيماناً بأن نهضة العرب والمسلمين لا تتحقق إلا باندماجهم فى الغرب واتخاذهم أعلامهم فى السياسة والأدب قدوة لهم .

وقد طغت هذه الموجة حيناً ، ولكنها لم تلبث أن انحسرت بعد أن كشفت الأحداث عن المذابح الرهيبة التى يجريها الاستعمار مع أهل المغرب وفى سورية وفى كل مكان فى العالم العربى والإسلامى لتثبيت وجوده ودعم نفوذه ، هنالك فقدَ المفكرون الموالون للغرب الأمل الذى توسموه فى أوربا حاملة لواء الحرية وانكشفت خدعته أمام أبصارهم ومن ثم فقد ارتدوا مرة أخرى يبحثون عن طريق جديد ، ولم يبق مصراً على مواقف التغريب غير أتباعه وأوليائه .

* * *

٢٢ ـ التبشير والإرساليات الأجنبية

ارتبط وجود الإرساليات التبشيرية بالوجود الاستعمارى ، فى العالم العربى وقبل الاحتلال الفعلى ، فلما سقطت أجزاء من العالم العربى تحت نفوذ الاحتلال اتسع نطاقه وتركزت دعائمه وجعله الاستعمار من القوى التى ينص عليها ويشير إليها فى مشاريع المعاهدات والاتفاقات ، حتى إن العراق عرض عليها حماية مدارس التبشير والإرساليات كشرط لقبولها فى عصبة الأمم .

وقد كانت بيروت هى المركز الأول للإرساليات فقد قدموا إليها منذ سنة ١٥٩٩ حيث بدأت المدارس اليسوعية فى تعليم الأحداث ، أما فى مصر فقد بدأت خلال حكم إسماعيل (خلع ١٨٧٩) الذى أقطعهم الأرض وأعطاهم الإعانات ، فلما جاء الاحتلال البريطانى اتسع نطاق الإرساليات وركز (دوفرين) فى أول تقرير له ــ عن تنظيم الاحتلال فى مصر ــ على هذه المدارس وجهودها وقال « إن الأمل فى نجاح تهذيب العامة فى مصر نجاحا عظيما مازال ضعيفا مادام الصبيان لا يتعلمون اللغة العامية بدلا من تعميم لغة القرآن الشريف كما يفعلون الآن فإن نسبة العامية إلى الفصحى فى اللغة العربية هى كنسبة اللغة الإيطالية الحديثة إلى اللغة اللاتينية القديمة .

وفى سنة ١٨٨٢ (وهو عام الاحتلال) كان عدد مدارس الإرساليات التبشيرية التى أنشئت فى مصر ١٥٢ مدرسة تشمل ٢٢٤٧ طالباً وشجع كرومر[1] جهود المبشرين وحمى الإرساليات ، وفى السودان اتسع نطاق التبشير فلما خفق العلم الإنجليزى من جديد على السودان ١٨٩٨ عادت جمعيات التبشير تحمل لواء الانتقام لغردون بتوسيع نطاق التبشير ،

( ) راجع تقارير كرومر عن التبشير فى كتابنا (مخططات التبشير) .

وظل كرومر إلى آخر أيام حكمه (١٩٠٧) يحث المبشرين على العمل وكانت الحكومة البريطانية تشجع المبشرين البروتستانت والكاثوليك على السواء ، وكذلك عندما استولى الإنجليز على عدن اتخذ المبشرون منها مركزاً يثبون منه إلى قلب الجزيرة العربية كلها .

فلما انتهت الحرب العالمية الأولى وسيطر الانتداب الفرنسى والبريطانى على سوريا والعراق وفلسطين فتح للمبشرين طرائق جديدة .

وفى مصر كان الدكتور صمويل زويمر هو أكبر دعاة التبشير فى العالم العربى كله اقتحم الأزهر الشريف عام ١٩٢٨ ووزع منشوراته على الطلاب وهم فى حصص الدرس ، وناقش بعض أساتذتهم وكان منشوره تحت عنوان (ارجع إلى القبلة القديمة) وهو خطاب يعالج فيه تاريخ القبلة فى صلاة المسلمين ، وزخرت مصر بالمدارس الأجنبية كالعازارية والفرنسسكان والفرير واللابك والامريكان والآباء اليسوعيين وسيطرت الجامعة الأمريكية فى القاهرة وكلية فيكتوريا فى الإسكندرية .

ولقد كانت مؤسسات الارساليات الأجنبية من أخطر الأعمال التى اتخذها النفوذ الاستعمارى فى العالم العربى لتأكيد بقائه وذلك بفرض ثقافته ومفاهيمه وقيمه على الأجيال التى تعد للحكم والسلطان ، وإلى جوار هذه المؤسسات كانت حركة التبشير التى غذيت بالاعتمادات الضخمة التى كان لها دوى خطير عام ١٩٣٢ و ١٩٣٣ حيث عمدت إلى نقل أبناء المسلمين من دينهم بأساليب غريبة منها التنويم المغناطيسى وقد أكد زعماء الاستعمار أهمية التبشير فى البلاد المحتلة فقال لورد بلفور : إن المبشرين هم ساعد الحكومات المستعمرة وعضدها فى كثير من الأمور المهمة ولولاهم لتعذر على الحكومات أن تذلل كثيراً من العقبات .

وقد ظلت هذه المؤسسات التى انطلق منها التبشير تتمتع بحرية كاملة وسلطان لا يرد فى نطاق الامتيازات الأجنبية التى كانت تخول لها استيراد ما تشاء دون جمارك أو ضرائب ، والتى كانت تحميها من التفتيش أو الاشراف ، فلما عقدت معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا وتقرر إلغاء الامتيازات الأجنبية تقدمت الدول إلى مصر فى مؤتمر مونترو بمطالب

خاصة بحماية المؤسسات والمعاهد والمؤسسات الفرنسية وأعلنت بريطانيا أنها تحمى هذه الإرساليات جميعاً وكان قد وصل عددها عام ١٩٣٦ إلى حوالى سبعمائة مؤسسة .

وكانت المؤتمرات التبشيرية المختلفة التى عقدت فى قلب البلاد الإسلامية (القدس ، القاهرة) قد رسمت خطة كاملة لأعمال التبشير وعرضت تجاربها وأعلنت أنها استفادت من سقوط الدولة العثمانية التى كانت تحول بينها وبين العمل وهللت لنتائج الحرب العالمية الأولى ، حيث وضعت بريطانيا وفرنسا يدها على سوريا ولبنان والعراق وفلسطين ، بالإضافة إلى مصر والسودان الواقعة تحت النفوذ البريطانى والجزائر والمغرب الواقعة تحت النفوذ الفرنسى منذ وقت بعيد ، ففى عام ١٩٢٤ يقول تقرير مؤتمر التبشير : إن الأحوال السياسية فى جميع البلدان الإسلامية تقريباً قد أصبحت ملائمة لأعمال التبشير والعراقيل التى كانت تنشأ فيما مضى قد تغيرت تماماً ، وبعض الحكومات التى كانت فيما مضى مضادة للتبشير قد تغيرت حالها وباتت صديقة للتبشير تمده بالمعونة اللازمة للقيام بالأعمال الطبية والاجتماعية التبشيرية . وأن الانتدابات التى أحدثت بعد الحرب العالمية فى الشرق الأدنى والدستور الجديد الذى أنشىء فى مصر . كل ذلك قد اشتمل على نصوص ناطقة تكفل الحرية الدينية وصيانتها ، وكان من شأن الحرب الكبرى أن جعلت العدد العديد من المسلمين على صلة مباشرة بالحضارة الغربية فانفتحت عيونهم على عالم جديد ما كانوا يعرفونه من قبل .

ولم تقف المؤسسات التبشيرية وحدها فى الميدان ، بل كان هناك من يدافع عنها فى الداخل ويعارض الحملة على التبشير ويسخر منها ، فضلاً عن استمرار العمل لتقبل آراء المبشرين فى مختلف جوانب الحياة الفكرية ، فقد أثار الدكتور طه حسين ضجة كبرى بإخراج كتابه فى الشعر الجاهلى الذى تبين من بعد قليل أنه مجموعة من الآراء التى انتحلها من كتاب أحد المبشرين : هو « جرجس سال » فقد أراد طه حسين أن يحيل آراء المبشرين إلى مصادر علمية لدراسة الأدب العربى والبحث الحديث ، فقد أعلن إنكار ابراهيم واسماعيل وتكذيب القرآن والتوراة فى دعوى وجودهما وزعم أن قصة إبراهيم واسماعيل وأبوتهما للعرب أسطورة لفقها يهود جزيرة

العرب لغرض سياسى واستغلها القرآن لغرض دينى .

وقد تبين أن هذه الشبهات مكتوبة بنصها فى كتاب عنوانه « ذيل مقاله فى الإسلام » تأليف هاشم العربى والكتاب مطبوع للمرة السادسة فى مطبعة النيل المسيحية وهو من عمل بعض المبشرين الطاعنين فى الإسلام .

وقد أشار محمد محمود بدير فى مقال له عام ١٩٣٢ مجلة النهضة ، إلى مدى الترابط بين التبشير وحركة التغريب التى يقودها دعاة من أمثال طه حسين وسلامة موسى وعلى عبد الرازق يقول : « كانت الحركة الإلحادية ١٩٢٦ والنصف الأول ١٩٢٧ على أشد ما تكون قوة ونشاطا ، وكانت مبادىء روسيا وجمعيات أمريكا اللاتينية تتردد على صفحات السياسة الأسبوعية ومجلة العصور بأساليب مختلفة ، وتحدث المطلعون عن مقدار الصلة بين بعض المصريين المشتغلين بالصحافة وبين زعماء تلك الجمعيات فى الخارج ، وعن الإمدادات المالية التى ترد ، حتى إذا كان النصف الأخير من عام ١٩٢٧ وقعت مشادة بين محمد محمود (رئيس حزب الأحرار) ورئيس تحرير السياسة (الدكتور هيكل) وكان سبب المشادة تألم أنصار الحزب من الخطة الإلحادية التى تسلكها جريدة السياسة ، على أثر ذلك بدأت الجريدة تخفف من حملتها على الأديان والتعاليم الدينية وأخذت مجلة العصور تتدهور ، وفى أوائل صيف ١٩٣١ تجددت حركة دلت بوادرها على أن القوم يعتزمون لَمَّ شعثهم وتنظيم قواهم ، وبدأت حملات صريحة لطه حسين ومصطفى عبد الرازق وسلامة موسى ، وهى صورة أخرى للمبادىء الأساسية للجمعيات اللادينية ، وأعلنت أن التبشير شىء هين أمام حركات الإلحاد والملحدين ، ونشرت جريدة الأهرام فى تلغرافاتها من نيويورك أن لجنة التحقيق فى شئون البعثات التبشيرية فى الشرق الأقصى قد أوصت بأن تتخلى هذه البعثات عن جهودها فى حمل الناس على اعتناق النصرانية وأن تشترك مع الأديان الشرقية فى مقاومة تيار الإلحاد » .

وقال الكاتب : « يجب ألا ننخدع بأن جمعيات التبشير ستترك جهودها ، وكل ما يمكن أن نتصوره أن هذه الجمعيات أيقنت بفشل الخطط

المكشوفة التى اتبعتها فى السنين الأخيرة ، فهى تفكر فى خطط جديدة تكون أكثر ملاءمة لتحقيق أغراضها ، وقال إن جمعيات الإلحاد تعنى عناية كبرى بمصر وتعتقد أنها قلب الشرق ومعقل الإسلام »[1] .

* * *

وقد واجهت حركة اليقظة الأمرين : مدارس الإرساليات ومناهجها وحركة التبشير التى انبعثت منها باهتمام كبير ، وأوقفت صحيفتين يوميتين على مقاومة الحملة ، وهما البلاغ والسياسة ، وتحول الدكتور هيكل من موقفه فى صف التغريب إلى العمل فى صف حركة اليقظة ، وأمضى عامين كاملين لا يتوقف يومياً عن مهاجمة التبشير وكشف خططه ، أما الدكتور طه حسين فقد كتب عن التبشير ساخراً تحت عنوان (هزل)[2] ومما قاله إن الإسلام لا يضيره أى يخرج منه واحد أو اثنان ، ومضى يسخر فيقول : إذا شكا المسلمون من عدوان المبشرين أظهر البرلمان شيئا من النشاط وأظهرت الوزارة شيئا من العناية وكتب الشيخ الأكبر إلى رئيس الوزراء !

أما الدكتور هيكل فقد ربط التبشير بخطط الاستعمار فى التغريب ومن نماذج كتاباته مقالة تحت عنوان (مسألة التبشير يجب أن توقظ المسألة الإسلامية برمتها) حين قال :

إن السياسة الاستعمارية من يوم أن نزلت بلاد الإسلام جعلت أول أعمالها مناهضة التعليم الدينى الإسلامى ، وصرف الناس عن تربية دينية تقوم أخلاق المسلمين ، وبذلك ضعفت المناعة الإسلامية فانفتح الباب أمام المبشرين ووجدوا أرضاً خصبة تبذر فيها بذور الفتنة والضلال ، وإذا كانت سياسة الاستعمار ترى واجباً عليها حماية المبشرين الذين يهدمون الإسلام ، أفلا يكون من أوجب واجباتنا أن نحمى مدارسنا من سياسة التعليم التى تقضى على الروح الإسلامية فى نفوس الناشئة المسلمة . وأشار الدكتور

---

(١) النهضة الفكرية ٢٤ أكتوبر ١٩٣٢ .
(٢) كوكب الشرق ١٢ يوليو ١٩٢٣ .

هيكل إلى ما ذكره زويمر فى مؤتمر المبشرين من أن السياسة الاستعمارية لما قضت منذ نصف قرن على برامج التعليم فى المدارس الابتدائية أخرجت منها القرآن وتاريخ الإسلام ، وبذلك أخرجت ناشئة لا هى مسلمة ولا هى مسيحية ولا يهودية ، ناشئة مضطربة ، مادية الأغراض ، لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقا ولا تنكر باطلا ، وهذا هو الذى شاهدناه بأنفسنا من خلال نصف القرن الذى فسد فيه التعليم وأخرج ناشئة لا تصلح إلا لوظائف حكومية ، متخاذلة أمام ما يطلبه الأقوياء (أى الاحتلال) منفذة لجميع أغراضهم مهما خربت الأوطان وأصابت الدين والخلق وقال الدكتور هيكل : إن أعمال المبشرين ليست محصورة فى تنصير بضعة صغار ، ذلك أنهم كما يقول مدير الجامعة الأمريكية — يراقبون سير القرآن فى المدارس الإسلامية ويجدون فيه الخطر الداهم ، القرآن — الحصة غير الأساسية فى مدارس الدولة ، هو الذى يرد لمصر ناشئتها ، ويعيد إليها دينها ، القرآن وتاريخ الإسلام هما الخطران العظيمان اللذان تخشاهما سياسة التبشير فكل عمل نعمله لا يهم المبشرين عشر معشار انتشار القرآن ، وتدريس القرآن وتعاليم القرآن وآداب القرآن وسياسة القرآن فى المدارس الرسمية والعمومية ، ألم تروا إلى جميع المدارس الابتدائية المسيحية أنها — كما فى الكنائس — تفتح الدرس فيها بالصلاة وتختمه بها ، إنى لأعجب لهذه الأمة الإسلامية فى مصر كيف تسكت كل هذا السكوت عن إهمال تعليم القرآن والدين الإسلامى وإقامة الصلاة فى المدارس ، ألم يشاهد المسلمون هذا الانحطاط العام سواء السياسى أو الاجتماعى ولا سيما الأخلاق المتفشى فيهم ، ألم يعلموا أن مصدر ذلك هو إهمالهم لهذا الإسلام وعدم تنشئة أبنائهم عليه ، الطريق سهل ، عقد جمعية لكبار مفكرى الأمم تضم برنامجا للتعليم الدينى فى المدارس حتى نستطيع أن نكون رجالا ينتشلون أمتهم بقوة العقيدة والإخلاص من جميع ضروب الانحطاط السياسى والاجتماعى والأخلاق لينهضوا بها كما نهض آباؤهم يوم كانوا مسلمين حقيقة فرفعت أعلامهم على معظم القسم المتمدن من الكرة الأرضية .

وقد تصدى كتاب اليقظة جميعاً لهذا الموقف ، وهاجموا الحملات التبشيرية ودعوا المسلمين إلى الانفصال عن مدارس التبشير ، ودعوا أثرياء

المسلمين إلى المساهمة فى إنشاء مدارس تضم أبناءهم وشكلت جماعة الدفاع عن الإسلام برئاسة الأستاذ المراغى وجعلت من أهم أهدافها :

(١) مقاومة التبشير بجميع الوسائل السلمية المشروعة التى يهدى إليها الإسلام والعلم .

(٢) تيسير معرفة الروح الإسلامية وقواعد الدين السمحة ليكون المسلمون على بينة من حقيقة دينهم وفهم نظمه الاجتماعية وآدابه .

(٣) مساعدة الفقراء واليتامى والضعفاء من المسلمين وأولادهم وتنشئتهم تنشئة إسلامية صحيحة حتى يكونوا أداة صالحة فى المجتمع الإنسانى بإنشاء الملاجىء والمستشفيات ومعاهد التعليم .

* * *

٢٣ ـ اتهام الأدب العربى

كانت الدعوة التى حملها المهجريون هى أخطر الدعوات فى اتهام الأدب العربى واللغة العربية ، فقد كانت المحاولة تستهدف إخراج الأدب العربى من البلاغة القرآنية ، وإدخال عبارات توارتية بقصد تحوير جوهر الأدب ، غير أن هذه الدعوة المهجرية التى قام عليها جبران وميخائيل نعيمه قد فشلت ولم تحقق هدفاً ، وسقطت ، وكشفت عن تحريف الأصالة العربية الإسلامية .

وكان أسلوب المهجرين قائماً على ما حفظوه من نثر الكتاب المقدس ولا سيما المزامير وأسفار الجامعة ونشيد الإنشاد وسفر داود .

وقد حاول ابراهيم اليازجى عندما أشرف على ترجمة التوراة أن يدخل إليها أسلوباً بليغاً من اللغة العربية غير أن دعاة التبشير والإرساليات كانوا حريصين على خلق لغة عامية ، وقد كشف جبران خليل جبران فشله فى خطاب كتبه عام ١٩١٩ إلى إميل زيدان وقد كتبه بعد أربعة عشر عاماً من بدء كتابته (١٩٠٥) فقال (فكرى لم يثمر غير الحصرم وشبكتى ما برحت مغمورة بالماء) وقد سقطت أيضاً دعوة ميخائيل نعيمه فى تصدير كتاباته بآيات التوراة .

* * *



٢٤ ـ العروبة ذات الجذور .. والانفصالية

بدأ مفهوم العروبة فى الثقافة العربية متكاملا جامعا بين العروبة والفكر الإسلامى ، غير أن حركة التغريب قد استهدفت الفصل بين العروبة والإسلام وعملت على خلق « عروبة » انفصالية عن الجذور الإسلامية والقيم الإسلامية ، ومنذ وقت بعيد ، منذ عام ١٩٠٩ تنبه واحد من قادة اليقظة إلى هذه المحاولة هو مصطفى صادق الرافعى فربط بين القومية وبين الدعوة الاعتقادية التى تهذب الروح العربية وتجمع العرب على لغة القرآن وتطبع العقيدة الإسلامية نفسها بطابع الجنسية العربية ، لم يفصل الرافعى القومية عن المعنى الاجتماعى العام للنظام العربى الإسلامى .

وقد ارتبطت حركات المقاومة للنفوذ الاستعمارى ، وحركة الوطنية فى كل أقطار العروبة بالإسلام ، وكان مفهوم الوطنية والقومية مستمداً من قيم الفكر الإسلامى يقول الدكتور مصطفى الحفناوى « والذى يلاحظ على تاريخ الحركة الوطنية أن الإيمان الوطنى كلما ضيقوا عليه المنافذ فى ميدان السياسة اتخذ له منفذاً فى الحركة الإسلامية لأن الإسلام مبناه العقيدة الطاهرة وهدفه الحرية المقدسة ، وما مبادىء مصطفى كامل إلا قبس من نور الرسالة المحمدية ، والإسلام فى الحقيقة دين ودولة لذلك أسس عبد الحميد سعيد وفريق من المثقفين جمعية الشبان لتكون مسرحاً يقتل الإنجليز ويمحق الاستعمار فى شتى صوره يوماً من الأيام ، وقد نهضت الجمعيات الإسلامية المختلفة المتفقة فى أهدافها بهذا الواجب » .

وقد أكد هذا المعنى « ويلفرد كانتول سميث » حين قال : « تاريخ الشرق الأدنى الحديث يدل على أن القومية المجردة ليست القاعدة الملائمة للنهوض والبناء ومالم يكن المثل الأعلى إسلامياً على وجه من الوجوه لن تثمر الجهود » .

وقد كشف قادة اليقظة الوجوه المختلفة للثقافة العربية تدليلا على أنها متسمة بروح الفكر الإسلامى .

وقد جرت مهاجمة العروبة أولاً على أيدى دعاة التغريب ، ثم جرى استغلال فكرة الوحدة العربية فى خلق مفهوم التفرقة العنصرية وربط فكرة القومية بتغليب جنس على جنس ومصادمة الأجناس الأخرى ، وهم يوماً بين هذه ويوماً بين تلك يدعون إلى عزل القومية العربية عن الثقافة العربية والفكر الإسلامى الذى هو فرش الفكرة العربية وكل فكرة أصيلة .

واتجه كثير من دعاة التغريب إلى اتهام العرب بالمناقص ، وقد كان توفيق الحكيم وحسين مؤنس فى مقدمة من قادوا هذه الحملة . وآراء هؤلاء وغيرهم مستمدة من كتابات « أرنست رينان » المتعصب ضد العرب والمسلمين .

وذهب سلامة موسى إلى أن المصريين أمة عربية تشترك فى الأصل مع أوربا وأنه أخذ ذلك مما قاله « اليوت » فى كتاب عن المصريين القدماء ، ويحاول سلامة موسى أن يخلص من ذلك فى وقت الصراع فيه بين مصر والاحتلال البريطانى على أشده ، يخلص إلى أن يقول : الخلاصة أنه ليس بيننا وبين أوربا خصومة فنحن والأوربيون ننتمى إلى أصل واحد نتفق فى المزاج النفسى والذهنى وإنمانختلف قليلاً فى الأخلاق لأن أحوالنا الاقتصادية تختلف » .

وقد جرى عمل التغريب إلى تعميق الفصل بين المصريين والعرب ، فتوفيق الحكيم يضع كل مذمة للعرب ويضع كل مجد للفراعنة ، وسلامة موسى يقول : « ليس علينا للعرب أى ولاء وإدمان الدرس لثقافتهم مضيعة للشباب وبعثرة لقواهم » ويقول : « يجب أن نذكر أن إدمان الدرس للعرب يشتت الأدب المصرى ويجعله شائعاً لا لون له » .

ويذكر سلامة موسى المصريين بجهود لطفى السيد الذى دعا إلى (مصر للمصريين) وجهود الدكتور ضيف الذى طالب باستقلال الأدب المصرى ، ويعود إلى القول : نريد أدباً مصرياً وفنونا مصرية وصحافة مصرية ، نريد أن نكتب بأسلوب مصرى .

ولكن حركة اليقظة استطاعت أن تؤكد أن الإسلام سيبقى مصدراً للثقافة العربية ، من حيث أن الثقافة العربية هى إسلامية فى أصلها و لم توجد إلا بالإسلام ، وأن المخلصين من مسيحيى العرب يعلمون حق العلم أن ثقافتهم فى أصولها هى على الأقل إسلامية ، ولذلك لا يكون للمسيحى العربى أن يكون قوميا وهو يعادى الإسلام . إذ أن عداوته تقتضى رفض الثقافة العربية .

* * *

٢٥ ـ تغريب التعليم والجامعة والتربية

كان التعليم هو الهدف الأول للتغريب ، وهو المنطلق الأول للبعثات التبشيرية فى العالم العربى ولذلك فقد واجهت حركة اليقظة هذا الهدف بمزيد من الاهتمام فلم يتوقف قطر عن الحديث عن خطر المعاهد التبشيرية والمناهج التى تتجاهل تاريخ البلاد ولغتها وتراثها ، والتى تعلى من شأن أبطال الغرب وتاريخه ودوله .

ولم يقف خطر التعليم فى مصر والعالم العربى على معاهد الإرساليات وحدها بل إن النفوذ الاستعمارى قد سيطر على التعليم منذ اليوم الأول[1] وفى مصر خضع التعليم بعد الاحتلال البريطانى لسيطرة الإنجليز الذين جعلوا من المدارس مسابك لإعداد آلات بشرية تفى بحاجات الدواوين ، وقد شجع الاحتلال على ثنائية التعليم بقصد خلق تمييز طبيعى بين المواطنين ، وليجعل من أحدهما حاكما والآخر محكوماً يلتمس رزقه من الفلاحة وذلك بقصد خلق طبقة تسانده . وقد أيد الأستاذ لطفى السيد هذا الاتجاه فى جريدة « الجريدة » ودعا إليه ، وواجهت حركة اليقظة هذا الاتجاه وقاومته بجهود تعليمية أهلية فأنشأ الوطنيون المدارس ، وتجلت سياسة الاحتلال التعليمية فى شخص دنلوب وظل الوطنيون يقارعون الاحتلال ، ونجحوا فى إحلال اللغة العربية محل الإنجليزية وقامت الجمعيات الخيرية بمجهودات قيمة فى ميدان التعليم .

وكشف رجال اليقظة أهداف الاحتلال البريطانى من تضييق شقة التعليم وقصره على الصفوة من أبناء الأثرياء الذين يرشحون لتولى السلطة فى المستقبل . وأن هذا العمل إنما يهدف إلى تركيز بقاء المحتلين وإنشاء طبقة

---

(١) راجع كتاب : أثر الاحتلال البريطانى فى التعليم القومى فى مصر .

من الموظفين البريطانيين ، وفضحوا مخطط الاستعمار فى أنه أنفق فى خلال ٢٥ سنة على التعليم ٢ مليون و ٨٠٠ ألف جنيه من مجموع ميزانية (٢٥٨ مليون جنيه) أى بنسبة ١٪ وكيف أغلق الاحتلال وألغى المدارس الثانوية والخاصة والعامة التى كانت موجودة قبل الاحتلال وكيف ألغى المجانية فى كافة المدارس حتى يصبح التعليم ممنوعا عن السواد الأعظم من الشعب الذى لا يستطيع أن يدفع مصروفات التعليم ، بالإضافة إلى إلغاء البعثات ، لولا الجهود الوطنية فى بعث المصريين على نفقاتهم ورعاية الجمعيات الأهلية .

كما عارضت خطة سعد زغلول التى سار فيها وراء دنلوب والاحتلال بالتوسع فى إنشاء الكتاتيب ودعم تعليم العلوم باللغة الإنجليزية ورفض إحلال اللغة العربية محلها .

فضلا عما واجهت حركة اليقظة من الكشف عن هدف السياسة التعليمية البريطانية فى مصر وهى نشر اللغة الإنجليزية والثقافة الإنجليزية وتشكيل المناهج التعليمية على نحو يوافق أغراض الاحتلال ، وذلك بإزاحة اللغة العربية واللغة الفرنسية تدريجيا ، وتشكيل المفاهيم التعليمية لتلائم أغراض الاحتلال .

وامتد هذا العمل خلال فترة ما بين الحربين حيث ظلت جمعية الشبان المسلمين وكتاب اليقظة يوالون المطـــالبة بأن يكون الدين مادة أساسية وأن تصحح مفاهيم التاريخ وتحرر من الأغراض الاستعمارية التى كانت تقصر الدراسة منه على أوربا وتاريخ الاستعمار وتاريخ المستعمرات الأوربية .

وقد كشفت حركة اليقظة عن مخططات الاستعمار فى ضرب التعليم فى الأزهر الشريف وتجميده وعزله عن التعليم العام وخلق ثنائية تعليمية أحدها التعليم الدينى والآخر التعليم المدنى .

* * *

وكذلك واجهت حركة اليقظة مخططات التعليم الأجنبى والإرساليات

الأجنبية ، المرتبطة بالتبشير ، وقد أكد الباحثون جميعاً كيف قوبلت هذه الإرساليات من المسلمين بالإعراض التام[1] وكيف أعرض المسلمون عن الإرساليات الأجنبية ومنعوا أبناءهم من الالتحاق بها ومع ذلك فقد دعم التعليم نفوذه بقوة الامتيازات الأجنبية ، وكشفت حركة اليقظة عن الأخطار التى وقعت حين بذل سعيد وإسماعيل جهداً فى إرضاء الدول الأوربية وتشجيع رعاياها ، ومنها تشجيع المدارس الأجنبية ومنحها المنح والهبات وكيف أصبح التعليم الأجنبى دولة داخل الدولة يوجه النشء الوجهة التى يراها ويصبغهم بالصبغة التى يرغبها دون إشراف فعلى من الدولة عليه ، وقد أدى ذلك إلى خلق طبقة ارستقراطية ثقافية تعلمت بهذه المدارس وآلت إليها أمور البلاد .

وكشفت حركة اليقظة عن الآثار التى جاءت نتيجة ذلك حيث ساهمت المدارس الأجنبية بقدر كبير فى إضعاف اللغة العربية لدى تلاميذها وهى لغة البلاد ، كما عملت على تنشئة الشباب على معرفة اللغات الأجنبية والجهل باللغة الوطنية ، وتلقين أبناء البلاد تاريخ أوربا والدول الأجنبية وإمبراطورياتهم مع التنكر لتاريخ العرب والمسلمين والتاريخ المصرى .

وقد تحول هذا التعليم من الناحية الدينية إلى الناحية العلمانية ، لذلك كانت حركة اليقظة تدعو إلى وضع رقابة على هذا التعليم وتلفت نظر الوطنيين إلى الاحتراس من أخطاره ، لأنه يفسد فى تلاميذه الدين واللغة فضلا عن أن دراسات التاريخ والجغرافيا كانت تدرس من زوايا استعمارية وغربية بحيث لا تحقق الشعور بالكرامة القومية ، ونتيجة لهذا التوجيه خضعت المدارس الأجنبية منذ عام ١٩٣٤ إلى نظام الامتحانات وتفتيش الدولة .

* * *

وكشف الشيخ عبد العزيز جاويش عن سر خروجه من وزارة

(١) كتاب تاريخ التعليم فى مصر .

المعارف وكيف اضطره الإنجليز إلى ترك العمل بها وكان قد تعلم فى اكسفورد وعارض أنظمتهم ، وطالب دنلوب بأن ترسم أنظمة التعليم على النحو الذى شاهده فى إنجلترا ورفض ذلك دنلوب وهزأ برأيه .

وقد تحدث أحمد شفيق باشا فى كتابه (أعمالى بعد مذكراتى) عن الجهود التى بذلت لهذا الغرض ، وكيف دعا الثعالبى فى العراق إلى توحيد الثقافة العربية ، والتخلص من الأساليب البالية التى أوهنت الروح العربية وأودت بعظمة العرب الغابرين ومزقت أعصابهم شر تمزيق وقال « أليس من المخازى أن تكون الأمة العربية وهى ممتدة من شطوط الأطلنطى إلى تخوم البلوخستان مقطعة الأوصال ، عارية من الثقافة ، ليس لها منهاج معين تتبعه ولا مبدأ تسير عليه » .

ويقول شفيق باشا إنه زار لطفى السيد (مدير الجامعة إذ ذاك) لمباحثته فى ذلك ، فكان الموقف بالنص (لم أجد عنده قبولاً للفكرة)[1] .

وقد لخصت حركة اليقظة أهداف تحرير التعليم من قيد التغريب على هذا النحو :

(١) أن تكون هناك سياسة تعليمية قومية ثابتة كما لكل أمة حية فى بلادها ويكون من نائجها أن ينشأ الناشىء براً بماضيه باحثاً عن مآثر إسلامه عارفا بالأقربين إليه الذين تجمعهم به جامعات وثيقة كجامعة اللغة وجامعة الدين .

(٢) ليست هناك وسيلة لتربية الخلق إلا الدين ، بل الدين وحده فالعلم والفلسفة والنصائح والإرشادات كلها لا تجدى فى تربية النفوس وتزكية الأرواح إلا إذا استندت إلى الوازع الدينى القوى السلطان العظيم الأثر .

(٣) أن يكون درس القرآن درساً أساسياً فى جميع المدارس المصرية على اختلاف درجاتها فالقرآن قد أنزل لاستنباط الأحكام والاهتداء به فى أمور الدنيا﴿ **كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم** ﴾ .

---

(١) ص ١٦١ من كتاب أعمالى بعد مذكراتى .

(٤) أن يكون التعليم ابن الزمان وابن المكان ، أى يكون عصريا إسلامياً ، فإذا كان عصريا فقط كما هو الحال فى مدارسنا المدنية خرَّج لنا شباباً يجهلون أنفسهم ومحيطهم وكيانهم ، وكانوا سماسرة لأفكار أجنبية ومقاصد أجنبية وعقائد غربية ، وإذا كان التعليم ابن المكان فقط ولم يراع فيه معارف العصر خرج لنا شباباً جاهلين بأحوال زمانهم مجردين من الأسلحة التى يقاتلهم بها أعداؤهم .

(٥) القضاء على طريقة التثقيف فى العالم الإسلامى وإزالة الهوة الواسعة بين المتعلمين تعليما مدنيا عصريا والمتعلمين تعلما دينيا إسلامياً ، ولا يكون ذلك إلا لسلخ الصبغة الأجنبية عن التعليم المدنى العصرى وإعطائه صبغة أخرى من لون محيطه الإسلامى تكون ملائمة لتقاليد الأمة وعقائدها ويكون فيه القسط الأوفى لإعلان مفاخرها وتنوير تاريخها وإحياء ماضيها وربط الحاضر به .

(٦) جعل مادة الدين فى مدارس الدولة مادة أساسية يمتحن التلاميذ فيها .

* * *

وكشف السيد محب الدين الخطيب عن خطر التغريب فى مجال التعليم فقال : « إنما أتينا من قبل الثقافة التى تثقف بها قادة الأمة ، فالمصانع التى يتخرج فيها قادتنا ليس لها غاية واحدة معينة ، وكشف كثير من كتاب اليقظة عن اتجاه السياسة الإنجليزية فى جعل التعليم فى مصر مجرداً من الدين والأخلاق (لأن هذا هو ما تقضى به مصلحة بريطانيا ويؤدى إلى تسلط شعب يدين بدين غير دينها) وقال محمد على الطاهر (إن سياسة الاحتلال البريطانى فى وزارة المعارف استهدفت انتزاع الدين وروح الأدب العربى وتاريخ العرب وصلة مصر بالعرب والدين من برنامج التعليم ، ثم أدخلت إلى هذه البرامج أن مصر فرعونية وأن أجداد المصريين هم فرعون وهامان ولا صلة بعدنان وقحطان » فلما نبت أبناء هذا الجيل وكبروا وتولوا السيطرة الآن على المدارس وجدت الصحف من يهتم بالصين وأمريكا وألمانيا

ولا يهتم بفلسطين والعراق والشام » .

وقال الأستاذ حسن أحمد عبد الرحمن البنا : إن من حقنا ألا نسير وراء مدارس الغرب التى فصلت الدين عن برامجها ، وإن أسباب ذلك وموجباته إن توفرت فى الغرب فهى معدومة عندنا وإن أخطأ الغربيون فى شىء فلسنا ملزمين بتقليدهم فى خطئهم .

وركز قادة اليقظة على أن الهدف من مناهج التعليم إنما يرمى إلى عزل مصر عزلة أدبية عن البلاد العربية من ناحية وعن ماضى البلاد المصرية نفسها والماضى القريب والماضى البعيد ، فإذا قرأ الطالب من الأمم الإسلامية والشرقية كانت قراءته بعقلية الأوربيين ومن وجهة نظر الأوربيين ولأغراض الأوربيين فقد نشأ المعلم المصرى نشأة تجعل معرفته للعالم الإسلامى معرفة خارجية عن طريق كتب أوربا وصحفها فهو يعرف الممالك الإسلامية والأقطار الشرقية من وجهة النظر الأوربية .

وقال ساطع الحصرى لقد عرف المستعمرون كيف يدسون أساليبهم تحت أستار جذابة قد تفوت على المرء أول مرة قبل أن ينفذ إلى وقائعها ، وقد اتجه الاستعمار إلى فكرة التعليم بغير تثقيف تعليما ضيقا جداً يجعل المتعلمين آلات صماء فى أيدى الاستعمار ، ويجعل وسيلة ميكانيكية بحتة بحيث لا يدخل على هذا التعليم أى عنصر من عناصر الثقافة العامة ، مع نشر اللغة العامية للمباعدة بين الأقطار العربية ، وقد نشروا لهذه الفكرة دعايات منوعة ، تحت عنوان « نشر التعليم بين طبقات الشعب » .

وحاولت حركة اليقظة وضع مخطط كامل لتعريب التعليم وإعادة روحه الإسلامية إليه ، وقد جرت فى ذلك محاولات عام ١٩٢٧ لتوحيد برامج التعليم فى البلاد العربية ، كما عارض دعاة اليقظة الأهداف التى قصد إليها دعاة التغريب وقال السيد محب الدين الخطيب : مصر بلد إسلامى وسيبقى إسلامياً إلى الأبد مهما صبرت مصر على محركى تلك الموجة من الدعوة إلى الخروج على الإسلام .

* * *

وقد كشفت خطابات مديرى ورؤساء الكليات التبشيرية عن أهدافها فقال اللورد لويد فى احتفال كلية فكتورية بالاسكندرية (مايو ١٩٢٦) إن هؤلاء — وهم من ثمانية أجناس — لن يمضى عليهم وقت طويل حتى يتشبعوا بوجهة النظر البريطانية ، وبفضل العشرة الوثيقة بين المعلمين والتلاميذ فيكونوا ، قادرين على أن يفهموا أساليبنا ويعطفوا علينا ، وأن هذه الكلية تنمى فى الطلبة من الشعور الإنجليزى ما يكون كافياً لجعلها صلة تفاهم بين الشرق والغربى ، وأن هذه المشاكل التى بين بريطانيا ومصر تحل إذا تعلم كل من الإنجليزيين والمصريين أن ينظر إلى رأى الفريق الآخر نظراً مقروناً بالفهم والعطف » أ . هـ

* * *

وفى مجال الجامعة كشفت حركة اليقظة عن دور التغريب الذى برز من خلال دراساتها وأطروحاتها حين تقدم زكى مبارك بأطروحته عن الأخلاق عند الغزالى فهاجم هذا الإمام العظيم هجوماً جرى فيه خلف آراء بعض كتاب التغريب المتعصبين وردد آراءهم — هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كشفت دروس الدكتور طه حسين فى نقد القرآن التى ألقاها على تلاميذه عن بقية المخطط حتى قال صاحب جريدة فتى العرب الدمشقية :

(أنشئت الجامعة العربية فتهلل القوم فى جميع أنحاء الشرق العربى وتفاءلوا فيها خيراً وباتوا يعلقون عليها الآمال الطوال ، وما هى إلا عشية أو ضحاها حتى حصحص الحق ، ووضح الصبح لذى عينين ، فتبين لهم أو كاد أن تلك الجامعة المصرية بثت الآراء الشاذة التى يريدها الاستعمار الأوربى فى الشرق وأنها إنما اتخذت آلة هدامة للكيان العربى عن طريق الأدب والعلوم ، وها نحن نرى الجامعة المصرية أو بعض القائمين بأمر الجامعة يعلنون الحرب على العرب والعربية فقد اتضح لأبناء الأقطار العربية بعد الإشكال ، السبب الذى دعيت به الجامعة المصرية ولم تدع الجامعة العربية فى مصر) ، وقال الكاتب : إن الجامعة تقوم على الدعاية بأن مصر فرعونية بحتة ، وأن الآداب العربية واللغة العربية دخيلة ، بل محتلة بقوة الفتح والدين

فى الآداب المصرية واللغة الفرعونية وأن (جريدة السياسة) قد اتخذت ثكنة حربية يرابط فيها مجاهدو القومية الفرعونية بقيادة أشخاص لا يستطيعون أن يبرهنوا على أن مصريتهم ترتفع إلى أكثر من خمسة أجداد أو عشرة .

وإذا كان غرض تركيا التخلى عن الإسلام فليس بإمكان العروبة والعربية التخلى بتلك السهولة التى صورها هيكل وسلامة موسى عن مصر العربية[1] .

* * *

وجرى حديث دعاة التغريب عن أن الجامعة المصرية قد أخذت تطفىء ضياء الأزهر وتحل وجودها محله ، وتقول السياسة الأسبوعية[2] : إن الجامعة المصرية أرادت أم لم ترد ، رضى القائمون بالأمر فيها وفى الدولة المصرية أم لم يرضوا ، صائرة لا محالة إلى حيث تحل من ناحية النفوذ خارج الحدود المصرية محل الجامع الأزهر ونفوذه الكبير فى تلك العصور التى مضت ، ولم يكن الجامع الأزهر أيام ازدهاره حقا ، إلا جامعة متوجة لدرجات التعليم الهام فى تلك العصور ولم يكن نفوذ الجامع الأزهر إلا ناشئا من هذا الاعتبار وحده .

وقالت مجلة « الفتح » فى دحض هذا الرأى : إن نفوذ الأزهر ناشىء عن قيامه على علوم الإسلام قياما متواصلا لم يعتوره انقطاع ، ونجاحه فى ذلك نجاحاً لم تؤثر فيه أحداث الأزهر ولا طوارىء السياسة ولا تقلبات الأحداث ، ولا فقر الدولة ولا ضعف المسلمين ، فما نبغ نوابغ العلماء إلا فى رحابه ، ولا خرج المصلحون إلا من حلقات دروسه ، ولا يعرف المسلمون حين يهاجم الدين إلا أهل الأزهر ولا ترجع الأمة فى أمور دينها إلا لهم ، والأزهر للدين والجامعة للثقافة الجديدة ، الثقافة التى تقوم على إنكار الدين أو على تجريدها من الدين أو على عدم الحاجة إليه فالتقابل بين الأزهر والجامعة تقابل بين الشىء وضده ، « إن الجامعة المصرية لا تحل

(١) مجلة فتى العرب — ١٩٣٠ .

(٢) ٢٦ فبراير ١٩٢٧ .

محل الأزهر ولا محل جامعات العرب ولا ترث نفوذهما بين الأمم الإسلامية » .

وقد وقعت الجامعة المصرية فعلاً فريسة النفوذ والتغريب حين أقامت حفلا عام ١٩٢٧ بمناسبة مرور مائة سنة على ولادة الفيلسوف الفرنسى رينان الذى هاجم الإسلام والعرب بأسوأ مما هاجمهما به مستشرق أو مبشر أو كاتب غربى .

كما أشارت حركة اليقظة إلى مدى الخطر الذى قصد إليه النفوذ الاستعمارى حين قصد إلى بناء الجامعة على طراز أوربى لا مصرى ولا عربى ولم يتم بناؤها ببناء مسجد ييسر للطالب المصلى تأدية الصلاة « وكأنه إكراه على ترك الصلاه إكراها » بل إن بعض الطلاب تقدموا إلى الدكتور طه حسين برجاء إقامة مصلى فرفض . هذا بينما الأمر غير ذلك فى جامعات أوربا ، يقول الكاتب : ذهبت مرة إلى جامعة أكسفورد فتعشيت فى إحدى كلياتها مع الطلبة فلما جلسنا على الموائد أقبل جماعة من الأساتذة إلى مائدة تسمى المائدة العالية فوقف الطلبة خاشعين فاستمعوا إلى دعاء باللاتينية ولما انتهى الطعام وقف الطلبة خاشعين فاستمعوا إلى دعاء آخر باللاتينية أيضاً وأذكر هنا أن فى جامعة (أكسفورد) تسع عشرة كلية مع كل واحدة منها كنيسة والطلبة ملزمون بالتناوب على الصلاة فى أوقات معينة ويتساءل الكاتب « هل منع هذا الإمبراطورية البريطانية من أن تسود العالم » .

* * *

وقد اتجهت حركة اليقظة بالدعوة إلى أن يعرف الطلاب فى الجامعة المصرية أمور دينهم ، فتقدم بعض الطلاب (مارس ١٩٣٧) إلى إدارة الجامعة أن تجعل التعليم الدينى من مناهج الدراسة فى جميع الكليات الجامعية وجاء فى المذكرة :

أن العارف بحقائق الإسلام إذا عرف بها صديق له فتح بذلك أمامه طريقاً من طرق المعرفة ونقله إلى أفق فسيح من آفاق العلم ، والإسلام

ولا ينحصر فى معرفة الأحكام ولا فى تلقين العقائد بل هو أيضا نظام اجتماعى ورائد السعادة فى الحياة ، وكلما حل وطنا لم يكن فيه قام فى ظله شامخ العمران وانتعشت به نهضة الحضارة واستقام تحت حكمه قسطاس العدل .

إن الإسلام خلق وسيرة ، والدعوة إليه بالعمل أبلغ من الدعوة إليه بالجدل والمناظرة ، ومن الواجب أن يلم فى هذا الميدان بشىء من دينه القويم ، حتى لا يقضى حياته جاهلا بأصوله مخالفا لقواعده وقوانينه ، بعد أن استوعب فلسفة أرسطو وأحاط بنظرات ديكارت ، ولا تأتى معرفة الدين وأصوله إلا عن طريق إدخاله الدراسة الدينية ضمن مناهج الدراسة فى جميع الكليات ففى الدين الوازع الأكبر للشباب فى مرحلته الأخيرة ، ومن شديد الأسف أن تنتهى مراحل التعليم فى بلد إسلامى وما يعلم الطالب منها عن أمر دينه شيئاً ولذلك يرجى :

(١) تدريس العلوم الدينية الضرورية فى جميع كليات الجامعة .

(٢) أن يكون تعليم الفتاة المصرية على أساس التقوى والورع .

(٣) أن يلتزم أعضاء هيئة التدريس باتباع قواعد دينهم .

وفى مجال الإرشاد إلى تعليم الفتاة المصرية ، عرض مشروع لدراسة خاصة للبنات فى كلية الآداب وقد وصل عددهم إلى ما يقرب من المائتين قالت المذكرة :

« الفتاة المصرية فى مسيس الحاجة إلى تربية الروح ، وذلك عن طريق دراسة خاصة بها لأنه مهما يكن الأمر فليس كل المواد التى تدرس فى كلية الآداب تتفق ومستقبل الفتاة ، دراسة تتفق وكونهن أمهات المستقبل ، إن الاختلاط بصورته الحالية فى جميع الكليات يتنافى والشرع الإسلامى وأن الدراسة الخاصة بالفتاة لخير تحديد لمصيرها وخير معين على حياتها المقبلة .

* * *

أما بالنسبة لجامعات الإرساليات فقد كانت مقر حركة التبشير التى ثارت بشأنها عاصفة شديدة عامى ١٩٣٢ / ١٩٣٣ وقد وقف « عبد القادر الحسينى » الطالب بإحدى الجامعات فى تخرجه فكشف عن دور هذه الجامعات فى إفساد العقائد الدينية والطعن فى الدين الإسلامى .

وقدم للحاضرين الكتب التى تدرس فى الجامعة والتى تفرض عليهم دراسة دين غيرهم فرضاً مع الإساءة إلى دينهم ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن جريدة « المقطم » شاركت فى حفل حضره أساتذة إحدى الجامعات التابعة للإرساليات ، وألقى الدكتور فارس نمر رئيس تحرير المقطم خطبة جاء بها إنه قابل الجنرال كاترو بشأن الانتداب الفرنسى على سوريا ولبنان وقال إن كنت قد أسرعت إلى هذا الواجب فلأنى من تلاميذ الجامعة (كذا) ، تلك الجامعة التى لها من الأثر الحميد فى مصر والشرق ما ليس لأحد أن ينكره وقال : على حضرات زملائى تلامذة الجامعة أن يظهروا التعاليم الوطنية القومية التى تلقوها !

* * *

٢٦ - إحيـاء ما قبـل الإســلام

الفرعونية ، الأشورية والبابلية والفينيقية والبربرية

عمد دعاة التغريب إلى إحياء حضارة ما قبل الإسلام فى العالم العربى كله فى محاولة لحجب الفكر الإسلامى والثقافة الإسلامية . وقد علت فى فترة ما بين الحربين الدعوة إلى الفرعونية فى مصر والفينيفية فى الشام والأشورية فى العراق .

ونشرت المقتطف والهلال أبحاثاً عديدة فى هذا الصدد ، وتصدر سلامة موسى وغيره رفع لواء هذه الدعوة . وأولت هذه الصحف الدعوة إلى الفينيقية ، التى بدأ المقتطف فى الحديث عنها منذ ١٨٨٩ وإبراز فضلها فى تعليم الناس الكتابة (وهو الخط المتداول الآن بين سائر اللغات) فهم الذين علموه لليونان فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد وهؤلاء نشروه فى أوربا وعنه صدرت الخطوط الإفرنجية كما علموه للأشوريين فيما بين الحربين وعنه صدرت الخطوط الشرقية ومن جملتها الخط العربى .

كما حملت هذه المجلات أبحاثاً عن الأشوريين والكلدانيين والبابليين ولغاتهم وقد هاجم قادة اليقظة هذه الدعوات من حيث هدفها التغريبى المضمر ، وهو القضاء على الفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية وتجاوزهما إلى ما قبل الإسلام .

وكشفوا عن أن حضارة الإسلام قد استوعبت خير ما فى هذه الحضارات ، فضلا عن أن هذه الحضارات ليست لها لغات حية ولا ثقافة ولا تراث يمكن الاعتماد عليه .

وقد سقطت هذه الدعوة فعلاً وتحول كثير من دعاتها إلى الدعوة الإسلامية وفى مقدمة هؤلاء الدكتور هيكل الذى عارض من بعد آراء طه حسين ومحمود عزمى وغيرهما واعترف فى صراحة أنه حاول عن طريق ترجمة الفكر الغربى ثم عن طريق إحياء الفرعونية ، بناء فكر مصرى ولكنه فشل فى كليهما ورأى أن الأرض لا تحتضن البذر ولاتنبته ، وأنه بعد روية وتأمل لم يجد سبيلا لنهضة مصر والعرب غير الإسلام ، ذلك الامتداد الطبيعى مع الفكر الإسلامى العميق الجذور القائم فى أعماق هذه الأمة والذى طبع روحها وعقلها إلى حد لا سبيل معه إلى بعث عن غير طريقه ، بالإضافة إلى أن هذه الموجات عربية أصلاً صادرة عن قلب الجزيرة .

* * *

(مصادر البحث)

لم نتوسع فى هذا الفصل باستقصاء الوثائق وإيراد المقررات والأسانيد التى تتصل بهذه القضايا حيث تناولنا ذلك بالتفصيل فى كتابنا (الفكر العربى المعاصر فى معركة التغريب والتبعية الثقافية) الذى صدر عام ١٩٦٠ وكان هو المنطلق فى هذه الدراسة الواسعة التى تمثلت من بعد فى عدد من المؤلفات أهمها :

(١) معالم الفكر العربى المعاصر والكتاب الملحق به عن الثقافة العربية .

(٢) الإسلام والثقافة العربية .

ثم كان كتابنا (يقظة الفكر العربى) الأول : فى مواجهة الاستعمار (والثانى هذا) فى مواجهة التغريب دراسة تاريخية مفصلة وشاملة .

الفصل السادس

(١)

انكســـار الموجـــة

كانت موجة الغزو الثقافى قد دفعت بكل قواعدها بعد الحرب العالمية الأولى لتحقيق أكبر قدر ممكن من تغريب الثقافة العربية والفكر الإسلامى فى ظل جو مهيأ بكل وسائل العمل لتحويل المصريين من العروبة والإسلام إلى أن يكونوا صورة مشوهة تابعة للثقافة الغربية بالانصهار والتحلل والاحتواء ، وكان نجاح التغريب فى مصر — بحسبانها قائدة الثقافة فى الأمة العربية كلها بل فى العالم الإسلامى كله — مصدر نجاح ضخم للنفوذ الاستعمارى فى المنطقة كلها بحسبان أن مصر تحمل رايات الصحافة والرأى العام والقيادة الفكرية والزعامة الثقافية .

والواقع أن الاحتلال الغربى للأمة العربية الذى استكمل حلقاته فى نهاية الحرب العالمية الأولى بتقسيم المنطقة كلها بين فرنسا وبريطانيا بالإضافة إلى إيطاليا فى ليبيا وأسبانيا فى المغرب الأقصى ، لم يكن هو الخطر الأكبر ، ذلك أن الاحتلال العسكرى والسياسى عرض يزول بالقوة ، ولكن الخطر كان كامناً فى ذلك المخطط الدقيق العميق الذى كان ينفذ تحت الجلد ولم يكن يجرى على السطح إلا قليلاً ، وهو تحويل هذه الأمة عن مقوماتها الأساسية وسحبها بعيداً عن تراثها ولغتها وتاريخها ، وإغراقها فى أتون ما أسموه (الثقافة العالمية) وقد اتخذ النفوذ الاستعمارى لذلك طريقاً حقيقاً بالنجاح ، ذلك هو السيطرة على التعليم والتربية والثقافة عن طريق معاهد الإرساليات والإشراف على برامج التعليم والمعاهد والجامعات والصحف والمجلات ذات النفوذ — وقد تحقق له ذلك فى مصر منذ عام ١٨٨٢ فلما جاءت

الحرب العالمية الأولى كان مخطط التغريب قد بلغ أوج نضجه[1] ، خاصة بعد أن سيطرت مدرسة حزب الأمة على مقدرات السياسة والحكم والثقافة فى مصر ، وهى التى كونها لطفى السيد وسعد زغلول منذ عام ١٩٠٧ عندما ولى سعد وزارة المعارف ولطفى السيد رئاسة تحرير الجريدة ، ومن ثم فما أن وقعت ثورة ١٩١٩ التى كانت ثمرة جهود حركة اليقظة العربية الإسلامية المتمثلة فى الحزب الوطنى وحزب محمد عبده معاً ، والتى كانت امتداداً طبيعيا شارك فيه كثيرون ومضى فى طريقه الطبيعى لولا اعترضته موجة التغريب التى انبثقت عن طريق خريجى معاهد الإرساليات فى بيروت ممن جاءوا مصر فأصدروا فيها صحافة ساندتها القوى الاستعمارية وغذتها ووضعتها موضع القيادة الفكرية (سليم نقلا وجرجى زيدان وصروف ونمر ومكاريوس وسركيس وفرح أنطون وغيرهم) ثم استطاعت أن تكسب لهذه الموجة رجلين من أكبر الرجال الذين كانوا ينتسبون إلى جمال الدين ومحمد عبده هما لطفى السيد وسعد زغلول ، وقد بدأت الموجة بعد الحرب العالمية الأولى وثورة ١٩١٩ عالية قوية تريد أن تضرب بقوة فى كل مكان ، فى كلية الآداب وفى جريدة « السياسة » وفى صحف أخرى ومن ثم عبأت الجو كله بكتابين خطيرين هما : الإسلام وأصول الحكم والشعر الجاهلى .

كان القصد منهما ضرب أقوى العرى الوثقى للفكر الإسلامى والثقافة العربية وهى :

(١) تجزئة الإسلام والخروج به عن مفهومه المتكامل الجامع بين العقيدة والمجتمع .

(٢) تجزئة الفكر الإسلامى والثقافة العربية وفصل الأدب وتحريره من الخضوع للقيم الدينية والأخلاقية .

وكان سقوط الخلافة الإسلامية من الأحداث السياسية ذات الأهمية الكبرى ليس فى موضوعها فحسب ، بل وفى دلالتها على تفرق عروة المسلمين التى كانت على ما كانت عليه من الضعف رمزاً على الوحدة والقوة . ثم جاءت موجة التبشير ومحافل الماسونية وحركة البهائيين والدعوة

---

(١) راجع كتاب (يقظة الفكر العربى فى مواجهة الاستعمار) .

الصهيونية التى كسبت بوعد بلفور إقامة وطن قومى فى فلسطين ، كل هذه الأحداث فى خلال السنوات العشر من انتهاء الحرب العالمية الأولى كانت عاملا هاما من عوامل تجدد حركة اليقظة التى لم تكن توقفت خلال هذه الفترة ، والتى كانت تسير من خلال قواها ومؤسساتها الممتدة قبل الحرب ، وهى الأزهر وحزب المنار والحزب الوطنى ، غير أن هذه الأحداث لم تلبث أن أمدت حركة اليقظة بقوة جديدة لمواجهة التحدى الجديد الذى بلغ ذروته ، والذى تحول من خلال أتباع الإرساليات التبشيرية اللبنانية إلى العائدين من البعثات الأدبية من فرنسا فى مقدمتهم طه حسين وهيكل ومحمود عزمى ومن تابعهم من خلفاء حزب الأمة وامتداده : اسماعيل مظهر وعلى عبد الرازق وسلامة موسى ومن ظهر من الأجيال الجديدة : حسين مؤنس وحسين فوزى وتوفيق الحكيم .

وكان رجال اليقظة قد أخذوا أماكنهم فى صفوف الشعب نفسه ، وبدأ عملهم من خلال عدد كبير من الجمعيات والهيئات الإسلامية والأدبية والاجتماعية التى أخذت تظهر حثيثاً منذ عام ١٩٢٧ ، وتسيطر على الفكر والمجتمع كله من خلال عدد من الصحف والمجلات والكتب ، والمحاضرات والندوات .

وفى مقدمتها جمعية الشبان المسلمين ونادى دار العلوم ، وكان الأزهر ورجاله القاسم المشترك الأعظم على هذه الأندية والجماعات والصحف . وكان من أبرز الظواهر لهذه الحركة أن شارك فيها رجال ليسوا من الأزهر ولا من علماء الدين وليسوا من مصر وكان أغلب هؤلاء قد تلقوا دراساتهم فى جامعات أوربا وأحرزوا أرقى الشهادات بعد أن درسوا مقررات الفكر الغربى الحديث فى مقدمتهم الدكتور محمد أحمد الغمراوى والدكتور عبد الحميد سعيد والدكتور على مظهر والدكتور الدرديرى والدكتور أحمد فؤاد ، بالإضافة إلى أمين الرافعى وكان أبرز هؤلاء جميعاً هو السيد محب الدين الخطيب صاحب الفتح وخريج جامعات استانبول فى القانون والأدب .

وقد حملت الثلاثينات علامة على أمرين :

(أولا) بلوغ موجة التغريب غايتها وانكشاف مخططاتها واتهام دعاتها بموالاة النفوذ الاستعمارى الغربى .

(ثانيا) بلوغ حركة اليقظة التماسك والقدرة على الثبات فى وجه التيار الذى انبعث عام ١٩٠٧ وامتد فى قوة بعد الحرب العلمية الأولى .

وقد كانت الدعوات الوطنية والاجتماعية والفكرية جميعاً تبدو وكأنها وليدة ضائعة بغير شهادة ميلاد ، تائهة بين مناهج الثقافتين الفرنسية والسكسونية ، وبين فكر الديمقراطيين والرأسماليين وغيرهم ، إذ كانت تبحث خلال هذه السنوات العشر عن جذورها وأصولها ، ثم بدا لها عن طريق الأبرار من دعاة حركة اليقظة أن لها أصولا عميقة وجذوراً راسخة وأن هذه المحاولات الجديدة للنهضة ليست إلا فروعاً لها وامتداداً .

وكان لصمود دعاة اليقظة أبعد الأثر فى تحولهم من الدفاع إلى الهجوم وانكسار صرح التغريب أمامهم ، مما حمل الكثيرين من دعاة التغريب إلى الانضمام إلى حركة اليقظة ، أو السير فى خطها وكان فى مقدمتهم منصور فهمى والدكتور هيكل وزكى مبارك ثم إسماعيل مظهر .

وتحول كثيرون من الفرعونية إلى العربية من أمثال محمود عزمى وإن بقى على آرائه الأخرى وكان من أكبر علامات انكسار الموجة أن دعاة التغريب بعد أن فشلت محاولتهم فى ربط الثقافة العربية فى مصر بالفكر الغربى ، عادوا فاعترفوا بأن الثقافة المصرية عربية الأصل والجذور وأنها لا تستطيع الانفصال عن الإسلام واللغة العربية .

وقد كان من الطبيعى أن تتصل الثقافة العربية فى مصر فى تجددها ويقظتها بأصولها وجذورها من الفكر الإسلامى مهما طال بها الجرى فى مجرى التيه ، ومهما جرت المحاولات فى سبيل تغريبها أو حجب وجهها العربى الإسلامى .

غير أن الأسباب التى عجلت بانكسار الموجة عوامل عدة أهمها :

(أولا) تحديات الغرب السياسية للأمة العربية والعالم الإسلامى وانكشاف وجهه الاستعمارى السافر فى عنف من خلال مواقفه المختلفة

تجاه حرية هذه الأقطار فى ثورة ١٩١٩ فى مصر ، وفى ميسلون فى سوريا وفى ثورة عبد الكريم فى الريف المغربى ، وفى الهجوم الإيطالى على ليبيا ، وفى محاولات تجنيس المسلمين فى تونس ومراكش ودمج المسلمين فى الجزائر فى الكيان الفرنسى .

(ثانيا) انكشاف مؤامرة الاستعمار فى محاولة التبشير وفتنة المسلمين عن دينهم عن طريق المستشفيات والمدارس والجمعيات وقد برز ذلك واضحاً فى مصر عام ١٩٣٤ مما جعل كثيراً من دعاة الاندفاع وراء حضارة الغرب وفكره إلى التريث فى النظر ، بل إلى تعديل موقفهم تعديلا كلياً وفى مقدمة هؤلاء رأس المدرسة الدكتور هيكل ، قطب جريدة « السياسة » .

(ثالثا) ظهور رسائل دراسات تحمل خططا مرسومة لتغريب الشرق ، أعدها مستشرقون يعملون فى دوائر ووزارات المستعمرات وإدارات المخابرات وقد أعلنوا فى أبحاثهم صراحة ، أنهم يدرسون إلى أى مدى وصل تغريب الشرق وما هى العوامل المساعدة لإتمام هذا التغريب .

* * *

وفى خلال هذه المرحلة كانت الثقافة العربية والفكر الإسلامى يجددان قيمهما الأساسية وينفضان عنهما غبار السنين ويصححان مفاهيمهما ، ويواجهان ما يدفع إليهما من حصيلة الفكر الغربى ، وهى حصيلة مضطربة غاية الاضطراب ، بالغة الضغن ، تحاول أن تنقل إلينا ركاما لا حد له من الأفكار والدعوات المتصارعة المتضاربة والنظريات التى طرحها عشرات من الباحثين خلال فترات طويلة ، وعارضها عشرات غيرهم بنظريات أخرى ، نقلت هذه النظريات إلى الثقافة العربية بمغالطة واسعة على أنها فكر ثابت راسخ وقواعد عامة وأصول ثابتة ، كما أن هذه النظريات المتضاربة قد نقلت فى جو من الهيبة والتقدير والتكريم لأصحابها . من فلاسفة الغرب « ذى الجلال » حتى تكون بالغة التأثير فى النفس العربية والعقل العربى .

كل هذه الحصيلة الضخمة التى نقلها كتاب ذوو أغراض ليسوا فى الأغلب صادقى الإيمان بوطنهم وأمتهم ، وليسوا راغبين أساساً إلى تأصيل

فكرهم العربى أو إثرائه ، وإنما كانوا فى الأغلب راغبين إلى طمس ماضيه كله ودفعه جملة واحدة إلى خضم عاصف ، تقودهم نظرة خططت لهم ، قوامها أن المصريين ليسوا عربا وليسوا شرقيين وإن العقل العربى عقل يونانى الأصل وإن مصر قطعة من أوربا .

هذه النظرة الخاطئة المضللة كانت هى الأساس الذى أقام عليه طه حسين ومحمود عزمى وسلامة موسى وغيرهم هذا الجسر الذى قذفوا به الثقافة العربية بذلك الركام الضخم المضطرب ، غير أن الفكر العربى الإسلامى وهو فى سبيل يقظته واندفاعه نحو تحرير نفسه من قيود التقليد والجمود ، وجد أنه بسبيل القدرة إلى تحرير نفسه أيضا من قيود التقليد لأوربا وفكرها ولم تمض إلا سنوات قليلة حتى استطاع أن يستصفى هذا الركام وأن يأخذ خير ما فيه وأن يرد شر ما فيه وينقضه ويدحض شبهاته ، وأن يجد من طبيعته الخصبة وأصالته العميقة الجذور قدرة على الثبات فى وجه الموجة العاصفة ، فقد كانت جذوره الصلبه قادرة دوما على أن تأخذ وترفض ، دون أن تجتاحها الرياح الهوجاء أو تفرض عليها الانحناء .

ومن ثم أخذ الفكر العربى الإسلامى ما مكنه من النهوض من أساليب البحث ومن مناهج الفكر مع احتفاظه باستقلال الذات والانفتاح على الفكر الإنسانى دون جمود ، ثم لم يلبث أن اكتشف أن ما أخذه إنما كان من بضاعته الأولى التى نقلها الفكر الأوربى فى أول النهضة ، وأن جذوراً كثيرة من نظريات السياسة والأخلاق والفلسفة والاجتماع والاقتصاد قد أقام أصولها الأولى رجالنا : الغزالى وابن رشد وابن تيمية وابن حزم وابن خلدون .

*　　*　　*

ومن الحق أن يقال أن الفكر العربى الإسلامى لم يستسلم مطلقاً للنظرية الغربية بالرغم من بريق الصحف الضخمة والمجلات الفاخرة والأسماء ذات الدوى ، وقاومها طويلا وأعلن وجهة نظره واضحة فى مختلف القضايا (العروبة والإسلام — العلم والدين — الشريعة والقانون — التربية

والتعليم ــ الربا والاقتصاد) .

وأنه دحض نظرية أن المصريين من أوربا وليسوا من العرب ، وهاجم محاولة إقناعنا بأننا لسنا شرقيين ، وعارض نظرية التبعية للفكر اليونانى ومحاولة الفصل بين الدين والمجتمع ، أو إلغاء الصلة بين الإسلام والسياسة .

لقد ظل الفكر العربى الإسلامى دوما ، وجيلا بعد جيل يواجه هذه النظريات ويدلى برأيه فيها عن المعارضة ولا يتقبل شيئاً ثقيلا عفويا ، وقد زال فى نفسه بريق الغرب ، وما حاولوا إحاطته به تاريخا وبطولات وقيما من هالة أثبتت الأحداث تضليلها وكذبها ، وانكشف الغرب عن حقده للأمة الإسلامية وقيمها وراء رغبة ضخمة فى إبقاء نفوذه ، وتأكيد وجوده ، من الواجهات الوطنية والقومية البراقة .

وطوال فترة ما بين الحربين لم يتوقف الفكر العربى الإسلامى عن التقبل والمعارضة ، تقبل ما يراه صالحاً لنهضته وإساغته وتحويله فى داخله إلى قوة مجددة له ، ومعارضة قبول قيم تتعارض مع أسسه وقيمه ومقوماته وشخصيته ، وهو فى كل هذا له وجهه السمح الباسم الذى لا يعرف الحقد أو التعصب أو الخصومة الفاجرة ، سماحة فى تقبل ما يجدده دون أن يخرج عن مقوماته ، أو يتناقض مع خطوطه الأساسية دون غلو فى الخصومة .

* * *

وكان من أكبر علامات انكسار الموجة أن ماتت « الرابطة الشرقية » وماتت « المجلة الجديدة » وماتت « السياسة الأسبوعية » وماتت « العصور » بينما استمرت مجلة « الفتح » ومجلة « المنار » ونشأت مجلة « الأزهر » ومجلة « الرسالة » ومجلة « النهضة الفكرية » ومجلة « الشبان » و « النذير » ومجلة « مصر الفتاة » .

وبدأت موجة من الأصالة فى فكرة الطلبة الشرقيين ، والدعوة إلى الوحدة العربية ، وبعث الحضارة الإسلامية والمصرية ذات الأصل العربى الإسلامى (دعوة أحمد حسين) وتجددت دعوات إلى جامعة أمم إسلامية بدلا من الخلافة الإسلامية (دعوة الدكتور السنهورى) والترابط بين الدين والمجتمع .

وفى الثلاثينيات كانت هناك أصوات ذات عمق تحاول أن تستشف طوابع الدعوة إلى التجديد الذى اجتاحت كل جوانب الفكر والثقافة وحاولت أن تصور كل ما عداها رجعية فنرى فتى العرب الدمشقية (يناير ١٩٣٠) تحاول أن تكشف الخلفية الخطيرة التى ظل كثير من مثقفينا فى غفلة عنها إلى وقت قريب : تقول :

« لا يهدد الاستعمار الأوربى العسكرى وحده سلامة الشرق وسلامة شعوبه ، بل إن هناك استعماراً آخر أصحابه يلوحون به فى وجوه الشرقيين عامة ، وفى وجوه المسلمين خاصة ، وقد بنى هذا الاستعمار الجديد على الدعاية عن طريق الكتب ، ولعل أشد ما نحزن له هو أنه بدأ يمتد زحف أوربة الفكرى إلى أوساطنا وأن يحدث فيها أثره وتأثيره ثم لا نستطيع دفعه وصده .

إن الغاية من الزحف الفكرى ليست موجهة إلى الفصل بين الشعوب الشرقية وبين حاضرها ، بل الغرض من توسع نطاق هذا الزحف أن يفصل بين الشعوب وبين الماضى ، ولأن أشد ما تخافه أوربا المستعمرة هو بعث الماضى الذى أخذ يستفيق فى صدر الهند والصين وفى قلب جزيرة العرب » .

وقدرت فتى العرب أن عملية الفصل تقوم على مرحلتين :

(١) بين كل قطر وآخر . (٢) بين الماضى والحاضر .

وقالت إنه من شر ما هوجمنا به فى كياننا القومى والوطنى لأن الإسلام هو العاصم الأكبر لهذا الشرق ، من أن تتم فيه إدارة الاستعمار الغربى وكل وهن يلحق الإسلام فى الشرق ، فإنما هو خسران على الشرق وخطوات يخطوها الغرب نحو أغراضه الكبرى .

ثم ظهرت مقالات متعددة تكشف عن هذا التحول حتى قالت مجلة « الفتح » (٢٧ فبراير ١٩٣٠) .

هل نحن على أبواب عهد جديد وهل شرعت الصحف الإسلامية فى مصر تقوم بالواجب الذى عليها وكانت الموضوعات على هذا النحو فى

« الهلال » و « السياسة الأسبوعية » وغيرهما .

« الإمبراطورية العربية وهل تتحقق ، هل يتاح للشرق أن يستعيد مجده ، أيهما يقوم : الشرقية ، أم الإسلامية أم العربية ، تغلب العلم على المذهب المادى » .

ثم جرت الأبحاث حول مراجعة لأعمال المصلحين : دور الشيخ محمد عبده ، مصطفى كامل ، جمال الدين الأفغانى ، مفهوم الفنون الرفيعة وهل لنا مثل أعلى عربى .

* * *

وظهرت علامات أخرى لها أهميتها : ففى حديقة يلدز (بالقاهرة) تجمع عدد من المفكرين والصحفيين ودار حديث سجله محمد محمود بدير ، قال فيه الدكتور منصور فهمى :

على سادتى علماء الأزهر أن يكونوا قدوة للناس بسيرهم وحينئذ يحسنون إلى الإسلام مالا يحسنون إليه بالكلام .

وانبرى له الشيخ على محفوظ فقال : إن المسئولية موزعة بيننا جميعا ، لأن أبناء الأمة أمانة تحت أيدينا نحن الأزهريين فى الأزهر ، وتحت أيدى الدكتور منصور فهمى وزملائه من مدرسى الجامعة المصرية ، وعقول الأمة ورأيها العام . أمانة تحت أسنة أقلام الصحفيين والمؤلفيين فى كل ما يكتبوه ، لينشر على الناس ويؤثر فى عقولهم وقلوبهم ، إن الإسلام ليس فيه رئاسة دينية ، وكل أبنائه عند الله سواء ، لا فرق بين أحدهم والآخر إلا بالتقوى والعمل الصالح فتطهير نفوس أبنائنا من أدران العداء للإسلام ليس من وظيفة على محفوظ وحده بل من وظيفة منصور فهمى أيضا ، أنتم يادكتور أصحاب التأثير اليوم فى عقول الناس ، أما نحن فعندنا بضاعة ولكن ليس لها مشترون ، وبنسبة إقبال الناس على ما عندكم وبنسبة استعداد الناس للتأثر بأقوالهم ، على نسبة ذلك ستكون مسئوليتكم » .

* * *

ويمكن القول أن أهم عوامل انكسار موجة التغريب تتمثل فى عدة نقاط :

أولا : فقدان الثقة بكثير من أدب الغرب وقيمه الحضارية ، مما أدى إلى تحول بعض زعماء التغريب إلى المنابع الإسلامية بعد أن فقدوا الثقة فى أن أدب الغرب أو الفرعونية تستطيع أن تجدد الثقافة العربية .

ثانيا : جدد المحافظون ووسعوا آفاقهم ، ورجع المجددون إلى القديم وظهر تيار وسط يجمع بين خصائص الاتجاهين ، وقد صور هذا هاملتون جيب حين قال : إن الطرفين من المحافظين والمجددين يتباعدان وبينهما جماعة وسطى تواجه عملية اختبار دائم ينتشر فى المسائل الفنية والعلمية .

وقد تمثل مفهوم التجديد فى المنهج الذى رسمه مصطفى صادق الرافعى حين قال : إن التجديد فى الأدب إنما يكون بطريقين :

(١) إبداع الأديب آثار فكره بما يخلق من الصور الجديدة .

(٢) إبداع فى آثار الميت بما يتناولها به من مذاهب النقد المستحدثة ، ولا تجديد إلا من ثم فلا جديد إلا مع القديم .

ثالثا : اعتدل بعض المنحرفين (هيكل ، منصور فهمى ، زكى مبارك ، عباس العقاد) وتألق المثقفون القادمون من أوربا والمتعلمون فى الغرب (يحيى الدرديرى ، الغمراوى ، على مظهر) وظهر شباب جديد من مدرسة الفتح والشبان المسلمين (عبد المنعم خلاف ، شاكر ، أبو الفضل إبراهيم) .

رابعاً : غلبة الدعوة إلى قيام الأدب الجديد على الأرض العربية الإسلامية فى الفكر .

* * *

(٢)

الانتقاض على تيار التغريب

كان من أبرز الظواهر التى نمت تحت الرماد طويلا ثم ظهرت خافتة أول أمرها ، ثم نمت نمواً واضحاً ، هى ظاهرة انتقاض دعاة التغريب على مفاهيمهم وتحولهم تحت ضغط عوامل شتى إلى لواء حركة اليقظة ، على نحو أو آخر وإن لم يكن هذا التحول محققا لتفهمهم الحقيقى لمفاهيم اليقظة واعتناقهم لها ، ولكنهم على أى حال وقفوا موقف النبذ والتنكر لتيارهم القديم معادين إياه كاشفين ما تورطوا فيه من خطأ ، مدفوعين إلى المظلة الإسلامية الواقية ، وقد شمل هذا الانتقاض عدداً كبيراً من الكتاب والمفكرين فى مقدمتهم إسماعيل مظهر ، وزكى مبارك ومنصور فهمى وكان على رأس حركة الانتقاض الدكتور هيكل رأس مدرسة والتغريب منذ ١٩٢٢ إلى ١٩٣٠ الذى كان أول من كشف عن مخططات التغريب فى مقال خطير نشره فى « السياسة » نفسها التى حملت دعوة التغريب فى ١٩ يونيه ١٩٣٣ تحت عنوان :

« تغريب الشرق » : وهل تعتبر حركة التبشير بعضاً منه — قال :

تحدث مستر جب فى مقدمة كتاب (وجهة الإسلام) عن تغريب الشرق وما عنى به هو إبدال الشرق فى نظمه وقوانينه وطرائق العيش فيه نظما وقوانين غربية وطريقة عيش غربية بحتة وقال : إذا كان هذا التبشير يقصد به إلى تغريب الشرق ليصبح غربيا عوائد ونظما وعقائد ودينا (١) فتغريب الشرق إنما يقصد به إلى قطع صلة الشرق بماضيه جهد المستطاع فى كل ناحية من النواحى : صلة الفكر والعقيدة بين الماضى والحاضر (٢) صبغ ماضى الشرق بلون قاتم مظلم يرغب عنه أهله

يرون فيه عاراً عليهم (٣) يكون أهل الشرق عيالا على الغرب يتطلعون إليه فى إعجاب وتقديس وعبادة ويرون فى خضوعهم له شرفا كبيراً .

وقد بذلت الهمم الكبيرة فى هذا المجال وما تزال تبذل .

وقال : أحسب كتاب الغرب قد نجحوا إلى حد كبير فى تصوير تاريخ أمم الشرق بلون قاتم جعل أبناء الشرق أنفسهم يحسبون أن بينهم وبين أيام مجدهم ألوفا من السنين انقضت كانوا أثناءها خاضعين لألوان من الذلة لا يستطيعون اليوم معها أن يشعروا شعوراً صحيحا بمعنى الحرية أو بمعنى العزة القومية .

هذا التصوير زائف فى نظر التاريخ المنصف .

وآثار الدكتور هيكل إلى عمل التغريب فى « تزييف تاريخ الشرق » لقطع صلة حاضرنا بماضينا فى التاريخ وفى العلم وفى التفكير ، وقال إنه أمكن هتك زيف الصورة التى وضعها ساسة الغرب لتاريخ الشرق لتدخل فى روع الشرقيين أنهم كانوا طوال القرون أذلة محكومين فلا مفر لهم من أن يبقوا اليوم وغداً .

وقال إن عمل التغريب الآخر هو « تزييف العقيدة الإسلامية » وقد وكل إلى المبشرين أن يقوموا بهذه المهمة الخطيرة ، وأن يحملوا المسلمين على الاعتقاد بأنها سبب تأخرهم وعدم بلوغهم مبلغ الغرب فى حضارته ، وقال : إنه عندما تم الصلح بين الحكومة الإيطالية وبين الفاتيكان وأبرمت معاهدة (لتران) وردت إلى الفاتيكان الأموال التى كانت الحكومة الإيطالية قد حجزتها منذ ١٨٧٠ كان أول ما عمله الفاتيكان أن رصد عدة ملايين للتبشير فى الشرق الأدنى ، وأشار إلى فرنسا التى تحارب رجال الدين فى بلادها أشد الحرب ، وتؤازر المبشرين فى الشرق وتمدهم بالمال وترعاهم بالحماية ، وقال إن التبشير بعض هذا التغريب للقضاء على الشرق ليظل خاضعاً للسياسة الاستعمارية .

وأعاد إلى الأذهان ما حدث فى مؤتمر المبشرين ١٩٢٧ الذى عقد فى جبل الزيتون من أعمال فلسطين ، هذا المؤتمر الذى حضره مندوبون من

أربعين دولة من الدول الغربية ، وأشيع أنهم يعدون حملة صليبية إلى جنوب بلاد العرب ، وفى هذا المؤتمر أعلن « زويمر » كبير المبشرين خطته الخطيرة التى تصور مدى تحول التبشير إلى التغريب قال :

إن التبشير قد وصل إلى أسمى غاياته فى مهاجمة الإسلام ، أدى المهمة على أكمل وجه وانتهى إلى نتائج لم يكن أحد يحلم بها منذ الحروب الصليبية ، ليس غرض التبشير المسيحى وسياسته إزاء الإسلام ، هو إخراج المسلمين من دينهم ليكونوا مسيحيين ، إن المسلم لا يمكن أن يكون مسيحيا مطلقا ، والتجارب دلتنا ودلت رجال السياسة المسيحيين على استحالة ذلك ، ولكن الغاية التى نرمى إليها هى إخراج المسلم من الإسلام فقط ليكون ملحداً أو مفتونا فى دينه ، وعندهم لا يكون مسلما أى يكون المسلم ليس له من الإسلام إلا إسم أحمد ، والملحد هو أول ما يحتقر الإسلام والمسلمين ، وهذه هى أسمى مراتب الانتقام من الإسلام وأعظم الغايات الاستعمارية .

وقال زويمر : « لقد قضينا على برامج التعليم فى الأفكار الإسلامية منذ خمسين عاما فأخرجنا منها القرآن وتاريخ الإسلام ، ومن ثم أخرجنا الشباب المسلمين من الوسائط التى تخلق فيهم العقيدة الوطنية والإخلاص والرجولة والدفاع عن الحق ، والواقع أن القضاء على الإسلام فى مدارس المسلمين هو أكبر واسطة للتبشير وقد جئنا بأعظم الثمرات المرجوة منه » .

وأشار الدكتور هيكل إلى أن هذا هو منطلق التغريب : وهو الخطر الذى يواجه الأمة العربية والعالم الإسلامى ، على صفحات جريدة « السياسة » التى حملت لواء التغريب نفسه عشر سنوات كاملة صال خلالها طه حسين ومحمود عزمى وعلى عبد الرازق وجالوا .

ويصور الدكتور هيكل تحوله من معسكر التغريب وهو أحد الذين ربوا فيه على يد خاله (لطفى السيد) فى « الجريدة » منذ عام ١٩٠٧ ، فيقول :

لقد خيل إلىّ زمنا كما يزال يخيل إلى أصحابى (يقصد طه حسين ومحمود عزمى) أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا إلى النهوض ،

وما أزال أشارك أصحابى فى أننا ما نزال فى حاجة إلى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله ، ولكنى أصبحت أخالفهم فى أمر الحياة الروحية وأرى أن ما فى الغرب فيها غير صالح لأن ننقله ، فتاريخنا الروحى غير تاريخ الغرب ، وثقافتنا الروحية غير ثقافته ، خضع الغرب للتفكير الكنسى على ما أقرته (البابوية) المسيحية منذ عهدها الأول ، وبقى الشرق بريئاً من الخضوع لهذا التفكير ، بل حوربت المذاهب الإسلامية التى أرادت أن تقيم فى العالم الإسلامى نظاما كنسيا أشد الحرب ، فلم تقم لها فيه قائمة أبدا ، بذلك بقى الشرق مظهراً من الأسباب التى أدت إلى اضطراب الغرب الروحى ، وإلى ثوراته السياسية التى نشأت عن هذا الاضطراب وبقى المسيحيون المقيمون بالشرق إلى جوار المسلمين فى طمأنينة ، لا يصطلون من نيران الثورات والحروب الأهلية مثل إخوانهم فى الغرب ، كان الخروج على الكنيسة المسيحية فى الغرب إعلانا للثورة على السلطان ، وكانت الثقافة الروحية لذلك فى قبضة رجال الدين يبرمون من أمرها ما يشاءون إبرامه ، وينقضون مايشاءون نقضه ، أما والإسلام لا يعرف الكنيسة وأقرب الناس فيه إلى الله أتقاهم ، ولا فضل فيه لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، فقد بقيت الثقافة الروحية فى الشرق حرة طليقة لم تتقيد إلا حين قعد الجهل بالناس ففترت الأذهان وخمدت القرائح وجمدت القلوب . لم تعرف عصور الأزدهار الإسلامى قيداً لحرية الفكر ما كان برىء القصد يبتغى برأيه سبيل الحق ، ولم يعرف المسلمون أن الذنوب يغفرها غير الله . كيف نستطيع إذن أن ننقل ثقافة الغرب الروحية لينهض بهذا الشرق وبيننا وبين الغرب فى التاريخ وفى الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم ؟ !

لا مفر إذن أن نلتمس فى تاريخنا . وفى ثقافتنا وفى أعماق قلوبنا وفى أطواء ماضينا هذه الحياة الروحية نحيى منها ما فتر من أذهاننا وجمد من قرائحنا وجمد من قلوبنا . هذا كلام واضح بين ومن عجب أن يخفى على أصحابى فلا يرونه ، وأن يكون خفاؤه سبب تثريبهم على ، ولكن لا عجب ، فقد خفى على زمنا .

وقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتى ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لنتخذها جميعا هدى ونبراسا . لكننى أدركت بعد أننى أضع البذر فى

غير منبته ، فإذا الأرض تهضمه ، ثم لا يتمخض عنه ولا تبعث الحياة فيه ، وانقلبت ألتمس فى تاريخنا البعيد فى عهد الفراعين موئلا لوحى هذا العصر ، ينشىء فيه نشأة جديدة فإذا الزمان وإذا الركود العقلى قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذراً لنهضة جديدة ورؤأت فرأيت إن تاريخنا الإسلامى هو وحده البذر ينبت ويثمر ، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو[1] وقد بدأ التحول يسيطر على هيكل وينتزع منه إيمانه بالغرب ويثير فيه الشكوك منذ وقت بعيد :

يقول هيكل : « كنت عظيم الثقة بالعلم وبالطريقة العلمية الغربية فيما ستؤدى إليه من معرفة حقيقة الكون التى هى ملاك السعادة ، ثم تمخضت الحرب عن حقيقة بلغت قوتها عند سنة ١٩٢٠ وهى فقدان الثقة بالغرب وأدركت أنه يعانى من أزمة روحية يلتمس علاجها فى فلسفة الهند ، وإلى جانب هذه الحقيقة لاحظت فى اتجاه السياسة الأوربية ظاهرة غريبة تلك هى نشاط التبشير المسيحى فى الأمة الإسلامية وتأييد السياسة الغربية فى ذلك الوقت لأنصار الجمود الإسلامى » .

إن هيكل يرى أن الشباب الذى ذهب إلى أوربا واقتنع بالأمانة له قد استطاعت الحقائق أن تكشف أمامه الأفق وتنير أعماق نفسه فيؤمن بما كانت تراه حركة اليقظة من حقيقة هدف الاستعمار والتغريب : يقول : إن الشباب المصرى الذين كانوا رسل الحضارة الغربية إيمانا منهم بأنها سبيل نهضتهم قد تفتحت أعينهم على كيد الغرب لديهم وإن غضبو لإسلامهم الذى تريد الدول المسيحية أن تمحوه ، وجعل كل منهم يفكر فى وسيلة للخلاص من الغرب ، فاتجه فريق منهم إلى الرابطة الشرقية ، واتجه آخرون إلى الجامعة العربية ، وفكر ثالث فى إحياء الخلافة الإسلامية ، ورأى فريق رابع أن يحارب الاستعمار الغربى بأسلحته فتمسك بمبدأ القومية .

هذا بالنسبة للدكتور هيكل ، أما الدكتور زكى مبارك فقد تكشف له الأفق وهو مازال فى باريس ، وقبل أن يحرز إجازة الدكتوراه من جامعةالسربون وفى مقال له أرسله من فرنسا إلى جريدة « المساء » فى القاهرة يقول[2] .

---

(١) مقدمة كتاب (فى منزل الوحى) .

(٢) المساء ٢٧ فبراير ١٩٣١ .

« إن الفرنسيين يريدون أن يختصروا الطريق ، هم يريدون أن يستريحوا من اللغة العربية ومن الإسلام ، وسبيلهم إلى ذلك أن يقنعوا بعض الانذال من أهل الشرق بأن اللغة العربية أصبحت فى عداد اللغات الميتة ، وأن الإسلام لا يصح أن يكون أساساً لمدنية جديدة ، وأنه لا يليق بالرجل العصرى أن يكون متدينا ، لأن الديانات لم تكن إلا لهداية الرعاع ، ويقول : « ومن المحزن أن الدعايات يقوم بها أناس كنا نظنهم من أهل المروءة والشرف ، فإنى أفهم أن يكون الرجل من طلاب الملك والفتح والسيطرة ، ولكنى لا أفهم كيف يتفق لرجل أمضى خمسين عاما فى التعرف إلى اللغة العربية والإسلام أن يزعم أن العرب لا تستطيع وعى العلوم الحديثة ولا يمكن أن تنشر بها العلوم الحديثة ، وهم يقولون ذلك حرصا على منفعة أتباعهم فى المستعمرات الفرنسية فيما يزعمون ، ولكن الغرض المستور هو القضاء على التقاليد العربية والإسلامية ليخلو الجو للغة المستعمرين الأبرار وأنصار العلم والإنسانية » .

يقول فيلكس فارس ربيب الثقافة الفرنسية :

إن لهذه الشعوب المنتشرة فى الشرق العربى فطرة واحدة كونتها القيم والتقاليد والبيان ، فهى تنشد مثلا عليا للحياة تتوافق وحوافزها المستقرة فى أساليب تفكيرها ، لذلك كان لزاما على هذه الشعوب أن تتجه إلى جامعة واحدة ، إن عظماء المصلحين قد قضوا على سخافات الجاهلية وعادات الفرس ولكن ضلالات روما وتقاليد الغرب الحديثة التى يبكى لها عقلاء الغرب ومصلحوه لم تزل تهاجم الفئة المخدوعة بنظم الاجتماع ناسية أو متناسية غرائزها الشرقية وما فى كتابها من روائع الطهر وآيات العفاف ، فالثقافة الشرقية العربية هى العقل الباطن لأمم هذا الشرق العربى وهى اللوح الذى سطرت عليه مبادئه .

وإسماعيل مظهر صاحب مجلة « العصور » التى حملت لواء التغريب سنوات طويلة يقول تحت عنوان « مجد العرب والإسلام »[1] .

كنا منائر الأرض وحماة الحضارة والثقافة ، والمعرفة ، ثم نمنا واستيقظ الزمان ورحنا فى سبات وعجلة الدهر من حولنا تدور .

---

(١) الرسالة ٢١ و ٢٨ مارس ١٩٣٨ .

وقال إن (درابر) أعطاه شحنة فى كتابة (نماء أوربا العقلى) فكشف له فضل العرب والإسلام وقال : لما ثبتت قبضة العرب فى بلاد الأندلس بادروا إلى العمل على نشر العلم والحضارة وقد نقلوا معهم إلى الغرب كل المبادىء التى قامت عليها حضارتهم فى آسيا .

ويقول الدكتور محمود عزمى[1] أكبر دعاة الفرعونية فى مصر : لما وضعت الحرب (العالمية الأولى) أوزارها وجاء وقت التفكر فى سن قانون خاص للجنسية المصرية ، كنت أنا من أشد المتمسكين بفكرة الفرعونية (المقدسة) عرضت للموضوع فى مقالات عدة ناديت فيها بضرورة إغلاق باب التجنس إغلاقا محكما فى وجه العثمانيين القدماء ، وكنت أذهب فى ذلك الصدد إلى حد المطالبة بتنفيذ شرط التوطن فى مصر خمس عشرة سنة قبل التاريخ الذى دخلت فيه الدولة العثمانية الحرب العالمية أى أنه يجب على السورى الذى يريد أن يتجنس الآن بالجنسية المصرية أن يكون قد مضى فى مصر مقيما مستوطنا تسعاً وعشرين سنة ، وقد حدث بعد ذلك أن وقعت واقعة حرب الشام فكان أن أوفدت إلى دمشق مندوبا من قبل جريدة « السياسة » ، هناك عرفت شعبا لا ينطبق عليه شىء مما كان يذاع فى مصر عن السوريين ، وعرفت عواطف ومواقف لا تتفق مع الصورة التى كانوا يصورون لنا السوريين عليها ، رأيت شعبا كريما ، وأفراداً خفيفى الروح والظل ، كما رأيت افتخاراً بأصل لا يريدون تقطيع أوصاله ووطنية مندفعة إلى التضحية ، ورأيت أناسا يذكرون مصر ويعرفون المصريين سفراءهم وخطباءهم وكتابهم ، كما يعرفون زعماءهم وسياسييهم وعلماءهم واجتماعييهم ويحفظون لكل واحد غير قليل مما أنتج ، بل يعرفون دقائق نكاتهم وعباراتهم التى تلزمهم عادة ، ورأيت كتلة تعنى بأمور مصر عنايتها بأمورها القومية الخاصة .

إذن عرفت أن سوريا وشعبها غير ما أرادت بعض المصادر أن يعرفها

---

(١) الشورى = ١٩٢٨/١٢/١٢ .

المصريون به ، ولمست الفارق الواسع بين تلك العقائد التى تقوم على الأوهام وتلك الآراء التى تقوم على الواقع ، وعدت إلى مصر واستأنفت عملى ورجعت إلى موضوع الجنسية المصرية فعالجته على عكس ما كنت أعالجه قبل أن أذهب إلى دمشق ، وكان الفضل فى ذلك كله لجريدة « الشورى » التى نعتبرها بحق أول صحيفة أنشأها فى مصر شامى أبى أن تتدخل فى الشئون المصرية إلا من حيث علاقتها بفكرة الربط العام بين البلاد التى تتكلم العربية[1] وكان لجريدة « الشورى » موقف خالد فى حفل تكريم شوقى ، إذ كانت هى واسطة الارتباط بين المؤتمر العربى الذى أقيم فى القاهرة وبين عرب الهند وأهل اليمن وخليج فارس وفلسطين ويرتد من هذا القدر إجلالا ما يذكرون من أن دول الفتح والاستعمار قد تضافرت على منع « الشورى » من دخول تلك البلاد التى وجدت للربط بينها فجاء زمن كانت تصادر فيه من المحيط الأطلسى إلى الخليج الفارسى ومن الآستانة إلى المحيط الهندى ..

وقد كان من نتيجة هذا التحول أن عرض محمود عزمى للوحدة العربية ودرس وسائل الترابط العربى فى « المجالات » الاقتصادية والسياسية .

ولم يلبث أن عرض لرأيه فى الرابطة التى تقوم بين الشعوب : أهى شرقية أم إسلامية أم عربية[2]فقال : إن الرابطة الشرقية لا يمكن تحديدها علمياً ولا أن يعرفها بالتالى تعريفا اجتماعيا ، فليس هناك خط معين يحدد الفواصل بين الشرق والغرب .

وبالنسبة للرابطة الإسلامية يقول :

إن الرابطة الإسلامية تستند على حادث اجتماعى ثابت وإلى فلسفة عمرانية مقررة وإلى منشئات قائمة تنطق بأن النظرية قد تغلغلت فى النفوس تغلغلا ، وأنها ربطت بالفعل بين أمم وشعوب ربطاً وأنها وحدت بينها توحيدا ، وظل الإسلام زمنا طويلا رمزاً لروح خاصة وعقلية خاصة

---

(١) صاحب الشورى هو الأستاذ محمد على الطاهر الذى يعد من أسبق الكتاب العرب تصدياً للقضية الفلسطينية .

(٢) الهلال — م ٤٢ سنة ١٩٣٣ .

وحضارة خاصة ، وأن تكون رابطته رابطة متينة قوية لا تقوى عليها إلا رابطة تستند إلى اعتبار أشد يدفعه تيار جارف .

ويقول : كانت العوامل الدينية فى بلادنا إلى سنوات معدودة هى أشد العوامل فعلا فى التكيف الإجتماعى والمصير العمرانى ، غير أن الاعتبارات الحديثة والنهوض القومى كان من شأنها أن ترجع بالإحساس الدينى إلى الصف الثانى تتكيف به علاقة الإنسان بربه (ولا شك أن هذه مغالطة فليس الإسلام دينا (لاهوتياً) كما يتصور التغريبيون وإنما هو منهج حياة ونظام مجتمع) .

ويقول إنه لابد من التمييز بين العقيدة الدينية والفلسفة الدينية أى بين الإسلام والإسلامية ، ذلك أن الإسلام عقيدة إنما هوغير اختصاص العاملين للنهضات القومية (سياسية واقتصادية واجتماعية) أما الإسلامية وهى ناحية للنظام الاجتماعى والاقتصادى والسياسى فى الإسلام فإنما هى (مبدأ) يخضع له جميع العاملين فى الميادين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى بلادنا مهما كانت عقيدتهم عقيدة المسلمين أو المسيحيين أو اليهود أو الملحدين ، ذلك لأن بلادنا قد غمرتها (الإسلامية) بالمعنى الذى نفهمه ، ذلك بأن أى مصلح أو راغب فى سبيل الإصلاح يجب عليه أن يعتبر الأمر الواقع وأن يعتبر التطور التاريخى ، وأن يستند فى حركة إصلاحه إلى اعتبار هذا التطور التاريخى ، ولكن الداعين إلى الإسلامية ورابطتها لا يفهمونها على هذا النحو الذى نفهمه ، وإنما يفهمونها على النحو الشامل الجامع بين العقيدة والنظام الاجتماعى ، وهم يرونها رابطة بين المسلمين لا رابطة بين الإسلاميين الذين يضمون فى نظرى المسلمين واليهود والمسيحيين والملحدين ، فى البلاد التى انتشرت فيها تعاليم الإسلام وأصول حكمه وقواعد أنظمته الاقتصادية والاجتماعية .

ثم خلص من ذلك إلى أن « العربية » هى أمتن الروابط التى تقوم بها مساعيها فى سبيل التكيف الجديد المتمشى مع حوادث العصر الحديث ، وعنده أنه بهذه الكتلة المتصلة بين المحيط الأطلنطى إلى الخليج الفارسى تقوم ثقافة اللغة العربية ، حيث الحضارة الغالبة هى الحضارة الإسلامية يأخذونها

فى الحياة اليومية وفى السلوك الاجتماعى » وهكذا نرى أن أقطاب التغريب قد تحولوا عن موقفهم ، ولم يعودوا دعاة الحضارة الغربية والفكر الغربى ، وأنهم اقتربوا كثيراً من الدائرة المرنة « دائرة اليقظة » ، وكسروا هذا القيد ، وحطموا هذه الموجة العاتية ، ومع كل هذا التقدم الذى لاحظناه فإنه يجب النظر إلى تطورهم بشىء كبير من التحفظ ، من ناحية واحدة ، تلك هى أنهم لم يؤمنوا إيمانا كاملا بمفهوم الإسلام والثقافة العربية على النحو المتكامل الأصيل الذى يمثل « جوهر الإسلام » .

وربما كان لهذا التحول عوامل سياسية ، من وحى النفوذ الغربى الذى كان يحاول ضرب الحركات الماركسية والرأسمالية بالدعوة الإسلامية وهو ما ظهر بوضوح فى المرحلة التى تلت الحرب العالمية الثانية ، وربما كان هذا التحول تحقيقاً لما يسميه التغريب « البديل » اللامع المثير الذى يحمل نفس الصورة ، والذى يحاول السيطرة بدلا من (الأصيل) أى أن تتحول حركة التغريب إلى السيطرة على مظاهر حركة اليقظة ، وذلك حتى تحتويها وتفسد مخططها ، وذلك ما كشفت عنه الأحداث فى أواخر هذه المرحلة عندما ثارت ثائرة مجلس الشيوخ على طه حسين ودافع عنه العقاد وعلى عبد الرازق ، أو عندما ولى الدكتور هيكل وزارة المعارف فسار بها على النحو الذى فرضه النفوذ الاستعمارى ولم يستطع أن يحقق شيئاً مما انتقده هو أو عارضه خلال اشتغاله بالصحافة .

* * *

(٣)

النتائج التى حققها انكسار الموجة

أولا : فى مجال الثقافة

الدعوة إلى ثقافة عربية إسلامية

كان أبرز ما حققته حركة اليقظة فى مرحلة انكسار الموجة : الدعوة إلى اتخاذ ثقافة عربية إسلامية[1] وهى دعوة حمل لواءها عدد من المثقفين الأصلاء الذين تعلموا فى أوربا أمثال منصور فهمى ، لطفى جمعة ، قدرى حافظ طوقان وقد صور هذا المنهج الدكتور منصور فهمى فقال : أدعوا إلى نبذ الثقافة الأوربية والرجوع بعقلنا المفكر وقلبنا الشاعر إلى أنفسنا وتاريخنا نستمد منه أصول ثقافتنا الأولية لمادة إنتاجنا ، وقال إنه كانت هناك دعوة للتحرر من الجمود فى الدين وعدم الوقوف عند النصوص الجامدة وإتاحة المجال للعقول ، ودعوة للتجديد فى الأدب : تجديد المقاييس والأساليب ولكننا بعد سنوات اليوم نريد أن نراجع موقفنا لكى نخرج بنتيجة دقيقة .

كانت دعوتنا إلى التجديد فى الدين ، وقد وصلنا اليوم إلى ترك الدين ، ودعونا إلى السفور وقد وصلنا اليوم إلى الإباحية ، والسر فيما نحن فيه من تناقض وابتعاد عن المنهج هو الإسراف المتغالى دون احتياط فى عبادة أوربا وكل ما تصدره لنا من أزياء الفكر ، لقد نسينا أمامها أنفسنا وبعدنا معها عن غايتنا وفقدنا الهدف الذى نسير إليه ، وأصبح مثلنا مثل الغراب الذى أراد أن يقلد الطاووس فلم يفلح ونسى مشيته الأولى .

---

(١) يوليو ١٩٣٧ — مجلة الرابطة العربية .

وقال إن الدعوة إلى إيجاد ثقافة عربية إسلامية هى الدعوة للنظر فى أنفسنا ، النظر فى حاضرنا وماضينا والأخذ بهما والثناء عليهما ، وقد أنجبت البيئة الشرقية كل ديانات العالم وأعظم فلسفاته و لم تتوقف عن الأخذ من الحضارات فى أرق صورها .

وقال : نحن نمتاز على أوربا بشىء جديد لن تستطيعه أوربا وهو فى طوقنا هو العناية بالروح ، بهذه الأسرار التى تكمن فيها .

وقال : أدعو إلى ثقافة شرقية عربية إسلامية فلا تكون عالة على الغرب ولا تقلده تقليداً أعمى .

وقال لطفى جمعة : أنتقد الشبان الذين يسافرون إلى أوربا لطلب العلم فإذا عادوا أضاعوا شخصياتهم ، ويلوح أن السبب فى ذلك هو التعلق بالقشور دون اللباب وعدم أخذهم من العلم بنصيب وافر ، أما أمر الغربيين فعلى العكس فإذا قدم واحد منهم إلى الشرق وقضت عليه الظروف أن يقيم مدة طويلة فى ربوعه يندمج فى أهله فلا يتردد ، ومنهم من يدخل الإسلام ويتعلم لغة القرآن على أنه متى عاد لبلاده الأصلية نزع ذلك الثوب الذى كان يلبسه فى ديار القرية وعاد إلى ما كان عليه من قبل .

ويتفرع عن هذه القاعدة إهمالنا لتاريخنا ورجالنا وأبطالنا ، فإنك تجد الاحتلال الأجنبى بمصر قد أقام لكل جندى ، وضابط قتل من رجاله قبرا فخما من المرمر ، أما العشرون ألفا الذين سقطوا فى التل الكبير فليس هناك من يذكرهم أو ما يدل عليهم حتى ولا خشبة ، إنى أدعو إلى إحياء التاريخ القومى وتنظيم برامج التعليم على أساس جديد . وقال يجب وضع ثقافة عربية مستقلة جامعة بين الماضى والحاضر أ.هـ .

ومن آثار انكسار الموجة أن استيقظت الدعوة فى مجال التذكير بفضل العرب على الحضارة الغربية بعد أن كان هذا الأمر منكورا مهملا ضائعا :

فقد تحدث قدرى حافظ طوقان عن بعث الثقافة العربية من ناحية أخرى : هو فضل العرب على المدنية واختراعاتها : وقال إن مجد المستقبل لا يمكن أن يتركز إلا على حضارة الماضى[1] « لقد عرف الإفرنج قبل غيرهم أن

---

(١) سوبر ١٩٣٥ السياسة اليومية .

إحياء تراث الأمة عامل مهم فى نجاح الحركات القومية والوطنية وإن تعريف الناشئة بجهود علمائهم الفكرية لمما يخلق فيهم روح الإيمان بالقابلية والاعتقاد بالعبقرية والشعور بالعزة والقوة .

ويقول : من أغرب ما يشاهد اليوم أن نجد كثيرين ينكرون على العرب مآثرهم فى مختلف العلوم والفنون ، وقد يزيد استغرابكم إذا علمتم أن هذا الإنكار سائد ومسيطر على المثقفين وأصحاب الشهادات العالية والألقاب العلمية وعلى الذين أتموا دراساتهم فى معاهد يقولون عنها إنها تتمتع بمراكز علمية ممتازة .

وليت الأمر يقف عند هذا الحد ، حد الإنكار بل يتعداه إلى استخفاف بكل ما هو شرق عامة وعربى خاصة ، وإلى التنقيص من مجهوداتهم وفضلهم على المدنية ، بينما نجد فى الغرب من قام يدافع عن هذه الحقيقة لأنها حقيقة ومن قام يظهر الحق لأنه حق ، اعترف بعض علماء الغرب بينما أنكر أبناء العرب الذين تعلموا فى أوربا فضل حضارتهم . ومن الغريب أن نجد اهتمامهم بهذا يفوق اهتمامنا بأنفسنا ومع كل ذلك ورغم البحوث التى قام بها علماء الفرنجة فى مآثرنا فلا تزال هناك نواح لم تعط حقها من البحث والاستقصاء . وأننا أولى من غيرنا بالاعتراف بفضل الحضارة العربية على العالم وأولى من غيرنا بالتمسك بها وإظهارها على حقيقتها . وقد رأى بعض ساسة الغرب أن « الغرب » إذا وقفوا على تراثهم القديم وما كان له من أثر فى ارتقاء البشرية فإن ذلك الوقوف مما يقوى فيهم معنوياتهم ومما يبعث فيها شعوراً يحفزهم نحو النهوض والمطالبة بالحق المغصوب وكل هذا يتنافى مع السياسة الاستعمارية فى الشرق ، ولذلك ولكى يجعلوا العرب فى عماية تامة عن تراثهم وتاريخهم راحوا يضعون البرامج لدى العلماء — ولا أقول كلهم — ليسيروا عليها فى أبحاثهم عن التراث العربى وأثره وقد شوهوا كثيراً من الحقائق وقلبوا البعض الآخر ، وأدخلوا الشكوك والريب فى كثير من الحوادث التى تمجد العرب ، وأخذوا كثيراً من النظريات العلمية والاختراعات العربية ونسبوها لعلمائهم ووصموا العقل العربى بالجمود وبكونه عالة على غيره ، إنهم يريدون من ذلك كلها أن يثنوا من عزائمنا ويدخلوا اليأس إلى قلوبنا من نجاحنا ، ومن المؤسف أن تتحقق

بعض غايات هؤلاء الساسة ، إذ كان لذلك كله الأثر الكبير فى عقلية طلابنا وكتابنا وأخذ الاعتقاد بعدم قابليتنا يتسرب إلى أذهان الكثيرين منا وأصبحنا هدامين لكياننا منكرين تراثنا مخربين لكياننا .

ورحنا مفتونين بالحضارة الغربية عاكفين عليها مهملين تاريخنا وحضارتنا وأصبحنا نعرف شكسبير ودانتى ونيوتن وباستور أكثر مما نعرف البيرونى وابن قرة وابن الهيثم والخوارزمى والمجريطى .

وقال : إنه ما من من أمة تستطيع احترام حاضرها وتحقق مثلها الأعلى إذا لم تكن على صلة بماضيها محترمة له واقفة على ما فيه من جلال وبهاء .

* * *

واتصل البحث عن بعث الحضارة الإسلامية فكتب الدكتور هيكل يقول :

كيف تبعث الحضارة الإسلامية :

إنما يكون ذلك عن طريق « جامعة إسلامية » على نظام الجامعات الحديثة تعنى بتراث الإسلام وبماضى الحضارة الإسلامية وما احتاطت به من علوم وفلسفة وأدب وفن جعلها تكاتف الحضارات التى قامت قبلها ، وتقف منها ما وقفت قبل ذلك حضارات مصر واليونان ثم تبقى حيويتها بين الظهور والانحلال حتى يتاح لها بعث جديد : هو الذى نحس اليوم بتباشير بزوغه ومطلعه .

فالعالم يشعر الآن بقلق مظاهر هذه الأزمات المستعصية التى ترى ، وهذه الحرب الضروس القائمة من رأس المال والبلشفية ، وهذه الحضارة الغربية الاستعمارية التى سخرت العلم للصناعة والترف المادى ، والتى سخرت من حاجات الروح وطرحت وراءها كل شىء خلا المادة .

وقال : ستبقى المشكلة قائمة حول هذا الفراغ الروحى الذى تركته الحضارة الغربية وراءها والذى شعر الناس به بصورة مخيفة بعد الحرب (يقصد الحرب العالمية الأولى) بنوع خاص ، هذا الفراغ هو فى رأينا نذير للحضارة الغربية لا يقل خطراً عن هذه الأزمات الاقتصادية التى تهدد أوربا .

وحضارتها الاستعمارية من الناحية المادية ، فلا مفر من أن تقوم أمة جديدة بإعلاء شأن حضارة يمكن أن يطمئن العالم لها وينهل من روائها ويجد فيها من سيادة النفس مالا تقدمه الحضارة الغربية المادية اليوم وأكبر اعتقادنا أن الحضارة الإسلامية ستقوم من ذلك بقسط عظيم ، لكن هذه الحضارة الإسلامية لا سبيل إلى قيامها بهذا العمل العظيم وحال الأمم الإسلامية حالها اليوم ، وما هى عليه من تقهقر وإدراك الروح الإسلامى على ما هو عليه من اضطراب وتبلبل ، إنما يزول الضعف ويقضى على الاضطراب وتعود الحضارة الإسلامية قديرة على معاونة العالم فى الخروج من الهاوية التى ينحدر إليها بإحياء الثقافة الإسلامية فى صورة علمية جامعة صحيحة ولا يحسب أحد أن هذه الصورة العلمية بنت الغرب وحضارته الحديثة ، بل لقد كانت كذلك أساس علم الحضارة الإسلامية إبان ازدهار الحضارة وفى اعتقادنا أن هذا البعث سيعيد إلى العالم حيوية روحه وعقله فينقذه من الكوارث التى تهدده اليوم ، لسنا نقول هذا كمسلمين فقط ، ولسنا نقوله لمؤمنين بأن حضارة الاستعمار هى التى جرت على العالم شر النكبات وكفى ، بل إنا ليشاركنا فيه طائفة من كبار العلماء الغربيين أنفسهم .

فقد لخص الأستاذ ماسينيون المستشرق الفرنسى أدب الإسلام الاجتماعى فى قوله : يمتاز الإسلام بأنه يمثل فكرة مساواة صحيحة بمساهمة كل فرد من الأفراد بالعشر من موارد الجماعة كما تقر مبادىء الإسلام التبادل غير المقيد ، وتنادى بالعداوة للأموال المصرفية (الربا) والقروض الحكومية والضرائب غير المباشرة على ضرورات الحياة فى حين يتمسك الإسلام أشد التمسك بحقوق الوالد والزوج والملكية ورءوس الأموال التجارية وهو بذلك يقف موقفاً وسطا بين البرجوازية والرأسمالية والشيوعية البلشفية .

أين تدرك النظم الإسلامية التى يشير الأستاذ ماسينيون إليها على أنها مبادىء اقتصادية تقوم فى وحدة ذات كيان وتصف الناحية الاقتصادية بحضارة استكملت أدوار الحضارة لا على أنها أوامر دينية .

وليس الجانب الاقتصادى وحده هو الجدير بالدراسة الجامعة الصحيحة بل جدير بهذه الدراسة مثله كذلك الجانب الخلقى والجانب الروحى للدين

الإسلامى » والحضارة الإسلامية جديرة بأن تكون لها آداب يطلع عليها الجمهور مستمدة من البحوث العلمية .

* * *

ويدخل الميدان عبد الرحمن شكرى لأول مرة يتحدث عن « مجد العرب والإسلام » فيشير إلى أن أستاذه الإنجليزى قال له عام ١٩٠٩ : إن التاريخ يدل على أن مظاهر الرحمة فى الحضارات والدول الأوروبية قديما وحديثا كانت أعظم من مظاهر الرحمة فى الحضارات والدول الشرقية .

ويتصدى له عبد الرحمن شكرى فيدافع عن حضارة الإسلام ويذكر كيف أن على بن أبى طالب عندما أصابه عبد الرحمن بن ملجم أوصى قبل موته ألا يمثل بقاتله وذكر التمثيل الشنيع الذى كان من حظ من يحاول قتل أمير أو ملك من ملوك أوروبا ، وذكر قصص عدل عمر وحلم معاوية وقصة المرأة التى لم تجد قوت عيالها وكيف حمل إليها عمر المئونة ، قال « وذكرت تقرب أوروبا إلى آلهتها بالضحايا البشرية فى عصر من أزهى عصورهم وذكرت الرومان وما جره إزدراؤهم للحياة البشرية من الفظائع ، وجرائم عصر إحياء العلوم فى أوروبا ومحاكم التفتيش وتمثيلها بضحاياه وفظائع أسرتى تيودور وسيتوارت ، وما كان يرتكب فى الحروب الدينية فى أوروبا من قسوة لا حد لها ، وأسبانيا وما صنعته فى العرب واليهود وما ارتكبته فى ممتلكاتها الأمريكية مع الهنود الحمر ، ودافع عن العرب وعارض رأى الأوروبيين الذى يقول إن العرب بدو والرحمة فى كثير من الأحيان لا تصل إلى قلوب البدو بطبيعة أرضهم الجرداء القاسية وصعوبة نيل الرزق ، وذكر فضل العرب وما نقلوه إلى أوروبا من المصنوعات والمنسوجات وماأعطوه من مخترعات مثل الاسطرلاب وبيت الأبره والعدسة ، وفضلهم فى التشريح والطب والفلك والعلوم الرياضية والهندسة والكيماويات .

واستيقظ ضمير (اسماعيل مظهر) بعد أن حارب التراث الإسلامى والثقافة العربية سنوات طويلة على صفحات مجلة « العصور » :

ووقف أحمد أمين عام ١٩٣٦ يكشف على صفحات مجلة « الرسالة »

صلابة الجبهة الداخلية وقوة حركة اليقظة إزاء الهجمات التى قام بها أصدقاؤه وزملاؤه على الفكر الإسلامى والثقافة العربية تحت اسم حرية الفكر فأظهروا آراءهم (وهى فى الحق لم تكن آراءهم الخالصة ولكنها آراء سادتهم المستشرقين) ولم يبالوا الرأى العام سواء فى بحوثهم ونقدهم فألفوا كتباً عبروا فيها عن آرائهم فى جلاء ووضوح (يقصد طه حسين فى الشعر الجاهلى وعلى عبد الرازق فى الإسلام وأصول الحكم) وإن لم تكن على هوى الجمهور فكان صراع بين القديم والحديث ، ولكن هذا الصراع انتهى بهزيمة هذه الطليعة من المفكرين وتعرضوا للخطر فى أرزاقهم ونالوا من العسف والعبث ما ليس فى طاقتهم ثم يقول « وشعر القائمون بهذه الحركة أنهم أصيبوا فى سمعتهم وفى مناصبهم وفى مالهم ثم رأوا أن أتباعهم تخلوا عنهم فى أوقات الضيق وكان الرأى العام قوياً مسلحاً فتغلب وانتقم وأصبحت له السلطة التامة فانهزم أمامه فريق المفكرين الصرحاء هزيمة منكرة فاضطروا إلى التسليم بل وفى بعض الأحيان رجع (هذا الفريق) عن آرائه إلى آرائهم وعن منهجه إلى منهجهم ، وتعود المجاراة بدل المقاومة والمداراة مكان الصراحة » وكلام أحمد أمين يكشف الحقيقة ولكنه يصفها من وجهة نظر دعاة التغريب ، فلولا أن هذه الآراء خطيرة وليست صالحة للتقبل من العقل العربى والثقافة العربية ، لولا أنها وجدت معارضة ورفضاً ، ولو كانت تطوراً طبيعياً وتجديداً صادقاً أصيلا مستمداً من مقومات هذه الأمة أو كانت إضافات جادة فى سبيل النهضة لوجدت قبولا صادقا ، ولكنها كانت دخيلة متعارضة مع إيمان الأمة ومقوماتها وقيمها ومسار يقظتها ونهضتها ولذلك فإنها انطفأت كالشهب بعد قليل ، واضطر هؤلاء الكتاب أن يعدلوا مسارهم فمنهم من انضم إلى حركة اليقظة صراحة كمنصور فهمى وهيكل والعقاد ومنهم من حارب الرأى العام وبقى على دوافعه وأهدافه ينتهز الفرص ليعلنها فإذا وجد معارضة تراجع ، وإذا وجد أمنا تقدم مرة ومرة .

*   *   *

ولقد صدق اتجاه اليقظة وعمق انكسار الموجة حتى أن ناصحاً منصفاً

مثل الدكتور عبد الكريم جرمانوس كتب عام ١٩٣٣ فى « السياسة الأسبوعية » يقول :

أنا متيقن جداً أن رقى أوروبا وتأخر الشرق فى آثار الحضارة وغناه لم يحصل من تفوق أديان الغرب على أديان الشرق ، وقد ادعى بعض الغربيين المتطرفين فى بغضهم لحضارتهم أن دين الإسلام خال من النجاح مع أن دراسته وإن تكن سطحية فى الدين الإسلامى وتاريخه لتدحض هذا الرأى كلياً .

- ٢ -

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى حرص قادة اليقظة على تحليل مفهوم الثقافة وتحريره فى سبيل تحقيق النهضة وذلك بالتركيز على الثقافة العربية .

يقول عبد الرحمن عزام تحت عنوان وحدة الثقافة الإسلامية[1] .

المسلم إطلاقا وفى جميع الأوساط والبيئات يمثل الثقافة الإسلامية وإن اختلفت الجنسيات والأوطان ، فالفارابى وابن خلدون يمثلان شيئاً واحداً هو الثقافة العربية الموحدة .

ويقول : يدخل فى نطاق الثقافة العربية شىء أشد تماسكا وأعظم مرمى مما نسمعه عن الثقافة الإسلامية المتحدة ، ذلك هو الثقافة العربية المتحدة ، وإذا كانت حضارتنا الراهنة تعرض العربية بشىء من الذبول ، فهذه الثقافة نفسها هى التى ستنهض بالعربية ، ذلك لأن حضارة الغرب تفريق وتمزيق حصرت البشر ومزقتهم فى صراع مستمر ، فقد غالى الغربيون فى فكرة الوطنية ، وجئنا نطالب بهذه الوطنية ونخشى أن تفعل فينا ما فعلت فى الغرب ، ولكن الثقافة العربية لابد أن تنتصر إذا عمدنا إلى إيقاظ الأمة العربية باحياء سننها ونظل دائبين على هذه السنن ، وسيأتى العرب ويجتمعون

---

(١) ١ / ٢ / ١٩٣٣ مجلة الفتح .

تحت لواء مبدئهم فى المساواة والإخاء وسنكون أبطالا كما كانوا .

« الناس سواسية لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

لقد شاخت أمم الغرب ، وعجزت عن الدعوة الإنسانية الشريفة ولابد للبشر فى عصرنا الحاضر ممن يحملون رسالة الإنسانية إليهم .

ويعمق عجاج نويهض مفهوم الثقافة العربية فيقول[1] إن الثقافة العربية لا تستغنى عن الإسلام ، إن حياة الإسلام ومستقبله مربوطان بأصول الثقافة العربية .

وقد كانت الثقافة العربية هى الشغل الشاغل لقادة اليقظة فى مختلف المراحل ، وفى المؤتمر االإسلامى العام الذى عقد فى القدس فى ديسمبر ١٩٣١ كانت موضع الاهتمام بحسبانها مصدراً من مصادر القوة والمقاومة .

فدعا محمد على علوبة إلى عمل المعجم والقاموس والموسوعة العربية :

وقال : هذا المعجم الذى نريده هو أكبر خدمة تسدى إلى اللغة العربية وتحفظ مكانتها بين لغات العالم وأمم العالم ، وإذا كانت اللغة ليست لغة العرب وحدهم وإنما هى لغة العالم الإسلامى أيضا وجب أن يتكلف إخراج هذا العمل الأمة جميعاً .

وكان صوت الأزهر واضحا فقد دعا محمد عبد اللطيف دراز فى المؤتمرالإسلامى إلى « العمل على إحياء الاهتداء بكتاب الله وسنة رسوله ، من غير إشارة إلى أى نزاع بين الأمم الإسلامية ، هذا النزاع هو سبب الداء الدفين فى الجسم الإسلامى .

ودعا إلى وضع تفسير للقرآن المجيد بأسلوب سهل يصور أغراض القرآن السامية بصورة واضحة لفهم خواص المسلمين وعامتهم على السواء ، على أن يكون مجرداً من إشارات الصوفية التى لا تستند إلى لغة الكتاب الكريم ولا إلى المبادىء الإسلامية المقررة ، وعلى أن يكون مجرداً من الإسرائيليات الدخيلة فى التفسير ، والتى من شأنها تشويه الكتاب العزيز

---

(١) الفتح ٧ / ١١ / ١٩٢٩ .

وتقديمه للناس بصورة لا تتفق ومقاصده النبيلة . وكذلك جمع الأحاديث التى يصح العمل بها من كتب السنة وتخريجها ، ودعوة الحكومة إلى الرجوع إلى الشريعة الإسلامية فى قضائها الجنائى والمدنى ، وإذا كانت بعض الحكومات تجرؤ على الجهر بأن ما شرعه الله من حدود لا يتفق مع روح العصر كان من الواجب أن يقنع بالحجة ، وأن هناك فوارق بين القوانين الوضعية وبين الشرع السماوى فى مواضع الخلاف المقطوع به . وقال :

« إن الكتاب الذى كون من قبائل العرب أمة قوية متحدة ، قامت بأكبر الانقلابات التاريخية هو بعينه لا يعجز الآن عن تخليص أربعمائة مليون من المسلمين مما هم فيه من الذل والشقاء » .

* * *

(ثانيــــا)

دراســــات التــــاريخ

كان من أبلغ آثار عمق حركة اليقظة وانكسار موجة التغريب أن بدأت حركة جديدة لإعادة كتابة التاريخ الإسلامى . اشترك فيها الكثيرون من قادة حركة اليقظة ، وانضم إليهم الدكتور هيكل وطه حسين وتوفيق الحكيم وانضم إليهم العقاد من بعد وشارك فيها أبناء الأجيال الجديدة فى الثلاثينيات فكشفوا جوانب مليئة بالقوة والحيوية ، عرضت عرضا جديداً مشرفاً وكان لكتاب مجلة الرسالة أثر كبير فى هذا العمل .

وكان ذلك رداً حاسماً على مادعا إليه الدكتور طه حسين من فصل الأدب عن المجتمع ، وفصل التاريخ عن الأدب ، ودحضا لما حاول إلصاقه بعصر الإسلام الأول من اتهامات ، وقد ظل التاريخ الإسلامى مرتبطا بالإسلام متحرراً من محاولات التغريب التى ترمى إلى عزله وإقصائه عن أداء دوره فى بناء اليقظة ، وسقطت النظرية المضللة التى حاولت أن تفصل بين التاريخ والإسلام نفسه بعد أن أكد البحث العلمى أن هناك ارتباطاً عضوياً متيناً فيما بينهما .

وكسب التاريخ بذلك نهجاً جديداً وأسلوباً علمياً وعرضاً عصرياً ، وفى نفس الوقت استطاع أن يكشف جوانبه الذاخرة للشباب والأجيال الجديدة وأن يبتعثها من جديد فيكون عاملا هاما فى حركة اليقظة كما اهتم الباحثون بما كتبه الغربيون عن تاريخ الإسلام فنقلوه وخاصة ما كتب عن الرسول عليه الصلاة والسلام والقرآن والإسلام نفسه فنقلوا ما كتبه جوستاف لوبون ، وما كتبه كارليل وما كتبه درابر ، وما كتبه جورج سارطون ، وما قاله برنارد شو ، بل لقد أغرت كتابات أمثال اميل درمنجم عن حياة محمد بعض كتاب العصر الذين كانوا أكثر أمانة للفكر الغربى إلى ترجمة مثل هذه الآثار ثم تبنيها ، ومهما يكن من هدف هؤلاء

الكتاب فى تصحيح موقف أحزابهم والعمل على كسب الأنصار ، أو تصحيح مواقفهم الخاصة بعد أن أثاروا من الآراء الضالة ما أفقدهم ثقة القراء ، فقد كسب التاريخ الإسلامى عرضا جديداً .

و لم يقف الأمر عند الكتابة باللغة العربية ، بل بدأ عدد من الأبرار يكتبون عن الإسلام باللغات الأوروبية (فكتب) الدكتور زكى على كتابه القيم « الإسلام فى العالم » وأصدره فى ٤٢٨ صفحة حاويا تاريخ الإسلام باللغة الإنجليزية عارضا على الغربيين صورة حية للإسلام وتاريخه وانتشاره فى العالم ، كما كتب الدكتور أحمد غلوش كتابه الضخم عن الدين الإسلامى ، وقد دحض الدكتوران زكى وغلوش الكثير من الشبهات التى رددتها كتب المبشرين والمستشرقين .

وترجم حسين الموجى (صحيح البخارى) إلى اللغة الإنجليزية وبذل فيه جهدا ضخما ، كما جرت ترجمة الكثير من معانى القرآن ، وقامت حركة كبرى تدعو إلى ترجمة (معانى) القرآن ، وترى فى ذلك عملا نافعاً للإسلام ومحققا لدعوة الإسلام فى نقل مفاهيمه إلى غير أصحاب اللغة العربية وعلى رأسها الشيخ المراغى وفريد وجدى .

أما كتاب المدرسة الحديثة فقد دخلوا الميدان متأثرين بالغربيين أيضاً : تأثر هيكل بدرمنجم ، فكتب حياة محمد وبدأه بالترجمة ، ثم تحرر من المؤلف الغربى وتأثر طه حسين بكتاب غربى (لجيل لوميتر) فكتب هامش السيرة وجاء العقاد سنة ١٩٤٠ فبدأ يكتب عن عبقرية محمد .

وهكذا عاد الكتاب الذين كانوا يعارضون الفكر الإسلامى ويحملون على مدرسة اليقظة ومنها الرافعى وجاد المولى وغيرهم ويهاجمون الكتابة عن التاريخ الإسلامى فدخلوا نفس الميدان وحاولوا تعليل دخولهم بأنهم يحملون منهجا جديدا .

ومن الحق أنهم لم يكونوا أعمق إيمانا بالإسلام من دعاة حركة اليقظة وأن فى الكثير مما كتبوا انحرافا عن مفهوم الإسلام ، وأنهم كانوا يحاولون أن يندمجوا فى غمار التيار الضخم الذى لم يكن هناك من سبيل إلى تجاوزه

أو الانفصال عنه حتى يحتفظوا بمكانتهم الأدبية ، وربما كان لعوامل أخرى دخل كبير فى هذا الإتجاه .

وكان أخطر مفاهيم كتاب التغريب حين دخلوا ساحة الثقافة العربية والفكر الإسلامى أنهم كانوا ينظرون إلى الإسلام على أنه (دين) فحسب ، وفق مفهوم الغرب والاستشراق والاستعمار ، ولم يكن فى تقديرهم ولا فى مفهوم كتاباتهم أى إشارة إلى أن الإسلام دين ونظام مجتمع كما كان يفهمه قادة اليقظة .

وكان اتجاه طه حسين إلى إحياء الأساطير حول سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام عملا خطيراً ومشبوها وبعيد الدلالة على اتجاهه التغريبى حين انتقل من ميدان إلى ميدان ، من ميدان إنكار النص القرآنى بمنهج له طابع علمى زائف إلى ميدان إدخال الأسطورة إلى السيرة النبوية بمنهج وجدانى مضلل فقد أراد فى خبث شديد ومكر بالغ ، أن يخدع الناس بالكتابة عن الرسول عليه الصلاة والسلام تحت عنوان (على هامش السيرة) فيقدم فى أسلوبه الطلى قصصاً وصوراً ولكنه كان يدس فيها السم حين كان يحيى أساطير أبعدها المحققون من حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وتاريخه :

قال الدكتور طه حسين : نشرت هذه السلسلة من القصص تحت عنوان مقتبس عن (جيل لوميتر) وهو على هامش السيرة : اعتمدت فيه على جوهر بعض الأساطير ثم أعطيت لنفسى حرية كبيرة فى أن أشرح الأحداث وأخترع الإطار الذى يتحدث عن قرب إلى العقول الحديثة مع احتفاظه بالطابع القديم .

وقال : وبذلك خاطبت قلوب المسلمين المتعطشين إلى المثل العليا .

ومعنى هذا أنه ضرب عصفورين بحجر واحد ، الأول أنه جلب الأساطير وتوسع فيها وأضاف إليها ، وانه قصد بذلك إرضاء الجماهير ، ليعود مرة أخرى إلى ثقتها فيضربها ضربات أعنف ، وربما كان ذلك من

وصايا المستشرقين والمبشرين ، وقد خدع الكثيرين فعلا بهذا التحول الظاهرى الأخطـر فهــو لم يرجــع عن آرائه الأولى ، ولكنه أراد أن يدعــم وجــوده ليعاودهــا مرة أخرى كما فعل من بعد ذلك فى كتابه : (مســتقبل الثقافــة) .

* * *

(ثالثا)

إحيــــاء التــــراث

وكان من آثار نمو حركة اليقظة وانكسار الموجة أن غلب العمل على إحياء التراث بعد أن هوجم عنيفاً من دعاة التغريب ، بل إن هؤلاء التغريبيين عمدوا إلى المشاركة فى هذا العمل ، ليفسدوه ويحولوه عن هدفه الطبيعى إلى إحياء الآثار المسمومة التى حرص المبشرون والمستشرقون على إحيائها وهى الكتب المتصلة بالملحدين والزنادقة والمنحرفين عن فهم الفكر الإسلامى أمثال الحلاج وأبو نواس وبشار .

وكذلك محاولة اتهام المعرى وابن رشد بأنهما من كبار الملاحدة واهتموا بالغلاة من الصوفية والمنحرفين من المعتزلة والفلاسفة ومحاولة تصوير فكر هؤلاء جميعاً على أنه هو الفكر الإسلامى ، مع تجاهل العمالقة أمثال ابن تيمية والغزالى وابن حزم وغيرهم ، ولقد هاجم اسماعيل مظهر وعبد الله عنان وحسين فوزى فكرة إحياء التراث هجوماً عنيفاً .

وكان مما قاله حسين فوزى : لقد ماتت الثقافة العربية عقب القرون الوسطى وذهب غبارها مع الثقافات الأخرى التى عرفتها أوروبا فيما بين انحلال الإمبرطورية الرومانية وعصر الرينسانس ، ولا قيمة للثقافة العربية عندى أكثر من أنها لعبت دور انتقال فى العصور الوسطى فكانت مستودعا لبعض مظاهر تفكير اليونان فيما قبل عصر إحياء العلوم وقد انطفأ نورها كما ينطفىء السراج الذى نضب زيته وأحرقت زبالته بل وانكسر أيضاً وقال إن من خير جميع الأمم العربية أن تنصرف عن خيالها بشأن هذه الثقافة فلا تضيع وقتها فى نبش قبور لن تجد فيها لحما ولا عظاما متماسكة ، كانت تراباً وإلى التراب تعود[1] .

---

(١) لعل الكاتب يندم الآن على اندفاعه حين يرى التراث الإسلامى وقد احتل هذه المكانة العالمية الضخمة .

وكان هذا من أعنف ما هوجم به الفكر الإسلامى والتراث الإسلامى ، وقد ردد هذا المعنى سلامة موسى وقال إنه كان ماضيا كله سخافات وجهالات ولا يصح الافتخار بها وقال صاحب مجلة الحديث (وهو من دعاة التغريب والشعوبية البارزين) إنه لولا عناية المستشرقين بكتبنا ودلالتهم على نواحى القوة والعمق والجمال فى ثنايا سطورها لما تردد أكثر الشباب أن يجعل هذه الكتب الصفراء طعمة للنيران ، وقد أكون أحد الذين دعوا قبل سنوات إلى حرق الكثير من الكتب لأننى اعتقدت فى يوم ما أنها تعوق تطورنا .

هذه نماذج مما هوجمت به حركة البعث وهى عبارات تنضح بالحقد والمرارة والكراهية .

والواقع أن حركة إحياء الأدب العربى وإحياء التراث قد بدأت منذ وقت بعيد ، وكان أحمد تيمور وأحمد زكى وانستاس الكرملى وكرد على فى مقدمة العاملين فى هذا المجال منذ أوائل القرن ، وكان هؤلاء من موجهى المستشرقين ، فلما انتهوا ضعفت حركة الإحياء وغلبت طائفة من تلاميذ المبشرين المستشرقين الذين حملوا آراء رينان ، ثم لم تلبث حركة اليقظة أن قدمت طائفة المؤمنين بأمتهم وفكرهم وتراثهم ممن حملوا لواء إحياء التراث من أمثال : كامل الكيلانى ، وسعيد العريان ، وعبد السلام هارون .

ثم لم تلبث حركة اليقظة أن كسرت موجة التغريب فاضطر كثير من دعاة التغريب إلى تعديل آرائهم وفى مقدمة هؤلاء طه حسين نفسه ، وتوفيق الحكيم ، ولم يكن هذا التحول إيمانا بالتراث الإسلامى ولكنه كان مرواغة فى النظرة ، وتمويها وتلفيقا حيث يقول توفيق الحكيم : إن الثقافات والحضارات لا تموت ولكنها تهضم فى ثقافات أخرى وحضارات أخرى ، فالثقافة العربية القديمة كالثقافة الإغريقية القديمة قد امتصتهما واحتوتهما الحضارة الأوروبية القائمة ضمن الذى امتصت ، فمادة الثقافة لا تنعدم ولكنها تتحول إلى ثقافة جديدة وهذه نظرية تغريبية صرفة ، لا تقدر وجود الفكر العربى الإسلامى الحى الباقى المتحرك من خلال المجتمعات الإسلامية والذى لم يمت كما ماتت الثقافة اليونانية والرومانية القديمة .

وقد نجحت حركة اليقظة فى دفع حركة الإحياء إلى العمل والإنتاج فطبعت الكثير من الآثار الأدبية والتاريخية الإسلامية الهامة ، وإن اختلط فيها النافع بالضار حتى أزعج ذلك التيار دعاة التغريب وأحسوا بأثره الهام وخطره على مفاهيمهم فقال أحدهم .

« إن رجوعنا إلى الثقافة العربية القديمة بهذه النسبة الكبيرة البادية مما يكثر نشره هذه الأيام من كتاب العرب الأقدمين هو أشبه شىء بالوباء يصيب نهوضنا الفكرى الذى لم يستقم بعد على قدميه وربما أحدث هذا الوباء فى عقولنا من الصر ما قد يستحيل بعد اليوم زوال أثره والنجاة من شره .

وليت الأمر فى ضره يقف عند حد انعدام نفعه ، بل إنه ليعيد لنا جواً فكريا قد يضطرنا اضطراراً إلى تنفس هوائه حتى تمتلىء به رئاتنا وصدورنا فيكون عندئذ بمثابة من يعود بالزمان القهقرى » .

وتكشف هذه العبارات الحماسية العنيفة عن مدى الحقد والكراهية الذى تكنه حركة التغريب للفكر الإسلامى والتراث العربى :

ولكن موجة اليقظة استمرت وعمق هذا الاتجاه وقوى وكان له أكبر الأثر فى إعادة مفاهيم الثقافة العربية إلى أصالتها وقيمها .

وكان لكشف النصوص الحقيقية للتراث أن دحضت الادعاءات المضللة التى حاول البعض لصقها بالتاريخ الإسلامى من أن القرن الثانى كان عصر شك ومجون ، وبإعلاء البحث عن المجان والفساق ودراسة بشار وأبو نواس ، وانكشف أن هناك جوانب ضخمة بناءة فى الحياة الفكرية الإسلامية فى هذا العصر وكل العصور التى تلته ، هى جوانب الفقهاء والعلماء والصوفية والفلاسفة والدعاة والمحققين فى مختلف المجالات وحيث لا يمثل العصر بشار وأبو نواس وحدهما ، بل هما لم يكونا فى موقف من يمثل عصره أو يبرز فيه إزاء هذا الحشد الضخم من أعلام الفكر الإسلامى ، وانكشفت حملة التشكيك التى حمل لواءها دعاة التغريب فى الأدب العربى والحملة عليه والاستخفاف بالخيال العربى واتهام العرب بما كتبه اسماعيل مظهر فى « العصور » عن بشار بن برد ومهيار الديلمى وإعلاء فكرهما نتيجة

إعلاء جنسهما الفارسى مع اتهام العقلية العربية بالمحاباة المسرفة للعقلية الآرية ، وكيف تبين أن الفكر الإسلامى هو الجامع الوحيد بين هذه العقليات وليس الدم أو العرق .

وانكشف موقف « المجلة الجديدة » فى حملاتها المحمومة على الأدب القديم والبلاغة العربية واختلاق اسم أصنام الأدب على السلفيين وعلى قادة حركة اليقظة ، وقد انزعج كثيرون عام ١٩٣٥ عندما اتسع تيار الإحياء الإسلامى فهاجموه بشدة ، وكان سلامة موسى والعقاد فى مقدمة المهاجمين . فقال سلامة موسى إن الأدب العربى القديم هو قبل كل شىء أدب القرون الوسطى ،ونحن نقرأه للفائدة التاريخية فقط ، ولا يمكننا أن نستضىء به فى حل مشاكلنا المعاصرة إذ هو عقيم كل العقم من هذه الناحية ، ورأى العقاد (إذ ذاك) أن التيار الإسلامى هو خطر على الحركة الوطنية المصرية لأنه يصرفها عن الصراع الداخلى بين الأحزاب .

ووقف كتاب التغريب موقف الهجوم والمقاومة والتشكيك من إحياء الأدب العربى ، وأزعجهم تعمق التيار الأصيل وتسيده على التيارات الأخرى بالرغم من أنه لا يملك النفوذ السياسى والصحفى الذى يملكه التغريب . ومن هذه المواقف الهامة التى أزعجت التغريب . مؤتمرات عقدت فى مختلف البلاد العربية منها مؤتمر دمشق الطبى الذى تحدث فيه الأطباء عن فضل العرب على الطب العالمى ، والعيد الألفى للمتنبى والاحتفال بالجاحظ ، وإنشاء المجمع اللغوى .

* * *

(رابعـاً)

« الشريعـــــــة »

كان للشريعة الإسلامية مكانها فى حركة اليقظة وانكسار موجة التغريب ، فقد كشفت الوقائع أكاذيب دعاة التغريب وضلال اتهاماتهم التى جروا فيها وراء مارسمه كرومر وأذاعه ، وظل أتباعه يرددونه من أن الشريعة الإسلامية شريعة صحراوية ، وأنها وضعت من أجل قوم أهل بداوة فى الأعصر الفائتة وأنها لا تصلح لعصرنا ولا تكون ملائمة للأمم المتحضرة .

وقد عارض قادة الحركة هذا الاتهام وكشفوا خطأه وتعصبه ، وكان مؤتمر لاهاى عام ١٩٣٧ قمة اعتراف الغرب نفسه بالشريعة الإسلامية وباستقلاليتها عن القانون الرومانى وبتقدير صلاحيتها لعطاء القانون والتشريع فى العالم كله فى العصر الحديث ، وما كان من توصية المؤتمر عن إفساح مكان أوسع للشريعة الإسلامية ، ولا نعرض هنا كثيراً لما كتبه قادة حركة اليقظة عن الشريعة الإسلامية فرأيهم فيها معروف ، ولكنا نعرض لآراء رجال الثقافة العصرية الذين آمنوا بحركة اليقظة وانضموا إلى صفها ، وكان الدكتور السنهورى قد نادى بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ بوجوب الرجوع إلى الشريعة االإسلامية عند مراجعة التشريع المصرى .

وقال إن الخطأ الذى وقعنا فيه فى القرن الماضى هو إقصاء الشريعة عن المصادر التى نرجع إليها .

وكان قد شارك فى إعداد القانون المدنى العراقى حيث أصبحت الشريعة عنصراً أساسياً فيه ، فلما عقدت معاهدة مونترو وتجدد الكلام عن أهمية الشريعة الإسلامية فى التقنين العربى ـ وقال السنهورى[1] : الأمر

---

(١) الأهرام والصحف ٢٦ / ١١ / ١٩٣٧ .

الجوهرى ألا نكرر الخطأ الذى وقعنا فيه فى القرن الماضى فنقصى الشريعة الإسلامية من بين المصادر التى نكثر من الرجوع إليها ، فالشريعة الإسلامية مصدر خصب يوضع لبلاد شرقية عربية وليس فى اتخاذها مصدراً يتنافى مع صلتنا الوثيقة بالتشريعات الغربية !

وقال : إن هناك من مبادىء الشريعة الإسلامية ، ما لو أدخل فى القانون المصرى يعد متقدما من هذه الناحية على الشرائع الغربية نفسها ، والذى يدعونى إلى التشديد فى وجوب الرجوع إلى الشريعة الإسلامية عند مراجعة تشريعنا المصرى اعتباران :

اعتبار فنى علمى ، واعتبار وطنى قومى ، فالاعتبار العلمى الفنى قد تبين من خلال ما قدمته من رقى الشريعة الإسلامية وصلاحيتها لأن تكون أساساً لنهضة عالمية فى الفقه والتشريع ، أما الأعتبار الوطنى القومى فأقف عنده قليلا ، فمصرنا الآن يتنازعها الشرق والغرب بعد أن استقلت وينبغى أن ترسم لنفسها خطة تسير عليها ، أهى تريد أن تميل إلى جانب الغرب وأن تعيش المدنية الغربية فتلبس ثوبا غير ثوبها ، وتقلد مدنية غير مدنيتها ، فتبقى متخلفة عند تلك ، أم تريد أن ترجع إلى أحضان الشرق دون أن تجافى المدنية الغربية وتحتل مكانها ، فإن كنتم تؤثرون الأمر الثانى فلنرجع فى ثقافتنا القانونية إلى الفقه الإسلامى ولنجعل من ذلك الفقه صلة بيننا وبين الأمم العربية ولنوثق رابطتنا بهذه الأمم فنحن أمة شرقية ولنا ماض مجيد فى زعامة الشرق فمن الخير أن نصل حاضرنا بماضينا .

* * *

وقد فرق الدكتور السنهورى بين الفقه والدين فى الإسلام فقال : « لا شك فى أن الإسلام دين ودولة ، والدولة لابد لها من فقه ، ولكن فقهاء الشريعة الإسلامية كانوا يدركون إدراكاً تاما الحد الفاصل بين الفقه والدين فالفقه ، وقد وضع لتعامل الناس وتنظيم علاقاتهم بعضهم البعض ، والدين وهو أمر يتصل بعلاقة الإنسان بربه ، فالفقه الإسلامى هو فقه محض ، لا يقل عراقة عن القانون الرومانى ، وهو لا يقل عنه فى دقة المنطق

وفى متانة الصياغة وفى القابلية للتطور ، وهو مثل صالح فى أن يكون قانونا عالمياً ، بل كان بالفعل قانونا عالميا يوم امتدت دولة الإسلام من أقاصى البلاد الآسيوية إلى ضفاف المحيط الأطلسى .

وعنده أن الفقه الإسلامى « إذا أحيت دراسته وانفتح فيه باب الاجتهاد فهو قمين أن ينبت قانونا جديداً لا يقل فى الخبرة وفى مسايرة العصر عن القوانين اللاتينية والجرمانية ، ويكون هذا القانون مشتقاً من الفقه الإسلامى اشتقاق هذه القوانين الحديثة من القانون الرومانى ، أما الكتاب والسنة فهما المصادر العليا للفقه الإسلامى وقد قصدت بالمصادر العليا أن أقول إنها مصادر تنطوى فى كثير من الحالات على مبادىء عامة ترسم للفقه اتجاهاته ولكنها ليست هى الفقه ذاته ، فالفقه الإسلامى هو من عمل الفقهاء صنعوه كما صنع فقهاء الرومان وقضاته القانون الرومانى ، وقد صنعوه فقها صحيحا ، والصياغة الفقهية وأساليب التفكير القانونى فيه واضحة ظاهرة .

ثم دعا الدكتور السنهورى فى سبيل إحياء الفقه الإسلامى والنهضة به : إلى دراسة الفقه الإسلامى فى ضوء القانون المقارن ، وقال إن الغاية من دراسة الفقه الإسلامى أن يتجدد شباب هذا الفقه وتدب فيه عوامل التطور فيعود كما كان فقها صالحا للتطبيق المباشر مسايرا لروح العصر : مما يصبح معه الفقه الإسلامى قانونا مدنيا متطورا يجارى المدنية الحديثة كما انبثقت الشريعة اللاتينية والشرائع الجرمانية من الفقه الرومانى[1] .

ويقول : إن القانون الحديث الذى ينبثق من الفقه الإسلامى يجب أن يكون فى منطقه وفى صياغته وفى أسلوبه فقها إسلامياً خالصا لا مجرد محاكاة للقوانين الغربية ، فإذا اقتصرنا على تقليد هذه القوانين على اعتبار أن هذه هى الغاية من تطور الفقه الإسلامى لا نكون قد صنعنا شيئاً ، ويقول إنه لا يجوز أن نخرج عن أصول الشريعة بدعوى أن التطور يقتضى هذا الخروج ولا ينبغى أن يخشى من أن دراسة التشريع الإسلامى على هذا الوجه العلمى الصحيح قد تؤدى إلى كشف قصور الشريعة عن أن تتطور ، ذلك إن هناك مصدراً معترفا به هو الإجماع الذى لم تدرك حتى اليوم خصوبة

---

(١) للدكتور محمد محمد حسين ملاحظات على هذا المفهوم .

ومقدار ما يستطيع أن يواتى الشريعة من عوامل التطور .

وقال إن القانون المدنى العراق الجديد يمهد تمهيداً حسناً لدراسة الفقه الإسلامى فقد وضعت نصوص هذا الفقه إلى جنب نصوص القوانين الغربية الحديثة فتلاق النظام الإسلامى الغربى !

* * *

ودعا الدكتور هيكل إلى فتح باب الاجتهاد ويقول : فى رأينا أنه لا مفر للعالم الإسلامى كى ينهض النهضة الخليقة بالدين القيم من أن يحطم قيود التقليد الأعمى وأن يفتح باب الاجتهاد ، وأول ما يجب لذلك أن يقضى فى النفس الإسلامية على فكرة النظام الإستبدادى والحق المطلق فى الحكم ، فهذه الفكرة ليست إسلامية البتة ، وإنما الحكم فى الإسلام شورى والحاكم فى الإسلام معرض للنقد المستمر والتقويم المتصل .

وقال : إذا اعتبرت الكرامة الإنسانية بعض ما أوجب الله احترامه وأن العقل والقلب هما منار الهدى ، وأنهما لا يكونان كذلك إلا إذا دأبا مجتهدين فى سبيل الكمال وإن سبل الكمال فسيحة تتناول العلم والفن والأدب والفلسفة والسياسة وكل ما فى الحياة ، وإن هذا الدأب يقتضى الإنسان أن يخلق من التفكير من الحس كل يوم صوراً جديدة ترمى إلى هذا الكمال ،.. إذا آمنت النفس الإسلامية بهذا فتح أمامها باب الاجتهاد واسعا ، وإذا فتح هذا الباب تخطى منه العالم الإسلامى محطما قيود التقليد وأغلاله سائراً على هدى إلى ما وصل إليه المسلمون الأولون من باحات المجد العظيمة فى حدود الحرية المنظمة والخلق الفاضل والإيمان الصحيح[1] .

وفى هذا الجو كتب الأستاذ أحمد حسين المحامى فى « مصر الفتاة » ، يقول : لقد حانت الساعة التى نراجع فيها مجموعة قوانيننا ونجعل أساسها الشريعة الإسلامية لأنها الأساس الوحيد الثابت المطرد الذى يتفق مع مزاجنا

---

(١) ملحق السياسة — يناير ١٩٣٣ .

وتقاليدنا وبيئتنا .

وعنده أن مجموعة القوانين فى كل أمة هى التى تكيف هذه الأمة وتطبعها بطابع مخصوص ، وهى التى تحكم نشاطها وتغذى معنويتها وتنظم معاشها ، ولذلك يجب أن يكون مصدر هذه القوانين واحدا لتتناسق وتتساند وتتكامل وتلتقى كلها عند نقطة واحدة وهدف واحد ، ولو رجعنا إلى قوانين أية أمة لوجدناها تستند إلى هذا المصدر الموحد ، فدولة فرنسا وكثير من دول أوربا تتخذ القانون الرومانى كمصدر للشريعة ، أما نحن فى مصر فلا نجد مصدراً نستطيع أن نعتبره أساساً للتشريع ، فنحن من ناحية كوننا بلدا إسلاميا فقد ظل التشريع الإسلامى أساساً لمجموعة من القوانين التى تتصل بالحياة الشخصية بينما اتخذنا القانون الفرنسى مصدراً للقانون المدنى والجنائى ، ولوعدنا لمواد هذه القوانين لوجدنا القواعد الإنجليزية تارة والفرنسية أخرى والإيطاليه تارة ثالثة ، وهكذا أصبحت قوانيننا خليطا من قوانين الأمم ومثل هذه الحالة من الفوضى لا يمكن أن تؤدى إلا إلى فوضى اجتماعية خطيرة ، فبينما يسود البلاد — كأثر الشريعة الإسلامية — تقاليد إسلامية وعادات إسلامية بحته ، إذا بقانون العقوبات يناقض هذه التقاليد والعادات ويحاربها أو يسخر بها فأصبح المصرى حائراً مرتبكا لا يعرف أيرضى عاداته وتقاليده التى عليها دينه أم يخضع للقانون ويدع دينه وتقاليده ، هذا النزاع النفسى هو الذى انتهى إلى التحلل من الاثنين[1] .

ويقول : لقد أجمع علماء الغرب قبل علماء الشرق على أن الشريعة الإسلامية بلغت فى تطورها حد الكمال ، حتى لقد اتخذتها المجامع الدولية مصدراً للتشريع الدولى ، وهى بعد ذلك : الشريعة التى تطورت ونمت فى بلادنا والتى تساير أخلاقنا وتقاليدنا وعاداتنا وهى قد تطورت خصيصاً لإصلاح حياتنا وهى بحر واسع الأرجاء تستطيع أن نغترف منه كما نشاء وأن نستخرج منه درراً وكنوزا تنظم حياتنا على أساس القوانين والأحكام وهو ركن من أركان ديننا ، فقد تعين علينا ألا نتردد بعد اليوم فى اتخاذ

(١) مصر الفتاة م ١٩٣٩ .

الشريعة الأساس الأول والأخير لمجموعة قوانينها : المدنى والجنائى والشخصى ، وإن ما فى البلاد من نهضة علمية ودينية وقانونية كفيل بتنظيم الفقه الإسلامى وتبويبه وترتيبه واستنباط أحكامه بما ينتهى بنا إلى مجموعة من القوانين التى ينسج العالم بأسره على منوالها لكمالها وإحكامها وحسبنا أنها تستمد أصولها من القرآن الحكيم .

* * *

(خامســاً)

الحضـــــارة

ظل طه حسين وسلامة موسى ومحمود عزمى وغيرهم يمجدون حضارة الغرب ويصفونها بالكمال المطلق ، غير أن الأمور لم تلبث أن تكشفت عن حقائق قالها الأوربيون أنفسهم فى حضارتهم من أمثال اشبنجلر الذى أصدر كتابه تدهور الغرب ١٩١٨ وترجمه إلى اللغة العربية (على حسن الهاكع) .

وعلقت عليه الصحف الأدبية ١٩٣٥ ووصفته بأنه (انحطاط الغرب) أو (احتضار الغرب) وكشف فيه مؤلفه عن أن « الحضارة الغربية » مشرفة على عهد انحطاط وتدهور وفناء ، وإن مقارنة الحضارات بعضها ببعض يدلنا على أن حضارتنا بلغت سن الشيخوخة وأن ساعة القضاء قد حانت ذلك القضاء المبرم الذى من الجهل أن يخطىء ، وقال إن الأمم تموت والحضارات تزول وأضاف رومان رولان : ستغلبنا آسيا كما غلبتنا روميه وأثينا قديماً .

وقل رانتو : إن الليل يخيم على أوروبا ونحن نولى وجوهنا شطر المشرق شيئاً فشيئاً ، وقال إن الحضارة الغربية تدخل عصر الاضمحلال ، ويكون فى أول أمره خفيا لا يتبينه الناس يختفى عهد الإلهام الجياش القوى فى الأدب والفن مع استرضاء الشعب ليظل هادئا خاضعا مطيعا ، وفى هذا العصر يعتقد العدد الجم من الناس الفلسفة الوحيدة التى يفهمونها فى هذه الظروف ، وهى فلسفة كل واشرب فإنك ميت فى الغد وهى الفلسفة التى يؤمن بها كثير من شباب الجيل (جيل اشبنجلر) وقال ولا تلبث هذه المدنية أن تنهار عند أول عدوان خارجى ، أو إذا غلبت عليها عوامل الفساد الداخلى الكامن فيها .

وقد هزت هذه الآراء عند ظهورها معسكر التغريب فراحوا يفسرون آراء اشبنجلر تفسيراً ملتويا ، محاولين اتهامه بالجهل والضعف وذهبوا

يعيدون ثقة الأمم الواقعة تحت النفوذ الأجنبى ، نفوذ حضارة الاستعمار ، إلى الثقة بهذه الحضارة .

غير أن اتهامات الحضارة لم تتوقف وتوالت من أمثال جود وهكسلى ومن أمثال قول مدام سنت بوانت فى محاضرة لها بالقاهرة أولتها حركة اليقظة اهتماما[1] قالت : أتهم المدنية الغربية بأنها قصرت فى القيام بالمهمة التى تزعم أنها ألقيت على عاتقها ، أعنى نشر تعاليم الإنسانية وتعميمها ، لقد أراد الغرب أن يوحد العالم ولكن تحت سلطانه ، ولجأ فى ذلك إلى القوة الغاشمة ولم يرع غير مصلحته وحدها ، فأنكر الشرق وجحد فضل العرب وعبث بقواعد الحضارة الحقيقية .

وأعادت حركة اليقظة إلى الأذهان كلمة (سبنسر) إلى محمد عبده يوم التقى به فقال له : محى الحق من عقول أهل أوروبا واستحوذت عليهم الأفكار المادية فذهبت الفضيلة ، وهذه الأفكار المادية ظهرت فى اللاتين أولا فأفسدت الأخلاق وأضعفت الفضيلة ثم سرت عدواها منهم إلى الإنجليز .

وكان الدكتور هيكل ومنصور فهمى هما أول من تنبه لذلك وراجعاه ، وأشار دكتور هيكل إلى أنه وجماعته بعد أن عادوا من أوروبا كانوا لا يزالون يؤمنون بما وصفته أوروبا (بالحرية والإخاء والمساواة) ثم تبين لهم مع الأحداث ومع نهاية الحرب العالمية الأولى كذب ذلك ، وكشفت الأحداث عن مدى العسف والظلم الذين قامت بهما الحضارة إزاء الشعوب الضعيفة .

وقد جرى السؤال مردداً طويلا خلال فترة ما بين الحربين : ما هو موقفنا من الحضارة الغربية ، وأعلن العقاد رأيه مبكراً ، فى عام ١٩٢٩ فى محاضرة بالجامعة حين قال إن حالات المدنية لا تعدو طورين : ثقافة وحضارة .

---

(١) الحديقة م ٣ ص ١٥٢ .

أما الثقافة فهى تنحصر فى العقائد والأديان والحالات النفسية التى تختلج فى صدور الجماعات والأفراد فتدفعهم إلى العمل ، وهذه لا يمكن نقلها ولا يمكن أن تؤخذ بتعديل أو بدون تعديل لأن كل أمة لها ثقافة خاصة بها فثقافة فرنسا غير إنجلترا غير ثقافة ألمانيا ، أما الحضارة فهى فى الغرب حضارة بخار وكهرباء وماكينات ، هذا المعنى متوحد فى جميع أمم الغرب .

وقال الدكتور مشرفة : إن المصريين القدماء أسسوا حضارة سامية نقلها عنهم الأغريق ، ثم وصلت إلى العرب فساعد العرب فى نقلها إلى الإفرنج فتراجعنا ردحا من الزمن وتقدم الإفرنج فرأس المال لنا ، أمن العار علينا أن نشترك فى الربح .

وقال الدكتور هيكل :

أعتقد أن الشرق قد ضل طريقه فى هذه العصور الأخيرة متأثراً بتعاليم الغرب ، فأصبح مثله الأعلى مادياً ، يحسب الحرية التى تسمو بها النفس إلى المكان الأرفع أن ينال الجسم جميع الشهوات ، وأن تنال النفس كل مبتغاها .

قد يكون للبيئة الطبيعية فى الغرب أثرها فاندفع إلى التطلع إلى هذا المثل الأعلى ، ولكن بيئة الشرق الطبيعية وتاريخه منذ العصور الأولى وتاريخه بنوع خاص منذ انتشرت الحضارة الإسلامية فى ربوعه يجعل هذا المثل الأعلى الذى يتخذه العرب أمامه دون ماتتطلع إليه االنفس الشرقية فهذه النفس تؤمن بوحدة الوجود وترى فى هذه الوحدة والاتصال بها والفناء الروحى فيها غاية ما ترجوه .

لذلك كانت أمثال هذا الشرق تجرى بأن من اعتز بغير الله ذل ومن افتقر لغير الله هان ولا تعرف شيئاً فى الحياة يعادل تقوى الله ، وأثر هذا فى الغناء والنفس والموسيقى والأدب .

وفى استفتاء عن حضارتنا[1] القادمة : (فرعونية أم غربية أم عربية) قال الدكتور على إبرهيم :

أشعر اليوم بأن الحضارة الحالية ينقصها عامل هام ، هو الجانب

(١) الهلال ابريل ١٩٣١ .

الروحى ، فلعل رسالتنا للحضارة تكون فى أن تكمل هذا النقص ، إن العقلية الشرقية لم تمت وأراها نشطت فى مصر وغير مصر ، لا مراء عن أن تقدمنا سيكون فى نطاق الحضارة الإسلامية ولن تبعث الحضارة الإسلامية على صورتها السابقة ، ولا يمكن أن يتأتى ذلك فإننا مضطرون إلى الاقتباس من الحضارة الراهنة ثم نضيف من عندنا ، أننا لن نرتمى فى أحضان المدنية الحاضرة ونرتضيها كلها .

وقال الدكتور منصور فهمى فى مقال : (موقف الشرق من حضارة الغرب)(١)

« الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا أبد الآبدين » كلمة حق إذا أريد بها تقرير أن لكل أمة مشخصات تغاير بها الأمم الأخرى وأن لكل طائفة من الأمم أسلوباً من الحضارة والثقافة تتميز به عن الأمم الأخرى رغم كل عوامل المحاكاة والاحتذاء ، وأن للشرق طابعه وللغربى طابعه . إن من الخطأ الواضح عندما يطالبون الشرقيين بانتحال مدنية الغربيين ، ألا يقدر عوامل الجنس والمحيط الجغرافى والحياة الاقتصادية ومجموعة التاريخ وأثر العقائد وغير ذلك ، من العوامل التى من شأنها أن تكون نفسيات الشعوب فتتغير بتغير تكوينها الثقافات وتكوين الحضارات وتقديرها وقبول صنوفها . للمحيط حكمه القاهر فى العمل على تفاوت الطبائع فى الشعوب واختلاف الأمزجة فى أهلها ، و لم يغفله أحد من المشتغلين بعلوم العمران منذ أرسطو وابن خلدون ودى جوبنيو ، وما يزال أثر المحيط فى الحياة الاجتماعية ، فإذا ما أضفنا إلى ذلك أثر الجنس والعناصر الأخرى مع التقليد والتراث الأدبى والعبقريات الخاصة ، لكان من حقنا أن نجزم بأن الحضارة التى قدرها الغرب لنفسه واصطنعها لجسمه ، وأصلحها لقومه لا تصلح لأن تكون لباساً وفاقا لأهل الشرق وأممه .

وقال الشيخ مصطفى عبد الرازق خريج السوربون بعد الأزهر : أريد أن تقتبس مصر أصول المدنية الغربية وتتشربها تشرباً لا أن تلبسها ثوباً معاراً حتى يكون وادى النيل عنصراً من عناصر التقدم الإنسانى وعاملا يشيد

---

(١) نوفمبر ١٩٣١ الهلال .

على المسيدين فى بناء الحضارة ويكمله .

بيد أنى أحب أن يبقى لمصر جوهر مشخصاتها فلا تفنى فناء فى مدنية مهما كانت عامة وإنسانية ، فإن لها جوانب ليست إنسانية ولا عامة ، وجوهر مشخصاتها يرجع فيما أرى إلى اللغة والدين ، مستودع آدابنا وتقليدنا على أن اللغة والدين ينبغى أن يخضعا لسنة الله فى هذا العالم ، وسنة الله فى هذا العالم أن يتحرك كل شىء وأن يتطور .

لست أريد أن تكون مصر قطعة من أوروبا ولكنى أريد أن تظل مصر قطعة من أفريقيا متصلة بآسيا على أن تزاحم الغرب بالمناكب فى كل ما وصل إليه الغرب من عمل ومدنية ورق ، وعندى أن المدنية تراث إنسانى تعاونت قوى البشر منذ العصور الأولى على تأسيسه ، وكل مدنية ناشئة فهى كال لما خلفت البشرية من مدنيات سابقة وليست بدعا يبتدىء ابتداء ، فما مدنية الغرب اليوم إلا تطور إلى الكمال فى مدنيات الأمم السابقة ، وما يكون لأمة من البشر قصرت عن هذه المدنية إلا أن تسعى إليها جهدها لتدرك شأوها ، وتنال منها نصيباً .

* * *

وتكشف هذه النصوص كيف أن الذين كانوا فى موجة التغريب والموالين للفكر الغربى قد تحولوا قليلا إلى مفهوم حركة اليقظة ، إن لم يصلوا إلى ما كان يقوله أمثال مصطفى صادق الرافعى :

« إن أوربا ومدنيتها لا تساوى عندنا شيئاً إلا بمقدار ما تحقق فينا من اتساع الذاتية بعلومها وفنونها ، فإنما الذاتية وحدها هى أساس قوتنا فى النزاع العالمى بكل مظاهره ، المحافظة على الضوابط الإنسانية القومية التى هى مظاهر الأديان فينا ثم إدخال الواجبات الاجتماعية الحديثة فى هذه الضوابط » .

وما يقوله عبد الوهاب عزام « لم يفرق الناس بين الحضارة الصناعية والحضارة الأخلاقية ولم يميزوا بين ما يلائم وما لا يلائم ، فقاسوا الأخلاق

والآداب وسنن الجماعات وروابط الأسر والعقائد والمذاهب على السيارات والطائرات والغواصات والمدمرات ، وفتنوا بالمسرح والسينما ، أنكرنا أنفسنا وحقرنا ماعندنا وأعظمنا ما عند غيرنا .

لقد حولت الحضارة الفروسية والرياضية إلى سباق الخيل (القمار) وهجرنا الهندسة العربية فى الأثاث ثم حاكيناهم فى الأعجاب بها فاتخذناها بعد أن سميناها (أربسكا) .

وقد تعمق قادة حركة اليقظة إلى المقارنة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية واستخلصوا من البحث أن الحضارة الإسلامية ليست حضارة السادة دون العبيد ، وقد قامت على الإندماج فى الشعوب والسيادة عليها ، وقد أتاحت الفرصة للشعوب لتقبل الدين والثقافة دون أن تفرضه عليها فرضاً وكانت غاية حركة اليقظة أن تكشف عن مخاطر الحضارة الغربية ، وأن تقف فى وجه هذه الموجة الطاغية من مدنية المادة التى جرفت الشعوب الإسلامية فابعدتها عن زعامة النبى ﷺ وهداية القرآن .

* * *

(سادساً)

اللغة

هاجمت حركة التغريب « اللغة العربية » هجوما عنيفا ، غير أن الفصحى استطاعتْ فى ظل حركة اليقظة وانكسار موجة التغريب أن تستعيد مكانتها وأن يتزايد نصراؤها وأن تتكشف مع الأيام حقيقتها وتنخذل الشبهات والأراجيف التى أذاعها حولها خصومها .

وقد كان الدكتور زكى مبارك فى مقدمة من تحولوا إلى المدافعين عن اللغة العربية ، وهو لم يعد بعد من باريس فكتب عام ١٩٣١ يهاجم قطبا من أقطاب المستشرقين هو « ماسينيون » .

قال : إن الفرنسيين يريدون أن يستريحوا من اللغة العربية ومن الإسلام ، وسبيلهم إلى ذلك أن يقنعوا بعض الأنذال من أهل الشرق بأن اللغة العربية أصبحت فى عداد اللغات الميتة وأن الإسلام لا يصح أن يكون أساسا لمدنية جديدة وأنه لا يليق بالرجل العصرى أن يكون متدينا لأن الديانات لم تكن إلا لهداية الرعاع .

يقول : لقد وقف أحد المستشرقين الفرنسيين يخطب فى بيروت وكان من مهمته أن يبث سمومه فى الشباب السوريين فزعم لهم أن كرامة اللغة العربية توجب أن تتفرع إلى لغات عديدة كما تفرعت اللغة اللاتينية . فياسعادة الشرق العربى إذن حين تصير اللغة العربية إلى مثل ما صارت إليه اللاتينية ، فقد ماتت لغة الرومان حيث لا رجعة لها ، وهذا هو الفخار الذى يطلبه ذلك المستشرق للغة العربية فأكرم به من صديق ، ومن نوع هذا الخلط ما زعم ذلك المستشرق المغرض عن الحروف العربية فقد ألقى محاضرة فى الكوليج دى فرانس أبان فيها أن لا حياة للغة العربية إلا إذا كتبت بحروف لاتينية .

وقال : لم يبق إلا أن القوم يريدون أن ينحدر العرب إلى مثل ما انحدر إليه الترك ليضيع جزء مهم من شخصية اللغة العربية وليسهل قطع ما بيننا وبين أسلافنا من الأواصر الأدبية والروحية وفى ذلك تيسير لمهمة الدساسين الذين يريدون قتل الشرق باسم العلوم والآداب .

* * *

(سابعاً)

الصحافة

كان أبرز معالم انكسار الموجة أن سقطت عدة مجلات لعل من أهمها :

السياسة الأسبوعية ، المجلة الجديدة ، مجلة العصور ، الرابطة الشريفة ، وبقيت الهلال والمقتطف وهى أقسى المجلات التى تصدت للثقافة العربية والفكر الإسلامى خلال العقد الثالث (١٩٢٠ — ١٩٣٠) وتصدرت وبرزت مجلات : الفتح ، مصر الفتاة ، الشبان المسلمين ، الرسالة ، النذير ، الشورى ، دار العلوم ، نور الإسلام ، الأزهر ، النهضة الفكرية ، (بالإضافة إلى المنار التى توقفت عام ١٩٣٥) .

وهذه المجلات التى حملت رسالة التغريب لم يكن لها أهمية كبرى ، فقد كان يقرأها الآحاد ، وكانت شهرتها فى الدعاية والضجيج الذى يدق وراءها الطبول ومظهرها البراق اللامع ، ولكن صحف اليقظة كانت متعددة وكثيرة القراء وواسعة التوزيع وكانت تصل إلى أبعد مكان فيه قارىء بالضاد .

ولم تظهر شبهة واحدة فى إحدى هذه الصحف إلا تصدت لها هذه المجلات اليقظة وردت عليها ودحضتها وقدمت وجهة نظر الثقافة العربية والفكر الإسلامى .

ولعل من أدق الوثائق ما بعث به بركات قصار (عن أصحاب المكتبة الشريفة الوطنية بدمشق) إلى مجلة السياسة الأسبوعية يقول :

قبل أن نتصدى بطلب صحيفتكم لترويجها فى دمشق قرأنا بعض أعدادها فألقيناها ضامة لشتى المواضيع غزيرة المادة العلمية والأدبية فكان ذلك باعثاً على طلبها لتباع فى مكتبتنا ولكن بعد أن مضى على ذلك مدة يسيرة أصبحنا نرى فى بعض الأعداد كثيراً من المقالات الإلحادية

والبحوث السفورية والكتابات المحبذة لأعمال مصطفى كمال وأنصاره والإشارات إلى دعوة الإلحاد فى أمريكا التى عندما يراها القارىء فى جريدتكم لا يشك فى أن أصحابها إنما ساقوها لدعوة الشبان الشرقيين إلى تقليد أمثال هؤلاء الشاذين فى كفرهم وإلحادهم ، هذا مما أوجب سخط العلماء ذوى الأفكار النيرة ، واضطرهم إلى أن ينحو علينا باللائمة وكنا مؤملين بالعمل بالحرية الفكرية والوصول فى هذه المواضيع إلى ما أجمع عليه المحققون ، ودعاة الإصلاح ، المنزهون عن الأغراض ، فلم يكن ذلك بل رأينا أن أصحاب المقالات يتعامون عما نشر فى بعض الصحف المصرية رداً على مفترياتهم شأن من لا يريد فى كتابته إحقاق الحق ، وإبطال الباطل .

« نرجو عدم إرسال شيء من أعداد السياسة » .

وقد أحصى السيد محب الدين الخطيب للسياسة أنها حملت لواء الحديث عن هذه الموضوعات [لبس القبعة ــ مقاومة إلغاء البغاء ، الدفاع عن الشعر الجاهلى ، استحسان القوانين التركية ، مهاجمة الدين ، الطعن فى الدين فى إحدى كليات الإرساليات التبشيرية] .

وقالت الشورى إن جريدة السياسة هى لسان الجامعة (عنان ، منصور فهمى ، ضيف) وقد عملت على إكرام أستاذها ففكك رابطة الشرق ومزق أواصره (أحمد لطفى السيد) وداست على الاعتبارات والواجبات ، كما أنها كرمت (ليفى بريل) عضو المجمع العلمى الفرنسى الذى أشرف على أطروحة الدكتور منصور فهمى (حالة المرأة المسلمة) التى كانت مثار ضجة ضخمة[1] .

وتعرضت حركة اليقظة لصحف الهلال التى حملت لواء الدعاية ضد الإسلام[2] حيث أنحى الأستاذ أحمد شاكر باللائمة على ما كتبه بعض محرريها ، وقال إن الواقعة التى نشرتها ، مكاتب الأهرام فى الزنكلون لم نسمع بحصولها فى مديرية الشرقية وقال أميل زيدان : لما كان معظم محررى مجلاتنا

---

(١) الشورى ١٩٢٥/١١/٥ . والمعروف أن ليفى بريل يهودى الجنسية .
(٢) الفتح ٢٤ نوفمبر ١٩٢٧ .

من المسلمين فهم بطبيعة الحال يبدون مايعن لهم من الأفكار فى هذه الشئون .

وعلق الأستاذ شاكر فقال : يعتذر أصحاب الصحيفة فى كتابهم بأن محررى مجلاتهم من المسلمين ومالنا ولهذا ، إننا لا نرى أمامنا إلا صحفا بأسمائهم ويزعمون أن لا شأن لها بالأديان ولم تكن أنشئت للتبشير فما بالهم كلما عرض لهم شيء يتعلق بالإسلام نبذوه ولم تتناوله أقلامهم .

إننا لا نريد من صحف الهلال أن تكون نصيرة للإسلام ولكن نرجوه أن تبعد أقلام محرريها عن التعرض له .

وأشار إلى ما ذكرته مجلة كل شيء (٢٨ نوفمبر ١٩٢٧) حين قالت :

فلندرس كل قديم ولكن باعتبار أنه قديم لقيمته التاريخية فقط ولكن لا لنعتد به أو لنؤمن بصحته وقال الأستاذ شاكر :

هذه الصحف ترمى الثقافة الإسلامية بأن علومها إن هى أساطير ، هذه الصحف إنما تمنح من الثورة التى سبقها إليها أستاذ الآداب بالجامعة المصرية ، وأنها كانت إنما يبهرها إرضاء جمعيات التبشير ، لا يزعم أن علوم الثقافة الإسلام أساطير إلا من جهالها وخصومها ، وهاهم أولاء علماء أوربا يدرسون علوم العرب وتشريعهم .

* * *

وهكذا وقفت صحف اليقظة بالمرصاد لكل شبهة ، وتقدم للرد كتاب لامعون ، لم يكونوا جميعا محافظين بل كان على رأسهم أساتذة تعلموا فى الجامعات الأوربية ، وجلهم يحمل لقب الدكتور : عبد الحميد سعيد ، الدرديرى ، الغمراوى ، على مظهر .

وكشفت حركة اليقظة دور المدرسة السورية المتمصرة ومدى خطرها وأثرها فى المرحلة الأولى : قبل الحرب العالمية الأولى وامتداده فى الأهرام والمقطم والمقتطف والهلال وصحفه (كل شيء — الدنيا) الخ ولم تكن الصحف الحزبية اليومية تقرأ أو توزع ، صحف السياسة والاتحاد والشعب ، هذه الصحف التى كانت تعتمد على مساعدة الأحزاب والحكومات ، وقد عاشت على الإعانات الضخمة والأموال الوافرة ، حتى

وزارة نسيم (نوفمبر ١٩٣٣) وإخراج الإبراشى من القصر حيث حالت شمس هذه الصحف إلى الأفول ، و لم تستمر جريدة السياسة إلا باتفاق محمد محمود وآل عبد الرازق عليها .

وقد خدمت جريدة السياسة مختلف الجهات ، حتى الصهيونية ، إذ نشرت فى ٢ سبتمبر ١٩٢٩ هذا الخبر : زارنا وفد من حضرات الدكتور البير موصيرى والمسيو جولد شتانين .

وأعربوا عن شكرهم لما أبدته السياسة من رغبة واعتدال فى تعليقها على الحوادث الفلسطينية ، ويمكن أن يفهم هذا الموقف إذا عرفنا أن الدكتور عزمى حضر المؤتمر الصهيونى ممثلا لها ، وأن عبد الله عنان كتب فى السياسة الأسبوعية (٧ سبتمبر ١٩٢٩) تحت عنوان فلسطين بين اليهود والعرب وقالت البرقيات التى نعت على السياسة موقفها :

« إن السياسة خاضت فى الأيام الأخيرة ، مواقف فريدة من قضية فلسطين ومحنتها كان لها أسوأ الأثر فى نفوس عرب فلسطين مسلميهم ومسيحييهم ، فهم لا يريدون من السياسة أن تدافع عن حقهم ، بل يرجو أهل فلسطين من السياسة أن لا تكون عونا للصهيونية » .

* * *

وقد كان من نتيجة ذلك أن رفض أحمد بن عبد الرحيم من مدينة فى مراكش ، وعبد الله السمان فى الحجاز جريدة السياسة : « ناشروا السياسة الأسبوعية أنسوا من جمهور المسلمين فى جميع الأقطار تهاوناً جرأهم على أن ينظموا فى مصر صفوفهم ليسيروا بهذا القطر الإسلامى فى طريق الكماليين دون أن يحتاجوا إلى المشانق التى نصبها الكماليون على ضفاف البسفور والخليج ، ودون أن يحتاجوا إلى المدافع التى أسكتت بها الكماليون احتجاج المحتجين على الأنظمة الإلحادية فى تركيا ، وكانوا يتوقعون أن تسير الأقطار العربية والإعلامية وراء ميولهم ، فساروا مؤيدة أعمالهم بمئات الألوف من الجنيهات .. نعم بمئات الألوف منذ أنشئت السياسة اليومية إلى

الآن ، ولكنهم ما كادوا يخطون خطواتهم حتى جعلوا يتلقون الصدمة بعد الصدمة فتعاد بضاعتهم مردودة إليهم بالسخط والازدراء .

لقد هاجموا أدمغة الشباب فى الظاهر بجيوش من الأفكار تنقل عن أكثر كتاب الإفرنج تطرفا وإفراطا فى تهديم أبنيته .

وقد قابل المسلمون حركتهم بحركتين : إحداهما سلبية تقضى بمقاطعة بضائعهم كما فعلت مكة ومراكش ودمشق ، والثانية إيجابية بإقامة حواجز فكرية ، تلائم روح العصر ويستطيع صوتها أن ينفذ إلى أعماق قلوب شابة[1] .

وهاجمت صحف اليقظة الإسلامية جريدة « الأهرام » تحت عنوان : الأهرام شر وسيط بين الإسلام وفرنسا .

قالت الفتح : استيقظ المصريون للحرب الصليبية التى يقوم بها فى المغرب الكاتبان أدينو وبنو جلدته فاستشاطت الأهرام غيظا وقالت : فى الأمس تقضى مصر على حملة الصليبيين السابقة وتضع ملك فرنسا فى سجن المنصورة وفى هذا العصر الذى ظننا أن الإسلام لن تقوم له قائمة تهب مصر مرة أخرى إلى إحباط الحملة الصليبية العصرية التى أحكم الفرنسيون تنظيمها فى المغرب فتذهب الجهود كلها أدراج الرياح .

وفى هذا اتهام لمن يعارض الحملة الصليبية فى المغرب بأنه يريد أن يشغل مصر عن قضيتها فهزأت مصر بهذا الاتهام وقالت لجريدة الأهرام (الفرنسية للفرنسيين) إن قلب المسلم يتسع لواجبه الدينى ولواجبه الوطنى الذى هو من واجبات دينه أيضاً وقد طلع وزير فرنسا المفوض ببيان اعترف فيه بظهير ١٦ مايو ١٩٣٠ وأنه خاص بالبربر المسلمين وأنه أحل عاداتهم المخالفة للإسلام محل الأحوال الشخصية الإسلامية .

وازداد سخط مصر وأمطرت الصحف استنكاراً لهذا العمل .

ومن الحق أن يقال إن كل ما كان يكتب فى مصر كان ينظر إليه بعين

---

(١) الفتح ٢٢ مارس ١٩٢٨ .

النقد أو التقدير فى العالم العربى كله وكانت تكشف وجهته إذا كان فى جوار الحرية والدفاع عن القيم ومهاجمة النفوذ الاستعمارى أو عكس ذلك تماما وقد وجه الأستاذ محمد على الطاهر صاحب جريدة الشورى أنظار القراء إلى ذلك فى كتابه نظرات الشورى — حين قال :

« ليحذر كتاب مصر عندما يحررون مقالة أو يكتبون رسالة لأن القراء فى العالم العربى فى كل مكان غير مصر يطالعون ما يخرج من مصر بعناية فائقة فينقدونه بعد أن يزنوه بميزان العدل والإنصاف فكل كاتب يزل به القلم يهوى فى الخارج ويفقد شخصيته » .

كما هاجمت حركة اليقظة الصحف الهازلة : (الكشكول ، روز اليوسف ، الراديو ، الرغائب ، المشهور ، الشبيبة ، آخر ساعة) .

وقد دمغ « حسن الجداوى » هذه الصحف فى تقرير رسمى فقال :

« إن التطاحن السياسى قد ابتدع لغة فى النقد لم تكن فيما مضى مباحة فأصبحت اليوم شائعة فى الأنفس » .

ومن الحق أن هذه الصحف التى نشأت فى أحضان السياسة والأحزاب قد قامت بدور خطير فى مجال التغريب والغزو الثقافى ، فقد أساءت إلى القيم الأخلاقية والاجتماعية وأساءت إلى الأسلوب واللغة .

* * *

وهاجم الدكتور حسين الهراوى القصص الغربية المكشوفة المترجمة وقـــال :

إن ضحايا هذه القصة الحقيقية ماهم إلا ضحايا القصص الخيالية وضحايا مخيلة كتابها وضحايا المترجمين الذين ينقلون إلينا قصص الغرب ويصورون الفتاة المصرية لنفسها أنها ضحية الضحايا فما هى إلا دورة من دورات الفلك حتى نرى ونسجل أن البيوت والعائلات أصبحت ضحية هذا اللون وليست هذه الفتاة وحدها ، ومصدر إغوائها هى الفتنة الغربية وإسراف تلقى دروس السينما والغراميات .

وقد كان لمجلة المنار دور هام على المدى الطويل فى مقاومة تيار الغزو الثقافى « مما يثبت بالخبر المستيقن أن من أفراد أولئك الملاحدة دعاة للصد عن الإسلام ، وأن منهم من يأخذ على ذلك جعلا من جمعيات التبشير بالنصرانية ومنهم من يخدم الدول الإستعمارية ومنهم من يتقاضى مكافأة من بعض جماعات اليهود البلشفية والصهيونية ، وأعظم هذه الأجور المناصب والوظائف فى البلاد المسيطرة عليها .

« كان المرحوم الشيخ محمد مهدى وكيل مدرسة القضاء الشرعى أول من أنبأنى بأنه وجد فى مصر جماعة تتعاون على الصد عن الإسلام بالطعن فى شريعته وفى حكومته وفى لغته وفى أئمته وفى كل من نوه بهم التاريخ من الخلفاء وكبار العلماء والأدباء ، ثم ظهرت آثارهم الخفية فى بعض الصحف العامة وفيما نشروا من المصنفات الخاصة وكان تعاونهم بمقتضى تعارفهم وتوادهم ، وانتماء بعضهم إلى حزب سياسى ينصرهم » .

« ألم تر أن الوزارة الائتلافية كادت تسقط ويتمزق نسيج وحدة الأمة بانتصار أعظم أركانها (يقصد ثروت) لمؤلف ذلك الكتاب الذى جهر ملفقه بالطعن فى القرآن ترجيعاً لأصوات بعض أصدقائه من المبشرين بالإنجيل » .

« وقد علم الجمهور — أنه كان قد تألف فى مصر حزب لحرية الفكر كان الملاحدة هم المؤسسين له بالطبع من حيث لا يدرى كثير ممن انتظم فى سلكه » .

« وقد نشرت السياسة الأسبوعية فى مارس ١٩٢٨[1] مقالا لأحد أركانهم صرح فيه بأنه يوجد فى مصر تعصب دينى (إسلامى) ضار ، وإن جماعة الفوا حزبا لمقاومة وتوطيد دعائم الحرية » .

« ولما ألفت فى مصر جمعية الشبان المسلمين عارضوها بتأليف جمعية الشبان المسيحيين لأجل القضاء عليها بدعاية الوطنية ولكنهم لم يقاوموا جمعية الشبان المسيحيين بقول ولا عمل » .

ودعا سلامة موسى إلى مساواة المرأة بالرجل فى الميراث .

---

(١) م ١٩٢٨ — المنار .

وتمكن من نشر هذه الدعاية الباطلة فى مجلة الرابطة الشرقية .

وحاول إغواء الاتحاد النسوى بالمطالبة بهذه المساواة فكتبت (هدى شعراوى) رداً نشرته الصحف صرحت فيه بأنه ليس من موضوع هذه النهضة النسائية الخروج من الشريعة ، وأن عليها تنفيذ أحكام الإرث فى الإسلام .

ثم أثار محمود عزمى هذه الدعاية فى مناظرة بكلية الحقوق فواجهه رشيد رضا وأبان فسادها بالبرهان .

وقام الدكتور فرج ميخائيل فى الجامعة الأمريكية محتمياً بما لها من نفوذ الامتيازات الأجنبية فكان أشد قذعا فى الطعن على الإسلام وأشار إلى حق النساء فى المساواة .

ودعا محمود عزمى إلى جواز ترك جميع أحكام الإسلام الدنيوية ومنها الإرث واستبدال غيرها إذا ظهر عدم صلاحيتها .

ولا أعقل أن يكون هذه المسألة مسألة الإرث هى المقصودة بالذات ولا المقصود بالذات إعطاء النساء ما يعتقد هؤلاء الدعاة أنه حق لهن حباً بالعدل وكراهة بالظلم .

« وإنما المقصود بالذات صدهم للمسلمين عن الإسلام نفسه وتحويلهم عنه بإبطال ثقتهم به وغيرتهم عليه وتقطيع الروابط التى تربطهم بالأمة العربية العظيمة وفصم عروة الجامعة التى تضم ٣٥٠[1] مليوناً من البشر لا يرون عليهم زعيما بعد الدولة العثمانية أولى من مصر . » أ . هـ .

* * *

وكانت مجلة الفتح ذات دور هام حتى أنها طوردت فى مختلف الأقطار العربية التى يحكمها الاستعمار .

---

(١) تقدير المسلمين الآن ألف مليون نسمة .

يقول صاحبها رحمه الله : كانت أمتنا فى أشد الحاجة إلى صحيفة تنظر إلى الأمور من الوجهه الإسلامية المحضة غير متأثرة بأى مؤثر سياسى أو آخر ، ويقول فإذا اتسع نطاق انتشارها فى قطر إسلامى تحكمه دولة أجنبية طوردت فى ذلك القطر ، مثل السودان ، المغرب ، ومدن الجزائر وتونس ، فجريدة « الفتح » محظور بيعها فى طرابلس الغرب وسومطره .

لو شئنا أن تكون صحيفة الفتح مرضيا عنها فى حكومات البلاد المستعمرة لكان ذلك أيسر شىء علينا ولاستطعنا أن يكون إيراد الفتح كافياً لجعلها صحيفة يومية ، إن مطاردة الفتح فى مختلف الأقطار لم تنل من صبرنا مثقالا ، لأن هذا شىء كنا قد وطنا النفس عليه من أول الأمر .

« إن الصحف الأخرى تعيش فى الأكثر من الإعلان عن كنياك أوتار » وعن ويسكى بزفكسيون ، وعن دخان ملكونيان وسجاير نسطور جناكليس وعن بضائع الترف التى تستنفد أموال الأمة فى بالوعة شيكوريل وبون مارشيه فهى تعيش من هذه الإعلانات ومن مساعدة أحزاب مخصوصة وجهات مخصوصة ثم يكون كل ما يدخل عليها بعد ذلك من المستشرقين زائداً عن مورد صاحبها ، أما أمثال (الفتح) من الصحف فلا حياة لها إلا من قراء آلوا على أنفسهم أن يقفوا معها فى وجه تيار الضلالة حتى يثبتوا وجودهم ويكون منهم سد أمام هذا التيار الذى يجرف فى طريقه حرم الدين والفضائل وينكر على التاريخ مناقب الإسلام وأهله وقد بلغت موجاته بيوتنا وخاض فيها أبناؤنا فلابد لصده من جريدة .

بهذا الحس أصدرنا الفتح وبهذا الحس كنت أنفق على الفتح صابراً حتى يكون له عدد من القراء يعيش بقيمة اشتراكهم وبالرغم مما تلقى الفتح من مطاردة حقيقية ، صار للفتح قراء كثيرون :

أنفقنا من مال المطبعة السلفية وملكيتها لسد العجز فى مصاريف الفتح ، مع أن تحرير الفتح من أوله لآخره نقوم به مجانا .

« إن التيار الذى نحاول مع قرائنا أن نقف فى وجهه لو كتب له الفوز فى الشرق العربى كما فاز فى تركيا — مثلا — فإن ذلك يؤذى جمهور المسلمين فى دينهم » .

* * *

ومجلة [دار العلوم] كان لها دورها الهام صدرت فى أكتوبر ١٩٣٤ واشترك فى تحريرها السباعى بيومى وحامد عبد القادر ، وزكى المهندس ، وصالح هاشم عطية ، وعبد الرحيم محمود ، وعبد المغنى المنشاوى ، وعلى عبد الواحد ، ومحمد عطية الإبراشى ، ومهدى علام ، ومحمود محمد مصطفى ، ومصطفى السقا ، وطه أحمد إبراهيم ، وعبد الحميد حسن ، وعبد الوهاب حمودة ، ومحمد على مصطفى .

وكتب أبو الفتح الفقى افتتاحية المجلة فقال : إن أبناء دار العلوم سدنة العربية وحماتها وأولياء لغة االدين ورعاتها وقد ظلوا ثلاثاً وستين سنة يؤدون رسالتهم على وجهها الأكمل مبرهنين على جدارتها بالثقة التى وضعت فيهم وكفايتهم للأمانة التى حملوها وليس إنتاجهم العلمى وأثرهم الأدبى فى مختلف نواحى الحياة المصرية بحاجة إلى دليل ، على أنهم أرادوا فى سنة ١٩٠٦ تعميما للفائدة أن تكون لهم صحيفة فكانت ، وكانت لسان صدق مبين . ثم مرت بأبناء دار العلوم عواصف هوجاء ، حتى كانت نهضة ١٩١٩ أخرجوا بالاشتراك صحيفة المعلمين دامت عدة سنوات وكانت خير ما أخرج للأمة فى بابها .

وقالت مجلة دار العلوم فى الحديث عن علوم التربية والنظريات الغربية :

« حين نفرق بين ما يصلح منها فى تربية أبنائنا وبناتنا وما لا يصلح فإن الناس قد فتنوا بمبتدعات الغرب وشغفوا بكل محدثاته ، على الرغم مما تنطوى عليه من زيف ، ونسوا أن لكل بلد ظروفا اجتماعية وعادات متوارثة وعقائد دينية خضعوا لسلطانها قرونا متعاقبة ، وأوضاعا جروا عليها حقبا من الدهر ، وطرائق فى التفكير وأساليب فى الحياة تميزهم عن سواهم وليس هناك شك فى أن كل إصلاح لا يحسب لهذه العوامل وغيرها حسابا لا يمكن أن يصل بالأمة إلى ما تصبو إليه من غايات ، ثم إن هناك أمرا لا محيص من البحث عنه ، ذلك هو تراث أسلافنا وكنوزهم العلمية ومعرفة ما خلفوه من أفكار أضاءت للناس السبيل حين عز الهادى وأعوز الدليل ولدار العلوم هى مقر العلم فى الشرق وموئل طلابه وحلقة اتصال بين الثقافات المختلفة لا فرق بين الشرقية فيها والغربية » .

* * *

وأشار الدكتور مهدى علام إلى أن دار العلوم هى الحلقة المفقودة بين الأزهر والجامعة ، أو بين التعليم الدينى والتعليم العصرى ، وكان ذلك رداً على ما أثاره أحمد أمين من أن مصر فى حاجة إلى علماء يجمعون بين الثقافتين الإسلامية والأوربية ، وقدم الباحث أسماء العلماء الذين خرجتهم دار العلوم فى مختلف مجالات النحو ، والشريعة ، والتربية وعلم النفس والفلسفة ، وقال إن الأزهر يوم أراد الإصلاح الجديد لم يجد أمامه إلا رجال دار العلوم وكذلك وقع عليهم عبء العمل فى قلعة الآداب ومدرسة القضاء الشرعى وتلقى عدد كبير منهم العلم فى انجلترا وفرنسا وألمانيا فهم بحق يمثلون الحلقة المفقودة ويجمعون بين الثقافتين الإسلامية والغربية ، وذكر بما قاله الإمام محمد عبده :

« إن باحثا موقناً لو أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية وأين تحيا لوجدها تموت فى كل مكان وتحيا فى دار العلوم » .

وهاجمت مجلة دار العلوم (١٩٣٥) الأدب الماجن وصورت كيف يجنى هذا الأدب على اللغة والأخلاق معاً ، يجنى على اللغة بالصد عنها والدعوة إلى العامية عن طريق الايحاء ، وهو تملق للغرائز الدنيا يهيج نوازع الشباب والمجانة بما تنطوى عليه قصص الخلاعة والاستهتار من مراودة وإغراء .

وكانت مجلة « الشبان المسلمين » فى مقدمة الصحف التى حملت لواء اليقظة ودعت إلى تعديل برامج التعليم الابتدائى والثانوى باعتبار التعليم الدينى والتربية الدينية أساسية ، كما هاجمت التبشير ، والإلحاد ، والتغريب :

وشارك فيها عبد الوهاب النجار ، وحسن منصور ، والدكتور يحيى الدرديرى ، وإبراهيم اللبان ومحمد أحمد الغمراوى ، ومحمد عبد المطلب وأحمد ابراهيم .

وكذلك مجلة « الهداية الإسلامية » التى اشترك فيها عبد الوهاب حمودة ، وأحمد زكى باشا ، ومحيى الدين القلينى والطاهر بن عاشور ،

والدكتور عارف الودينى ، وعلى الجندى ، والدكتور غلوش .

وكان لمجلة الأزهر دورها الكبير فى اليقظة : رأس تحريرها الشيخ الخضر حسين ومحمد فريد وجدى ، وعملت على نشر أدب الإسلام وبيان حقائقه والنهوض باللغة العربية وآدابها والدراسات الإسلامية والرد على الشبهات .

* * *

الفصل السابع

مدرسة اليقظة : أعمدها ومناهجها

عبد الحميد بن باديس	الجزائر والعروبة والإسلام
محمود أبو العيون	محاربة الفساد
مصطفى صادق الرافعى	القرآن واللغة العربية
فريد وجدى	فى مواجهة التغريب
محمد مصطفى المراغى	يقظة الأزهر
على العنانى	كلية الآداب
محمد أحمد الغمراوى	الأدب ومفهوم الإسلام
حسن البنا	الحكم بكتاب الله

(١)

عبد الحميد بن باديس

يمثل هذا العلامة الكبير منطلقا كبيرا لحركة اليقظة العربية الإسلامية فى القطر الجزائرى فقد كان له دوره الخطير فى الإصلاح وحماية اللغة العربية والحفاظ على كيان الأمة الجزائرية العربية الإسلامية .

- ١ -

« إنما علينا أن نعرف تاريخنا ومن عرف تاريخه جدير بأن يتخذ لنفسه منزلة لائقة فى هذا الوجود ، ولا رابطة تربط ماضينا المجيد بحاضرنا الأغر والمستقبل إلا هذا الحبل المتين : اللغة العربية : لغة الدين ، لغة الجنس ، لغة القومية ، لغة الوطنية .

إنها وحدة الرابطة بيننا وبين ماضينا ، وهى وحدها المقياس الذى تعيش به أرواحنا بأرواح أسلافنا ، وبها يعيش من يأتى بعدها من أبنائنا وأحفادنا الغر الميامين ، وهى وحدها اللسان الذى نعتز به وهى الترجمان عما فى القلب من عقائد وما فى العقل من أفكار وما فى النفس من آلام وآمال .

إن الذى يعلم تاريخ الجزائر الحديث يعلم بأن هذا الشعب شعب حى لن يموت » .

- ٢ -

« إننا نرى أن الأمة الجزائرية موجودة ومتكونة على مثال ما تكونت به سائر أمم الأرض ، وهى لا تزال حية ولم تزل ولهذه الأمة تاريخها اللامع ووحدتها الدينية واللغوية ولها ثقافتها وتقاليدها الحسنة والقبيحة مثل

سائر أمم الأرض ، هذه الأمة الجزائرية ليست هى فرنسا ولن تريد أن تصبح هى فرنسا ومن المستحيل أن تصبح هى فرنسا حتى ولو جنسوها » .

- ٣ -

« حوربت فيكم العروبة حتى ظن أنه قد مات فيكم عرقها ومسخ فيكم نطقها فجئتم بعد قرن تصدح بلابلكم بأشعارها فتثير الشعور والمشاعر ويهدر خطباؤكم بشقاشقها فتدك الحصون والمعاقل وتهز كتابكم أقلامها فتصيب الكلأ والمفاصل .

وحورب فيكم الإسلام حتى ظن أنه قد طمست أمامكم معالمه ، وانتزعت منكم عقائده ، ومكارمه فجئتم بعد قرن ترفعون علم التوحيد وتنشرون من الإصلاح لواء التجديد وتدعون إلى الإسلام كما جاء به محمد ﷺ وكما يرضى الله ، لا كما حرفه الجاهلون وشوهه الدجالون ورضيه اعداؤه .

وحورب فيكم العلم حتى ظن أنه قد رضيتم بالجهالة وأخلدتم للذلة ونسيتم كل علم إلا ما يصرح به لكم وما يخرج بما هو أضر من الجهل بمللكم فجئتم بعد قرن ترفعون للعلم بناء شامخا وتشيدون له صرحا سامقا فأسستم على قواعد الإسلام والعروبة والعلم والفضيلة جمعيتكم هذه : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » .

- ٤ -

« من الطبيعة العربية الخالصة أنها لا تخضع للأجنبى فى شىء ، لا فى لغتها ولا فى شىء من مقوماتها ، ولذلك ترى القرآن يذكرها بالشرف ، والأنبياء لم يبعثوا إلا فى مناسب الشرف ومنابع القوة ومنابت العزة .

لأن الأمة التى لا تؤدى ثمن المجد لا تحافظ عليه ثم هى أمة لا يعتمد عليها فى النهوض بنفسها ولا بغيرها وإنما ذكرهم الله بذلك لينهضوا بالأمم على ذلك الأساس وهو إحياء الشرف الإنسانى فى نفوسهم

وليعاملوها على ذلك الأســاس بالعـدل والرحمـة والتكـريم . وأن أعـداء البشرية اليوم ليعمدون إلى قتل الشرف فى النفوس ليذلوا ما أعز الله ويهينوا ما أكرم الله .

والخلاصة أن عناية القرآن بإحياء الشرف فى نفوس العرب ضرورية لإعدادهم لما هيئوا له من سياسة البشر ، وبهذا يستعين على فهم السر والحكمة فى اختيار الله للعرب للنهوض بهذه الرسالة العالمية ، واصطفائه إياهم لإنقاذ العالم مما كان فيه من شر وباطل ، وهذا السر هو أن ما كانوا عليه من شرف النفس وعزتها والاعتداد بها هو الذى هيأهم لذلك ولو كانوا أذلاء لما تهيأوا لهذا العمل العظيم .

إن الأمة العربية استطاعت أن تنهض بالعالم كله وأن تظهر دين الله على الدين كله » .أ . هـ .

* * *



(٢)

محمـود أبـو العيـون

أولى الشيخ محمود أبو العيون عنايته بمحاربة البغاء والفساد الاجتماعي وسجل أخطاء المجتمع ودعا إلى الإصلاح دعوة مستمرة لم تتوقف وكشف عن دور علماء الدين في هذا المجال[١] :

- ١ -

رجل الدين من نصب نفسه لنفع الناس وهو عنهم مستغن لا يعمل رغبة في دنيا ولا يسكت رهبة من عقاب ، فعله الحق ، وقوله الصدق ، إن قام بأمر الله قعد به ، وإن أمر بشيء كان الزم الناس له ، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له ، يبين لهم أن الدين يساير العلم ولا يأباه ، وليس بينه وبين العقل عداء ، وأن الميزة العليا للعقيدة الدينية هي ألا تتنافى مع نتاج العلم الصحيح وأن ترتكز على العقل السليم وتعتصم بالبرهان الحق .

لقد وضع الله هذا الدين ليكون قانوناً منظماً لجميع البشر وإرشاداً وتربية وتهذيباً وصالحاً لكل الأمم في جميع الأزمنة والأمكنة .

إن الإلحاد قد انتجع في نفوس أهل الجيل مكانا خصبا وظهرت طلائعة في كل مكان ، في دور العلم والنوادي الأدبية والمحافل الخاصة ، في الصحف والمجلات ، في المؤلفات ، والظاهرة الجديدة : الدعوة إلى طهارة الفطرة الدينية وقداسة الإيمان بقصد التشكيك ومناهضة التعاليم الدينية وزعزعة العقائد الصافية ، وتحقيق مبادىء المدرسة الحديثة التي يزعمونها طليعة النهضة الجديدة إن الإلحاد الذي أساسه التشكيك حرب على الفضيلة وعلى الحق وعلى الإنسانية وعلى الأديان كلها .

فإذا لم تكن حياة الأمة ذاخرة بالحياء والعفاف وتصون الأقلام والألسن فإنها تعيش كما تعيش الأمم السادرة في الهمجية[٢] .

---

(١) الهلال ١٩٣٤ .

(٢) الأهرام ٢٠ / ١١ / ١٩٢٣ .

- ٣ -

بين سمع الحكومة وبصرها يقام سوق للفجور وينفض سوق ، وتذهب الأعراض ضحايا الشهوات والأطماع ، وبين سمع الحكومة وبصرها تنظم الجمعيات السرية لتجارة الرقيق ويجوب دعاتها الأمصار والقرى ، طلائع وكتائب يجتلبون كل طفلة ومعصر وعانس وخود ، بين سمع الحكومة وبصرها تتمرد الروح الخبيثة ويؤسس الزعيم (الغربى) مملكة منتظمة داخلها مفقود ، وطالعها مولود ، وهناك وفى سجون ذلك المستبد الظالم تخرج الفتيات العاملات ، جليبات خزى ، وأسيرات بغى ، فيشهدون منظراً مريعا من أبشع ما رأى وسمع الناس ، هنالك يمتهن الشرف وتزهق الإنسانية[٢] .

- ٤ -

إن ثورة مصر سنة ١٩١٩ قد تركت أثراً بالغاً فى آداب الأمة المصرية وأحلامها ، ولكنا لا نفهم أن ما كنا نسميه نهضة سامية ترمز له بالتماثيل وتقيم له الأنصاب ، ما كنا نود أن نأخذ من معناه كماله لأن ذلك يؤدى إلى انتكاس واضمحلال فى كل معانى الحياة الناهضة ، تلك التى بذلنا فى سبيلها مهجا غالية ودماء ذاكية .

تقول إن ثورة ١٩١٩ التى طأطأ لها التاريخ إجلالا وهومت لها الأمم إكباراً وإعظاماً كانت فى حياة مصر فجراً كاذبا لمع نوره فى آفاقها كلسان الشمعة ثم خبا وأظلم ، وها نحن ولاء فى دياجير الظلم تائهين حيارى .

أجل نظرك مرة فى الحدائق العامة وفى صالات اللهو ومسارح التمثيل وعلى شاطىء البحار وداخل الأكشاك المتناثرة وحولها فى موسم الصيف ، أجل نظرك فى تلك الأسواق المأهولة ، بأولئك الماجنين والماجنات ، ثم خبرنى ماذا بقى لمصر من شرف العفاف وحسن السمعة .

---

(١) الأهرام ١٩٢٦ .

(٣)

مصطفى صادق الرافعى

يعد مصطفى صادق الرافعى من أبرز رجال حركة اليقظة وأوسعهم جهاداً فقد امتد كفاحه فى سبيل اللغة العربية لغة القرآن منذ ما قبل مرحلة ما بين الحربين وامتد خلالها ، وكانت له مواقفه الصادقة الحاسمة مع مدرسة التغريب .

وقد حدد موقفه من أمور كثيرة رسمت فى مجموعها منهجه الفكرى :

أولا : العربية لغة دين قائم على أصل خالد هو القرآن الكريم وقد أجمع الأولون والآخرون على إعجازه بفصاحته إلا من لا حفل له به من زنديق يتجاهل أو جاهل يتزندق . ثم إن فصاحة القرآن يجب أن تبقى مفهومة ولا يدنو الفهم منها بالمران والمزاولة ودرس الأساليب الفصحى والاحتواء بها وأحكام اللغة والبصر بدقائقها وفنون بلاغتها والحرص على سلامة الذوق بها ، وكل هذا يجعل الترخص فى هذه اللغة وأساليبها ضربا من الفساد والحالة الخاصة فى فصاحة هذه اللغة ليست فى ألفاظها ولكن فى تركيب الفاظها .

ثانيا : إنما القرآن جنسية لغوية تجمع أطراف النسبة إلى العربية فلا يزال أهله مستعربين به ، متميزين بهذه الجنسية حقيقة أو حكما حتى يتأذن الله بانقراض الخلق وطى هذه البسيطة . فهذا الذى أمسكه القرآن الكريم من العربية لم يتهيأ فى لغة من لغات الأرض ولن تتلاحق أسبابه فى لغة غير العربية قد وصلها القرآن بالعقل والشعور النفسى حتى صارت جنسية ، فلو جبن كل أهلها وسخوا بعقولهم على ما زينت لهم أنفسهم من الإلحاد كجنون لحفظها الشعور النفسى وحده وهو مادة العقل بل مادة الحياة .

ثالثا : لو بقى للمصريين شيء متميز من نسب الفراعنة لبقيت لهم جملة مستعملة من اللغة الهيروغليفية وأن فى العربية سراً خالداً هو هذا الكتاب المبين (القرآن) الذى يجب أن يؤدى على وجهه العربى الصريح ويحكم منطقاً وإعرابا بحيث يكون الإخلال بمخرج الحرف الواحد منه كالزيغ بالكلمة عن وجهتها وبالجملة عن مؤداها ، وبحيث يستوى فيه اللحن الخفى واللحن الظاهر ، ثم هذا المعنى الإسلامى (الدين) المبنى على الغلبة ، المعقود على إنقاض الأمم والقيم على الفطرة الإنسانية حيث توزعت وإن استعربت .

(رابعا) القبلة التى اتجه إليها فى الأدب إنما هى النفس الشرقية فى دينها وفضائلها فلا أكتب إلا ما يبعثها حية ، ويزيد فى حياتها وسمو غايتها ، ويمكن لفضائلها وخصائصها فى الحياة ، ولذا لا أمس من الآداب إلا نواحيها العليا ثم أنه يخيل إلى دائما أننى رسول لغوى بعثت للدفاع عن القرآن ، ولغته وبيانه ، فأنا دائما فى موقف الجيش (تحت السلاح) له ما يعانيه وما يحاوله ويفى به وما يتحفظ فيه ، وتاريخ نصره وهزيمته فى أعماله دون سواها .

(خامساً) التجديد فى الأدب عندى هو :

أولا : إبداع الأديب الحى فى آثار تفكيره بما يخلق من الصور الحية فى اللغة والبيان .

ثانيا : إبداع الحى فى آثار الميت بما يتناوله من مذاهب النقد المستحدثة وأساليب الفن الجديد .

وفى الإيداع الأول إيجاد ما لم يوجد وفى الثانى إتمام ما لم يتم ، فلا جرم كانت منهما حقا حقيقة التجديد بكل معانيها . ولا تجديد إلا ثمة ، فلا جديد إلا مع القديم .

(سادسا) الدين هو حقيقة الخلق الاجتماعى فى الأمة ، وكل أمة ضعف الدين فيها اختلت هندستها الاجتماعية ، ولولا التدين بالشريعة لما استقامت الطاعة فى القانون بالنفس وعمل الدين هو تكوين الخلق الثابت

الدائب فى عمله المعتز بقوته .

(سابعاً) إن أوربا ومدنيتها لا تساوى شيئا إلا بمقدار ما يحقق فينا اتساع الذاتية بعلومها وفنونها فإنما الذاتية وحدها هى أساس قوتنا فى النزاع العالمى بكل مظاهره ، إنها كلمة لها وحدها وباعتبار فيها دون سواها ، تأخذ ما نأخذ ونهمل ما نهمل فإذا تركنا التشبث فى هذا وأغفلنا دقة المحاسبة عليه كنا كذلك القائد الذى طرد بسيفه جيشاً واحدا أجنبياً من بلاده الشرقية وبسيفه هذا حمل أهل بلاده على أن يهيئوا أنفسهم ليأكلهم كل جيش أجنبى فى يوما ما .

* * *

- ٤ -

فريــد وجــدى

قدم العلامة فريد وجدى منهجا كاملا لمفاهيم الإسلام والفكر الإسلامى فى مواجهة التغريب :

• مهمة الإسلام الكبرى فى الأرض هى أن يضع للناس كافة دستوراً دينياً قوامه العقل وركنه العلم يوفقون به بين حاجات قلوبهم وعقولهم بحيث لا يصدمون فى تمشيهم نحو الحقيقة بعقبة تقف بهم دون مواصلة السير إلى الغاية القصوى ، فلا يجد العلم فى مدرجهم إليها من الإسلام مانعا يعمل على دكه كما دك كل الموانع التى حالت دونها من الأديان السابقة .

• إن الإنسانية مدفوعة إلى غاية بعيدة عن الارتقاء بكل ما أودع فيها من قوى ظاهرة أو خفية ، فجاء الإسلام بدستور لا يدع هذه النزعة الجبارة من العلم ولا الهمة الثائرة من ممثليه أن تنال من قدسيته مثقالا ، راميا بذلك إلى غاية نص عليها فى كتابه غير مرة وهى أن يكون دين البشرية فى عهدها الأخير .

وهو بطبيعته قد شرع ليكون ديناً يسع جميع التطورات البشرية الممكنة فهو لذلك قد أتى بدستور دينى جمع هذه الأمور حتى لا يصطدم به فى دور من أدوارها .

• لا يوجد دين من الأديان ولا نظام إجتماعى من النظم المعروفة قديما وحديثاً يبلغ شأن الإسلام فى رفع شأن العلم والتنويه بقيمه وفى الدعوة إليه والتعويل عليه ، والإنسانية كما تحتاج لعلم صحيح يتعلق بعقائد تحتاج كذلك إلى علم مهما يستصلح به معيشتها ويبنى عليه اجتماعها .

« إن العقل إذا ساغ له أن يعتقد بأن هذه الشخصية (الإنسانية) فانية انحلت فى نظره جميع الربط الأخلاقية والقيود المعنوية ، ونال الوازع له من الإسفاف فى المطالب الدينية فتحلل من جميع الالتزامات المادية فانتشار المذهب المادى يؤدى إلى توقف الترقى المادى والروحى .

لقد دل الإسلام على مناعة لا ترام فى جميع أدوار حياته فاحتك بالأديان التى سبقته وقد كان يتولاها رجال بلغوا من الثقافة العلمية ما لم يكن له ظل فى البيئة التى ظهر فيها الإسلام ، إن مناعة الإسلام التى ضربت بها الأمثال بعد أن خرج فائزاً من جميع ما صادفه من الخصومات ستكلل بانتصار جديد على المذهب المادى الذى يحاول فلوله اليوم فى بلاد المسلمين أن ينشئوا له دار هجرة يأوى إليها .

لما كانت أصول الدين وتعاليمه ثابتة لا تتغير فإن الضرورات تدفع العقل البشرى لإدمان البحث عن وجوه التوفيق بين المعلومات الحديثة التى تطرأ وتوسع فى مجال النظر وبين الأصول الثابتة التى يدين بها باعتبار أنها منزلة .

كل ما فى صميم الإنسان من قوى وما يحيط به من عوامل خارجة وما هو مدفوع إليه من الغايات البعيدة يدل على أنه خلق ليكون متديناً ذا عقيدة لينعم بها حيال الكوارث التى تصيبه فى حياته الدنيوية القصيرة الآن ، لذلك لا يوجد الإنسان حيث يكون إلا متدينا ، ولا يزال فى عصر الشكوك متدينون .

الإسلام لم يجعل لولاية الأمة سلطتين ولم يكل أمر الجماعة لطائفة من الطوائف بل ترك السلطة كلها للأمة تهبها للرجل الذى تراه صالحا لحكومتها وأمرها أن تحوطه برقابتها ومشورتها وأن تعطى لحكومتها الشكل الذى تجده أصلح لجمع كلمتها ، وهذا الوضع هو أرقى ما وصل إليه البشر فى أمر السلطة الاجتماعية ، وذلك شأن الإسلام فى كل الشئون الإنسانية ، وعليه فالمسلمون لم يعرفوا تنازع السلطتين الروحية والدنيوية ، وقد أوتوا أصولا مراعى فيها المزج بينهما تفاديا من تنازعهما بحيث لا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى ، وقد عاش المسلمون أكثر من ثلاثة عشر قرنا لم تنشأ فيهم مسألة قيام سلطة روحية إزاء سلطة دنيوية ولا يخشى عليهم أن ينتحلوا شيئا من ذلك .

إن المدنية الإسلامية هى الشكل الوحيد من الكمال البشرى الذى يتقرب منه البشر يوما بعد يوم .

إن الذى ضمن للإسلام الخلود أمران : الفطرة الإنسانية وسلطان العقل الكامل .

إن الإسلام دين الله العام لا يضيق عن مرمى ولا يخرج دون حال وأولى بنا أن نجمع إلينا إخواننا الذين صبغتهم الروح الأوربية بصبغتها من أن ندعهم تطوح بهم الطوائح المدنية إلى حيث ينقلبون عليها ، إن الإسلام دين الله العام جاء لكل عصر بما يناسبه ، وفيه لكل عقل مسرح ولكل فؤاد مرتع .

الانحراف عن سنة النظر والتأمل فى الكون إلى سنة الفلسفة والكلام والاعتماد على العلوم الجدلية هو فى الحقيقة انحراف عن الإسلام الخالص إلى غيره ، وما فرق الملل إلا اعتمادها على عقولها وإيثارها لأفكارها .

إن الإنسان فى ضوء النظر العقلى والعلمى سيسقط آثار الوراثات القديمة والتعصب المذموم ، ومن ثم تتاح الفرصة للنظر الصريح ، ومن هنا تستطيع العقيدة الإسلامية أن تجد مجالها إلى دعوة الإنسانية كلها .

الإسلام قانون عام للأفراد والأمم على مثال القوانين الأخلاقية المعروفة ، ولكن مع هذا الفارق الكبير ، وهو أن الإسلام قانون شامل لجميع مطالب الروح والجسد قابل للتطبيق على كافة الأمم بتوحيد مراميها ومقاصدها » .

* * *

- ٥ -

محمد مصطفى المراغى

كان المراغى دعامة من دعامات اليقظة العربية الإسلامية فى مجال الأزهر وقد كشفت دراساته عن مفهوم الإسلام الأصيل فى مواجهة الحضارة والعلم التجريبى .

- ١ -

إن سبب الأزمة بين الأديان والحضارة (أولا) اصطدام الدين بالعلم التجريبى وما ثار بينهما من خلاف (ثانيا) جنوح الفلسفة الأوربية إلى آراء فى الخير والفضائل العلمية دفعت بعض الأديان فى سبيل الموافقة عليها (ثالثا) اتجاه الأبحاث الاجتماعية على غايات الحياة إلى نواح لم يوافق الدين على ترسمها فكانت صلة العلم المادى والعمل الخلقى والغايات الاجتماعية بالحياة الفعلية قوة لأصحاب هذه الفروع على الدين وعلى انتهاك حرماته .

وفى مجال تحديد ما بين الدين والعلم التجريبى من خلاف ، فإن الدين لا يجهر بما يخالف المحسوس المشاهد ، وكما يعمل أصحاب المذاهب الاجتماعية على توجيه التشريع إلى ما بين الأصول العامة المشتركة فى الأديان ، مثل مقاومة الزنى وحماية الأسرة ومقاومة الكذب والغيبة والدس والوقيعة والحد من الحرية فى التمتع وأسباب الشهوات وتحريم المنافسة غير الشرعية ومراقبة المكاسب المادية وتحريم الخبيث منها والمعاقبة على الجشع والخداع والتغرير .

- ٢ -

المسلمون فى الأزهر آمال من الحق أن أنبه أهلها لها :

أولا : تعليم الأمم الإسلامية المتأخرة من المعارف وهدايتها إلى أصول الدين وإلى فهم الكتاب والسنة ومعرفة الفقه الإسلامى وتاريخ الإسلام ورجاله .

ثانياً : عرض الإسلام على الأمم غير المسلمة عرضاً صحيحاً فى ثوب خال من الغواشى المشوهة لجماله ، وخال مما أدخل وزيد منه من الفروض المتكلفة التى يأباها الذوق ويمجها طبع اللغة العربية .

ثالثاً : العمل على إزالة الفوارق المذهبية أو تضييق شقة الخلاف بينها ، فإن الأمة فى محنة من هذا التفريق ومن العصبية لهذه الفرق ، ودراسة أسباب الخلاف بعيداً عن التعصب المذهبى تهدى إلى الحق ، وإن بعض هذه المذاهب والآراء قد أحدثها الساسة فى القرون الماضية لمناصرتها ونشطت أهلها وخلقت فيهم تعصباً يساير التعصب السياسى ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية وبقيت تلك الآراء الدينية لا ترتكز إلا على ما يصوغه الخيال وما افتراه أهلها ، هذه المذاهب فرقت الأمة التى وحدها القرآن وجعلتها شيعاً فى الأصول والفروع ونتج عن هذه التفرقة حقد وبغضاء يلبسان ثوب الدين .

رابعاً : دراسة الفقه الإسلامى دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب وإن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة ، والغاية من الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عليها فى الكتاب والسنة والأحكام المجمع عليها والنظر فى الأحكام الاجتهادية بما يجعلها تلائم العصور والأمكنة والعرف وأمزجة الأمم المختلفة كما كان يفعل السلف من الفقهاء .

- ٣ -

إن الأديان كلها قد اتحدت فى الإنسان على أصل راسخ من غريزة التدين ودفعه إلى الثقة بأن العالم مجموعة متناسقة تسودها قوة مدبرة عادلة

ترقب النيات وتحكم الضمائر ، وأن هذه الحياة سائرة إلى غاية من المسئولية والمجازاة ، ففى التدين من هذا التألية والخضوع لله ، وتوقع محاكمته عوامل لها أكبر الأثر فى دفع الإنسان إلى الخير والبر ، فقد عنى الإسلام بفكرة الأخوة الإنسانية ونبه القرآن الكريم إلى وحدة البشر الموجبة للتعارف والتناصر ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ .

وكما دعا المسلمين إلى إحسان معاشرة غيرهم من أهل الأديان الأخرى .

(١)

لقد انتشرت فى الشعوب الإسلامية — حتى العريقة منها فى الدين — بدع ، حلت لدى العامة محل الأصول الأولية ، وهى التى يقع عليها الناقد لأحوالهم فى كل مظهر من مظاهر حياتهم ، يجب على المسلمين مع تفكيرهم فى دعوة الأمم إلى ملتهم أن يفكروا فى القضاء على البدع فى جماعتهم وأن يعملوا على ترقية أنفسهم إلى المستوى الذى يسترعى الأنظار إليهم لتقع دعوتهم المحل الجدير بها فى القلوب .

* * *

- ٦ -

علـى العنـانــى

كشف الدكتور على العنانى عن الأخطار التى تعرضت لها الثقافة العربية نتيجة استعلاء مدرسة التغريب ، وكان واحداً من أبرز أساتذة الجامعة المصرية ثم اعتزل العمل قال : الذى دفعنى أن أجنح إلى العزلة ما رأيته ولمسته من قيام الحركة العقلية المصرية (١٩٢٥ ــ ١٩٣٢) على أساس غير صحيح أو سليم ، بل على العكس فاسد معكوس ، فى أكبر معهد لهذه الحركة العقلية وهو الجامعة المصرية ، أو تمركز الأمر فيها في يد رجلين أحدهما ملفق فى العلم طاغية فى الافتراء ، ملحد فى دين الله دساس من غير خجل ، هدام من غير تحرج ، وفى غير بناء . والآخر خلو من كل معرفة بإدارة الجامعة ، وبعيد عن كل تجربة فى ذلك لأنه ما تثقف فى جامعة ولا أتيحت له فرصة ممكنة من زيارة جامعة ، وليس له أثر فى العلم سوى الدعوى الخاطئة وسوى التشويه فيه ، وقد انقاد هذا الأخير الضعيف بناء على ذلك للأول الطاغية فكان الشر فى الجامعة مسيطراً .

ولابد الآن من تطهير المباحث القيمة والدينية والأدبية من الكذب والتلفيق والزندقة والإلحاد والافتراء والتضليل[1] .

* * *

إن الجديد لا يكون قيما نافعاً إلا إذا أسس على القديم ، وإلا لكان هذا الحديث سطحياً وهو البناء لأنه أنشىء على جهل بالتاريخ الغابر الذى هو

(١) مجلة النهضة الفكرية (١٩٣٣) على أثر إخراج الدكتور طه حسين من الجامعة .

نواة الفكر الإنسانى جمعاء .

إن رأى طه حسين بتخلى الأديب عن العاطفة الدينية واللغوية هو رأى فاسد من أساسه لأن الأدب إذا خلا من هاتين العاطفتين يفقد كل معانيه ومميزاته وتصبح الأمة التى يوجد فيها هذا النوع من الأدب مقفرة كل الإقفار .

* * *

- ٧ -

محمد أحمد الغمـرواى

تصدى الدكتور الغمراوى لحقيقة الصراع بين دعاة التغريب وحركة اليقظة فى قضية القديم والجديد وكشف جوانب هامة تلقى الأضواء على أبعاد المعركة :

مسألة القديم والجديد عمرها لا يكاد يزيد على ثلاثين عاما ، أثارها فى الناس نفر تثقفوا ثقافة غربية من غير أن يكون لأكثرهم من الثقافة الإسلامية نصيب مذكور ، والغرب والشرق على طرفى نقيض ، لا يلتقيان كما يقول ريارد كبلبخ . وإن كان من الممكن أن يلتقيا فى العلم الذى هو معجزة الغرب والذى هو جزء من الإسلام الذى يدين به الشرق ، ولعل الذين أثاروا مسألة القديم والجديد لم يكونوا يعرفون أن المدنية الغربية ليس فيها ما يستحق أن يطلب ويؤخذ إلا ذلك العلم الطبيعى الذى اهتدى إليه الغرب بالعقل والتجربة .

فكان الشرق والغرب قد اقتسما علم الفطرة : علمها الغرب فى الماديات بالعلم والتجربة ، وعلمها الشرق فى الروحانيات والاجتماعيات بالدين والوحى فكان الشرق مخطئا حين لا يأخذ بعلم الغرب وكان الغرب ضالا حين يخالف الإسلام ، وكان سبيل الكمال لهما معاً وللإنسانية أن يجتمعا على العلم والدين .

وكان هذا أيضاً هو سبيل التجديد الصحيح لمن يريد أن يكون مجدداً مصلحاً ، يجدد للشرق شبابه ومجده من غير أن يعرضه لشر ما يهـدد الغـرب من أخطـار .

ولكن دعاة التجديد صدقوا الغرب فى ظنه بالإسلام من أنه كان سبب تأخر الشرق ، وهم مالم يطيقوا أن يهاجموا الإسلام مواجهة بدعوة الناس صراحة إلى نبذه عمدوا إلى مهاجمته مداورة بدعوة الناس إلى قبول كل ما عليه الغرب إن كانوا يريدون أن يكون لهم ما للغربيين من قوة وحياة ، وزعموا للناس أن المدنية الغربية كل لا يتجزأ .

فإما أن تؤخذ كلها أو تترك كلها ، إما أن تؤخذ باجتماعياتها وأدبياتها وعلمياتها وإما ألا يؤخذ منها شيء .

ونجحت حركة الالتفات التى قام بها دعاة الغرب ضد سلطان الإسلام فى نفوس من أصغى إليهم ، من غير أن يتعرض أولئك الدعاة فى سبيل ذلك للخطر الذى كانوا يتعرضون له لو أنهم دعوا الناس مباشرة إلى نبذ الإسلام .

ومن هنا هبَّ لدرء هذا الخطر فريق من المجاهدين المحتسبين الذين أتاهم الله فقهاً فى الدين وقوة فى الجنان وبسطة فى البيان وفى طليعة هؤلاء الرافعى رحمه الله .

فالذين يسمون أنفسهم أنصار التجديد يؤمنون بالغرب كله ويريدون أن يحملوا الناس على دينهم هذا ، ولو خالف الإسلام فى أكثره ، والذين يسمون هؤلاء أنصار القديم يؤمنون بالإسلام كله وبالقرآن كله .

ثم إن أنصار الجديد يضيقون ذرعا بالقيود الأخلاقية التى قيد الدين بها الناس فيما يعملون وفيما يقولون . ويريدون أن يتحللوا منها فيزعموا للناس أن هذه الأخلاق وقيودها إن هى إلا أعراف وتقاليد ، وأن التقيد بالعرف والتقاليد يعوق الفن ويحول دون ترق الأدب فيجب إذن إطلاق الفن وتحرير الأدب من تلك القيود .

وأنصار الجديد يدعون إلى الفن العارى والأدب المكشوف ويدعون للفنان والأديب حرية فى القول والفعل لم يأذن الله فيها للإنسان ، وأنصار الإسلام يدفعونهم عن هذا ويحدون حرية الفنان بما حد الله به حرية كل إنسان من قيود الدين والأخلاق .

إن روح حركة التجديد تخالف روح الإسلام فى الصحيح .

ويمعن أنصار الجديد فى توهين السد الإسلامى الذى يجدونه قائما فى وجوههم فيزعمون أن القرآن من صنع عبقرى لا من صنع الله وأنه آية فنية إنسانية لا معجزة إلهية ، وإذن فينبغى أن يخضع لما يخضع له كل عمل إنسانى من النقد والفحص والبحث العلمى فيما يزعمون .

ومن هنا كانت معركة إعجاز القرآن .

إن أصحابنا المجددين أنصار (الأدب الحديث) يفرقون من ذكر الدين كأنما تلسعهم من اسمه النار ، والمسألة فى الدين ليست مثلها فى الأدب ، إن كل ما يتصل بالدين يمكن الرجوع فيه إلى أصل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه هو : القرآن ونحن معشر المسلمين مأمورون بأن نرد كل ما يختلف فيه إلى الله والرسول .

إن المسلم الذى يفقه دينه ويفقه الحياة أينما نظر لا يجد مفراً من أن يصل هذه الحياة : أدبها وفنها وعلمها ، بالدين كما أنزله الله ، أى كما يتبين من القرآن ومن عمل الرسول . إن الإسلام دين يشمل الحياة بحذافيرها ويحيط بها من جميع أطرافها .

فكيف يجوز أن يجمع الإنسان بين الحياة الإسلامية والحياة الفنية أو الأدبية أو العلمية إن لم يكن بين الفن والأدب والعلم وبين الإسلام تمام التطابق والاتفاق والتطابق وليس فى الإسلام أصل ينقض حقيقة ثابتة من العلم ، وكل ما يثبته العلم فى المستقبل يقبله الإسلام مقدما بنص القرآن ويؤول إليه النص إن خالفه فى الظاهر .

وإذا كانت هذه الفنون من روح الفطرة وجب ألا تخالف أو تناقض دين الفطرة — دين الإسلام — فى شىء ، فإذا خالفته فى أصوله ودعت صراحة أو ضمناً إلى رذيلة من أمهات الرذائل التى جاء الدين لمحاربتها ودعت الإنسان ألا يعمل بالفضائل التى جاء الدين لإيجابها على الإنسان حتى يبلغ ما قدر له من الرقى فى النفس والروح ، وإذا خالفت الفنون الدين فى شىء من هذا ، فهى بالصورة التى تخالف بها الدين فنون باطلة ، فنون جانبت

الحق ، ودابرت الخير وأخطأت الفطرة .

نحن ندعو إلى وجوب نزول الفن والأدب على حكم الدين وروحه وتحريهما التطابق التام بينهما وبينه .

ونحن بذلك نحقق بين الفن والأدب وبين الدين تلك الوحدة المحققة من الدين والعلم فنحقق وحدة حياة الإنسان كلها بذلك وتبرأ حياته من ذلك الداء المستعصى والشر البالغ ، شر وجود التناقض والتنافر بين ما يعشق من فن ويعتنق من دين .

فالمسألة فى الأدب ليست مسألة لفظ ومعنى فقط ، ولكنها فى صميمها مسألة روح ، فريق يريد أن يجعل روح الأدب روحا شهوانية بحتة يتمتع صاحبها بما حرم الله وما أحل ولا تفرق بين معروف ومنكر ، ثم يصف ما لقى من ذلك من لذة أو ألم أو غيرهما ويخرج ذلك للناس على أنه هو الأدب .

وفريق يريد أن يحيا الحياة الفاضلة فى حدودها الواسعة التى حدها الله وبمظاهرها المختلفة فى الفطرة كما طهرها الله . لا كما دنسها ويريد أن يدنسها الإنسان ويصف ما يتمتع به من تلك ويلقى فى سبيل ذلك غير ناسٍ لحظة أن الوجود كله من الله وإن الدين كله لله .

* * *

إن التجديد عمل يشق إلا على من يأخذ نفسه بأشد مما يطالب به الناس من التجرد من الهوى ، ومن الإخلاص للحق ولا غنى فيه بعد ذلك عن شيئين :

عن القدرة على تميز الحق من الباطل وعن الاستمساك بالحق بعد أن يمتاز . إن التجديد فى الأدب كالتجديد فى العلم لا يمكن أن يقوم إلا على أساس تعاون الحاضر والماضى ، يبنى العقل فى حاضره على أسس العقل فى ماضيه فإن الحق وحدة قائمة لا يقوم جزء منها إلا على جزء .

(٨)

حسن البنا

كان من أبرز ما توصل إليه الأستاذ حسن البنا أنه وضع القواعد الأساسية للتفرقة بين مفهوم الإسلام ومفهوم العلمانية فى جميع ميادين الفكر : السياسة والاجتماع والاقتصاد وفى مجال الثقافة والصحافة ، كما أنه بنى الجسور بين هذه العلوم وبين مفاهيم الإسلام ، واختار الرواد الذين تخصصوا فى الكشف عن عظمة الشريعة الإسلامية فى مجال الاقتصاد والمعاملات والتربية وغيرها ، بحيث أصبح هناك فكر إسلامى متميز مستمد من القرآن والسنة مكتوب بأسلوب العصر وصالح للتطبيق وقال فى هذا المعنى : نحن النجم القطبى ثابت منير يهدى إلى سواء السبيل ، ونحن الخلاصة المستنيرة والقوة الإيجابية الفعالة التى تؤثر فى مجرى الأمور .

إن مهمة الأخوان تكوين جيل جديد من المؤمنين بتعاليم الإسلام الصحيح يعمل على صبغ الأمة بالصبغة الإسلامية الكاملة فى كل مظاهر حياتها ﴿ **صبغه الله ومن أحسن من الله صبغة** ﴾ . وإن وسيلتهم إلى ذلك منحصرة فى تغيير العرف العام وتربية أنصار الدعوة على هذه التعاليم حتى يكونوا قدوة لغيرهم فى التمسك بها والحرص عليها والنزول على حكمها .

وقد حدد الاستاذ حسن البنا منهجه فى نقاط واضحة صريحة :

(**١**) موقفه من الحضارة الغربية :

إن نقف فى وجه هذه الموجة الطاغية من مدنية المادة وحضارة المتع والشهوات التى جرفت الشعوب الإسلامية فأبعدتها عن زعامة النبى ﷺ

وهداية القرآن وحرمت العالم من أنوار هاديها ، وأخرت تقدمه مئات السنين حتى ينحسر عن أرضنا ويبرأ من بلائها قومنا . ولسنا واقفين عند هذا الحد بل سنلاحقها فى أرضها وسنغزوها فى عقر دارها حتى يهتف العالم كله باسم الله وتوقن الدنيا كلها بتعاليم القرآن وينتشر ظل الإسلام الوارف على الأرض ، وحينئذ يتحقق للمسلم ما ينشده فلا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴿ **لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم** ﴾ .

(٢) منهج الإصلاح :

رأى قوم أن يصلحوا أخلاق الأمة عن طريق العلم والثقافة ، ورأى آخرون أن يصلحوها عن طريق الأدب والفن ، ورأى غيرهم أن يكون هذا عن طريق السياسة وغير هؤلاء عن طريق الرياضة ، وافعل الوسائل فى إصلاح النفوس (نفوس الأمم) هو الدين ، والدين الإسلامى جمع محاسن كل هذه الوسائل وبعد عن مساوئها . إن الأصلاح الحق لا يقوم إلا على : « تطهير النفوس وتجديد الأرواح »

(٣) نظام الإسلام :

نحن نعتقد أن أحكام الإسلام وتعاليمه شاملة تنظيم شئون الناس فى الدنيا وفى الآخرة . وأن الذين يظنون أن هذه التعاليم إنما تتناول الناحية العبادية أو الروحية دون غيرها من النواحى مخطئون فى هذا الظن ، فالاسلام عقيدة وعبادة ، ووطن وجنسية ودين ودوله وروحانية وعمل ومصحف وسيف والقرآن الكريم ينطق بذلك كله ويعتبره كله من لب الإسلام ومن صميمه ويوصى بالاحسان فيه جميعا ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما احسن الله إليك** ﴾ .

اتصل الأخوان بكتاب الله واسترشدوه فايقنوا أن الإسلام هو هذا المعنى الكلى الشامل وانه يجب أن يهيمن على كل شئون الحياة وأن تصطبغ جميعها به وأن تنزل على حكمه وأن تساير قواعده وتعاليمه وتستمد منه مادامت الأمة تريد أن تكون مسلمة إسلاما صحيحا .

صحافة اليقظة

المنار	رشيد رضا
الفتح	محب الدين الخطيب
الشبان المسلمين	الدكتور يحيى الدرديرى
الرسالة	أحمد حسن الزيات
دار العلوم	. . . .
الأزهر	فريد وجدى
النذير وصحف الإخوان	حسن البنا

برزت صحافة اليقظة فترة ما بين الحربين واستطاعت أن تؤكد وجودها فى مواجهة صحف التغريب ، وعلى المدى الطويل تساقطت صحف التغريب (السياسة الأسبوعية ، المجلة الجديدة ، العصور) واحدة بعد واحدة حتى انتهت من حيث الوجود المعنوى عام ١٩٣٣ تقريبا وذلك بظهور دورة جديدة من الصحافة الأدبية والإسلامية التى استطاعت أن تصمد فى المعركة حتى ما بعد الحرب العالمية الثانية وكان أبرزها :

« الشبان » ، و «الأزهر » ، و « الفتح » و « دار العلوم » و « المسلمون » و « الرسالة » و « المنار »[1] وكانت « الفتح » و « الرسالة » باعتبارهما مجلتين أسبوعيتين من أهم قوى اليقظة فى مجال الكلمة والدفاع وكانت « الفتح » أقرب إلى طابع القضايا الفكرية الإسلامية وأكثر أصالة وتمسكا بالقيم الأساسية للفكر الإسلامى .

ويمكن تلخيص أعمال كتاب اليقظة خلال هذه الفترة فى خمس قضايا كبرى .

(أولا) تصحيح المفاهيم وإعادة صياغة مفهوم الإسلام ، وتصحيح مفهوم ترابط الإسلام والعروبة .

(ثانيا) الرد على الشبهات والتحديات التى يثيرها المستشرقون والمبشرون والتغريبيون .

(ثالثا) إعادة كتابة التاريخ والأدب والفكر العربى الإسلامى .

(رابعاً) التركيز على عروبة مصر وإسلامية الثقافة .

(خامساً) تجديد اللغة العربية والدفاع عنها .

وقد أشار الدكتور محمود فياض فى بحثه القيم عن الصحافة الأدبية بين الحربين بأن الصحافة الإسلامية كانت ذات أثر بارز فى تعبئة الشعور الإسلامى .

* * *

---

(١) توقفت المنار عام ١٩٤٣ بوفاة السيد رشيد رضا .

- ١ -

مجلـــة « المنـــار »

يقول « المنار » فى افتتاحية المجلد الرابع والعشرين[1] .

إن « المنار » إنما أنشىء لإيقاظ الشرق وتجديد الإسلام بإعادة تكوين الأمة وحياة الملة والدولة لا لفروع الفقه وأصول الكلام ، ولا لجدليات المذاهب الدينية ولا لتأييد العصبيات الجنسية ولا لنشر ما يتجدد من قضايا العلوم ونظريات الفلسفة ومخترعات الفنون .

ولقد كانت لنا جامعتان سعد سلفنا بالاعتصام بهما وشقى خلفنا بالتفرق والاختلاف فيهما : جامعة روحية وهى كتاب الله وما بينته سنة خاتم النبيين وجامعة سياسية روحية وهى الإمامة العظمى .

* * *

(١) صدر المنار عام ١٨٩٩ وهذه الافتتاحية عام ١٩٢٠ .

(٢)

مجـلة « الفتـــح »[1]

لما خرج الناس من الحرب العالمية الأولى أخذ المؤمنون بثقافة الغرب من رجالنا وشبابنا يعدون العدة للاستيلاء على الرأى العام وتحويل وجهته عن المكتين وما أنزل الله فيهما ، إلى المعاهد القائمة على ضفاف التايمز والسين وما يصدر عنهما ، ووآتاهما الخط بما أحدثته (أنقرة) من أحداث[2] فتذرعوا بالثناء على جهادها الوطنى للدعوة إلى نتائجه فى الدولة والدين وتعميم ذلك التاريخ فى المشرقين والمغربين .

لم يكن للإسلام فى مصر صحف غير مجلة « المنار » ، ولا جمعيات غير جمعية مكارم الأخلاق ومجلتها ، أما النزعة الأخرى العاملة على تعميم الدعوة الأنقروية (نسبة إلى أنقرة) وتقليدها فكان فى أيدى رجالها أكثر الصحف وكانوا مشرفين على معظم المرافق والجمعيات .

وكان أنصارهم منبثين فى وزارة المعارف ومعاهدها ونظام الاحتلال يؤيدهم فى إبعاد الشباب عن الإسلام وحيويته جهد الطاقة .

وكان أحمد تيمور باشا هو الوجه المصرى الأول الذى شعر بالخطر الأعظم على مصر والوطن العربى والعالم الإسلامى وأشفق من أن يتم فيه ولو بالتدريج ما تم فى تركيا ، وكان رحمه الله لا ينقطع عن زيارة المطبعة السلفية يومياً إلا لمرض أو سفر ، وكانت المطبعة السلفية (١٩٢٤ — ١٩٢٥) فى شارع خيرت فانعقدت فيها اجتماعات حضرها أحمد تيمور ، أبو بكر يحيى ، عبد الرحمن قراعة ، السيد محمد الخضر ، على جلال الحسينى ، ونحو عشرة آخرين من هذه الطبقة تذاكروا موجة الإلحاد القوية التى طغت على العالم الإسلامى وهو على غير استعداد لدفعها لأن أمره

---

(١) أصدرت الفتح عام ١٩٢٦ .

(٢) يقصد إلغاء الخلافة الإسلامية وهو حدث من أبرز أحداث المرحلة .

ليس فى يده والذين أمره فى يدهم من المسلمين فهموا من الإسلام ألفاظ أوراده وحركات مسابحه وغفلوا عن أهداف جهاده وأسباب حيويته ، وانتهت هذه الاجتماعات بتقرير تأليف جمعية لمقاومة الإلحاد والتعاون على ذلك مع كل من يهمه الأمر فى الوطن الإسلامى ، ثم تبين أن الخطر أسرع من أن يعالج بمثل هذه الجمعية وأنه لابد من الاتصال بالرأى العام والشباب المثقف على الخصوص وأن الصحافة هى الوسيلة الأولى لذلك .

وكان الحصول يومئذ على امتياز لصحيفة إسلامية للغرض الذى نريده أشبه بالمستحيل غير أن أحمد تيمور باشا رحمه الله التمس لذلك الأسباب التى لا يقدر عليها غيره ، وتمكنا من الحصول على امتياز بإصدار « الفتح » (١٩٢٦ م) ومر على هذه التجربة عام تبين لنا فيه أن الخطر أفدح وأقوى من أن يعالج بهذه الأداة الضعيفة حينئذ فكرنا جيداً فى تأسيس جمعية الشبان المسلمين بإثنى عشر شاباً انتشروا فى الكليات والمدارس والأندية .

وبعد أشهر من تأسيس جمعية الشبان وفى نفس الغرفة التى ولدت فيها الجمعية سعدت بلقاء بضعة رجال كان المتكلم منها يحمل قلباً ولا كالقلوب ، إنه أمة وحده وقوة كنت أنشدها فى نفس مؤمن ، هو كاتب مقال : الدعوة إلى الله (حسن البنا) .

وبينما كانت بعض الجمعيات تتحول بالتدريج إلى أندية رياضية ، كانت هذه النواة تبشر بأنها هى الأمل الذى كان يرجوه شيوخ الله يوم اجتمعوا يعلنون وجه الرأى فى السلاح الذى يعاملون به موجه الإلحاد[1] .

(٢)

وضعت الفتح برنامجها على النحو الآتى :

- التشريع الإسلامى أرحم وأعدل من كل تشريع تقدمه أو جاء بعده .
- لحضارة الإسلام القائمة على أساس من أنظمته وتعاليمه مزايا لا توجد فى حضارة الغرب المحكوم علينا الآن بأن ننضوى تحت

(١) من ذكريات الخطيب . الفتح م ١٨ ص ٦٤ .

لوائها وهذه المزايا ذات صلة عظيمة بسعادة الإنسانية .

- لا يستطيع شباب المسلمين أن يحملوا أمانة الميراث الإسلامى عن الأجيال الماضية إلى الأجيال الآتية إلا إذا تثقفوا ثقافة ذات صبغة إسلامية من جميع النواحى .
- المسلمون أمة واحدة والوطن الإسلامى وطن واحد .

وحددت مجلة « الفتح » أهدافها على هذا النحو :

- أحياء ذكرى المدينة الإسلامية .
- صلاح الأصول الإسلامية الصحيحة الانطباق على مقتضيات كل عصر ومكان .
- مقاومة الإلحاد ودعوى التجديد الكاذب .
- بيان أن العلم الصحيح يتآخى مع الدين الإسلامى ولا يتنافى مع أصله .
- أخبار العالم الإسلامى التى تتصل بالوجهة الدينية الاجتماعية .
- بيان أسس التشريع فى المملكة الإسلامية وبيان حكمه فى كل مسألة .
- تفسير القسم الاجتماعى والأخلاق من القرآن والسنة .

*　*　*

(٣)

مجلــة « الشـبان المسلمين »[١]

يقول الدكتور يحيى الدرديرى فى إفتتاحية المجلة فى عامها الأول :

يرجع ما نحن عليه معشر المسلمين من نقص الأخلاق إلى أسباب عدة الجهل بالشرع ، تقليدنا لسيئات المدنية الغربية ، إهمال الفئة المتعلمة منا لواجباتها نحو محاربة البدع والضلالات التى سرت فى جسم الأمة .

وتدهورنا الحقيقى له مظهر بارز من اسم التجديد الذى أصبح سلاحا فى يد الضعفاء والأغرار يدرأون به ما يأتونه من منكرات وما يذيعونه من سموم الإلحاد ، فإذا كنا نريد حقاً أن نكون فى مصاف الشعوب الراقية فعلينا أن نسلك الطريق القويم الذى دلت عليه تجارب الماضى ومشاهدات الحاضر .

وعندئذ أنه ليس هناك دواء ناجع لبرئنا مما نحن فيه من علل وأمراض إلا الرجوع إلى القرآن الكريم ، وهو خير كتاب يدعو إلى جماع الفضائل فى أعلى مراتبها ، فهو جدير بحق أن يكون أساساً ومرشداً ومرجعاً لنهضتنا الخلقية التى بدونها لا تصلح أى نهضة أخرى : اجتماعية كانت أو اقتصادية أو غيرها .

إن أساس معتقدات القرآن الكريم سواء من ناحية الإيمان أو من ناحية الإصلاح قائمة على حرية الفكر والعلم وقد جرى فيهما شوطاً لا يلحق .

---

(١) صدرت عام ١٩٢٩ .

(٤)

مجـلة « الرسـالة »[1]

لقد كان على « الرسالة » أن تجاهد خصوما ثلاثة جمعهم عليها دفاع الطفيلى عن وجوده :

(أولا) زهادة الشباب فى القراءة وبخاصة ما كان جديا فيها .

(ثانياً) طغيان الأدب اللاهى على الأذواق الناشئة .

(ثالثاً) نفور طائفة من الأدباء من هذه اللغة التى نقرأ بها ، ومن هذا الأدب الذى نذوق ، فهم يجلبون الأدب الأوروبى بمعانيه ومراميه وروحه ثم يلبسونه طربوشا أو عمامة ويقولون له تكلم فيتكلم على الرضى أو على الكره ، ولكنك لا تسمع بالطبع إلا عربية كعربية الرومى فى البار أو الإيطالى فى المتجر .

قالت « الرسالة » لهؤلاء : مادمتم تتكلمون بالعربية فلابد من فنها وآدابها وما دمتم تعيشون فى الشرق فلابد من إلهامه وطابعه ، أما أن تحاولوا طمس حدود الأرض ونسخ قوانين الطبيعة وقطع سلسلة الزمن فذلك مجهود لا يضعه الناس إلا فى قراره المحق .

فقالوا إننا ننشر ثقافة العصور المظلمة ونجدد أساليب البيان القديم ، يريدون بالعصور المظلمة عصر الرشيد وابنه المأمون فى آسيا ، وعصر الناصر وابنه الحكم فى أوروبا ، وعصر العزيز بالله وابنه الحاكم فى أفريقيا .

وهى العصور الثلاثة التى جلت عن الأرض دياجير القرون فكشفت عن الأفق للإنسان ، وهيأت العقل للعلم ، وراضت البربر على الحضارة ، وهم فى ذلك أيضاً يقلدون الكتاب الأوروبيين فى نعتهم عصور الحرمان بالظلام .

---

(١) صدرت عام ١٩٣٢ وهذه المقدمة كتبت عام ١٩٣٧ .

ثم يريدون بأساليب البيان القديم تلك الأساليب التى تجرى على قواعد الفن فلا يشوهها لحن ولا تتعاورها ركاكة ، قطعوا أنفسهم عن الموارد الروحية لهذه اللغة فصاغوها من حروف الهجاء لا من الأعصاب والدماء ، ثم آذوا فطرة الإنسان فجعلوا قوة الأسلوب عيباً وجمال الصياغة نقيصة .

* * *

وقد سجلت مجلة « الرسالة » منهاجها على غلافها محددة أهدافها :

- « الرسالة » مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية .
- تصل الماضى بالحاضر وتربط الشرق بالغرب على هدى وبصيرة .
- تعبر عن روح النهضة المصرية .
- تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية .
- تصور مظاهر العبقرية للأمة العربية .
- تسجل مظاهر التجديد فى الآداب العربية .
- تحيى فى النشء أساليب البلاغة العربية .
- ترصد ظواهر التطور فى الحركة العلمية[1] .

* * *

---

(١) اشترك فى تحريرها : الرافعى والعقاد وشلتوت والمراغى وعزام وقدمت من الكتاب عبد المنعم خلاف وعلى الطنطاوى والخفيف وقطب وفهمى عبد اللطيف وسعيد العريان ومحمود محمد شاكر وعبد الغنى حسن وكتب بها مؤلف هذا الكتاب فى السنوات الأخيرة .

(٥)

مجـــلة دار العلـوم[١]

١ ــ صدرت مجلة دار العلوم لتحمل رسالة واضحة عبر عنها الأستاذ أبو الفتح الفقى : « أبناء دار العلوم سدنة العربية وحماتها وأولياء لغة الدين ورعاتها وقد ظلوا ثلاثاً وستين سنة يؤدون رسالتهم على وجهها الأكمل مبرهنين على جدارتهم بالثقة التى وضعت فيهم وكفايتهم للأمانة التى حملوها وليس إنتاجهم العلمى وأثرهم الأدبى فى مختلف نواحى الحياة المصرية بحاجة إلى دليل على أنهم أرادوا فى سنة ١٩٠٦ تعميما للفائدة أن تكون لهم صحيفة فكانت ، وكانت لسان صدق مبين ، ثم عصفت بأبناء دار العلوم عواصف هوجاء حتى كانت نهضة ١٩١٩ فأخرجوا بالاشتراك صحيفة « المعلمين » دامت عدة سنوات وكانت خير ما أخرج للأمة فى بابها .

٢ ــ حين نفرق بين ما يصلح فى تربية أبائنا وبناتنا وما لا يصلح فإن الناس قد فتنوا بمبتدعات الغرب وشغفوا بكل مستخدماته ، على الرغم مما قد تنطوى عليه من زيف ونسوا أن لكل بلد ظروفا اجتماعية وعادات متوارثة وعقائد دينية خضعوا لسلطانها قرونا متعاقبة ، وأوضاعا جروا عليها حقبا من الدهر وطرائق فى التفكير وأساليب فى الحياة تميزهم عن سواهم وليس هناك شك فى أن كل إصلاح لا يحسب لهذه العوامل وغيرها حسابا لا يمكن أن يصل بالأمة إلى ما تصبوا إليه من غايات .

٣ ــ ثم إن هناك أمراً لا محيص من البحث فيه ، ذلك هو تراث أسلافنا وكنوزهم العلمية ومعرفة ما خلفوه من أفكار أضاءت للناس السبيل حين عز الهادى وأعوز الدليل .

ودار العلوم مستقر العلم فى الشرق وموئل طلابه وحلقة اتصال بين الثقافات المختلفة لا فرق بين الشرقية منها والغربية[٢] .

---

(١) صدرت عام ١٩٣٤ .

(٢) اشترك فى تحريرها : السباعى بيومى وحامد عبد القادر وزكى المهندس وصالح هاشم وعبد الرحيم محمود وعبد الغنى المنشاوى وعلى عبد الواحد ومحمد عطيه الإبراشى ومهدى علام ومحمود محمد مصطفى ومصطفى السقا وطه أحمد ابراهيم وعبد الحميد حسن وعبد الوهاب حمودة ومحمد على مصطفى .

(٦)

مجــلة الأزهــر[1]

أشار العلامة محمد فريد وجدى إلى مهمة مجلة الأزهر فقال :

« إن الجامع الأزهر الذى قدر الله له أن يرفع علم الإسلام عاليا منذ نحو ألف سنة قد قصد من نشر هذه المجلة أن يتيح لمن لم يسعده الحظ بالانخراط فى سلك طلبته أن يطلع وهو فى عقر داره على أفضل ما تثمره قرائح أعلامه من شروح قيمة لكتاب الله وسنة رسولة ، وبحوث ممتعة فى شريعته وحجج ساطعة فى الدفاع عن أصوله والمكافحة عن حقائقة .

« قد كان جهدنا أن نرد على تخرصات المتخرصين باللغة العربية وليس هناك من يفهمها (أى فى العالم الغربى) فتسرى أقوالهم حرة مطلقة فى العالم الغربى وتروج فيه دون أن تجد مفندا لها بلغة يفهمها الذين قرءوها فترسخ فى أذهانهم وتصبح عقائد لهم ، يتناقلونها فيما يكتبونه عن الإسلام والمسلمين ولكن بوجود هذه المجلة يمكن دحض هذه الشبهات بلغة أوربية كثيرة الأنتشار لا تعدم من يفهمها فى كل بقعة من بقاع الأرض ، فلا تلبث هذه الشبهات أن تضمحل وأن تزول فيقف أولو العلم على حقيقة هذا الدين ومراميه العالية ، ويكون من أثر ذلك أن يتناولها بعض الباحثين الإخصائيين ويكتبوا عنها كتابات تخدم فى إعلاء كلمة الله هنالك خدمة عظيمة الخطر بعيدة الأثر جليلة الفائدة .

* * *

---

(١) صدرت مجلة الأزهر عام ١٩٣٠ باسم مجلة نور الإسلام ورأس تحريرها الشيخ محمد الخضر حسين ثم عدل اسمها إلى مجلة الأزهر ورأس تحريرها فى هذه الفترة فريد وجدى .

(٧)

مجـــلة « النذيـــر »

أنشأ « الإخوان المسلمون » عدداً من الصحف فى هذه الفترة كان أبرزها مجلة النذير (١٩٣٨) التى يشرف عليها الأستاذ حسن البنا ويرأس تحريرها الأستاذ صالح عشماوى ويكتب فيها عدد من كتاب الإخوان .

وقد أشار الأستاذ حسن البنا إلى هدف المجلة فقال :

منذ عشر سنوات قام الإخوان بدعوتهم وعماد هذه الدعوة وشطرها وأصلها وفرعها أن تركز النهضة الإسلامية الحديثة على قواعد ثابتة من تعاليم الإسلام الحنيف وأن تهيمن بروح الإسلام وكلمة القرآن على كل ناحية من نواحى الحياة ومظهر من مظاهرها فى كل هذه الأمم ، فنظام الحكم يجب أن يكون إسلاميا قرآنيا ، وقوانين البلاد المسلمة يجب أن تكون إسلامية قرآنية وبيوت المسلمين وعاداتهم وتقاليدهم يجب أن تكون مستمدة من روح الإسلام ولا تتنافى مع شرعه وحدوده وما أمر به وحض عليه والعقائد والعبادات والأخلاق وكل شىء مما يتعلق بالفرد أو بالأسرة أو بالأمة يجب أن يكون مأخوذا من الإسلام تابعا لما جاء به رسول الله ﷺ عن ربه وبذلك تعود إلى المسلمين قوتهم الروحية وقوتهم المادية واستقلالهم المفقود وعزهم الضائع ومجدهم المغصوب ، وسيظل الأخوان ينادون بهذه المبادىء ويعملون لها وسيجاهدون فى سبيل تحقيقها حتى يصلوا ، وسيضحون بكل شىء فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية لا يثنيهم عن ذلك شىء حتى يأتى أمر الله .

إن الذين وضعوا الدستور المصرى قالوا فى المادة التاسعة والأربعين

بعد المائة منه إن (دين هذه الدولة الرسمى هو الإسلام) فالأمر لا يعدو واحدا من اثنين ، إما أن يكونوا جادين فى هذا الذى سجلوه على أنفسهم فى الدستور المصرى ، فيجب أن يكون محل احترام منهم وأن يعملوا جاهدين حتى تحل النظم الاسلامية محل كل نظام غير إسلامى فى كل شيء ، فى الحكم والقانون والعبادات والمعاملات ، وإما أن يكونوا لا يقصدون ما يقولون وهم بذلك يعبثون ويلهون ويغشون الشعب ويخدعونه ، ومن ثم علينا أن نتقدم اليهم بالنصيحة فإن فعلوها فبها والا فنحن دائبون فى جهادنا عاملون على تحقيق هذه الغاية مهما كلفنا الأمر .

* * *

الفصل الثامن

الانتقاض على حركة التغريب

منصور فهمى	:	ذاتيتنا والحضارة
إسماعيل مظهر	:	ترابط العروبة والإسلام
الدكتور هيكل	:	المنبع الوحيد هو الإسلام
زكى مبارك	:	اللغة العربية

(١)

منصـــور فهمـــى

كان الدكتور منصور فهمى من أوائل شباب البعثات الذين أوفدتهم الجامعة المصرية إلى أوروبا قبل الحرب العالمية الأولى ، وكانت رسالته عن المرأة المسلمة الاجتماعية من أخطر الأطروحات التى أثارت كثيراً من الجدل لما حوته من شبهات وأخطاء ، فقد وضعها تحت إشراف « ليفى بريل » اليهودى الذى كان له أثره البعيد فى الآراء المنحرفة التى أوردها منصور فهمى وكانت سبباً لمساجلات عديدة(١)والتى حالت سنوات طويلة دون اشتراكه فى الحياة الفكرية المصرية ، غير أن الدكتور منصور فهمى لم يلبث أن استرد إيمانه وانتقض على حركة التغريب وجاهر بآرائه فى الأخطاء التى حملها طه حسين ومدرسة التغريب وقد كانت له مواقف كثيرة تكشف هذا الاتجاه الجديد إلى التصحيح ومن ذلك هذه النماذج :

— ١ —

إن الكثير(٢) مما لحقنا عن الغربيين واتخذناه من مكشفاتهم واصطنعناه من مخترعاتهم كان لابد لنا من اتخاذه واصطناعه ، لأن الخيرات التى تثمرها عقول البشر ليست وقفاً على ناحية من نواحيه ، ولكن هناك فرقاً بعيداً وبونا شاسعاً بين من يأخذ من غيره ويستعين بطرائق هذا الغير ، وبين من يأخذ عن الغير ليركن إلى ما يأخذه فيعطل قواه المواتية ونشاطه الكمين وشتان بين من يأخذ سلاح الغير ليقهره به وبين من يتخذ سلاح الغير ليكون له إماما .

---

(١) راجع هذه المساجلات فى كتابنا المعارك الأدبية .

(٢) الكلام فى الرد على الدكتور طه حسين .

وشتان بين من يتخذ من التقليد وسيلة للمغايرة والابتكار .

أو لا يرى من يدعونا ويريدنا على أن نمعن إلى الاقتداء بالغربيين فى مسائل الثقافة أو فى غيرها أنه إنما يدعو فى نفس الوقت فى استساغة موقف الاستكانة والركون إلى الانقياد .

على الأمة التى تريد عزتها أن تمعن فى الابتكار بمعانى هذه العزة وبرغبتها فى أن تغاير غيرها من الأمم بمشخصات وصفات ترفعها عن غيرها من الأمم .

ـ ٢ ـ

نحن وفق مقومات فكرنا العربى الإسلامى لا نقبل عيوب الحضارة الغربية ونواجهها بمواجهة الإصلاح والنقد حتى نقارب المثل الأعلى لأمتنا وبين الواقع ، والمفكر يجب أن يعيش عصره ، هذا إيمانى ، ولكنه مكلف بتحويله إذا انحرف والتحفظ على اندفاعاته وتعديل المجرى أمامه ليصل إلى الغاية المثلى .

والغايات العليا والكبرى للأمم لا تتم دفعة واحدة ، ولكنها تتم على مراحل ولا يمكن أن تنقل أمتنا العربية من واقعها الذى يقف الآن فى مرحلة الجذر إلا على مفهوم واضح ببناء أساس فكرى روحى سليم يمكن أن يواجه القيم والأفكار القادمة من الشرق أو الغرب حتى لا تجرف كياننا ولا تجعلنا ممسوخى الشخصية .

ـ ٣ ـ

إننا منذ أوائل القرن نظرنا إلى أوروبا واتخذناها مثلا نحتذيه :

أيهما ياترى أهدى إلى الحق وأوفى إلى سبيله ، ذلك الذى يجد أن حياتنا الاجتماعية تظل فى عوج واضطراب مادمنا لا نحتذى أثر الغرب ونقدم على اصطناع مثله فى صراحة وعزم ، أم ذلك الذى يرى أن أمتنا ليست كأمم الغرب فى كل شىء ، وأن اتخاذ أكثر نظم الغربيين لا يجدى فى رفعنا وإسعادنا وقد يعود علينا بالشقوة والخسران .

وقد يجرنا القادة إلى اتباع أوروبا مما هو أبعد الأمور عن طباعنا ، فهل من المستطاع بعد ذلك أن يسهل علينا الرجعة والنكوص . ليست بيئتى

هى بيئة الغرب فهذه سماؤها غير سماء الغرب وهذه لغتها غير لغته ، وهذا ما ورثناه من عادات ومحن وظروف وحروف غير ما ورث الغرب .

أتكون مكوناتنا غير مكوناته ومميزاتنا غير مميزاته ، وظروفنا وحروفنا غير ظروفه وحروفه ثم يراد بنا أن نكون كالغربيين . ويحاول داعية صريح أن يقنعنا بأن نتخذ من الغرب إماما نأتم به فى كليات ما يسير عليه الغرب وفى جزئياته .

إن النفس لتدعونى أن أحتفظ بالخصائص التى أراد الله أن يميز بها أمة أنا من بينها وأن أتمسك بميراث انحدر إلى بلدى من قرون وأن أستوحى ما يوحى به تاريخى على الأمة التى تريد عزتها ، وأن تغاير غيرها من الأمم بمشخصات وصفات .

— ٤ —

إن أصحابنا المجددين لا يرضيهم إلا أن نكون عصابات تتناحر ، ففئة تهاجم العرب وتاريخهم ، وفئة تهاجم الأزهر وتعاليمه ، وفئة تجرح الدين وتقاليده وفئة تهدم اللغة الفصيحة ، وهكذا دواليك حتى تصبح مصر فى عراك دائم وفتنة شاملة وكرب موصول .

ما هى الآراء القيمة التى يذيعها بعض الكتاب باسم التجديد !

كل ما عندهم أنهم يتكلمون عن اللغة الفصيحة وبعدها عن اللغة العامية ، وهذا يدل على جهلهم بلغات الأمم الحديثة ، فمثلا اللغة الإنجليزية تكتب فيها الكلمة بشكل وتنطق بشكل آخر ، واللفظة الواحدة ينطقها الأستاذ فى مدرسته أو جامعته بلهجة خاصة وينطقها عامل الترام مثلا بلهجة أخرى ، والحال كذلك عند الفرنسيين ، ومع ذلك لم نجد فى الأمم الحية من يقول بإحلال العامية محل اللغة الفصيحة .

ويتكلمون عن القومية المصرية ويريدون بذلك أن تنفصل مصر عن أمم الشرق وهذا خطأ ، ومن العجيب أن سلامة موسى وحسين هيكل يتكلمون كثيراً عن الإنسانية وروابطها الأدبية والعلمية ثم ينسون ذلك كله حين يجرى ذكر العرب والمسلمين ، فهل أصبح العرب والمسلمون شعبة أخرى لا يصح أن يرتبط بها المصريون ؟ .

(٢)

إسماعيل مظهر

كان إسماعيل مظهر من أئمة مدرسة التغريب وقد حفلت مجلة (العصور) بالأبحاث الضارية فى مجال تعزيز آراء المستشرقين والمبشرين والنعى على مختلف القيم العربية الإسلامية ، غير أن حركة اليقظة العربية الإسلامية استطاعت أن تكشف كثيراً من هذه الشبهات وتحرر العقلية العربية من هذه الزيوف والشبهات ولم تلبث كتابات إسماعيل مظهر أن كشفت عن هذا التحول والانتقاض :

وهذا نموذج من كتاباته :

ينبغى لكل عربى أن يكون فى دخيلة نفسه عربيا روحا ونفساً ، مثله الأعلى آداب العرب وآداب الإسلام ، وسياسته الدنيوية سياسة العرب وسياسة الإسلام .

بأى شىء يوحى ذلك المثل الأعلى :

يوحى إليك بأنك إن لم تكن حراً فلست بعربى ولا بمسلم وأنك إذا لم تكن مستقلا فلست بعربى ولا بمسلم .

إنما أقرن الكلام فى العروبة بالإسلام لأن الثابت الذى لا لجاج فيه ولاريب يدخله أن الإسلام لم ينزل بلغة العرب فقط ، وإنما نزل بأخلاقهم وصفاتهم الروحية العليا ، فالعربى النصرانى مسلم بصفاته العربية ، والمسلم عربى بما فى الإسلام من روح العرب ، هذه هى الجامعة التى تربط بين العرب على اختلاف عقائدهم وتباين مشاربهم .

أقول مملوءاً ثقة بصحة ما أقول أن الإسلام فكرة جامعة ، ومعنى أنه فكرة جامعة : أنه دين ودولة ، ومهما قيل اليوم بعكس ذلك ، ومهما حاول البعض أن يخرج عن الإسلام بهذه الصفة ، ومهما قيدت نظامات الحكم فسيظل الإسلام فكرة جامعة تجمع الدين والدولة فى فكرة واحدة هى فكرة الدفاع عن المجموع الذى يستظل بظل الإسلام ، مهما تفرقت فيه النحل ، واختلفت المذاهب ، وتباينت النزعات ، فإذا كانت حكومات المسلمين فى هذا العصر قد اضطرت مغلوبة إلى مجاراة روح النظام الحديث فى المدنية الأوروبية ، ففصلت الدين والدولة ، فإن هذا الفصل لا يتعدى أنه فصل فى الأوضاع لا فى الروح ، فإن كل حكومة من حكومات الإسلام قبلت فصل الدين عن الدولة وأقامت على ذلك نظاماتها الحديثة فإنها قد نصت فى دساتيرها على أن دين الدولة : الإسلام .

أعتقد أن هذا النص لم يثبت فى دساتير الدول الإسلامية إلا استجابة لوعى خفى مستمد من روح الإسلام ، وأنه دين ودولة معاً أملته على هؤلاء المشرعين روح إسلامية لم تخب فى أنفسهم يوما شعلتها وإن كانت قد استخفت فإنما كان استخفاؤها تحت ضغط الظروف .

كل هذا لأقول أن روح الإسلام ، تلك الروح التى نشأت بنشوء الإسلام وستظل باقية ما بقى الإسلام ، والتى أنشأت أول نظام موحد من الدين والدولة وأدمجتهما معاً هى روح لا تفرق بين رعايا الدولة من حيث العقائد بل إنها روح تقدس الحرية أولا وتحمى رعاياها حماية بلغت منها درجات التسامح فى الدنيا .

فإذا قال أحدنا جامعة إسلامية فإنما يعنى جامعة عربية روحها الإسلامية ، وإذا قال أحدنا جامعة عربية فإنما يعنى جامعة إسلامية روحها العربية ، وكل قول يباين هذا القول خطأ ، وكل منزع يخالف هذا المنزع شعوبية خسيسة[1] .

---

(١) المقتطف نيسان ١٩٤٥ .

(٣)

الدكــــتور هيــــــكل

كان الدكتور محمد حسين هيكل رئيس تحرير جريدة « السياسة » فى مقدمة دعاة التغريب ومن أبرز الذين انتقضوا على هذه الحركة ، ثم استطاع فى جرأة أن يكشف دعوته إلى هذا الانتقاض وأوضح فى صراحة بالغة كيف كان مفهومه لطريق التجديد والنهضة ثم كيف اضطربت به السبل حتى لم يجد أخيراً إلا الطريق الأصيل :

الفكر الإسلامى .

* * *

أقف هنا لأدفع زعماً حسب الذين زعموه أنه مغمز غمزونى به بعد تأليف كتابى[1] حياة محمد ، حسب هؤلاء أننى انقلبت بكتابة السيرة رجعياً وكنت عندهم قبلها فى طليعة المجددين ، وكيف لا أنقلب عندهم رجعياً وقد جعلت القرآن حجتى ، وما جاء فيه عن السيرة سندى ولم أضعه كما يقولون موضع النقد العلمى ، وكيف لا أنقلب عندهم رجعياً وقد دفعت بالحجة ما طعن به على النبى العربى جماعة المستشرقين ومن تابعهم من كتاب المسلمين .

وكيف ساغ لى بعد ذلك أن أزعم أمامهم فى حياة محمد ، وأن أزعم اليوم هاهنا أننى طليق من القيود عدو للجمود نصير للبحث العلمى الحر ، وأننى أؤمن بحرية الرأى وأعتبرها الأساس لا أساس غيره لمن يريد معرفة الحقيقة .

ولكنى أسائل أصدقائى أحرار الرأى عن غايتنا جميعاً حين ننتج :

ألسنا نبتغى التقدم خطوة جديدة فى سبيل الكمال ، فالعالم يبغى مزيداً من العلم ومن الثقافة ، وطالب الحقيقة يريدها أجلى سنا وأعم نوراً وإنما مطمعنا حين نلتمس المزيد من المعرفة أن نسمو بهذا الجانب الإنسانى فى الأفراد والجماعات ، ولقد خيل إلى زمنا — كما لا يزال يخيل إلى أصحابى — أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا إلى النهوض .

لقد كنت عظيم الثقة بالعلم وبالطريقة العلمية الغربية فيما ستؤدى إليه من معرفة حقيقة الكون التى هى ملاك السعادة . ثم تمخضت الحرب عن حقيقة بلغت قوتها عندى سنة ١٩٢٠ وهى فقدان الثقة بالغرب وأدركت أنه يعانى من أزمة روحية يلتمس علاجها فى فلسفة الهند .

وإلى هذه الحقيقة لاحظت فى اتجاه السياسة الأوروبية ظاهرة غريبة : تلك هى نشاط التبشير المسيحى فى الأمة الإسلامية ، وتأييد السياسة الغربية فى ذلك الوقت لأنصار الجمود الإسلامى .

---

(١) يشير بهذا إلى الدكتور د . طه حسين عليه عندما صحح رأيه فى التغريب واتهمه بأنه لا يتعمق الأشياء . (اقرأ كتابنا المعارك الأدبية) .

وإن الشباب المصرى الذين كانوا رسل الحضارة الغربية — إيماناً منهم بأنهم سبيل نهضتهم — قد تفتحت أعينهم على كيد الغرب لدينهم وأنهم غضبوا لإسلامهم الذى تريد الدول المسيحية أن تمحوه ، وجعل كل منهم يفكر فى وسيلة للخلاص من الغرب ، فاتجه فريق منهم إلى الرابطة الشرقية ، واتجه آخرون إلى الجامعة العربية ، وفكر ثالث فى إحياء الخلافة الإسلامية ورأى فريق رابع أن يحارب الاستعمار الغربى بأسلحته فتمسك بمبدأ القومية .

لقد خيل إلىّ زمنا كما لا يزال يخيل إلى أصحابى أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا إلى هذا النهوض . وما أزال أشارك أصحابى فى أنا ما نزال فى حاجة إلى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله . لكنى أصبحت أخالفهم فى أمر الحياة الروحية وأرى ما فى الغرب منها غير صالح لأن أنقله . فتاريخنا الروحى غير تاريخ الغرب وثقافتنا الروحية غير ثقافته . خضع الغرب للتفكير الكنسى على ما أقرته « البابوية » المسيحية منذ عهدها الأول . وبقى الشرق بريئاً من الخضوع لهذا التفكير بل حوربت المذاهب الإسلامية التى أرادت أن تقيم فى العالم الإسلامى نظاماً كنسياً أهول الحرب . فلم تقم لها فيه قائمة أبداً . بذلك بقى الشرق مطهراً من الأسباب التى أدت إلى اضطراب الغرب الروحى ، وإلى ثوراته السياسية التى نشأت من هذا الاضطراب وبقى المسيحيون المقيمون بالشرق فى جوار المسلمين فى طمأنينة لا يصلون من نيران الثورات والحروب الأهلية ما كان يصلاه إخوانهم فى الغرب . كان الخروج على الكنيسة المسيحية فى الغرب إعلاناً للثورة على السلطان ، وكانت الثقافة الروحية لذلك فى قبضة رجال الدين يبرمون من أمرها ما يشاءون إبرامه وينقضون ما يشاءون نقضه . أما والإسلام لا يعرف الكنسية وأقرب الناس فيه إلى الله أتقاهم ، ولا فضل فيه لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، فقد بقيت الثقافة الروحية فى الشرق حرة طليقة لم تقيد إلا حين قعد الجهل بالناس ، ففترت الأذهان وخمدت القرائح وجمدت القلوب . لم تعرف عصور الازدهار الإسلامى قيداً لحرية الفكر ما كان صاحبه برىء القصد يبتغى برأيه سبيل الحق ، ولم يعرف المسلمون أن الذنوب يغفرها غير الله . لذلك كيف نستطيع أن ننقل ثقافة

الغرب الروحية لننهض بهذا الشأن وبيننا وبين الغرب فى التاريخ وفى الثقافة هذا التفاوت العظيم . لا مفر إذاً من أن نلتمس فى تاريخنا وفى ثقافتنا وفى أعماق قلوبنا وفى أطواء ماضينا هذه الحياة الروحية نحيى بها ما فتر من أذهاننا وخمد من قرائحنا وجمد من قلوبنا .

— ٢ —

هذا كلام واضح بين ، ومن عجب أن يخفى على أصحابى فلا يرونه وأن يكون خفاؤه سبب تثريبهم علىَّ ، ولكن لا عجب ، فقد خفى على زمناً كما لا يزال خفياً عن كثيرين منهم ، وقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتى ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لنتخذهما جميعاً هدى ونبراسا ، لكننى أدركت بعد لأى أننى أضع البذر فى غير منبته ، فإذا الأرض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ولا تنبت الحياة فيه . وانقلبت ألتمس فى تاريخنا البعيد فى عهد الفراعين موئلاً لوحى هذا العصر ينشىء فيه نشأة جديدة ، فإذا الزمن وإذا الركود العقلى قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذراً لنهضة جديدة .

ورويت فرأيت أن تاريخنا الإسلامى هو وحده البذر الذى ينبت ويثمر ، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو .

هذه الفكرة الإسلامية تخالف ما يدعو إليه عالمنا المعاصر من تقديس القوميات ، وتصور الأمم فى وحدات متنافسة بحكم السيف وبحكم أسباب الدمار بينها فيما تتنافس فيه .

ولقد تأثرنا معشر الشرق بهذه الفكرة القومية واندفعنا ننفخ فيها روح القوة لا نحسب أننا نستطيع أن نقف بها فى وجه الغرب الذى طغى علينا وأذلنا .

ولقد أنسانا بريق حضارة الغرب ما تنطوى على الفكرة القومية من جراثيم فتاكة تأكل الحضارة التى تقوم على أساسها وحدها[1]

على أن التوحيد الذى أضاء بنوره أرواح آبائنا قد أورثنا من فضل الله

(١) فكرة القومية هنا هى فكرة القومية المصرية أو الفرعونية التى كانت سائدة إذ ذاك .

سلامة فى الفطرة هدتنا إلى تصور الخطر فيما يدعو الغرب إليه ، وإلى أن أمة لا يتصل حاضرها بماضيها خليقة أن تضل السبيل ، وإلى أن الأمة التى لا ماضى لها لا مستقبل لها .

ومن ثم كانت الهوة التى ازدادت قوتها بين سواد الأمم فى الشرق والدعوة إلى إغفال ماضينا والتوجه إلى وجهة الغرب بكل وجودنا .

لذلك لم يكن لنا مفر من العود إلى تاريخنا نلتمس فيه مقومات الحياة المعنوية لنتقى الخطر الذى دفعت الفكرة القومية الغرب إليه .

دعوت إلى إحياء حضارتنا السابقة ، وكم فى ماضينا من سنا باهر يقدر على أن يبعث الحضارة الإسلامية خلقاً جديداً ، كما بعث فلاسفة اليونان فى الحضارة الغربية الحديثة . ومحمد بن عبد الله هو النور الأول الذى استمدت هذه الأرواح منه صفاءها ، وهو الشمس الذى أمدت كل هذه الأقمار بسناها ، لذلك جعلت سيرته موضع دراستى .

إن ثلاثة وعشرين قرنا انقضت وينتصف القرن الرابع عشر منذ وفاة النبى ﷺ ولم تستر هذه المآخذ من ضيائه إلا ما يستر كلف الشمس من ضياء الشمس ، ولم يغير هذا النقد من سلطان الحق فى كلام الله إلا ما تغير الرياح من سنن الطبيعة .

— ٣ —

تحدث مستر جب فى مقدمة كتابه (وجهة الإسلام) وخاتمته عن « تغريب الشرق » وما عنى به إبدال الشرق فى نظمه وقوانينه وطرائق العيش فيه نظما وقوانين وطرائق عيش غربية بحتة . وإذا كان هذا التبشير يقصد به إلى تغريب الشرق ليصبح غربياً بالفعل عادات ونظما وعقائد وديناً[1] .

فتغريب الشرق إنما يقصد به إلى :

(١) قطع صلة الشرق بماضيه جهد المستطاع فى كل ناحية من النواحى ، صلة العقيدة والتفكير بين الماضى والحاضر .

---

(١) السياسة اليومية ١٩ يونيه ١٩٣٣ .

(٢) صبغ ماضى الشرق بلون قاتم مظلم يرغب عنه أهله ، ويرون فيه عاراً عليهم .

(٣) أن يصبحوا عيالا على الغرب يتطلعون إليه فى إعجاب وتقديس وعبادة ، ويرون فى خضوعهم له شرفاً كبيراً .

وما يزال الغرب يبذل الهمم الكبيرة فى هذا المجال ، وأحسب أن كتاب الغرب قد نجحوا إلى حد كبير فى تصوير تاريخ أمم الشرق بلون قاتم جعل أبناء الشرق أنفسهم يحسون أن بينهم وبين أيام مجدهم ألوفاً من السنين انقضت ، كانوا أثناءها خاضعين لألوان من الذلة لا يستطيعون اليوم معها أن يشعروا صحيحاً بمعنى الحرية ، أو بمعنى العزة القومية ، هذا التصوير زائف فى نظر التاريخ المنصف ، فمصر إلى حين الفتح التركى كانت مستقر الحضارة الإسلامية الزاهرة التى أضاءت العالم عصوراً طويلة ، ومن بعد الفتح التركى وحين ارتبطت هذه الأمم الإسلامية مع تركيا برباط الخلافة كانت « الوحدة الإسلامية » هى التى تمسك هذه الأمم المترامية الأطراف ، كما انتظمت الأمبراطورية العثمانية أكثر مما خضعت للاستعمار ، وسرعان ما حصلت هذه الأمم على استقلالها الداخلى عن تركيا استقلالا كان له مظهره أيام المماليك .

ومن أهداف التغريب « تزييف تاريخ الشرق » وإحلال النظم الغربية والتفكير الغربى فى الشرق إخفاء لشخصيته ، وقد وقف التفكير فى الشرق بعد الفتح العثمانى وجمد جموداً معيباً جعل أهل الشرق يرون فى الاجتهاد كفراً ومروقاً من الدين ، وقد استطاع الباحثون هتك زيف الصورة التى وضعها ساسة الغرب لتاريخ الشرق لتدخل فى روع الشرقيين أنهم كانوا على مدى القرون أذلة محكومين ، فلا مفر لهم من أن يبقوا اليوم وغداً .

ومن أهداف التغريب قطع صلة حاضرنا بماضينا فى التاريخ وفى العلم وفى التفكير ، وفى أمر العقيدة وقد وكل إلى المبشرين أن يقوموا بهذه المهمة الخطيرة ، مهمة تزييف العقائد ، وأن يحملوا أهل الشرق على الاعتقاد بأنها سبب تأخرهم وعدم بلوغهم مبلغ الغرب فى حضارته ، وآية ذلك أنه لما تم الصلح بين الحكومة الإيطالية وبين الفاتيكان ، وأبرمت معاهدة

(لاتران) وردت إلى الفاتيكان الأموال التى كانت الحكومة الإيطالية قد حجزتها منذ ١٨٧٠ كان أول ماعمله الفاتيكان أن أرصد عدة ملايين للتبشير فى الشرق وفرنسا التى تحارب رجال الدين فى بلادها أشد الحرب ، وتؤازر المبشرين فى الشرق وتمدهم بالمال وتمدهم بالحماية . والتبشير بعض هذا التغريب للقضاء على الشرق ليظل خاضعاً للسياسة الاستعمارية .

وقد عقد مؤتمر المبشرين عام ١٩٢٧ تقريباً فى جبل الزيتون من أعمال فلسطين ومثل المؤتمر مندوبون عن أربعين دولة من دول الغرب وأشيع أنهم يعدون حملة على جنوب بلاد العرب . وقال زويمر فى هذا المؤتمر :

« إن التبشير قد وصل إلى أسمى غاياته فى مهاجمة العالم الإسلامى ، وأدى المهمة على أكملها وانتهى إلى نتائج لم يكن أحد يحلم بها منذ الحروب الصليبية ، ليس غرض التبشير المسيحى وسياسته إزاء الإسلام هو إخراج المسلمين من دينهم ليكونوا مسيحيين ، إن المسلم لا يمكن أن يكون مسيحيا مطلقاً ، والتجارب دلتنا ودلت رجال السياسة المسيحية على استحالة ذلك ولكن الغاية التى نرمى إليها هى إخراج المسلم من الإسلام فقط ليكون ملحداً أو مضطرباً فى دينه ، وعندها لا يكون مسلماً ، لا تكون له عقيدة يدين بها ، عندها يكون المسلم ليس له من الإسلام إلا إسم أحمد .. والملحد هو أول من يحتقر الإسلام والمسلمين » .

وهذه هى أسمى مراتب الانتقام من الإسلام وأعظم الغايات الاستعمارية . وقال زويمر : لقد قضينا على برامج التعليم فى الأقطار الإسلامية منذ خمسين عاماً فأخرجنا منها القرآن وتاريخ الإسلام ، ومن ثم أخرجنا الشاب والفتاة المسلمين من الوسائط التى تخلق فيهم العقيدة الوطنية والإخلاص والرجولة والدفاع عن الحق ، والواقع أن القضاء على الإسلام فى المدرسة هو أكبر واسطة للتبشير وقد جنينا أعظم الثمرات المرجوة منه . هذا هو مصدر فساد الخلق والوطنية وموت الرجولة فقد أفاد التبشير فى المدارس المسيحية حيث خلق فى أبنائها نفوساً لا تؤمن بالله ولا بالفضيلة ولا بالوطن ولا بالحق .

(٤)

زكي مبارك

بالرغم من أن زكى مبارك قد جرى شوطاً مع المستشرقين ودعاة التغريب ، وكان فى مقدمة تلاميذ طه حسين ومن أكبر المدافعين عنه فى أزمة الشعر الجاهلى ، فإن له مواقف فى الدفاع عن اللغة العربية كان أبرزها هجومه على الدعوة التى حمل لواءها (لويس ماسنيون) فى تغليب العامية والحروف اللاتينية :

يقول : إن الفرنسيين ، يريدون أن يختصروا الطريق ، هم يريدون أن يستريحوا من اللغة العربية ومن الإسلام ، وسيلتهم إلى ذلك أن يقنعوا بعض الأنذال من أهل الشرق بأن اللغة العربية أصبحت فى عداد اللغات الميتة وإن الإسلام لا يصح أن يكون أساساً لمدنية جديدة وأنه لا يليق بالرجل العصرى أن يكون متديناً لأن الديانات لم تكن إلا لهداية الرعاع .

ومن المحزن أن هذه الدعايات يقوم بها أناس كنا نظنهم من أهل المروءة الشرفاء ، فإنى أفهم يكون الرجل من طلاب الملك والفتح والسيطرة ، ولكنى لا أفهم كيف يتفق لرجل قضى خمسين عاما فى التعرف إلى اللغة العربية والإسلام أن يزعم أن لغة العرب لا تستطيع وعى العلوم الحديثة .

وهم يقولون ذلك حرصاً على منفعة أتباعهم فى المستعمرات الفرنسية فيما يزعمون ، ولكن الغرض المستور هو القضاء على التقاليد العربية الإسلامية ليخلو الجو للغة المستعمرين الأبرار وأنصار العلم والإنسان .

ولقد وقف أحد المستشرقين الفرنسيين يخطب فى بيروت (يقصد

لويس ماسنيون وكان هو فى باريس) وكان من مهمته أن يبث سمومه فى الشباب السوريين فزعم لهم أن كرامة اللغة العربية توجب أن تتفرع إلى لغات عديدة كما تفرعت اللغة اللاتينية .

فيا سعادة الشرق العربى إذن حين تصير اللغة العربية إلى مثل ما صارت إليه اللاتينية ، فقدْ ماتت لغة الرومان حيث لا رجعة ولا مآب ، وهذا هو الفخار الذى يطلبه ذلك المستشرق للغة العربية فأُكرم به من صديق !

ومن نوع هذ الخلط ، ما زعم ذلك المستشرق المغرض عن الحروف العربية فقد ألقى محاضرة فى الكوليج دى فرانس أبان فيها أنه لا حياة للغة العربية إلا إذا كتبت بحروف لاتينية .

لم يبق إلا أن القوم يريدون أن ينحدر العرب إلى مثل ما انحدر إليه الترك ليضيع جزء مهم من شخصية اللغة العربية وليسهل قطع ما بيننا وبين أسلافنا من الأواصر الأدبية والروحية وفى ذلك تيسير لمهمة الدساسين الذين يريدون قتل الشرق باسم العلوم والآداب[1] .

* * *

---

(١) جريدة « المساء » مجلد ١٩٣٢ .

الفصل التاسع

كبرى قضايا الفكر العربى

إن المعارك الأدبية التى دارت فترة مابين الحربين[1] تكشف بوضوح عن اتجاه الريح ، فقد جرت الريح عاصفة فى وجه حركة اليقظة ، حيث أثارت الغبار والأتربة فى وجه كل الحقائق والقيم فى زوبعة ضخمة ، ثم لم تلبث العاصفة أن خفتت وظهر وجه السماء ، واستطاعت القيم الأصيلة أن تدافع عن وجودها .

كانت الشبهات التى حملها تيار التغريب تجتاح كل مجال وكل قيمة .

أولا : ففى مجال اللغة العربية دارت معارك ضخمة دعت إلى تغليب العامية ، والحرف اللاتينى .

ثانيا : وفى مجال الأدب دارت معارك الإقليمية ،، ونقد النص القرآنى ، وتفريغ الأدب العربى من مقوماته ، وفرض نظرية النقد الغربية الوافدة عليه وجرت الدعوة إلى إعلاء شأن الأدب المهجرى والأدب المهموس .

ثالثا : فى مجال العروبة والإسلام استغلت دعوات الإقليمية والتجزئة

---

(١) لكى يتم تصور عصر ما بين الحربين يمكن مراجعة كتابين أساسيين هما:

- المعارك الأدبية .
- المساجلات والمعارك الأدبية .

وبهما أكثر من ١٢٠ معركة أدبية دارت فى هذه الفترة وكذلك مراجعة الدراسة التى ركزت على فترة مابين الحربين من مختلف الجوانب الاجتماعية والسياسية تحت عنوان :

(الفكر العربى المعاصر فى معركة الغرب والتبعية الثقافى) وكلها للمؤلف .

والإقليمية ، والفصل بين العرب والإسلام وبين العرب وتاريخهم ، وجرى إعلاء شأن الفرعونية والفينيقية .

رابعاً : وفى مجال التراجم والأعلام ذهبت حركة التغريب إلى إعلاء شأن أبى نواس وبشار والضحاك وتدمير الغزالى والمتنبى وابن خلدون .

وتوالت المعارك فى مجال دفع النظرية المادية ، والتراث اليونانى ، والنظرية الغربية ، وتحطيم كل مقومات الفكر الإسلامى الاجتماعية والأخلاقية .

وجرت المحاولات لدفع القصة الغربية إلى الأمام ، ومهاجمة المواقف الحاسمة فى التاريخ الإسلامى وإذاعة الأسطورة وإقحامها على السيرة ، والترويج لمفاهيم ومقومات لا تتصل بالفكر الإسلامى ولا بالثقافة العربية أو الأدب العربى .

وكانت أبرز هذه المعارك : معركة تحريف المفاهيم والقيم التى قادها . طه حسين من خلال كتبه : الشعر الجاهلى وحديث الأربعاء ومستقبل الثقافة .

* * *

قضية تحريف المفاهيم وتزييف القيم

إن الذين يتصورون أن طه حسين ألف كتابه (الشعر الجاهلى ثم الأدب الجاهلى » ليناقش الشعر المتجول هم مع الأسف قصارى النظر ، فالواقع أن طه حين أراد أن يتخذ من دراسة الأدب الجاهلى وسيلة لوضع كل سموم التغريب الكبرى ، التى تهدم العقيدة والشريعة والأخلاق فى قالب من الأسلوب غير المباشر ، من خلال هذه الدراسة مقدما كل آراء الشعوبية والإلحاد والتبشير والاستشراق ، ودسها بين ثنايا هذا البحث : إذا لا علاقة للبحث مطلقا باللغة أو اللهجات ولكنه محاولة للهجوم الأكبر على القرآن والنبى والإسلام من خلال إثارة الشبهات تحت ستار البحث الأدبى من القومية والدين وتعد معركة التغريب وتزييف القيم أقدم معركة أدبية لحساب الماسونية والصهيونية العالمية :

— ١ —

مصطفى القاياتى ، مجلس النواب

هذا الكتاب تكذيب لصحيح التاريخ وتكذيب لنصوص القرآن ونسبة التحايل إلى الله وإلى النبى محمد وإلى موسى عليه السلام .

لقد جاء فى هذا الكتاب تكذيب صريح للقرآن ونسبة صريحة للنبى أنه متحايل وكذب صريح على التاريخ .

ذكر أن حادثة إبراهيم وإسماعيل حادثة لا يعول عليها التاريخ ولا يمكن التسليم بها وأنها حادثة روجها المسلمون لسبب مخصوص هو

سبب سياسى أكثر منه دينى .

أريد أن أقول لأقوام لا يرون رأينا ويدعون أن البحث أمر واجب وحر وأنه لا يجوز لنا أن نقيد حرية الناس فى آرائهم ، أقول لهم أننا لا نقيد حريتهم فى عقائدهم ولكنا نقيد آراء تلقن لأولادنا وتذاع على أفراد الأمة ما بين متعلم وغير متعلم .

لا يجوز أن نكتفى مطلقاً بأن المؤلف صرح فى الصحف أنه مسلم ولم تسمح له نفسه أن يكتب كلمة ليشرح فيها ما قاله أو يؤوله بمعنى يفهم منه خلاف ما فهمناه .. أن التوبة لا تغفر الذنب ولاتعفى من العقوبة .

— ٢ —

محمد طاهر نور : قرار النيابة

الخطأ حيث يبدأ بافتراض يتخيله ثم ينتهى بأن يرتب عليه قواعد كأنها حقائق ثابتة ، كما فعل فى أمر الاختلافات بين لغة حمير وبين لغة عدنان .

وفى مسألة إبراهيم وإسماعيل وهجرتهما إلى مكة وبناء الكعبة .

بدأ بقوله : للتوراة إن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ، وللقرآن إن يحدثنا عنهما أيضاً . ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى ، فضلا عن إثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها .

إلى هنا أظهر الشك بعدم قيام الدليل التاريخى فى نظره كما تتطلبه الطرق الحديثة ثم انتهى بأن قرر فى كثير من الصراحة : « أمر هذه القضية إذن واضح ، فهى حديثة العهد ، ظهرت قبيل الإسلام واستغلها الإسلام لسبب دينى ، فما هو الدليل الذى انتقل به من الشك إلى اليقين ، هل دليله هو قوله « نحن مضطرون إلى أن نرى فى هذه القصة نوعا من الحيلة فى إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة دين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى ، وإن أقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة إنما هو هذا العصر الذى أخذ اليهود يستوطنون فيه شمالى البلاد العربية .

المؤلف يرى أن ظهور الإسلام قد اقتضى أن يثبت الصلة بينه وبين ديانة اليهود والنصارى ، وأن القرابة المادية الحقيقية بين العرب واليهود ، لازمة لإثبات الصلة بين الإسلام واليهود فاستغلها لهذا الغرض ، فهل له أن يبين السبب فى عدم اهتمامه أيضاً بمثل هذه الحيلة لتوثيق الصلة بين الإسلام وبين النصرانية ، إن الأستاذ ليعجز حقا عن تقديم هذا البيان .

وكل مااستند عليه من الأدلة هذه العبارات : (١) فليس يبعد أن يكون (٢) فما الذى يمنع (٣) ونحن نعتقد (٤) وإذن فنستطيع أن نقول .

فالأستاذ المؤلف فى بحثه إذا رأى إنكار شيء يقول : لا دليل عليه من الأدلة التى تتطلبها الطرق الحديثة للبحث ، وإذا رأى تقرير أمر لا يدلل عليه بغير الأدلة التى أحصيناها له وكفى بقوله حجة !

وسئل عن أصل هذه المسألة (أى تلفيق القصة) وهل هى من استنتاجه أو نقلها فقال : هذا فرض فرضته أنا دون أن أطلع عليه فى كتاب آخر ، وقد أخبرت بعد أن ظهر الكتاب أن شيئاً مثل هذا الفرض يوجد فى بعض كتب المستشرقين (المبشر الذى تستر تحت اسم هاشم العربى) .

وكان هاشم العربى فى عبارته أظرف من مؤلف الشعر الجاهلى لأنه لم يتعرض للشك فى وجود إبراهيم وإسماعيل بالذات ، وإنما اكتفى أن أنكر أن إسماعيل أبو العرب وقال : إن حقيقة الأمر فى قصة إسماعيل أنها دسيسة لفقها قدماء اليهود للعرب تزلفاً لهم .

— ٣ —

عبد المتعال الصعيدى

فى الشعر الجاهلى :

١ — إنكار وجود إبراهيم وإسماعيل .

٢ — تكذيب القرآن والتوراة فى دعوى وجودهما .

٣ — الزعم بأن قصة إبراهيم وإسماعيل وأبوتهما للعرب أسطورة لفقها يهود جزيرة العرب لغرض سياسى واستغلها القرآن لغرض دينى .

وقد أخذ هذه الآراء من (ذيل مقالة فى الإسلام) لهاشم العربى والكتاب من عمل المبشرين الطاعنين فى الإسلام .

يقول صاحب ذيل مقالة فى الإسلام (ص ٣٥٢ من كتابه المطبوع فى مطبعة النيل المسيحية بالقاهرة)[1] :

« وحقيقة الأمر فى قصة إسماعيل أنها دسيسة لفقها قدماء اليهود تزلفاً إليهم وتذرعاً بهم إلى دفع الروم عن بيت المقدس أو إلى تأسيس مملكة جديدة فى بلاد العرب إلخ وقد تابعه صاحب الشعر الجاهلى . وصاحب الذيل يجعل التوراة هى الأصل ويعرض عليها القرآن ، فان خالفها طعن فيه ، أما الدكتور فيكذب بالتوراه والقرآن جميعا ، ويعترف صاحب الذيل بوجود إبراهيم وإسماعيل ، فيأتى المقلد فيكذب بوجود إبراهيم وإسماعيل فضلا عن أبوتهما للعرب .

وكان صاحب الذيل فطنا محترسا وكان حاكيه (طه حسين) قليل الفطنة فاصطدم بالنقض الآتى :

إن التوراة قد انتشرت فى البلاد قبل نزوح اليهود إلى يثرب وما حولها فى جزيرة العرب ، وكان فيها ذكر إبراهيم وإسماعيل فلم يكن ذلك من صنع اليهود الذين كانوا بين ظهرانى العرب حيلة منهم للتقرب إليهم .

ولو كان يهود يثرب هم الذين اخترعوها حيلة فما هو السر فى أن جاء ذكر إبراهيم وإسماعيل فى جميع نسخ التوراة .

إن صاحب « ذيل مقالة فى الإسلام » صاحب الفكرة الأصيلة فقد كان أفطن لهذه الاعتراضات التى وقع فيها طه حسين فصدق بوجود إبراهيم وإسماعيل وكذب بأبوتهما للعرب فقط .

لقد سرق الدكتور بحثه من كتاب سخيف ولم يفهمه على وجهه .

— ٤ —

عبد الرازق الحسنى

القرآن الذى تغلب على الأدب العربى وظهر عليه وانتصر هو الذى أوجد الثقافة العربية الحاضرة ونحن ممن يعتقدون أن الدين الإسلامى

---

(١) أقدم طبعة للذيل سنة ١٨٩١ .

جاء بروح أدبية أوحاها واختص بظهورها هذه الأمة لما تأهلت له .

وإذا كان الدكتور طه قد طوى من الطبعة الجديدة (الأدب الجاهلى بدلا عن الشعر الجاهلى) بعض الخزى الذى كان فى الطبعة القديمة كزعمه أن ماورد فى القرآن وفى التوراة عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إنما هو أسطورة غير مستند فى هذا الزعم أى دليل علمى فإنه فى الطبعة الجديدة نم العداء للإسلام والعرب ومن السفسطة المستورة والمكشوفة شيئاً كثيراً .

— ٥ —

حسن أحمد عبد الرحمن (حسن البنا)

إن المدرس ينظر إلى الكتاب من ثلاث جهات :

(**أولاً**) من مواهبه الخاصة فى المادة التى يدرسها .

(**ثانياً**) من مادته التى يقدمها لتلاميذه .

(**ثالثاً**) من طريقته فى التفكير وما يبثه فى نفوس طلابه .

(**رابعاً**) من أخلاقه وطبائعه .

والدكتور طه متهم فى ذلك جميعاً فهو لا يحسن الشعر وإن حاول ذلك ، أتى بالغث المتكلف الذى يحجبه الطبع ويستثقله السمع .

وهو لا يجيد أسلوب الكتابة إذا حاكمته إلى الذوق العربى والبلاغة اللغوية وقسته بما وضعته الأئمة من أوزان البيان ومقاييسه ، أما فى حشو القول والاتساع به وإطالته بالتشدق والتفهيق فالرجل فى ذلك لا يشق له غبار . وما هو بالناقد الذى يحسن النقد الصحيح فى الشعر والنثر وإن أحسن التهجين والتجريح والزراية على غيره من الأدباء والكتاب .

وبعد فليس الدكتور متخصصاً بدراسة تاريخ الأدب ، لم يتلقاه عن أستاذ ولم يلم به فى مدرسة وإنما علم من ذلك مايعلق بذهنه من مطالعة كتب الأدب لا ليدرسها ولكن ليراها ، وما نيل الدكتور إجازته فى تاريخ

اليونان أو تاريخ العرب قبل الإسلام هو أقوى الدعائم التى يستند عليها الكاتب إذا أراد أن يكتب فى الأدب العربى فمن فاتته رواية ودراية فقد فاته أسس البحث ونبراسه وسار على غير هدى .

آية ذلك ما أورده فى كتابة الشعر الجاهلى وقد حكم عليه عقلاء الأمة وأدباؤها بالخطأ والخطل والغثاثة ، وكشف المحققون من الأدباء الغطاء عن مغامز ومعايب يبرأ منها .

أما طريقته فى التفكير وما يبثه فى نفوس طلبته من طبائعه وأخلاقه ، فما علم الناس من ذلك إلا الشك والحيرة والانسلاخ عن العقيدة . والدين يسمى ذلك منهجاً علميا .

وإن تعجب فعجب دفاع الأستاذ العقاد عنه وزعمه أن الدكتور نابغة الدهر ونادرة العصر وإنه لا يمكن أحد أن يسد فراغه ويملأ مكانه .

ولعل حكمك هذا على رجال الأدب فى مصر من نوع حكمك السابق على شوقى وحافظ وهما معجزة أدب العرب وحاملا لواء الشعر العصرى .

﴿ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً ﴾ .

أما قولك إن الكتاب ليس فيه ما يمس الدين والأخلاق ، فاسمح لى أن أصارحك بأنك لست من أهل الدين المتخصصين ، وآية ذلك قصة إبراهيم وإسماعيل وتكذيب المؤلف للقرآن والتوراة والإنجيل وتهوين شأن النبى ﷺ ونسبته إلى التحايل بالأساطير والتهكم بالأجلاء من الصحابة ورميهم بالمخاتلة وعدم التأثر بتعاليم الإسلام ظاهراً ، فضلا عن تكذيب صريح الأحاديث الصحيحة وتعطيل أحكامها والخلط فى الأعراض والأنساب والنتائج والأسباب .

* * *

محمد أحمد الغمـــراوى

كتاب (فى الأدب الجاهلى) هو كتاب (فى الشعر الجاهلى) بروحه وغايته وطريقته ، لم ينتفع منه صاحبه بنقد الناقدين على تعدد نقدهم وصوابه ، فإنى لا أعرف فى عهدنا هذا كتاباً لقى من عناية النقاد على تنوعهم ما لقى ذلك الكتاب ، وفى رأينا أن إعراض صاحب الكتاب عن الانتفاع بذلك النقد الكثير الصائب أدل على الروح الذى يحركه ، والغرض الذى يسعى إليه من كل ما نمق وينمق من زخرف ويزعم به التجرد عن الهوى والحرب على سنن العلم الحديث .

يؤسفنا أشد الأسف أن صاحب الكتاب ومن لف لفه يسوقون الأدب العربى فى طريق غير طريقه ، ويلبسونه ثوباً من غير نسجه ، وينسجون عليه نسجاً فرنسيا ، ويسوقونه فى نفس الطريق الذى ضل فيه الأدب الألمانى قرناً وبعض قرن فضل عن نفسه ولم يهتد حتى رده عن الطريق هللر وهاجيدون ولسنج .

وما تلك الطريق التى يسوقون الأدب العربى فيها إلا طريق الافتنان بالأدب الفرنسى خاصة والغربى عامة ، حيث لا صلة بين ذلك كله وبين روح الأدب خاصة والشرق عامة ، كما لم يكن هناك فى القرن ١٧ بين الأدب الفرنسى والألمانى صلة .

والذين أضلوا ألمانيا فقلدت فرنسا فى ذلك العصر تقليد القردة — والتشبيه للدكتور براندى — هم عدد ممن يسميهم صغار برنسات الأدب . وكان الدكتور طه ومن معه يريدون أن يكوّنوا للعربية ماكوّن

هؤلاء للألمانية فيفتنوها بغيرها ويضلوها عن نفسها ، فإنك إذا قرأت لهم رأيت تقليداً بحتا يفرض عليك باسم التجديد ، ونظرت إلى روح غربية متقمصة قميصاً عربياً .

ونحن لا نرى هذا التقليد من تجديد أدب لغتنا فى شىء لأنه يلهينا عن ذات أنفسنا بأحاديث غيرنا ويشغلنا بأدب غيرنا عن أدبنا .

— ٧ —

الدكتور عبد الحميد سعيد

(منبر مجلس النواب مارس ١٩٣٢)

الدكتور طه حسين : هو الرجل المعروف بمصادمة آرائه نصوص القرآن الكريم والعقائد الدينية ، وقد ظهر عداؤه للإسلام فى كثير من تعاليمه وإنكاره ، ومنها كتاب الشعر الجاهلى الذى ضجت عند صدوره البلاد ولا يزال يدرس فى الجامعة بعنوان (فى الأدب الجاهلى) ولكن تغيير العنوان لم يغير شيئاً من روحه اللادينية فإن السموم التى أراد الدكتور أن ينفثها فى كتابه لا تزال ماثلة فى كثير من فصوله ومباحثه كما أنه قد زين للشبان وسائل المجون والفجور فى مؤلفه حديث الأربعاء .

نشأ هذا الرجل فى الجامعة الأزهرية واشتهر بين إخوانه بتلك النزعة اللادينية واعترضت حياته أمور غرست فى نفسه عاطفة الحقد والحنق على الأزهر ثم على الإسلام من أجل الأزهر فشب عدوا للدين وتعاليمه ، يشوه كل ما هو منسوب إليه ومن يتتبع حياته العلمية يجد أنه يذهب فى كل مسألة تتعلق بالإسلام مذهب أعداء الدين وخصومه الألداء .

وهناك نقطة ضعف فى حياة الدكتور طه بسط تفاصيلها صديقه الحميم الأستاذ المازنى فى كتابه (قبض الريح) وهى ترجع إلى ما أحدثه كف بصره من التأثير فى مزاجه وفى تفكيره وإحساسه ونظرته إلى الحياة والناس ، فهو لا يرى فى الحب إلا التمتع المادى ، لأنه مكفوف البصر . إذا لم يتقيد بالفضيلة جرى على لسانه ما جرى على لسان بشار بن برد من فحش القول ، والتغنى بالحب الحيوانى ، وإن كان من أهل الفضيلة والاحتشام كأبى العلاء المعرى كان زاهداً عفيفاً ، ولكن سيىء الرأى فى المرأة يعتقد أنها متاع فقط .

قال الأستاذ المازنى الذى اشتهر فى أقواله ومقالاته بالدفاع عن صديقه الدكتور طه حسين ما يأتى بالحرف الواحد : « وهو بطبعه مفراح وقد أقبلت عليه الدنيا ومالأه الحظ فلم يجد التشاؤم مرعى له فى نفسه ، ولكنه يؤثر الوقار ويميل إلى التمثل بالمعرى فيكبح نفسه ويردها على مكروهها ، غير أنه مالا يظهر فى سكونه الذى يتوخى فيه الاحتشام يظهر فى كتاباته وفى التفاتات ذهنه ، فلا عجب إن رأيناه كلفا بتناول المجان وأهل الخلاعة من شعر غير العرب ، وتلخيص القصص التى تقوم على الخيانات وما إليها ، وتسوغ ذلك ، والاعتذار له حتى كأنه يحاول أن يقول بلسان غيره ما تلج به الرغبة فى الكشف عنه والإفضاء به عن مكنونات نفسه » .

إننا لا نشكو من هذا الرجل حرية الرأى ، ولا ما تؤدى إليه من بحوث علمية وأدبية بريئة ، ولكننا نشكو منه غلا ران على قلبه نحو الإسلام والمسلمين ، نشكو منه أن يتخذ من الجامعة حصناً يقذف من خلف أسواره غازاته السامة الخانقة فتصيب من الأخلاق والأدب مقتلا ثم ينفث سمومه فى نفوس الطلبة وهم غير مسلحين بالدين وغير مدرعين بتلك التعاليم التى تمكنهم — لو كانوا يعلموها — أن يهدوا بها الجبال .

ولم يبق خطر هذا الرجل محصوراً بين جدران الجامعة ولكنه تعداها إلى المدارس والمعاهد الأخرى ، بل تجاوزها إلى البلاد العربية التى يحق لها أن تحاسبنا على ما أنتج ذلك من ضرر .

وإنى أقص على حضراتكم شيئا لم تكونوا عالميه قبل اليوم فيما أعتقد .

كان هذا الرجل يكلف بعض طلبته أن ينقدوا بعض آيات من القرآن الكريم يعينها لهم ويطلب لهم إثبات هذا النقد فى كراسات يتلونها عليه ، فكانوا يثبتون أن هذه الآية ليست من البلاغة بمكان ، وأن تلك الآية على جانب من الركاكة ، وأن الآية الأخرى مفككة لا تؤدى المعنى المقصود منها . ولقد غاب عن هذا الرجل أنه لايصح التصدى لتفسير القرآن إلا لمن تتوافر فيه شروط أساسية أهمها أن يكون ملماً بكل فروع اللغة العربية وآدابها وأن يكون واسع الاطلاع عليماً بأسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه ، وبحديث رسول الله ﷺ وإسناده فهل تتوافر هذه الشروط فى

الطلبة كما تتوافر فيمن يتعرض لتفسير كتاب الله ، فما بالكم بمن يريد أن ينتقده .

إذا كان يريد أن يمرن طلبته على النقد فلديه متسع فى فنون الأدب وكتبه العديدة .

وسأتلو عليكم بعض ما أثبته أحد طلبة الدكتور طه حسين فى كراسته مما كان يلقيه عليهم فالتقطه الطلبة عنه وسجلوه فى كراساتهم :

وهذه إحدى المذكرات التى أخذت عن المحاضرات التى ألقاها الدكتور طه حسين فى كلية الآداب بقصر الزعفران ١٩٢٧ ــ ١٩٢٨ .

وصلنا فى المحاضرة إلى موضوع اختلاف الأساليب فى القرآن وقرنا أنه ليس على نسق واحد ، واليوم نوضح هذه الفكرة :

لاشك أن الباحث الناقد والمفكر الحر الذى لا يفرق فى نقده بين القرآن وبين أى كتاب أدبى آخر يلاحظ أنه فى القرآن أسلوبين متعارضين ، لا تربط الأول بالثانى صلة ولا علاقة ، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا الكتاب قد خضع لظروف مختلفة وتأثير بيئات متباينة ، فمثلا نرى القسم المكى منه يمتاز بكل ميزات الأوساط المنحطة كما نشاهد فى القسم المدنى واليثربى تلوح عليه أمارات الثقافة والاستنارة ، فأنتم إذا دققتم النظر وجدتم القسم المكى ينفرد بالعنف والقسوة والحدة والغضب والسباب والوعيد والتهديد ، والخلو التام من التشريع والقوانين ، كما يكثر فيه القسم بالشمس والقمر والنجوم والفجر والضحى والعصر والليل والنهار والتين والزيتون إلى آخر ماهو جدير بالبيئات الجاهلية الساذجة التى تشبه بيئة مكة تأخراً وانحطاطا .

أما القسم المدنى فهو هادىء لين وديع سالم يقابل السوء بالحسنى ويناقش الخصوم بالحجج الهادئة والبرهان الساكن الرزين .

كما أن هذا القسم ينفرد بالتشريعات الإسلامية كالمواريث والوصايا والزواج والطلاق والبيوع وسائر المعاملات ، ولاشك أن هذا أثر واضح من آثار المدينة والبيئة اليهودية التى ثقفت المهاجرين إلى يثرب ثقافة واضحة يشهد بها هذا التغيير الفجائى الذى ظهر على أسلوب القرآن[1] .

---

(١) بالنص عن محضر الجلسة الرابعة والعشرين لمجلس النواب (٢٨ مارس ١٩٣٢) ص ٣٤٦ ومابعدها .

وهناك موضوع آخر أريد أن أنبهكم إليه وهو مسألة هذه الحروف الغريبة غير المفهومة التى تبتدىء بها بعض السور مثل : الم ، آلمر ، طس ، كهيعص ، حم عسق .. إلخ . فهذه كلمات ربما قصد بها التعمية أو التهويل وإظهار القرآن فى مظهر عميق مخيف ، أو هى رموز وضعت لتميز بين المصاحف المختلفة. التى كانت موضوعة عند العرب فمثلا (كهيعص) كانت رمزاً لمصحف ابن مسعود ، و(حم عسق) رمزاً لمصحف ابن عباس ، و (طس) رمزاً لمصحف ابن عمر وهلم جرا ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن فصارت قرآنا (انتهى النقل) .

فكأنه يريد القول صراحة أن القرآن مأخوذ من التوراة .

ثم يقول طه حسين :

ليس القرآن إلا كتاباً ككل الكتب الخاضعة للنقد فيجب أن يجرى عليه ما يجرى عليها ، والعلم يحتم عليكم أن تصرفوا النظر نهائيا عن قداسته التى تتصورونها وأن تعتبروه كتابا عاديا فتقولوا فيه كلمتكم ويجب أن يختص كل واحد منكم بنقد شىء من هذا الكتاب ويبين ما يأخذه عليه أ .هـ . :

يقول الدكتور عبد الحميد سعيد معلقاً :

وبعد هذا يدعى الدكتور طه حسين ويدعى أنصاره أنه مسلم وموحد بالله وأنه يحترم الدين الإسلامى .

إن الدكتور طه من فرط حبه للإسلام وتعشقه له سمى ابنه (كلود) وابنته (مرجريت) وقد ذكرت الجرائد أنه توفيت له طفلة فدفنها فى مدافن الفرنسيين وأنه عمد ولديه ومع ذلك يصرح ويتغنى أنصاره بأنه مسلم وأنه يحافظ على الإسلام أكثر ممن يتشدقون بالمحافظة عليه .

إن تعرضه للقرآن بهذه الكيفية من غير احتياج إليه فيه حجة ودليل على سوء نيته ! وفى فصل عقده المؤلف (فى كتاب الشعر الجاهلى) ولم تلجئه ضرورة فيه إليه ولا يخرج منه القارىء إلا وهو يعتقد أن السلف الكرام فى أقصى ما يصل الوهم إليه من وضاعة الشأن ، والكتاب والسنة متظاهران على تكريمهم وتعظيم أقدارهم والطعن فيهم فسوق ومعصية ،

وكل ما جاء فى هذا الكتاب خاصا بهم فهو فسوق فى فسوق وربما يتبع ذلك ما هو فوق الفسوق أى الكفر .

وسورة الجن إن ما قاله بخصوصها إن كان مقصوداً فهو كفر وإن كان تساهلاً فهو فسوق ، وقد أجمع المسلمون على كفر من استخف بالقرآن أو بشيء منه أودعا إلى الاستخفاف بشيء منه صراحة أو ضمناً .

وما جاء خاصاً بالنبى وأسرته الكريمة .

إن فى هذا الباب أيضاً تهكماً بالنبى وأسرته الكريمة ولا خلاف بين المسلمين فى المذاهب الاربعة وغيرها من الأئمة المجتهدين على كفر من يعرض به ﷺ وبأسرته تصريحاً كان ذلك أو تلميحاً .

وما جاء خاصاً بصحف سيدنا إبراهيم .

إن ما جاء كله تشكيك فى القرآن والدين وتكذيب لهما ورمى للنبى ﷺ والمسلمين بأنهم هم الذين جاءوا بالقرآن وحكم ذلك كله أنه كفر لا يستره وضع الكلام فى قالب المواربة والتورية والتعريض .

ولا يزال الكتاب بعد هذا كله موجوداً ومازال يدرس فى الجامعة وقد ملأ صاحب الكتاب قلب الطالب تجلة وإعظاما للمستشرقين وإعجابا بهم وبمباحثهم ، وفرغ قلبه من كل حرمة وإجلال لسلف المسلمين ، وهو فى هذا الباب أورد آراء المستشرقين فى مصادر القرآن ومذاهبه وتاريخه ثم تركه فى موقف لا يعرف أصدق المستشرقون فى ذلك أم كذبوا ، أخطأوا أم أصابوا ، وفى تهجمه على القرآن وعلى الرسول قال فى ص ١٥٤ من كتاب فى الأدب الجاهلى :

« ومن يستطيع أن ينكر أن كثيراً من القصص القرآنى كان معروفا بعضه عند اليهود وبعضه عند النصارى وكان من اليسير أن يعرفه النبى ﷺ » .

كل هذا يضعه للقارىء لأجل أن يصل إلى نتيجة : هى أن الأدب الجاهلى مختلق ومنحول ولكن غرضه الحقيقى هو الدعوة اللادينية والإلحاد والتشكيك فى الدين والتحريض على الإباحة والفجور .

« أما حديث الأربعاء ففيه العجب العجاب إذ تتمثل فيه الرذيلة بأبشع مظاهرها وتظهر فيه نفسية الرجل بما يشرحه بعناية خاصة وإطناب من

قصص المجون والفجور بأسلوب جذاب وطريقة خلابة تؤثر فى الناشىء المسكين وتزين له سبل الفساد وتحبب له الانغماس فى الشهوات بعد أن شوه له الدين وتعاليمه ، ومثله أمامه تمثيلاً لا يرغبه فيه ، وإعطاء صورة مشوهة منفرة ، عمن قاموا بالدعوة إليه ولم يترك سبة إلا نسبها إليهم ، فقد طعن على الخلفاء والعلماء من عظماء الأمة والإسلام وشوه تاريخ الإسلام بحيث لم ينج من مطاعنه إنسان ولم يخص شيئا منه ويحبذه فى عصر الدولة العباسية الزاهر إلا هؤلاء الشعراء من أهل المجون والفحش حيث جعلهم مرآة ذلك العصر ، أما أولئك المصلحون من أهل العلم والفضل والرأى الذين أقاموا صروح المدنية فى العالم ورفعوا أعلام الفضيلة وأقاموا معالمها فى سائر الأنحاء فلم يذكرهم بخير ، بل خلع عليهم من المساوىء والشتائم والسباب ما أثبت التاريخ أنهم بريئون من ومالا يصدقه فيهم إنسان حتى لو كان من أعداء الدين الألداء .

إن عظمة التاريخ الإسلامى فى عصوره الزاهرة لا ينكرها إلا جاحد فى قلبه غل على الإسلام أشربت دماؤه بالتعصب الذميم والحقد المفضوح .

فطه حسين آلى على نفسه أن يشكك فيما تكاد تبصره من عظمة التاريخ الإسلامى أما المكذوب والمفضوح من أخباره الشاذة المطعون فيها فإنه يبحث عنها فى كل توره ويلتقطه من كل مكان ، هذا هو رأيه فى العصور الزاهرة للإسلام التى نفخر بها كل الفخار والتى نرجو أن تعود لنحل المكان اللائق بنا وبكرامتنا ، فبدلا من أن يعظم من شأن تلك العصور وأن يطلب من طلبته الاقتداء بهؤلاء الرجال العظماء من أهل الرأى والفضل والمعارف فإنه أخذ يهدم تلك العصور ويهدم رجالها العظماء والعلماء والمفكرين .

هذه مسألة من أكبر المسائل التى يجب أن نصفيها لتعلم الأمة أنها كانت مخدوعة فى هذا الرجل ، وإن من يقيمون الضجة الآن حول هذه المسألة يؤيدونه فى الفسق والفجور والخروج على الآداب القومية والتقاليد الإسلامية :

إن هذا الكتاب وهو (حديث الأربعاء) يموج بالأمثلة ، أمثلة الفسق والجور والتهتك والاستهتار ويدعو لها ويحض عليها ، وإن ما ذكره فيه من

قصص أبى نواس وجماعته لينفر من ذلك الأدب الذى يدعى أنه يخدمه ، ويحميه ، فقد جاء فى ذلك الكتاب من مخالفة الآداب والحض على الفجور والفسق ما يهدم الجبال الراسيات ، ويقوض أركان الفضيلة ويهدم روح الأدب .

ومن أمثلة ذلك قوله :

(كان أبو نواس وأصحابه على فسقهم ومجونهم يتدينون ويقيمون الصلاة ، ولكنهم كانوا يعبثون فى هذا كما يعبثون فى غيره وربما قضوا الوقت الطويل عاكفين على الخمر ثم يذكرون الصلاة فيقيمونها ..) إلخ .

إلى أن قال : وإذا أردنا مثلا يختصر هذا العصر ويشخصه فهذا المثال هو أبو نواس الذى يتخذ درسه الخاص سبيلا إلى درس العصر كله وقد عد طه حسين مجاهرة أبى نواس بالمعصية ضرباً من الصدق ، وعد عدم الجهر بالمعاصى نوعا من الكذب لأنه إخفاء للواقع .

إن ما يقوم به دعاة التبشير فى البلاد مع عظم خطره لا يقاس بالنتائج التى ظهرت مما يرتكبه هذا الأستاذ ، ولقد شاع هنا فى البلاد العربية ورسخ فى أذهان الكثيرين أن هناك صلة متينة بين طه حسين وبين دعاة التبشير يؤيد ذلك ما أثبتته النيابة فى التحقيق معه ، فالرجل ينفث سمومه متحصناً بأسوار الجامعة ، وما كانت الجامعات فى البلاد المتمدنة أداة للهدم والتخريب وتقويض أركان الفضيلة والقضاء على مستقبل البلاد فى زهرة شبابها ، ولكنها أنشئت لتكون منبعاً للفضائل وموردًا عذباً وسياجاً للأخلاق .

ولا يمكن أن يتخذ من استقلال الجامعة وسيلة للنيل من أخلاق الأمة ومن دين الأمة ومن شرف الأمة .

ومما يدل على سوء نية الرجل أنه يختار لقلمه ولسانه أخبث مناحى الحياة مع التهكم والتريض بأقدس ما يقدسه الناس من فضيلة ودين ، فهو يذكر المجون ويذكر الفجور ويروج لهما بإخلاص وصدق وعزيمة ، وقد أثرت هذه النظريات فى عقول الشباب ورسخت فى أذهانهم ، وليس هذا

بغريب لأن الشبان كما نعلم جميعاً لا يلمون بأصول الدين ولا يتمسكون بشعائره .

قال المرحوم الشيخ محمد عبد المطلب إن الدكتور طه حسين مغرم بحب ثلاثة أشياء : حب الشك والتشكيك ، والطعن فى الدين ، والفجور ونشر الدعوة إليه .

وقد رد على كتاباته : الشيخ الخضرى ، ومحمد عبد المطلب ، ومحمد الخضر حسين ، وفريد وجدى ، ومحمد أحمد الغمراوى ، ولطفى جمعه ، ومصطفى صادق الرافعى .

وفى سنة ١٩٢٧ ألفت لجنة من محمد عبد المطلب ومحمد حسنين الغمراوى وأحمد العوامرى لبحث كتاب « فى الأدب الجاهلى » ، ورأت اللجنة أن الكتاب فيه شىء كثير يناقض الدين الإسلامى ويمسه مساً مختلف الدرجات فى أصوله وفروعه من درجة الكفر إلى درجة المخالفة للآداب العامة وقالت : إن كل ما جاء فى هذا الكتاب (فى الأدب الجاهلى) مخالف للكتاب والسنة ، وإن تعرضه للقرآن بهذه الكيفية من غير احتياج إليه دليل على سوء القصد ، وهى جريمة أقل نتائجها أن يخرج القارىء لكتابه فى شك من كتاب الله والشك به كفر .

* * *

تقرير اللجنة عن كتاب الأدب الجاهلى

(٢٨ ديسمبر ١٩٢٧)

رأت اللجنة أن فى فصول الكتاب شيئاً كثيراً يناقض الدين الإسلامى ويمسه بمختلف الدرجات فى أصوله وفروعه :—

(**أولا**) : أضاع عليهم الوحدة القومية والعاطفة الدينية وكل ما يتصل بهما .

(**ثانياً**) : أضاع عليهم الإيمان بتواتر القرآن وقراءاته وأنها وحى من الله .

(**ثالثاً**) : **أضاع عليهم كرامة السلف من أئمة الدين واللغة وعرفان فضلهم** .

(**رابعاً**) : أضاع عليهم الثقة بسيرة النبى ﷺ فى كل ما كتب فيها .

(**خامساً**) : أضاع عليهم الاعتقاد بصدق القرآن وتنزيهه عن الكذب .

(**سادساً**) : أضاع عليهم الوحدة الإسلامية التى أوجدها الدين والقرآن والنبى ﷺ بين الأنصار والمهاجرين .

(**سابعا**) : أضاع عليهم تنزيه القرآن عن مواطن التهكم والاستخفاف .

(**ثامناً**) : أضاع عليهم ما وجب من حرمة الصحابة والتابعين .

(**تاسعاً**) : أضاع عليهم تنزيه النبى ﷺ وأسرته عن مواطن التهكم والاستخفاف .

(**عاشراً**) : أضاع عليهم صدق القرآن والنبى ﷺ فيما أخبرا به عن ملة إبراهيم وصحف إسماعيل .

(**الحادى عشر**) : أضاع عليهم براءة القرآن مما رماه به المستشرقون .

(**ثانى عشر**) : أضاع عليهم الأدب العام مع الله ورسله وكرام خلقه .

— ١٠ —

تقرير آخر فى ٢٤ يونيه ١٩٢٨

(من حسين الغمراوى ، عبد الحميد حسن ، أحمد أمين)

أشار إلى ثلاث نقط فيها مساس بالدين الإسلامى .

(**أولا**) : علاقة القراءات السبع بالوحى .

(**ثانيا**) : رأى المستشرقين فى مصادر القرآن .

(**ثالثا**) : الصلة بين الإسلام وملة إبراهيم .

* * *

— ٢ —

ظاهرة الضعف والتخلف فى العصور الأخيرة

لم تعالج قضية من القضايا على نطاق واسع كما عولجت قضية التخلف وأسباب الضعف التى مرت بالمسلمين والعرب فى العصور الأخيرة وكانت مصدراً لما أصابهم من الاحتلال والاستعمار ، تلك كانت القضية الكبرى التى لم يتوقف مصلح من المصلحين دون الخوض فيها ومعالجتها .. فقد أجرى قادة حركة اليقظة عملية نقد ذاتى واسع النطاق شملت كل المفاهيم والقيم .

ولما كانت هذه القضية قد أثيرت منذ بدأت حركة اليقظة فقد آثرنا أن نعرضها فى المرحلتين : مواجهة الاستعمار ، ومواجهة التغريب حتى نكشف جانبا هاما من جوانب اليقظة والقدرة على استكشاف النفس ومواجهة التخلف والضعف .

وقد أجمعت الأبحاث التى دارت على عوامل متعددة أبرزها تخلف المسلمين عن القيم الأساسية لفكرهم الذى بناه الإسلام وشكله القرآن ، وترك العزائم التى تتمثل فى الدفاع عن الأرض وحماية الثغور ، وإعداد القوة التى تزجر العدو وتحول دون عدوانه ، وفقدان روح التضحية .

(١)

ويصل الإمام (محمد عبده) إلى أبرز مقام القضية حين يعرض لخطر الجبرية الصوفية :

« الجمود » — إنما هى علة عرضت على المسلمين عندما دخل فى قلوبهم عقائد أخرى ساكنت عقيدة الإسلام فى أفئدتهم ، وكان السبب فى تمكنها فى نفوسهم وإطفائها لنور الإسلام فى عقولهم هو السياسة .

نظروا إلى ما كانوا عليه من فخفخة الوثنية ومن عادات من كان حولهم من الأمم النصرانية فاستعاروا من ذلك للإسلام ما هو براء منه ، لكنهم نجحوا فى إقناع العامة بأن ذلك تعظيم لشعائره وتفخيم لأوامره .

سنوا عبادة الأولياء والعلماء والمستشهدين بهم ما فرق الجماعة وجعلوا ذلك عقيدة حتى يقف الفكر وتجمد العقول .

ثم بثوا أعوانهم فى طرف الممالك الإسلامية ينشرون من القصص والأخبار ما يقنع العامة بأنه لا نظر لهم فى الشئون العامة .

اتخذوا من عقيدة القدر مثبطاً للعزائم وغلا للأيدى عن العمل ، والعامل الأقوى فى عمل النفوس على هذه الخرافات إنما هو السذاجة وضعف البصيرة .

والجمود عارض يزول ، وطبيعة الإسلام تسمو على مرض الجمود .

وآيات القرآن تنفر من اتباع الآباء مهما عظم أمرهم بدون استعمال العقل فيما كانوا فه « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعا بذراع » .

ومن اتبع سنن قوم استحق الوقوع تحت أحكام سنن الله فيهم ، ولا تزال الشدائد تنزل بهؤلاء المنتسبين إلى الإسلام ، ولا تزال القوارع تحل بديارهم حتى يفيقوا .

عند ذلك يجدون هذا الكتاب الكريم فى انتظارهم يعد لهم وسائل الخلافة ، لهذا أقول إن الإسلام لن يقف عثرة فى سبيل المدنية أبداً ولكنه سيهذبها وينقيها وستكون المدنية من أنصاره متى عرفته وعرفها أهله .

يقول أولئك الجامدون (كما يقول بعض أعداء القرآن) إن الزمان قد أقبل على آخره ، وإن الساعة أوشكت أن تقوم ، وإن ما وقع فيه الناس من الفساد وما منى به الدين من الكساد إنما هى أعراض الشيخوخة والهرم فلا فائدة من السعى ، ولا ثمرة للعمل فلا حركة إلا إلى العدم .

ماذا عرفوا من الزمان حتى يعرفوا أنه كاد ينقطع عند نهايته .

إن الذى مضى بيننا وبين مبدأ الإسلام (إلى الهجرة) ألف وثلاثمائة

وعشرون عاما إنما هى يوم وبعض يوم فقط من أيام الله تعالى .

وإن آيات الله فى الكون وإن كانت تدل على أن ما مضى من الخليقة يقدر بالدهور الدهارير تشهد بأن ما بقى لهذا النظام العظيم يقصر عن تقديره كل تقدير .

إن ما بيننا وبين مبدأ الإسلام لا يزيد على عمر ستة وعشرين رجلا ، كل رجل يعيش خمسين سنة ، فهل يعد مثل هذا دهراً طويلا بالنسبة إلى دين عام كدين الإسلام ، إن زمننا هذا لا يكفى لاهتداء الناس كافة بهديه .

ولقد وعد الله بأن يتم نوره وبأن يظهره على الدين كله .

ولابد أن ينتهى أمر العالم على تآخى العلم والدين على سنة القرآن ويأخذ العالمون بمعنى الحديث الذى صح معناه :

« تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله » .

(٢)

أما عبد الرحمن الكواكبى فإنه يرجع أسباب التخلف إلى عوامل كثيرة ويركز على ضعف العلماء .

ترجع أسباب ملازمة الفتور منذ قرون للمسلمين إلى :

١ ــ العقائد التى أقحمت على الإسلام وفى مقدمتها : العقيدة الجبرية ، إن العقيدة الجبرية وفكرة الزهد موجودة فى كافة الديانات والغاية منها أن تكون ملطفة لحدة الشرة المركب فى الطبائع البشرية عند طلب الغايات الدنيوية ، وليكون من ناحية أخرى عاملاً على ترضية نفوس المحرومين .

٢ ــ إهمال الدين : لأن الدين يدعو إلى عدم الذل لغير الله ويدعو إلى تنفيذ ما يأمر به الله وإلى تجنب كل أمر مخالف لأوامر الدين ، إنه يدعو إلى مواجهة من يغتصب حقوق الآخرين أو يسلبهم حريتهم .

٣ ــ بعض ناقصى العلم تطلعوا إلى منزلة العلماء فدعاهم ذلك إلى تأويل القرآن تأويلاً لا يحتمله نظمه الكريم ولا يتفق مع مبادئه العليا ،

ادعو لأنفسهم العلم بأسرار خفية لا يحيط بها غيرهم ، الغاية أن يسحروا عقول العامة ويستميلوا إليهم الضعفاء ويستهووا الجاهلات من النساء ويجتذبوا ذوى الأغراض والأمراض .

٤ ـــ اقتصر علماء المسلمين فى بحثهم ودراساتهم وتعلمهم على العلوم الدينية وعلى قليل من العلوم الرياضية وأهملوا ما عدا ذلك من باقى العلوم الرياضية والطبيعية حتى جهلوها وحتى صارت نسياً منسياً ، وتبعاً لذلك جهلها عامة المسلمين فصاروا من أعدائها لأن الإنسان عدو ما يجهل .

(٣)

أما العلامة (محمد فريد وجدى) فإنه يربط التخلف بفساد الأمراء ، والعلماء معاً :

« لماذا انحط المسلمون وفيهم هذه الأصول التى تصلح لإقامة أكرم مدنية فى العالم وتؤلف أشرف مجتمع « مدنية » .

الجواب أنهم انحرفوا عنها وتنكبوا طريقها بل دابروها كل المدابرة وعادوها جد العداء وعملوا على خلافها .

(أولا) اتخذوا قبور صالحيهم قبلة وقد ورد النص الصريح فى السنة بإنكار إدخال القبور فى المساجد وإيقاد السرج عليها حتى لا يفتتن العامة فيعبدوها .

(ثانيا) صرف المسلمون عن المساواة وقسموا الناس قسمين : رجال الدين ، وأهل الدين ـــ قطعوا الأولين على خدمة المساجد وتعليم الدين وليس فى طبيعة الإسلام ما يسمح بوجودهم .

ونشأ هذا التقسيم فى المسلمين ضد طبيعة الإسلام بمحض إرادة الحاكمين فلم يكن لطائفة رجال دائرة الدين اختصاصات يدافعون عن حدودها ، وكانوا طوال عهدهم ألعوبة فى يد القادة الدنيوية .

(ثالثاً) إن دهماء المسلمين بما تأثروا به من مطالعة الكتب التى وضعها جهلة المؤلفين من أهل البطالة والتعطيل وقر فى نفوسهم أن المكانات

الأخروية تنال بمجرد قراءة بعض الأدعية . وانتشرت هذه الكتب بين المسلمين فصرفتهم عن حقائق الدين وموهت عليهم الأباطيل وصورت لهم العالم الروحانى تصوراً خياليا وجعلت زمامه بأيدى أفراد من المقربين حاكمة بأن من انتمى إليهم فاز بالحور والجنان .

وضاع معنى الثواب والعقاب فى الآخرة واضطرب فى وهمهم ميزان العدل الإلهى فبطلت فيهم حكمة الترغيب وفقدت العبادات والمجاهدات ثمرتها المرجوة .

(رابعاً) أعرض المسلمون عن حق العقل والعلم وراجت فيهم الحكايات الميثولوجية مما جمعه جهلة المؤلفين من أساطير الأولين وخرافاتهم فانحطت قيمة العقل واتسعت دائرة الممكنات حتى شملت المستحيلات واستعدت الأذهان لقبول كل ما يقال ولو كان فيه هدم لأصول الشريعة وأدى ذلك إلى انحطاط المدارك .

(خامساً) الحروب التى وقعت بين أمراء المسلمين (فى القرن الثانى وما يليه) صرفت الأذهان عن نعم الحياة الأرضية ، ولفتتها إلى ما أعد لها فى الحياة الأخروية ، وراجت الكتب الزارية على الدنيا الناعية على أهلها . وأكثر المؤلفون من إيراد الحكايات عن الزهاد والمتصوفة فأشربت نفوس المسلمين الاستكانة والذلة وتوجهت إلى إيثار الزهد والإقلال ، ومثل هذا الزهد القسرى لا يعد فضيلة ، فأكسبت نفوسهم صفات المستخذين من الأمم وتطرفوا فعدوا مظاهر المدنية من فاتنات النفوس وقاطعاتها عن كمالها . فلما ظهرت المدنية الأوربية بما حملت من سحر وإبداع صرحوا بأن لهم الأخرى ولغيرهم الدنيا ، وأصبحت تلك عقيدة بعضهم وفى هذا التصريح ما فيه من إعطاء الدنية والإقرار بالعجز والركون للسلبية .

(سادساً) انقلب نظر المسلمين إلى ضده ، لأنهم لما اعتمدوا فى حياتهم على الأوهام والأمانى ، وعولوا فى تصرفاتهم على الخرافات والأضاليل ذهلوا عن الواقع المحسوس ، ولما احتك بهم الغربيون وحدوهم على غير هدى ، لا بصيرة لهم بدين ولا دنيا فسهل عليهم قيادهم .

(سابعاً) هذا الجمود من المسلمين حيال شريعتهم السمحة اقتضى أن

تضطرهم حياتهم التعاملية إلى انتحال القوانين الأجنبية وقصر الشريعة على النظر فى أمر الزواج والطلاق والميراث .

(٤)

ويرجع الأمير (شكيب أرسلان) أسباب الضعف والتخلف إلى انفصال المسلمين عن مقومات فكرهم وأبرزها الأخلاق .

« إن التجارب من قديم الدهر قد أثبتت أن التربية العلمية لا تنهض بالأمة نهوضاً حقيقياً إلا إذا حصلت فى دائرة لغتها وتاريخها وعقيدتها ومشربها ، إن نهض المسلمون وهم ناهضون لا محالة ، لم تنهض بهم روح أوربية ولا روح شيء خارج عن الإسلام وما ينهض بهم إلا روح القرآن الذى كان مبعث نهضتهم الأولى والذى به حياتهم الأدبية والذى فيه لهم النازع والوازع والمحرك والمسكن والذى بدونه ليس أمامهم إلا أمران : « الفناء والانحلال » وأما التحول عن الإسلام وكلاهما لن ترضى به هذه الأمة التى نزل فى كتابها ﴿ **ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾ .

يعوز المسلمين إرهاف هذا الشعور بتلبية صريح القرآن المستمر بوجوب النهضة والمبادرة إلى اليقظة .

إن أصل داء المسلمين من أنفسهم وإن مبدأ فساد الأخلاق لا سيما أخلاق الأمراء وتدليس العلماء الذين بمواطأتهم للأمراء على شعوبهم ارتفعت كل سيطرة عن هؤلاء وأفلتوا من جميع القيود .

ويجب علينا أن ننصف المسلمين ونذكر لانحطاطهم سبباً ثالثاً أكثر الناس عنه غافلون هو أوربا ، ولم تكن تقدر أوربا على إرهاقهم لولا فساد أخلاقهم فقد استولت على بلدانهم برجالهم وأمنت مصالحها بخيانة الكثيرين منهم عليهم .

أقطعتهم غرر البلاد فضيعوا وعدوا وهم فى أرضهم غرباء

لو كان المسلمون قائمين بواجباتهم من جهة حياتهم الدينية وحياتهم العلمية وحياتهم الاقتصادية لما كانت أوربا نالت منهم منالاً ولكان البحر المتوسط بين الفريقين فاصلا .

الجنس الأوربى لا يشبه جنساً آخر من أجناس البشر ، وإن الاعتداء والتجاوز هما أصل فطرته لا يعيش بدونهما ولا يصده عن التعدى إلا القوة القاهرة .

وقد أراد الله أن يكون الإسلام هو أقرب جيران القارة الأوربية فى آسيا وأفريقيا فجاورها من الشمال من جهة روسيا وجاورها من الوسط من جهة البلقان وجاورها من الغرب من جهة أسبانيا وفرنسا وإيطاليا .

وليس من عادة الله أن يقتل أمة امتلأت إرادتها بأن تحيا ، فالمسلمون مسئولون بالدرجة الأولى عما آلوا إليه .

لن يكون المسلمون إن لم يعتمدوا على قوة مادية تصونهم وتضمن بقاءهم .

لما فسد الأمراء وتواطأ معهم العلماء رفع القرآن من المعنى إلى اللفظ فقط وصار يتلى بدون عمل وإقامة . ومادام القرآن غير معمول به فلن يرجى رقى المسلمين كمسلمين والعلوم العصرية لا تفيد المسلمين إلا إذا اقترنت بتربيتهم الدينية وسارت جنباً إلى جنب مع أوضاعهم وعقائدهم .

قال جوستاف لوبون فى كتابه تعليل الروحية السياسية .

(Psychologia Palicuc)

بأن تهذيب المسلمين بالمعارف العصرية خارجا عن دائرة تقاليدهم وعقائدهم ، يزيدهم انحطاطاً وفساد أخلاق ، ولن تنفعهم هذه العلوم إلا إذا كانت ضمن دائرة عقيدتهم وقوميتهم[1] .

* * *

---

(١) الفتح ١٣٥١ م ٧ .

الفصل العاشر

عروبة مصر وإسلامية الثقافة

على أثر انتهاء الحرب العالمية الأولى بدأ تغيير ضخم فى البلاد العربية والدولة العثمانية ، فقد كان الانتقاض الذى قاده العرب باسم الثورة العربية التى قادها الشريف حسين للانفصال عن الدولة العثمانية قد انتهى إلى تقاسم فرنسا وإنجلترا بالاحتلال للعراق وسوريا ولبنان وفلسطين وإعلان وعد بلفور لإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين تحت الاحتلال البريطانى ، أما مصر فقد كانت تحت الاحتلال البريطانى منذ عام ١٨٨٢ وقد خرجت غداة الهدنة انتفاضة عرفت باسم ثورة ١٩١٩ وكانت ثمرة للنضال الذى قاده الحزب الوطنى بقيادة مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش وعشرات من القادة الذين كانوا مرحلة على طريق حركة اليقظة وحلقة من حلقاتها التى تتابعت .

وكانت الدائرة الصماء التى صنعها الاستعمار قبيل الحرب من خلال حزب الأمة قد أبرزت لطفى السيد وعلى شعرواى وعبد العزيز فهمى ومحمد محمود ، وغيرهم من الأسماء التى لمعت بعد ثورة ١٩١٩ ، والتى تصدرت للحكم والقيادة السياسية والفكرية وفق مخطط واضح مدروس رسمه لطفى السيد من خلال مفاهيم لورد كرومر التى احتوتها تقاريره السنوية من أجل إعداد جيل المتفرنجين المصريين الذين يحكمون فى إطار النفوذ الغربى عامة والاستعمار البريطانى خاصة . وبعد أن صفيت آخر قوى حركة اليقظة التى كانت تتمثل فى الحزب الوطنى ورجاله الذين هاجروا إلى أوربا تحت ضغط الاضطهاد البريطانى — قبل الحرب الأولى — الذى كان يمهد الجو لأعوانه للسيطرة الفكرية والسياسية على

مقدرات مصر .

وكان لطفى السيد قد دعا منذ عام ١٩٠٧ إلى (مصر للمصريين) المنعزلة عن العروبة والعالم الإسلامى والفكر الإسلامى ، ومن ثم فقد تابعت مدرسة التغريب هذا الاتجاه فى قوة على أيدى : طه حسين ومحمود عزمى وسلامة موسى وعبد الله عنان وعلى عبد الرازق ، وكان سعد زغلول هو رائد هذا التيار فى مجال السياسة والتعليم ولطفى السيد فى مجال الصحافة والفكر .

إن الحركة الوطنية التى عرفت باسم ثورة ١٩١٩ قد نبعت من جدران الأزهر ومن أحضان حركة اليقظة العربية الإسلامية ، كما ثورة عرابى أيضاً من نفس المصدر . وأعلن خطباؤها على المنابر فى المساجد والمجتمعات السياسية العامة وفى الصحافة عن هويتها الواضحة فى أنها تجمع بين تحرير البلاد من النفوذ الاستعمارى ودعم الانتماء العربى الإسلامى الواضح المستمد من إسلام الثقافة ، أما حركة التغريب فقد عمدت إلى إفساد هذا الخط وتدميره وإبراز تيار يبغض العروبة والإسلام ويدعو إلى إعلاء المصرية بالفرعونية وعزل مصر عن الأمة العربية أو إثارة الخصومة بالادعاء أنها تمتاز عن البلاد العربية ، واستغلت الكشوف الأثرية التى ظهرت فى هذا السبيل وظهرت مجموعة من الدعاة إلى الهيلوغريفية وبعثت كتاب الموتى ، والحديث عن قبور الفراعنة ووادى الملوك وتوت عنخ آمون .

ولم تكن الدعوة إلى المصرية منذ[1] أن دعا إليها رفاعة رافع الطهطاوى إلا المصرية العربية الإسلامية التى لا تنفصل فى حياتها عن جذورها ومقوماتها عن وحدة : (الوطن — الأمة — الفكر) .

كان الطابع السياسى بعد الحرب العالمية الأولى مختلفاً عن طابع الوطن قبلها ، فقد كان مرتبطاً بحركة اليقظة متحركا من داخل مفاهيمها ، أما بعد

---

(١) لم تكن فكرة القومية والوطنية قبل الحرب العالمية منفصلة عن المفهوم العربى الإسلامى الأصيل وآية ذلك ما كتبه الرافعى عام ١٩٠٩ فى جمع العرب على لغة القرآن وطبع العقيدة الإسلامية بطابع الجنسية العربية والقومية التاريخية ، حيث لم يكن يفصل اليقظة القومية عن المعنى الاجتماعى العام للنظام العربى الإسلامى .

الحرب فقد أخذ يعمل فى دائرة التغريب وفى مجال النفوذ الغربى ومن خلال فكره ومفاهيمه .

ولم تكن أعلى صيحات الوطنيين التى أذاعها سعد إلا منطلقة من داخل مفاهيم القبول بالنفوذ فكراً وبالاستعمار البريطانى سياسة ، وهذا يختلف اختلافاً واضحاً عن صيحات مصطفى كامل ومحمد عبده ومحمد فريد .

ولم تكن مصر وحدها كذلك ولكن الاستعمار والنفوذ الأجنبى حرص على إقصاء هذه القيادات العربية الإسلامية ذات الأصالة المرتبطة باليقظة فى كل أجزاء العالم الإسلامى ، وأقام قيادات جديدة من داخل حركته ، وفكرها وهى نفسها التى أقامها من بعد على النفوذ السياسى والحكم .

— ٢ —

من خلال السنوات العشر التالية للثورة (١٩٢٠ — ١٩٣٠) تقريبا استغلت صيحة التغريب فى اتجاهاتها المختلفة التى ضمت عناصر أهمها : المصريون أمة غربية ، المصريون فراعنة وليسوا عربا ، الاشتراك فى الأصل مع أوربا . كلمات تتفق فى الإنجليزية والفرعونية .

وكانت دعوى أن المصريين يشتركون فى الأصل مع أوربا (كما قال اليوت فى كتابه المصريون القدماء) مبرراً للدعوة إلى مهادنة الاستعمار والقول بأنه ليس بيننا وبين أوربا خصومة مادمنا نحن[1]والأوربيون ننتمى إلى أصل واحد ، يتفق فى المزاج النفسى الذهنى وهذا ما قال به سلامة موسى .

أما توفيق الحكيم فقد عقد مقارنة ظالمة بين المصريين والعرب حشد لها كل ما يمكن أن يجمع من عبارات الازدراء والإنكار والسخرية والاحتقار للعرب ، ورفع فيها شأن الفراعنة إلى الذروة ، ولا شك أن هذه الصورة كانت قد رسمت بدقة بأقلام كتاب الصهيونية العالمية ووضعت فى أسلوب له بريق العلم كمقدمة لضربهم وتقليص نفوذهم وقد خدع بذلك توفيق

---

(١) الرسالة (١ يونيه ١٩٣٣)

كما لم يخدع غيره ممن كذبوا وجود (إبراهيم وإسماعيل) ، وقد ذهب توفيق الحكيم إلى ما ذهب إليه المستشرقون أمثال دوزى ورينان وغيرهم ممن قالوا إن العالم العربى هو مصر والشام والعراق والحجاز ، وإن مساحته ثلاثة ملايين كيلو متر مربع وسكانه ٤٠ مليونا .

واندلعت دعوات فصل المصريين عن العرب والإسلام ، وبرزت جائحة تسمى « التمصير » : تمصير الأدب واللغة والقانون وكل شىء ، وتوسعت دعاوى الفصل فى مجال السياسة بالإقليميات والتجزئة والقوميات الوافدة ، وجرؤ طه حسين إلى القول بفصل الأدب العربى عن العروبة والإسلام (يجب حين نستقبل البحث فى الأدب العربى وتاريخه أن ننسى عواطفنا القومية وكل مشخصاتها وأن ننسى عواطفنا الدينية وما يتصل بها) .

(أريد أن أدرس الأدب العربى كما يدرس صاحب العلم الطبيعى علم الحيوان والنبات) .

(من الذى يكلفنى أن أدرس الأدب لأكون مبشراً للإسلام أو هادما للإلحاد وأنا لا أريد أن أبشر ولا أريد أن أناقش الملحدين) .

(يجب أن يتحرر الأدب العربى من القيود التى تربطه بالعلوم الدينية) .

ونسى طه حسين أن الآداب غير العلوم ، وإن مناهج العلوم الطبيعية لا تصلح للدراسات الأدبية والاجتماعية والنفسية ، وإن الدين غير الإسلام وإن الإسلام ليس دينا فحسب ، وإن الفكر الإسلامى يختلف اختلافا جذريا عن الفكر الغربى فلا يقبل التجزئة بين عناصر الأخلاق والدين والسياسة الاجتماعية والأدب .

وكان الهدف هو قطع التكامل الفكرى بين الأدب والتاريخ وبين الأدب والتراث وإثارة الشبهات حول العلم والدين ، السخرية بالإسلام وانتقاص أعلامه ورجاله .

ثم كانت دعوة على عبد الرازق إلى الفصل بين الدين والسياسة وبين

الإسلام والمجتمع ، والقول بأن الإسلام دين روحانى لا صلة له بالمجتمع وأنه ليس منهج حياة ونظام مجتمع ، وأنه حضارة وفكر .

وكانت الصحافة وكلية الآداب تدبر هذه الشبهات ، وتثير هذه التحديات .

وكانت قضية عروبة مصر وإسلامية الثقافة هى أبرز هذه التحديات .

غير أن حركة اليقظة لم تلبث أن سيطرت وأخذت ترد بقوة على كل شبهة وشارك فى ذلك الأزهر والجمعيات الإسلامية التى تشكلت وفى مقدمتها جمعية الشبان المسلمين والتى حمل لواءها السيد محب الدين الخطيب وكان أحد ركائزها حتى أن بعض المؤرخين يضعه على رأس حركة اليقظة فى هذه الفترة فى مواجهة وجود لطفى السيد على رأس التغريب .

— ٣ —

فى أوائل الثلاثينيات علا صوت عروبة مصر ، وجاء كتاب المصرية يصححون موقفهم .

فالمازنى يقول : إن الثورة المصرية كانت رائعة ولكنها فشلت مع الأسف لأنا أحطنا قوميتنا بمثل سور الصين ، أعتقد أنه من خطل السياسة وضلال الرأى أن تنفرد كل واحدة من الأمم العربية بسعيها غير عابئة بشقيقاتها أو ناظرة إليها ، ويحنقنى ويستفزنى أن أرى أحداً ينظر إلى مصر كأنها من أوربا وليست من الشرق ، وعندى أن الجنسية الشرقية هى أساس حياتنا وتاريخنا وأن هذه النظرة تفسد مزايانا الشرقية ، إن لم تفقدنا إياها ، ولا تكسبنا مزية من مزايا الغرب .

ومحمود عزمى يقول : الرابطة العربية فى نظرى أهم الروابط التى يصح أن نقيم عليها مساعينا فى سبيل التكيف الجديد المتمشى مع حوادث العصر الحديث ، الرابطة الوحيدة التى يجب أن يستند إليها تطورنا المحتوم . الثقافة العالية هى العربية ، الحضارة العالية هى الحضارة الإسلامية التى نأخذ بها فى الحياة اليومية والسلوك الاجتماعى[1] .

---

(١) (الهلال نوفمبر ١٩٣٣) .

وقال : إننى كنت من المتعصبين للقومية المصرية الصريحة إلى أن جاءت حوادث سنة ١٩٢٤ التى ألقيت فيها القنابل على سوريا إذ ذاك انتدبتنى جريدة السياسة لتحقيق الحوادث ، فلما غادرت القاهرة إلى سوريا كانت خطوات الطريق سبباً فى تغيير رأيى ونقل معتقدى من حال إلى حال ، ذلك أننى رأيت فى المدن الفلسطينية والسورية مظاهر جذابة من العطف على مصر والقضية المصرية ، وكان شعور من أراهم من أهل تلك البلاد حرارة شديدة فعلت فى نفسى فعل السحر وغيرت عقيدتى[1] .

— ٤ —

كانت الدعوة إلى عروبة مصر مرتبطة بإسلامية الثقافة :

وكان هناك من يكشف عن حقيقة ظلت مغلوطة وقتاً طويلا هى أن الحركة الوطنية لها رصيد إسلامى عربى . يقول الدكتور مصطفى الحفناوى : (الذى يلاحظ على تاريخ الحركة الوطنية أن الإيمان الوطنى كلما ضيقوا عليه المنافذ فى مدينة السياسة كان يجد متنفسا له فى الحركة الإسلامية لأن الإسلام مبناه العقيدة الطاهرة وهدفه الحرية المقدسة ، وما مبادىء مصطفى كامل إلا قبس من نور الرسالة المحمدية ، والإسلام فى الحقيقة دين ودولة ، ولذلك أسس عبد الحميد سعيد وفريق من المثقفين جمعية الشبان لتكون صرحا يقتل إنجلترا ويمحق الاستعمار فى شتى صوره يوما من الأيام ، وقد نهضت الجمعيات الإسلامية المختلفة الأسماء المتفقة فى أهدافها بهذا الأمر) .

ويقول الدكتور الدرديرى : قامت فى مصر الفكرة القومية أو الدعوة الوطنية منذ نشأتها على أساس صحيح معقول هو تحرير الوطن من كل غاصب مغتال حتى تصبح مرافق الأمة فى يد أبنائها .

والوطنية الصحيحة لا تقوم إلا على الأخلاق الفاضلة وهذه تستمد قوتها من الدين الحنيف . وقد كان من أهم أغراض المستعمرين طمس معالم التاريخ الإسلامى لتعليم النشء فى المدارس ، لتضعف فيهم روح الاعتزاز بالماضى ، ويلقون فى روعهم أنهم عالة على الأمم الأخرى ، ومحاربة الدين

الإسلامى على الخصوص لأنه يبعث فى نفوس النشء الإسلامى الاحتفاظ بالكرامة ومبادىء الحرية والشجاعة وهذا مالا يتفق على سياسة الغاصب المستعمر فى إخضاع الأمم الإسلامية وإذلالها .

فالذين يدعون إلى الوطنية وترك الدين جانباً إنما يدعون إلى قضية محققة الخسران لأنهم يدعون إلى مبادىء لا روح فيها ولا حياة ، إذ كيف يكون حال نشء فى الوطنية وهو خلو من مبادىء الفضيلة ، إن تاريخ مصر الحديث يثبت أن الدين والوطنية وحدة لا تنفصل بل هى بمثابة الروح والجسد فى عالم الحياة ، والإسلام لم يبخس الوطنية حقها ، لقد أعلن دعاة السوء أن المصريين هم فرعونيون غير عرب حتى ينعزل المصريون عن بقية الأمم الإسلامية المجاورة ، وهذا مبدأ لا يتفق مع مصلحة المصريين ولا مع مبادىء الإسلام السليمة .

إن الدعوة إلى القومية المصرية التى ألبسها دعاة التفريق ثوب الفرعونية ليخرجوها عن بقية الأمم الإسلامية إنما أرادوا بها انتحار مصر الأدبى .

وهكذا تحطمت الدعوة إلى الفرعونية وإلى فصل مصر عن العروبة .

وقد أشار إلى هذا المعنى (الفريد كانتول سميث) حين قال : إن الحركات الوطنية والقومية لم تكن مطابقة للإسلام فحسب بل هى جزء لا يتجزأ من فكرة بعث الإسلام . وأنه ليس ثمة تعارض بين الرابطة الإسلامية وبين الروح القومية وإنما التعارض قائم بينها وبين الحقيقة الواقعة .

« وقد احتضن الإسلام فى العصر الحاضر النزعات والحركات القومية التى رآها تتفق ونهجه فى استعادة أمجاده الماضية مادامت متمشية وفق التقاليد الإسلامية » أ .هـ .

ولم يكن الاتجاهان الوطنى ثم القومى إلا اتجاهين طبيعيين متواليين متتاليين فى حلقات ثلاث (وطن ، أمة ، فكر)[1]وكان طبيعياً أن يكون الاتجاه الوطنى المرتبط بالأرض سابقاً للاتجاه القومى المرتبط بالأمة ، وكان لابد أن يكون كل منهما متصلاً بوحدة الفكر الأساسية المستمدة من الإسلام

---

(١) عرضنا هذه الفكرة بتوسع فى كتابنا (العروبة والإسلام) .

غير منفصلة عنه ، فقد قام الاتجاه الوطنى بعد سقوط فكرة الوحدة الإسلامية نتيجة للغزو الاستعمارى الذى فرق العالم الإسلامى إلى أقطار .

— ٥ —

من أبرز الظواهر فى هذه المرحلة وجهة نظر جديدة بين رجال السياسة أدلى بها مكرم عبيد المسيحى عن حزب الوفد ومحمد على علوبه عن حزب الأحرار الدستوريين .

قال مكرم عبيد : « المصريون عرب » نحن معشر المصريين جئنا من آسيا ونحن أدنى إلى العرب منذ القدم من حيث اللون واللغة والخصائص السامية والقومية .

إن تاريخ العربية سلسلة متصلة الحلقات . لا بل هو شبكة محكمة العقد وإذا علمت أن رابطة اللغة والثقافة العربية فى هذه الأقطار هى أوثق منها فى أى قطر من أقطار الأرض ، وإن التسامح الدينى نشأ وترعرع ومازال موجوداً بين أصحاب الأديان كلها فى الجارات الشقيقة أيقنت أن المقصود بقولى : المصريون عرب هو هذه الوشائج وتلك الصلات التى لم تفصمها الحدود الجغرافية ولم تنل منها الإطماع السياسية منالا .

الوحدة العربية لا ريب فى أنها من أعظم الأركان التى يجب أن تقوم عليها النهضة الحديثة فى الشرق العربى . فالشرق العربى فى حاجة إلى الوحدة والتضامن أمام التيار الأوربى الجارف ، وأبناء العروبة فى حاجة إلى أن يؤمنوا بعروبتهم وبما فيها من عناصر قوية استطاعت أن تبنى حضارة زاهرة .

وقال محمد على علوبة : إن علينا أن نسعى سعياً حثيثاً لانتزاع الفكرة الفرعونية من مصر لأنها فكرة عقيم لا يمكن تحقيقها ، ومن المصلحة الأدبية والمادية لمصر أن تهجر عبادة الحجارة الميتة وتستعطف القلوب الحية فى الشرق العربى وهى التى جعلت قبلتها مصر لتنال الزعامة الحقة التى هى جديرة بها .

لا أكتم أننا منحدرون فى منحدر خطر مجهول العواقب بسبب اختلاف

اللهجات بين الأمم الناطقة بالضاد ، وأخشى كثيراً إذا استمرت هذه الحالة أن تؤدى فى النتيجة إلى إيجاد لغات جديدة كما وقع فى اللغات اللاتينية ، وهذا من أقصى مطامع المستعمرين الذين يعملون جهدهم لإفساد لغتنا وتقطيع أوصالها أو الاستعاضة عنها بلغات أجنبية كما هو الحال فى الجزائر .

والأمة العربية لابد أن يكون لها ثقافة خاصة بها وأن تحتفظ بهذه الثقافة كميراث تاريخى خالد ، ونعلق أكبر الآمال على الأزهر الشريف باعتباره أكبر معهد عربى فى العالم الإسلامى .

إن الأمم التى تظلم وتسلب حريتها لابد أن تستعيد هذه الحرية إذا كانت جديرة بها ، فنحن أمة عربية كبرى يجب أن تسعى لاستيفاء الخصائص والمزايا التى تؤهلنا لنيل الحرية والسعادة والاستقلال .

ومن ناحية أخرى ظهرت حملة واضحة على الوطنية المجردة ، يقول الأمير شكيب أرسلان : الدعوة الوطنية المجردة من الدين الإسلامى لا تخلق فى قلب الوطنى أدنى اعتقاد بأنه هو أعلى من الأوربى ، كيف تخلقه وهى مجردة من العقيدة القرآنية ، معتمدة على المادة المحسوسة لاغير . لامراء فى أننا إذا رجعنا إلى المادة المحسوسة وجدنا الأوربى اليوم على وجه الإجمال أعلى بكثير من العلم فلا يكون من نتيجة لتلك الدعوة الوطنية المحررة من الإسلام سوى أن تجرد ذلك الوطنى من عزة النفس الواقرة فى صدره بكونه مسلماً متمسكا بذلك الدين القيم ، وأن تسلبه ذلك الخلق الضرورى فى نهضات الأمم وهو الاعتماد على النفس الكافل تحفزه الدائم للوثوب لفك القيود الاستعمارية التى يرسف بها ، وأن تجعله يعتقد أن الأوربى هو أعلى منه فى كل شيء ، وأن تفكيره فى نفسه أنه هو أشرف من الأوربى .

أضف إلى هذا ، أن المسلم المعتقد بدينه لا يزال موقناً بأنه لابد من يدال له من الأوربى ولو بعد زمن طويل وهو يعيش فى أمل هذه الدولة **﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ﴾** طول حياته ويورث هذا الأمل أولاده ، ويعتقد أن ما عليه من الضعف إنما هو عارض مؤقت ، لابد أن يزول وأنه إنما وقع تمحيصا للمسلمين بذنوبهم وتهاونهم بأوامر الله .

المسلم المعتقد يؤمن بأن الله وعده فى القرآن بأن ينصره ﴿ **وكان حقاً علينا نصر المؤمنين** ﴾ وبأن يجعل كلمته هى العليا إذا عمل بالمبادىء التى أوصاه بها ، فهو لا يقطع أمله عن إمكان العمل بتلك المبادىء ولاشك بأن الله سيصدق وعده .

العقيدة الوطنية لا تمنع هذا الذوبان كما تمنعه العقيدة الإسلامية ، فإن الأولى تمنعه من الوجهة الدنيوية فقط ، أما الثانية فتمنعه من الوجهة الدنيوية والأخروية معاً .

والرابطة الوطنية المجردة من الإسلام معرضة من خطر انحلال الأخلاق التى هى دعائم الأمم مما ليست تعرض له الرابطة الإسلامية .

والعقيدة الوطنية المجردة لا تبعث من الآمال فى حسن المآل معشار ما تبعثه العقيدة الإسلامية .

والعقيدة الوطنية المجردة لا تزرع فى صدور الشرقيين عزة النفس والاعتماد على الله والاعتقاد بالكرامة الشخصية كما تزرعه العقيدة الإسلامية فى صدور المسلمين الذين يقول كتابهم ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** ﴾ .

والعقيدة الوطنية المجردة تفك ما بين المسلمين من عرى الارتباط بما يفقدهم بذلك قوة لا عوض لهم عنها[1] .

— ٦ —

تنوعت وجوه المعارضة للدعوة الفرعونية وشملت جوانب كثيرة وكان أبرزها ما أجمع عليه المفكرون من أن الفرعونية ليست مدنية ، ولما كانت المدنية تشمل اللغة والتشريع والآداب والفنون والآداب القومية ، ولما كانت الفرعونية عارية من كل ذلك فإنها لا تستطيع أن تقوم أمام العروبة .

ومن ناحية أخرى بين أحمد كمال باشا أن الفرعونية موجة من موجات الجزيرة العربية وإن ثلاثة أرباع الكلمات التى كان ينطق بها قدماء المصريين توجد فى لغتنا العربية الحديثة ما يقابلها لفظاً ومعنى .

---

(١) الفتح م ٥ سنة ١٩٣١ .

يقول السيد محب الدين الخطيب : إذن فالقومية العربية ليست أجنبية عن قوم قدماء المصريين وإذا استطاع أى رجل مصرى أن يضمن لنفسه أنه من سلالة قدماء المصريين فإنه مع ذلك لا يزال متصلا بالقومية العربية اتصالا عظيما .

وقد كشف السيد محب الدين الخطيب مؤامرة الاستعمار من وراء هذه الدعوات الإقليمية فهم يقولون للمصريين : أنتم أبناء الفراعين فارجعوا إلى حضارة المصريين القدماء ويقولون لأهل الشام أنتم أحفاد الفينيقيين فتمسكوا بتاريخكم ، وقالوا للفرس يابنى الأكاسرة . لقد فتح العرب بلادكم وأزالوا ملككم وفرضوا عليكم دينهم فارجعوا إلى زردشت وإن لم تعرفوه واقرأوا كتابه وإن لم تفهموه .

وقيل للترك : أنتم ياسلالة جنكيزخان وعبدة الذئب الأغبر ، لقد كانت لكم فى سيبيريا حضارة وفى قروم دولة فارتدوا إلى أصلكم .

— ٧ —

ويصور أنيس صايغ (عروبة مصر وإسلامية الثقافة) فى كتابه الفكرة العربية فى مصر فيقول : « تمسكت مصر بالإسلام وعاشت حياة إسلامية فى تقاليدها وعاداتها وعواطفها أكثر من أى بلد إسلامى آخر ، منذ أن أقبل الإسلام على مصر وأصبح دينها الرسمى والشعبى ، وظل للإسلام سطوته وقوته حتى فى حالات انحلال مصر سياسياً وخضوعها للأجانب وظل الأزهر منارة الشرق ، حتى حينما انحدر مستوى الثقافة وضرب الجهل أطنابه ظلت لعلماء الدين زعامتهم وقدرتهم على تمثيل الشعب حتى حينما بح صوت الشعب ، وفقد حريته وظل الإسلام ضمانة الحقوق والأخلاق حتى حينما انحلت القيم واهتزت التقاليد ، ومما ساعد الإسلام على هذا الصمود فى مصر بوجه خاص هو أن أغلبية الشعب المصرى دانت به منذ أن استسلم الأقباط وأسلم قسم كبير منهم .

وكانت هذه الأغلبية شعبية منذ انتصر الأيوبيون على الفاطميين وحولوا الأزهر إلى مركز للدعوة السنية ، أى أن البيئة التى نشأ منها وطنيو مصر ومفكروها وكتابها وموجهوها السياسيون كانت بيئة إسلامية الدين ،

ولمشاعره وشعائره المقام الأسمى فى النفوس ، فقد كانت الكتب الدينية فى الفقه والشرع والتفسير تفوق فى عددها كتب الأدب والتاريخ العربيين ، وكان الأدب الشعبى إسلامياً فى قصصه وأساطيره ورواياته ومفاهيمه ، وكان لشيوخ الطرق الأولياء أثرهم فى عقول العامة ، وكانت أولى المنظمات دينية وعلى عرارها وبتأثير منها تأسست الأحزاب السياسية ــ والأزهر هو المثال الأكبر على قوة المنهل الإسلامى فى البيئة المصرية خلال الفترة الأولى ، وقد احتكر الأزهر المعرفة وكان صاحب الكلمة العليا فى أمور كثيرة منذ تأسيسه وقام رجاله بدور فعال فى إدارة جهاز الحكم فى السلم ، وفى دعم هذا الجهاز والذود عنه أيام الاضطرابات والحروب ، وقد ساعد الأزهر على أن يكون الإسلام دينا ودنيا وشموله للحياة السياسية والاجتماعية مع اختصاصه بالعلاقات الروحية بين الإنسان وخالقه ، كما ساعده أن معظم رجال الأزهر كانوا من رجال الحياة ومن أصحاب الثروات والممتلكات والأطيان الزراعية .

وهو (أى الأزهر) الذى قاد الثورات ضد الفرنسيين وضد المماليك والعثمانيين ، ولمع بين رجاله عدد من المجاهدين مثل عمر مكرم وعبد الله الشرقاوى ومحمد أبى الأنوار .

وظهر بين الأزهريين مشايخ تبنوا مطالب الشعب مثل البكرى والسادات وبـيرم ، حتى تضايق رجال الاحتلال من سلطة الأزهر على الشعب وعملوا على تحديد صلاحياته .

هذا هو الإطار الإسلامى للفكر المصرى فى القرن الماضى .

والفكر الإسلامى دعم الحركة الوطنية ضد الإنجليز وكان الباعث الأول للجهاد المقدس ، فإن الجهاد كان فى جوهره إسلامياً وليس قومياً وكانت الدعوة لنظام إسلامى ولحكم القرآن ، ولم يكن يقبل بنظام قومى حديث يفصل الدين عن الدولة .

وبدأ الخلاف بين الاتجاهين فى كتابات مصطفى كامل ومحمد فريد ولطفى السيد من جهة وأجوبة على يوسف ورشيد رضا من جهة أخرى .

غير أن النزاع الطائفى الذى احتدم عام ١٩١١ بين المسلمين والأقباط وحد بين دعاة الإسلام ودعاة القومية المصرية الشرقية من المسلمين فى كتلة

واحدة ضد دعاة القومية المصرية الفرعونية .

وفى هذا الموقف دليل على « طغيان » الفكر الإسلامى الذى انتزع القوميين المصريين المسلمين من جانب القوميين المصريين المسيحيين وضمهم إلى جانبه .

فهل يستغرب بعد هذا كله أن يتجه قسم كبير من رجال الفكر والأدب والسياسة فى مصر ورجال التوجيه القومى — اتجاها إسلاميا فيطالبون باتحاد سياسى لجميع شعوب الإسلام يقوم مقام أى وحدة قومية .

كان معظم رجال التوحيد من الأزهر : على مبارك ، الطهطاوى ، محمد عبده ، عرابى ، على يوسف وهكذا قل عن أثر الأزهر فى حياة العشرات :

إبراهيم اللقانى ، إبراهيم الهلباوى ، حفنى ناصف ، فتحى زغلول ، سعد زغلول ، مصطفى المنفلوطى ، أحمد تيمور ، حافظ إبراهيم ، عبد الله فكرى ، قاسم أمين وغيرهم كلهم تشربوا العلم من مناهله الإسلامية .

وقال : إن التيار العربى هو تيار إسلامى أصيل .

وقال : إن منصور فهمى وهيكل ومحمد عزمى طلقوا قوميتهم المصرية المتطرفة وخدموا الفكرة العربية .

— ٨ —

وتصور الدكتورة بنت الشاطىء هذه المرحلة وطابعها العربى الإسلامى[1] من خلال الإجابة على سؤال : من أين استمد الشعب زاد وعيه ونور بصيرته ورى وجدانه ؟

فتقول : « الذى يسجله الواقع التاريخى إن كان هناك دائما ينبوع لم ينضب قط يمد جماهير الشعب الأمى بالرى الدائم ويفيض علماً من منهله الصافى ما يرهف وعيها ويشحذ إرادتها للنضال من أجل الوجود الكريم .

(١) قيم جديدة للأدب العربى ص ٢٩٣ وما بعدها .

كان هناك « القرآن » مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل يتلى فى البيوت والأكواخ والمساجد والزوايا وينفذ إلى أعماق القرى ونائى النجوع منفرداً بالسيطرة الكاملة على الضمير الشعبى الذى لم تنفذ إليه قط من أى سبيل ، دعوات التقدميين ومقالات التطوريين .

وإذا كانت الأمية قد فرضت على عامة الشعب وحيل بينهم وبين قراءة أى كتاب أو مجلة ، فقد بقى لهم كتابهم الدينى ينسخ أميتهم بمدد سخى من الوعى ويمزق عن بصيرتهم حجب الجهل وغشاوة العمى وغطاء الغفلة ويلح على عقولهم وقلوبهم بكلمات الله فى حقوق الإنسان وكرامة الآدميين .

وحين كانت الأمية فاشية والمدارس تتجافى عن القرى والأحياء الشعبية ، ويقيد الدخول إليها بلوائح أميرية ورسوم مالية ، كانت هناك للأميين مدرستهم الكبرى تستقبلهم وهم صبية فى المهد وتسهر على تثقيفهم وهدايتهم طوال مراحل العمر ، لا تصدهم عنها لوائح ونظم ، ولا تحتاج لكى تؤدى رسالتها إليهم إلى مبنى أو طلب التحاق . وصدقت آية الله فينا .

﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ .

وعلى هدى ذلك النور الذى لا يخبو ولا ينطفىء سرى الشعب فى ليله البهيم ، ومن ذلك المورد الصافى نهل ونهل ، وفى هذه المدرسة تلقى الشعب الشمخة الثورية فى هدى ما وعى من كلمات الله تزكيهم وتعلمهم الكتاب والحكمة وتفرض عليهم دينا وعقيدة أن يرفضوا العبودية إلا الله وحده ، وأن يقاوموا البغى والظلم والباطل وأن يغيروا ما بأنفسهم .

وكانت هناك مجالس الذكر ومحافل الموالد وسهرات رمضان فى مضايف القرى ، حيث كان الشعب الأمى يصغى مبهوراً إلى السيرة النبوية بما حفلت به من مواقف البطولة فى الجهاد ضد الوثنية وبغى الطبقية .

وفى السيرة النبوية وغيرها من قصص الأنبياء وسير الصحابة والأئمة والقديسين والرهبان والشهداء كان الشعب يتلقى التدريب النفسى ليخوض

معركة ضد الباطل بسلاح الإيمان .

إن جمهرة الشعب فى هذه المرحلة كانت تنظر بعين الارتياب إلى كل من يفكرون غربا ، وربما أساءت بهم الظن فحسبتهم دعاة (فرنجة) تمسخ شخصية الأمة وتنكر ملامحها الأصيلة . ولم يكن الأمر بحاجة إلى اضطهاد السلطات الرجعية للتيار التقدمى أو ائتمارها بالمجلة العصرية[1] والمجلة الجديدة فالشعب نفسه قد صد عنهما وقضى عليهما بالاحتجاب إذ اختلطت عنده دعوة سلامة موسى وتلاميذه إلى هجر الماضى والأخذ بالبلاغة العصرية العامية بالمكيدة الاستعمارية ضد العربية لسان قومية الأمة ولغة كتاب دينها ، كما اختلطت فى فهمه دعوة التقدميين والتطوريين بشبهة الإلحاد .

وعذره فى هذا أنه لم يكن يدرى عن مذهب التطور إلا إنكار الخالق سبحانه ، وأن فكرته عن المذهب الشيوعى لم تكن تتجاوز ما ذاع وشاع من جحده للدين (أفيون الشعوب) !

والمرحلة كانت تقتضى الاستبسال فى النضال عن شخصية الأمة عقيدة ولسانا ضد عوامل التذويب والتغريب ، وتحتاج إلى تعبئة كل طاقاتها الروحية للجهاد والمقاومة ، فلا عجب أن وئدت الدعوات الوافدة وتوقف التيار التقدمى تاركاً المجال كله للتيار الدينى الذى كانت له السيطرة الكاملة على الوجدان الشعبى .

ويجهل تاريخنا من يظن أن هذا الشعب فى جمهرته العامة ، بقى جامد الضمير مخدر الحواس قيد الأغلال ، حتى جاء دعاة التطور وأنصار التقدم فعلموه كيف ينفعل وحركوه للثورة .

ويجهل شخصية هذه الأمة من يتصور أنها اطمأنت إلى شىء من البضاعة الفكرية المجلوبة أو انفعلت بها وهى تتأهب للاقتحام العنيد لكل العوائق التى تحول دون وجودها الحر .

كلا لم يستورد الشعب زاد وعيه من الخارج ، وإنما هو سره الخالد

---

(١) المجلة العصرية هى مجلة العصور (إسماعيل مظهر) والمجلة الجديدة (سلامة موسى)

تلقاه جيلاً عن جيل أمانة صعبة وميراثاً مفروضاً .

فالشعب الذى هزم الصليبيين وقهر التتار ودوخ الجبابرة ولفظ الغزاة من كل جنس وملة ، لم يكن بحاجة إلى من ينقل إليه مقالا فى التطور يستيقظ به وعيه أو يستورد له شعلة ثورية من وراء السور الحديدى تشعل نخوته وتشحذ همته ، وفيه تراثه العريق تلقاه جيل عرابى عن قاهرى الصليبيين والتتار ، ثم تركه أمانة للجيل الذى حمل لواء ثورة ١٩١٩ .

فلا يقل قائل أن دعاة التقدم هزوا فى الأمة ضميراً خامداً وحواس معطلة ووجداناً أصم ، فلقد قامت بينهم وبين الضمير الشعبى سدود وأسوار[١] .

* * *

إن المؤلفات الإسلامية كان لها الحظ الأوفر فى انتقاء القراء ، والمكان فى مكتبة المرحلة لم تنافسها فيه كتب ألفت فى أى مجال آخر للثقافة أو الأدب ، ذلك لأن جمهرة المتعلمين من أبناء الشعب كانت تطلب زادها الثقافى فى المؤلفات التى تستجيب لما فى فطرتها من تدين وتلائم مناخها الفكرى وهذا هو ما يفسر لنا ظاهرة التحول الأدبى لعدد كبير من كبار كتابنا بدأوا بما حسبوه طريفاً من موائد الثقافة الغربية قديمة أو حديثة بل إن منهم من حمل لواء الدعوة إلى ترويج الأدب اللاتينى أو اليونانى أو الفرنسى أو السكسونى ثم ما لبثوا أن تحولوا إلى الموضوعات الإسلامية يؤلفون فيها ويعتمدون عليها فى كسب شهرتهم على المستوى الشعبى وعلى مستوى العالم الإسلامى الرحيب .

ومن قبل بدأت الظاهرة نفسها فى إسلاميات شوقى وعمرية حافظ والرصيد الضخم من الشعر الإسلامى لشعراء الجيل .

وتاريخنا يسجل أن الأزهر قد كان لمدى عشرة قرون مركز الثقل فى حياتنا السياسية والفكرية .

---

(١) هذا رد على ادعاء متجدد عن أن الغربيين هم الذين أحدثوا اليقظة .

فالأزهر يظل دائماً — كالعهد به المدى قرون ذات عدد — صورة الثقافة الإسلامية حسب ما يتطلبه كل عصر : دافعه أو معوقه ، حية أو جامدة ، وكما كان الأزهر مجال جهود المصلحين الذين أرادوا إصلاح حياة الأمة الإسلامية بالدين ، كان فى الوقت نفسه مشغلة الحكام ممن أرادوا تجميد الفكر الدينى وتعطيل حيويته وذلك بحكم الاتصال الحتمى بين السياسة والدين ، وكلية الآداب كانت بوجه خاص ميدانا لصراع مرير عنيف بين الشخصية المصرية والغزو الفكرى والاستعمار الثقافى مما يجعلها جديرة بأن تكون مرصداً حساساً نطل منه على الأفق لنفهم طبيعة المرحلة .

فبقدر ما عزلت الظروف والأهواء (الأزهر) عن حياة العصر وحاولت أن توصد أبوابه ونوافذه فى وجه العلم الحديث والفكر المعاصر ، فتحت أبواب كلية الآداب الغزاة الثقافيين ومكنت لهم فى مراكز النفوذ فيها والتوجيه .

بقدر ما حطت الرجعية بكل ثقلها على الأزهر لتعويقه عن أداء رسالته الكبرى فى إصلاح الحياة بالدين حط الاستعمار ثقله على كلية الآداب بالجامعة المصرية لأنها الكلية التى تختص بدراسة شخصية الأمة فى تاريخها وفلسفتها وحضارتها وطبيعة إقليمها وآثارها ، وأدبها القديم والحديث ، وما تلقت وتتلقى من روافد حضارية وفكرية . شرقية أو غربية عريقة أو محدثة .

ولم نكن نحن طلاب المرحلة صما وعميانا فيفوتنا وعى ما احتدم هناك من صراع كانت عقولنا و قلوبنا وضمائرنا ميداناً له .

* * *

خاتمة

إيماءات إلى مصادر الخطر

من خلال هذه المرحلة (مرحلة ما بين الحربين) وهى فى تقدير الباحثين من أخطر مراحل التاريخ العربى الإسلامى المعاصر : تبدو إيماءات كثيرة إلى أخطار وآثار لم تكن قد تكشفت بعد ، وهى تبدو اليوم بالمراجعة وإعادة النظر كأنما كانت تضع الخطوط العامة لأعمال بعيدة الأثر عميقة الخطر ومن خلال هذه الإيماءات يبدو بعض المخططات الصهيونية الماكرة ، وتتكشف ملامح الأيديولوجية التلمودية التى كانت تنطلق فى هذه المرحلة برفق وأناة من خلال كلمات وعبارات ودعوات ، يتلقاها بعض الباحثين من رجال أقزام وفدوا إلى مصر أساتذة بكلية الآداب فى الجامعة المصرية القديمة ، أو استقبلوا وافدينا هناك فى جامعات أوربا .

وقد تأثر بهؤلاء صفوة الذين تصدروا فى مجال الفكر والأدب والبحث : من أمثال طه حسين وزكى مبارك ومنصور فهمى ومحمود عزمى وهيكل ومصطفى عبد الرازق ، كما تأثر بها كثيرون آخرون من أمثال سلامة موسى وأمين الخولى وعلى عبد الرازق ومحمد عبد الله عنان .

فى مقدمة هؤلاء الأساتذة الموجهين دوركايم أستاذ طه حسين والمشرف على رسالته عن ابن خلدون ومحمود عزمى وأستاذه فى علم الاجتماع وكذلك ليفى بريل أستاذ منصور فهمى وزكى مبارك . والأستاذان من عمالقة الصهيونية وحملة ألوية فكرها ودعاتها فى ذلك الوقت وما تزال آثارها بعيدة المدى فى مخططات الفكر الغربى .

هذا فضلاً عن تأثر مثقفينا فى هذه المرحلة بعدد من المستشرقين الذين قدموا إلى الجامعة المصرية القديمة وتابعوا عملهم فى البعثات التى سافرت من بعد إلى أوربا .

وفى مقدمة هؤلاء جويدى ، ليتمان ، ونلينو، سانتلانا وميلونى وماسينون وتبدو هذه الإيماءات فى مواقف كثيرة منها :

(أولا) كان سانتلانا يصحب طه حسين (بعد أن ترك الأزهر والتحق بالجامعة المصرية القديمة عام ١٩٠٨) إلى الأزهر ويحضر معه دروساً فى التفسير ، وقد حضر معه ذات مرة درساً ألقاه الشيخ سليم البشرى .

وكان يفسر آية : ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله (سورة الأنعام الآية ١١١) يقول مؤلف كتاب (هدية إلى طه حسين فى عيده الستين) فاعترض تفسير الشيخ قائلا : هذه جبرية مطلقة .

فقال الشيخ : من أين تعلمت هذا الكفر ، أمن أساتذتك الإفرنج ، فحثه (سانتلانا) على السكوت .

ويروى الدكتور طه حسين هذه القصة بصورة أخرى فى كتابه (مذكرات طه حسين) :

« ولم ينس الفتى موعداً ضربه لأستاذه سانتلانا ذات صباح ليحضر معه درساً من دروس الأزهر ، وذهب مع الفتى إلى درس الشيخ الأكبر سليم البشرى رحمه الله وكان يلقى درسه فى التفسير مع الصباح بالرواق العباسى وجلس الأستاذ والتلميذ بين الطلاب وأخذ الشيخ يفسر الآية ... إلخ .

وفسر الشيخ رحمه الله فأحسن التفسير وخاض فى حديث الجبر والاختيار ويأبى الفتى إلا اللجاج فنهره الشيخ بهذه الكلمات :

ــ ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، الله أكبر على العلم والإيمان ، حضرتك مسلم .

ويهم الفتى أن يجيب . ولكم الشيخ ينهره فى سخرية غاضبة : اسكت ياشيخ جاتك الكلاب خلينا نقرأ .. وإذا أستاذه الإيطالى يمس كتفه مساً متصلا وهو يقول له هامسا بعربيته الفرنسية العذبة : اسكت اسكت : ليضربك[1] .

(ثانيا) تكشف تجربة محمود عزمى عن ضوء فى هذا الصدد : فقد قال أستاذه : إذا ذكرت الاقتصاد فلا تذكر الشريعة وإذا تذكرت الشريعة فلا تذكر الاقتصاد .

يقول : كان يدرس الاقتصاد السياسى بالسنة الأولى فى مدرسة الحقوق وكان يتعلم فيما يدرس أن (الربا) أصل كل نمو اقتصادى لأن الفائدة التى تعود على صاحب المال هى وحدها التى تدعوه إلى أن يقرض ماله اشتراكا منه فى الجماعات المالية الكبرى التى تخرج المشروعات المنتجة ، وكان يرى أن هذا القول فى علم الاقتصاد تؤيده دلائل الواقع كلها .

ولكنه كان لا يستطيع أن ينسى أن « الله » قد أحل البيع وحرم الربا .

وكان لا يستطيع أن يوفق بين الأمرين فقصد يوما إلى ناظر المدرسة — وكان إذ ذاك هو الأستاذ الفرنسى « لامبير » وأفضى إليه بما يشغله : فقال له : « حين تدرس الاقتصاد السياسى لا تفكر فى الشريعة الإسلامية وحين تدرس الشريعة الإسلامية لا تفكر فى الاقتصاد السياسى » .

ويشير محمود عزمى إلى أنه قصد إلى السربون : وحضر محاضرات الأستاذ « دوركايم » ويقول « خلد الله ذكره » ويقول إنه نتيجة لمحاضراته : استساغ أسلوبه وطريق تفكيره ، وكان من نتيجة انطباع هذه الطرائق التى لم يذكر خلال شرحها وتقديمها (اسم الله) إلا نادراً واسم (الدين) إلا محترما مبجلا على اعتبار أنه حادث (عمرانى) له قدره التاريخى[2] .

وهكذا كانت الطلائع تمضى من وراء مخططات التلمودية الصهيونية .

ولا عجب بعد هذا أن نرى محمود عزمى يدعو إلى المتوسطية ويحضر المؤتمر الصهيونى فى بازل ويكتب عنه فى الصحف وهكذا .

---

(١) ص ٥٨ مذكرات طه حسين .
(٢) لماذا آمنت بالعلم وحده : المجلة الجديدة ديسمبر سنة ١٩٢٩ .

(ثالثاً) : يبدو هذا الاتجاه واضحاً فى أطروحات الدكتوراه فقد كانت أولى هذه الأطروحات عن الغزالى والمأمون : أما الغزالى فقد تناوله الدكتور زكى مبارك فهاجمه هجوماً عنيفاً أما المأمون فقد أغضى مؤلفه عن الدور الخطير الذى قام به فى ترجمة الإلهيات اليونانية واحتضانه لنظرية خلق القرآن .

وقد كانت قسوة زكى مبارك فى الهجوم على الغزالى مساوية لقسوة طه حسين فى الهجوم على ابن خلدون وخاصة فى المقارنة بينه وبين مونتسيكو فقد وصف تعبيرات ابن خلدون بالسذاجة والطفولة وتعبيرات مونتسيكو بالدقة والعمق والحمد لله أن عاش الدكتور طه حتى رأى آراءه وهى موضع ازدراء الباحثين وقد دحضت جميعا فى مختلف المجالات ومزقت إربا ، أما بالنسبة لابن خلدون فقد كشف عن دخائل شخصية الباحث الذى أراد أن يجامل أستاذه دوركايم فى هجومه على ابن خلدون فسبقه فى ذلك سبقاً عجيبا ، وكانت سخرية القدر أن مات دوركايم قبل أن يناقش الرسالة فى باريس ويكرم طه حسين على احتقاره لابن خلدون .

أما الدكتور زكى مبارك فما لبث أن غير رأيه فى الغزالى وكتب مقاله المعروف « إليك أعتذر أيها الغزالى » .

(رابعاً) : من هذه الإيماءات : أقامة حفل تكريم لارنست ريان فى الجامعة المصرية بمناسبة مرور مائة سنة على وفاته وقيام مصطفى عبد الرازق على أمر التكريم والتقدير لهذا المستشرق الذى هاجم الإسلام والعرب ووصفهم بأقسى الألفاظ .

(خامساً) : إنكار الدكتور طه حسين قصة إبراهيم وإسماعيل والشك فى ذهاب إبراهيم إلى الجزيرة العربية وهى متابعة صريحة لأفكار الصهيونية العالمية ودعواها .

(سادساً) : تكريم أبو نواس وإصدار الهلال لعدد خاص عنه تحدث فيه الكتاب عن هذا الشاعر الماجن فضلا عن الدراسات المتعددة التى صدرت عنه بأقلام كبار الكتاب من بعد أمثال المازنى والعقاد وطه حسين .

(سابعاً) : تحول الدكتور طه حسين من تدريس التاريخ اليونانى القديم إلى تدريس الأدب العربى وحشد آراء الاستشراق فى اللغة والإسلام والتاريخ من خلال كتاباته فى الأدب الجاهلى وحديث الأربعاء وهامش السيرة .

(ثامناً) : إعلاء شأن الهلينية ، وقيام أحمد لطفى السيد على مترجمات أرسطو التى ترجمت باسمه ولم يكن له فيها أى مساهمة حقيقية وإقرار الدكتور طه لدراسة اللغتين اليونانية والرومانية فى كلية الآداب وترجمة الآداب والفلسفات والمسرحيات اليونانية فى محاولة للقول بأن دراسة الأدب الغربى الحديث لا تتم إلا بدراسة الأدب الهلينى ، والانتقال من ذلك خطوة أخرى إلى القول بأنه إذا كان المسلمون قد احتضنوا الفلسفة اليونانية فى القديم فلا تثريب عليهم من احتضان هذا الفكر الغربى الحديث لأنه وليد الفلسفة اليونانية . وقد هاجم هذه النظرية التى سجلها كتاب (مستقبل الثقافة) كثير من رجال حركة اليقظة .

(تاسعاً) : من مراجعة إنتاج هذه المرحلة يتجلى الاهتمام : بما يسمى دور اليهود فى الجزيرة العربية . وأشراف الدكتور طه على رسالة اليهودى هو إسرائيل ولفنسون فى هذا الصدد تجرى فيها محاولة للقول بأن المسلمين تلقوا من اليهود فكرهم الإسلامى ، ومن هذه المحاولات الاهتمام بكتابات ماكس نوردو خليفة هرتزل وكتابات (العقاد والمازنى وإسماعيل مظهر) عنه بإفاضة .

(عاشراً) : الاهتمام بالدعوة البهائية والكتابة عنها فصولا مطولة فى المجلات والصحف المصرية : الهلال والمقتطف والمجلة الجديدة ومجلة العصور .

(حادى عشر) : ما صدر عن توفيق الحكيم من آراء ظالمة عن العرب فى المقارنة التى أجراها بينهم وبين الفراعنة . فى خطابات مفتوحة تبادلها مع الدكتور طه على صفحات الرسالة .

(ثانى عشر) : ما أشار إليه الدكتور زكى مبارك من أن أول كأس خمر شربها إنما قدمتها له زوجة أستاذه المشرف على رسالته (النثر الفنى)

بعد أن أحرز الدكتوراه وفى حفل تكريمه وقد أشار مبارك فى كتابه (ليلى المريضة فى العراق) إلى أثر هذه الكأس فى هذا الخطر الذى لحق به من بعد وكان له أبعد الأثر فى حياته .

(ثالث عشر) : يتصل بهذا ما ذكره الدكتور شبلى شميل فى حديث له مع الشيخ رشيد رضا حيث قال له إن السر فى تحوله إلى المذهب المادى إنما كان نتيجة كلمة قالها له أحد المستشرقين فى أوربا ، أثارت فى صدره شبهة حولت حياته هذا التحول وجعلته عدواً للأديان وخاصة دينه الذى ولد عليه .

(رابع عشر) : أن تجربة الدكتور محمد مندور تمثل بوضوح أخطر إيماءات الغزو الثقافى الغربى : يقول : فى أول عهدى بباريس كنت أتناول الغذاء على مائدة سيدة عجوز مع نفر من الشبان والشيوخ الفرنسيين وبعض الأجانب وكان بين الفرنسيين رجل جاوز الخمسين يعمل وكيلا للمحافظة ، وأكبر ظنى أنه ينحدر من أسرة كبيرة من الأسر المحافظة ، ولقد علمت أنه ابتلى الحياة وابتلى بهجومها الفعال فتحملها فى بطولة ، ولقد خرج من نشأته وملابسات حياته بفلسفة قوية تقوم على مبادىء الأخلاق الصارمة كما تقوم على الاعتداء بكرامة الإنسان وقدرته على توجيه الحياة وإخضاعها لإرادته .

مع هذا الرجل تعلق حديثى أحد الأيام ورأيته يبسط مبادىء فلسفته التى ذكرتها فى حرارة المؤمن فدهشت ، وأخبرته بأن مبادىء الأخلاق التى يتحدث عنها ما هى إلا « ظواهر اجتماعية » تملى على الأفراد ، دون أن يكون لهم دخل فى بنائها أو فضل فى الإيمان بها ، كما أخبرته أن إرادة الإنسان الحرة التى يعتز بها ، ليست إلا وهما لأن الفرد لا يملك لنفسه شيئا ، إنما هو مسير بغرائز وقوى دفينة .

وما أن سمع الرجل منى هذا الهراء حتى انتفض كالأسد ويستند بمرفقه الأيسر على المائدة ليلتفت إلى متحدثا فى غضب ، غضب الاستعلاء ، وسألنى :

— من أى بلد أتيت يابنى !

قلت : من مصر

قال : وماذا يصنع أبوك فى مصر .

قلت : يزرع الأرض .

قال : أوصيك مخلصاً أن تعود إلى بلدك لتحرث الأرض مع أبيك ، هذا أجدى عليك وعلى وطنك مما تتعلمه أو تظن أنك تتعلمه هنا من هراء .

فتماسكت مهموما وقلت :

ولكن ياسيدى هى الآراء التى سمعتها من اساتذة السربون فى علم النفس وعلم الاجتماع .

فأجابنى : ومن أنبأك أن هؤلاء الأساتذة يفهمون شيئا عن حقائق الإنسان . أتظن أن حقائقنا البشرية من اليسر بحيث تصاغ نظريات ، أو يكشف عنها التفكير المجرد ، ثم من قال أن التفكير الفرنسى يمثله ذلك النفر من اليهود الذين يزعمون أنهم اكتشفوا قوانين الإنسان ، عندما زعم كبيرهم (دوركايم) ومن خلفه : ليفى بريل ؛ وموسى وفوكونيه ومن تبعهم من أن الإنسان حكمه حكم المادة ، وإن هناك ما يسميه هؤلاء الحمقى وعيا اجتماعيا تتمخض عنه الحياة العامة كما يتمخض الناتج الكيماوى عن مزيج من العناصر .

إحذر يابنى أن تؤمن بما يقولون ، فليس صحيحا أن الرجل المهذب لا يستطيع أن يصل إلى قيادة شخصيته يهتدى بها إلى مواضع الخير والشر والبطولة والخسة بنفسه ، كما تهتدى الطيور إلى أوكارها ، وليس صحيحا أن قواعد الأخلاق ليست إلا ظواهر اجتماعية لا نستطيع فى علاجها شيئا . وكل ما يجب علينا هو أن نرصدها كما يفعلون لنستخرج منها قوانين عامة . هذا يابنى وهم ، بل خداع مبطلين .

من قال إن الإنسان مادة فحسب ، وهذه أنه كان مادة وأن الروح لم يكن لها وجود ، وأنها تفنى بفناء المادة كما تنعدم النغمات ويتحطم الناى ، أليس من الخير بل من الواجب على الإنسانية أن ترفض علما كهذا لن ينتهى إلا بتحطيم حياتنا وشل إرادتنا وتعويض دعائم الهيئة الاجتماعية التى نحيا بينها[1] .

---

(١) من نص نشره الدكتور مندور فى الرسالة ١٩٤٤/٩/٢٥ .

(خامس عشر) : أخطر الإيماءات هى تقدير الاستشراق وتكريم المستشرقين على النحو الذى نراه واضحاً فى مختلف كتابات طه حسين وغيره بحيث تحس أنه لا علم إلا علم هؤلاء الناس وأن مفاهيم الأدب العربى والفكر الإسلامى والتاريخ واللغة والحضارة بل والشريعة الإسلامية ليس لها إلا مصدر واحد هو كتابات المستشرقين .

(سادس عشر) : سانتلانا هذا الذى كان يحرض الدكتور طه على أن يذهب إلى علماء الأزهر ليحمل الحقد لهم ويرده إليهم بعد عودته من أوربا ، الصاع صاعين ، هو وضع قاعدة سارت عليها كلية الآداب كأنما هى حقيقة لا تقبل النقض هى أن الفلسفة الإسلامية هى فلسفة يونانية ، أما ليفى بريل اليهودى الذى حرض منصور فهمى على كتابة رسالته فى الدكتوراه عن التقاليد الإسلامية فحمل حملة ضارية على زواج الرسول ﷺ وتعدد زوجاته وكان لرسالته أسوأ صدى فى دوائر الفكر الإسلامى ، وقد اعتذر منصور فهمى من بعد عن خطئه فى الاعتماد على أستاذ يهودى دفعه إلى أن يهاجم نبيه ورسوله .

* * *

هذه هى الإيماءات الخطيرة التى نستطيع أن نلتمس منها هذه الأضواء الكاشفة فى هذه الفترة ، فقد كانت بروتوكولات صهيون قد صدرت فى أوربا منذ ١٩٠٢ تقريباً ، وظلت محجوبة عن العرب والمسلمين إلى ما بعد منتصف هذا القرن وكانت تحمل كل هذه الدعوات والمحاولات ، وكانت فكرة الالتقاء بين الشباب المثقف وبين المستشرقين سواء فى جامعاتهم أو فى بعثاتهم هى مفتاح الطريق إلى هذا الخطر الذى نرى ملامحه واضحة فى طه حسين ومندور وزكى مبارك ومحمود عزمى وكثيرين .

وهناك ضوء كاشف يمكن القول معه أن الصهيونية لها آثارها فى الأدب العربى فى هذه الفترة من وراء عشرات الدعوات والكلمات .

وهناك ضوء كاشف عن سيطرة الأفكار المادية ودعوات الفردية وآراء دوركايم وليفى بريل على الأدب العربى والفكر الإسلامى .

وهناك دعوة حارة إلى ترجمة الهلينية وترجمة الأدب المكشوف الأوربى والفرنسى خاصة .

وهناك إعلاء لشأن أبو نواس وبشار وهدم للغزالى والمتنبى وهكذا .

هذا فضلاً أن طابع اليهودية التلمودية واضح منذ ذلك الوقت الباكر فى قضية سيدنا إبراهيم ومسألة اليهود وأثرهم فى جزيرة العرب والمقارنة بين العربية والعبرية .

وهناك الولاء للثقافة الفرنسية وهناك تكريم الاستشراق وهناك التقليل من خطر التبشير كما رأينا فى كتابات طه حسين وعلى عبد الرازق .

وهناك أثر معاهد الإرساليات واضحة وأبرز صورها صيحة عبد القادر الحسينى عام ١٩٣٣ فى صحن أحد بعض معاهد الإرسليات الجامعة فى القاهرة .

وهناك استغلال بعض خريجى الأزهر فى حمل لواء دعوات هدامة مثل حمل طه حسين فكرة فصم العلاقة بين الأدب والفكر الإسلامى ومثل حمل على عبد الرازق فكرة فصل الدين عن المجتمع والدولة .

* * *

تلك إيماءات سريعة وإرهاصات خاطفة تكشف عنها الآثار المكتوبة فى هذه المرحلة : مرحلة اليقظة فى مواجهة التغريب .

وسنرى فى المرحلة التالية إلى أى حد يصل أثر هذه الإيماءات .

* * *



فهرس الكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٧٧٣/ ١٩٩١

الترقيم الدولى X -٠١٣- ٢١١ -٩٧٧

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى ــ ١١٢٣١